إحياء علوم الدين

للإمام الغزالى

مع مقدمة فى التصوف الإسلامى ودراسة تحليلية لشخصية الغزالى
وفلسفته فى الإحياء

بقلم

الدكتور بدوى طبانة
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الرابع

مكتبة ومطبعة "كرياطه فوترا" سماراغ

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كتاب التوبة ﴾

(وهو الأوّل من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب . وبذكره يصدّر كل خطاب . وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب . وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب . وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ونتوب إليه توبة من يوقن أنه ربّ الأرباب ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التوّاب . ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب . إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب . وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

أما بعد : فان التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأوّل إقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب الآدمى واجترم ، فهى شنشنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والاثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سنّ الندم ، وتندم على ماسبق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين . فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان . والمتجرد للشر شيطان ، والتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج فى طينة الانسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيتان ، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الانسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الامكان ، فانّ الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين

نار

[الباب التاسع والأربعون فى استقبال النهار والأدب فيه والعمل]

قال الله تعالى ـ وأقم الصلاة طرفى النهار ـ أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين أراد به الفجر وأمر بصلاة الفجر واختلفوا فى الطرف الآخر قال قوم أراد به المغرب وقال آخرون صلاة العشاء وقال قوم صلاة الفجر والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل صلاة العشاء ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها وقال ـ إن الحسنات يذهبن

نار الندم أو نار جهنم ، فالاحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الانسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : الركن الأول فى نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفى جميع الأحوال وأنها إذا صحت كانت مقبولة . الركن الثانى : فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التى بها تعظم الصغائر . الركن الثالث : فى بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك مامضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة . الركن الرابع : فى السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج فى حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل . الركن الأول : فى نفس التوبة .

(بيان حقيقة التوبة وحدها)

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم الأول والحال الثانى والفعل الثالث والأول موجب للثانى والثانى موجب للثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت . أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر وأما بالماضى فبتلافى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب فى قلبه وتنبعث تلك النيران بارادته للانتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال والتلافى للماضى ثلاثة معان مرتبة فى الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا مايطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة [1] » إذ لايخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه أعنى ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فان هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار فى القلب تلتهب وصدع

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

السيئات ـ أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ، وروى أن أبا اليسر كعب ابن عمرو الأنصارى كان يبيع التمر فأتت امرأة تبتاع تمرا فقال لها إن هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فهل لك فيه رغبة قالت نعم فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم ثم أتى النبى عليه السلام وقال يارسول الله ماتقول فى رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شىء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبه غير أنه لم يجامعها قال عمر بن الخطاب

فى الكبد لاينشعب وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التسترى التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقاويل فى حدود التوبة لاتنحصر وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ماقيل فى حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

(بيان وجوب التوبة وفضلها)

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار [(١)] والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الايمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة .. فالسالك إما أعمى لايستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه ، وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام .. فمن قاصر لايقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه فيفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق فى قلبه نور القرآن ونور الايمان وهو لشدة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان فكأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لايحتاج إلى نص منقول فى كل واقعة . فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهى ثم إلى الوجوب مامعناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك فى ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشىء وتركه لم يكن لو صفه بكونه واجبا معنى. وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا وعاجلا فى فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لاسعادة فى دار البقاء إلا فى لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشقى لامحالة محول بينه وبين مايشتهى محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لامبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفانى والا كباب على حب مالا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لامقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره والمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التى هى إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك فى أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق البعد وما لم يتوجع فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك فى أن المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الايمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ففى التقليد والاتباع له

---

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة مسلم من حديث الأغر المزنى ياأيها الناس توبوا الى الله الحديث ولا بن ماجه من حديث جابر ياأيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف .

فقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيئا وقال أنتظر أمر ربى وحضرت صلاة العصر وصلى النبى عليه الصلاة والسلام العصر . فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية فقال النبى عليه الصلاة والسلام : أين أبو اليسر فقال هاأنذا يارسول الله قال شهدت معنا هذه الصلاة قال نعم قال اذهب فانها كفارة لما عملت فقال عمر يارسول الله هذا له خاصة أولنا عامة ، فقال بل للناس عامة فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع

مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى ـ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ـ وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى ـ ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ـ الآية ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ـ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ـ وقال عليه السلام « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لاذنب له (١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أوماشاء الله قال أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته (٢) » وفى بعض الألفاظ قال من شدة فرحه إذا أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبدى . ويروى عن الحسن قال لما تاب الله عزوجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا ياآدم قرت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام ياجبريل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى فأوحى الله إليه ياآدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب ياآدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب والأخبار والآثار فى ذلك لاتحصى والاجماع منعقد من الأمة على وجوبها إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل فى وجوب الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولاخلاف فى وجوبها ومن معانيها ترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الأحوال وذلك لايشك فى وجوبه وأما التندم على ماسبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلافى فكيف لايكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لامحالة عقيب حقيقة المعرفة بمافات من العمر وضاع فى سخط الله . فان قلت تألم القلب أمر ضرورى لايدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب. فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لابمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه فى نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ـ والله خلقكم وماتعملون ـ هذا هو الحق عند ذوى الأبصار وماسوى هذا ضلال . فان قلت أفليس للعبد اختيار فى الفعل والترك قلنا نعم وذلك لايناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضا من خلق الله والعبد مضطر

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لاذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثانى دون الأول وأما الشطر الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف إن الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبى يعلى بسند ضعيف من حديث على إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب (٢) حديث لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم فى حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصرا .

الفجر ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا فى أول الليل ثم يؤذن إن لم يكن أجاب المؤذن ثم يصلى ركعتى الفجر يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة قل ياأيها الكافرون وفى الثانية قل هو الله أحد وإن أراد قرأ فى الأولى ـ قـولوا آمنا بالله وما أنزل ـ الآية فى سورة البقـرة وفى الأخرى ـ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ـ ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد وإن اقتصر على كلة أستغفر الله لذنبى سبحان الله بحمد ربى آتى بالمقصود من

فى الاختيار الذى له فان الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام فى المعدة وخلق العلم فى القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الخواطر المتعارضة فى أن هذا الطعام هل فيه مضرّة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزام الارادة بعد تردّد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزام الارادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزام الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى فى خلقه ـ ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا فى النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما فى الحال أو فى المآل ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والميل الطبيعى أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدا تستردف الحركة وهكذا الترتيب فى كل فعل والكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فلذلك يجب تقدّم البعض وتأخر البعض كما لا يخلق الارادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لا لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لا لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعدّ المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لا لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة إلا جسم حى عالم ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن وللامكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى ـ إنا كل شىء خلقناه بقدر ـ وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى ـ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ـ وأما العباد فانهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه ميله يسمى الادراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا ياأيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى وماقتلت إذ قتلت ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وعند هذا تتحير عقول القاعدين فى بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل إنه جبر محض ومن قائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب

وأنه

التسبيح والاستغفار. ثم يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلقنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل سوء اللهم أعطنى إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء

وأنه تعالى ـ عالم الغيب والشهادة لايظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ـ وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل فى حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه . فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ، فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذى نقدر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذى لمس الرجل إن الفيل ماهو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها وقال الذى لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لاخشونة فيه وليس فى غلظ الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود وقال الذى لمس الأذن لعمرى هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال ماهو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وأن الندم داخل فى الوجوب لكونه واقعا فى جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله .

(بيان أن وجوب التوبة على الفور)

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور والتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لاتتعلق بعمل بل هى من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان وهو المراد بقوله عليه السلام « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن [1] » وما أراد به نفى الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لاينفيه الزنا والمعاصى وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما إذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك فان العالم بالسم لايتناوله أصلا فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نقى البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالإيمان كالانسان

والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء اللهم إنى أنزل بك حاجتى وان قصر رأيى وضعف عملى وافتقرت إلى رحمتك وأسألك ياقاضى الأمور وياشافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأنا راغب إليك فيه وأسألك إياه يارب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهديين غير

(١) حديث لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبى هريرة .

وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كانسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلفت عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها فكذلك من ليس له إلا أصل الايمان وهو مقصر فى الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان فى مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ولم تنتشر فى الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لاما يسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصى المطيع إنى مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار : وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار . وهذا أمر يظهر عند الخاتمة وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة التى لا يثبت عليها إلا الأقلون فالعاصى إذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار فالمعاصى للايمان كالمأكولات المضرة للأبدان فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك العاصى فاذا كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية فتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فان المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التى فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفى فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته إذ ليس لمدته آخر ألبتة فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى ـ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون .وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون .وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ـ ولا يغرنك لفظ الايمان فنقول المراد بالآية الكافر إذ بين لك أن الايمان بضع وسبعون بابا وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن فالمحجوب عن الايمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الايمان الذى هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هى حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التى هى أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شىء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الأصل وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة

ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك وسلما لأوليائك نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء منى ومنك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ماتريد سبحان من تعطف بالعز وقال به سبحان من لبس المجد

التابع وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فان هى لم تعمل عملها الذى تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزاد فى عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار فى كتاب العلم .

(بيان أن وجوب التوبة عام فى الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة)

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى ـ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ـ فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ولا يتصوّر ذلك إلا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدّان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة. وإذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ثم يلوح العقل الذى هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدى أعدائه شيئا فشيئا على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال ـ لأحتنكنّ ذرّيته إلا قليلا ـ وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات وردّ الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ولا معنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان إلى طريق الله تعالى وليس فى الوجود آدمى إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التى هى عدّة الشيطان متقدّمة على غريزته التى هى عدة الملائكة فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا فى حق كل إنسان نبيا كان أو غبيا فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل :

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه مالم تتبدل السنة الالهية التى لا مطمع فى تبديلها فاذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الاسلام فانه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئا مالم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنع والاطلاق والانفكاك والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا .

وأما بيان وجوبها على الدوام وفى كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد فى القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا فى بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص وإنما يتفاوتون

وتكرم به سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى الجود والكرم سبحان الذى أحصى كل شئ بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى اللهم زدنى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا. ولهذا الدعاء أثر كثير ومارأيت

فى القادير فأما الأصل فلابدّ منه ، ولهذا قال عليه السلام «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرّة (١)» الحديث ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ـ ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وماتأخر ـ وإذاكان هذا حاله فكيف حال غيره . فان قلت لايخفى أن مايطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص وأن الكمال فى الخلوّ عنه وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لافرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة فى كلّ حال والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة إذ إدراك الكمال غير واجب فى الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة فى كل حال. فاعلم أنه قد سبق أن الانسان لايخلو فى مبدإ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك مامضى وكلّ شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس فى وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى ـ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ـ فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وأفسده وصار لايقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولايكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل بل لابدّ من محو تلك الأريان التى انطبعت فى القلب كما لايكفى فى ظهور الصور فى المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسوّدة لوجهها فى المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الاشارة بقوله عليه السّلام «أتبع السيئة الحسنة تمحها (٢)» فاذن لايستغنى العبد فى حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضادّ آثارها آثار تلك السيئات . هذا فى قلب حصل أوّلا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة فأما التصقيل الأوّل ففيه يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل فى إزالة الصدإ عن المرآة كشغله فى عمل أصل المرآة فهذه أشغال طويلة لاتنقطع أصلا وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك إن هذا لايسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال . فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما مايدخل فى فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حقّ تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم يؤدّى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية فانه مهما فسدت المعايش لم يتفرّغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثانى هو الذى لابد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة فى الوصول إليه كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوع أى لمن يريدها فانه لايتوصل إليها إلا بها، فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال العين والأذن واليد والرجل شرط فى وجود الانسان يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا

أحدا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والمحافظة عليه منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ثم يقصد المسجد للصلاة فى الجماعة ويقول عند خروجه من منزله : ـ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ـ ويقول فى الطريق : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء

(١) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة مسلم من حديث الأغر المزنى إلا أنه قال فى اليوم مائة مرة وكذا عند أبى داود وللبخارى من حديث أبى هريرة إنى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة وفى رواية البيهقى فى الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم فى الأذكار والدعوات (٢) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذى من حديث أبى ذر بزيادة فى أوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم فى رياضة النفس .

ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا فى الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لايوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى بها تتهيأ الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا فى منامه فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذى حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم فى الدنيا فلم لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم ، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لايسمى واجبا فى فتاوى العامة . أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذى كان عليه علم فى صلاته حتى نزعه (١) وشغله شراك نعله الذى جدده حتى أعاد الشراك الخلق (٢) لم يعلم أن ذلك ليس واجبا فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده فاذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا فى قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به ، أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه فى حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ماعلم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب فى فتوى الفقه إخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك إلا لسر وقر فى صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن خطر طريق الآخرة لايعرفه إلا الصديقون فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادى روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى فى كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ،ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت مامضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل مامضى من جهله وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لاخلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد وأى جوهر أنفس من هذا فاذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكا فاحشا ، فان كنت لاتبكى على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لايعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع الناس عن التدارك . قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة وإنك لاتستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها

ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفرلى ذنوبى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت. وروى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضى صلاته » وإذا دخل المسجد أو دخل سجادته للصلاة يقول: بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى

(١) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الثوب الذى كان عليه فى الصلاة تقدم فى الصلاة أيضا (٢) حديث نزعه الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق تقدم فى الصلاة أيضا .

ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا وهو أول مايظهر من معانى قوله تعالى ـ وحيل بينهم وبين مايشتهون ـ وإليه الاشارة بقوله تعالى ـ من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ـ فقيل الأجل القريب الذى يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد ياملك الموت أخرنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب وأتزود صالحا لنفسى فيقول فنيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه فى شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال فاذا زهقت نفسه فان كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا يقال ـ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ـ وقوله ـ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ـ ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه يابنى لاتؤخر التوبة فان الموت يأتى بغتة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو . الثانى أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، ولذلك ورد فى الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسويف [١] » فما هلك من هلك إلا بالتسويف فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام : أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدى قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقانى . والثانى عند خروج روحه يقول عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب وإليه الاشارة بقوله تعالى ـ أوفوا بعهدى أوف بعهدكم ـ وبقوله تعالى ـ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ـ .

(بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لامحالة)

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك فى أن كل توبة صحيحة فهى مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما فى الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وأنه لاطاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لايقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لايقبله الله تعالى لأن يكون فى جواره ، وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله

أبواب رحمتك ويقدم رجله اليمنى فى الدخول واليسرى فى الخروج من المسجد أو السجادة فسجادة الصوفى بمنزلة البيت والمسجد ثم يصلى صلاة الصبح فى جماعة فاذا سلم يقول : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لاإله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لاإله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ويقرأ هو الله الذى

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسويف لم أجد له أصلا .

بالصابون

بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فبذول قدسبق بهالقضاء الأزلى الذى لامرد له وهو المسمى فلاحا فى قوله ـ قد أفلح من زكاها ـ ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لايتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق بهإلاأسماؤه وقلبهفىغطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى بهقلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لايعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولاتقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لايزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لايزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لايرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لاينظف الثوب أصلامالميغيرصفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف المتمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لايشهد له الكتاب والسنة لايوثق به وقد قال تعالى ـ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفوعن السيئات ـ وقال تعالى ـ غافر الذنب وقابل التوب ـ إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل إلى النهار ولمسىء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها (١) » . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم (٢) » وقال أيضا « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يارسول الله قال يكون نصب عينه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة (٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لاذنب له » .

لا إله إلا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما إلى آخرها فاذا فرغ منها يقول : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه أداء وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ماهو أهله واجزه عنا أفضل ماجازيت نبيا عن أمته وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم صل على محمد فى الأولين وصل على محمد فى الآخرين وصل على محمد إلى يوم الدين اللهم صل على روح

(١) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل إلى النهار الحديث مسلم من حديث أبى موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار الحديث ، وفى رواية للطبرانى لمسىء الليل أن يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبى هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم (٣) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك فى الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة إن العبد ليذنب الذنب فاذا ذكره أحزنه فاذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المرى ، وهو رجل صالح لكنه مضعف فى الحديث ولابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلى (٤) حديث كفارة الذنب الندامة أحمد والطبرانى وهق فى الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك اليشكرى ضعيف .

ويروى « أن حبشيا قال يارسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال نعم فولى ثم رجع فقال يارسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه[1] » ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لاحجبت عنه التوبة مادام الروح فيه[2] وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ [3] » والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى ـ إنه كان للأوابين غفورا ـ في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب . ويروى أن نبيا من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لئن عدت لأعذبنك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصمني لأعودن فعصمه الله تعالى وقال بعضهم إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليتني لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان فقال له إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس . وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى ـ إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ـ فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغني أن توبة المسلم كاسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام لاأحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين. وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا إلى التوابين فانهم أرق أفئدة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال إذا تاب علي وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة أي للمغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت إلينا قبلناك . وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير

(١) حديث أن حبشيا قال يارسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم الحديث لم أجد له أصلا (٢) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفرلهم مااستغفروني أورده المصنف بصيغة ويروى كذا ولم يعزه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرته احتياطا (٣) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذي وتقدم قريبا .

محمد في الأرواح وصل على جسد محمد في الأجساد واجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام اللهم إني أصبحت لاأستطيع دفع ماأكره ولا أملك نفع ماأرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتهنا بعملي فلا فقير أفقر مني اللهم لاتشمت بي

جنون وتبلدوا من غير عيّ ولا بكم وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم فى العلا حتى أناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لامحالة . فان قلت أفتقول ماقالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله . فأقول لاأعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا مايريده القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس فى شئ من ذلك مايريده المعتزلة بالايجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلا للعطش والقدرة متسعة لخلافه لوسبقت به المشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ماسبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لامحالة . فان قلت فما من تائب إلا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لايشك فى زوال عطشه فلم يشك فيه . فأقول شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذى يشك فى دواء شربه للاسهال فى أنه هل يسهل وذلك لشكه فى حصول شروط الاسهال فى الدواء باعتبار الحال والوقت و كيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك فى قبولها لامحالة على ماسيأتى فى شروطها إن شاء الله تعالى .

(الركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها)

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولايمكن ترك الشئ إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لايتوصل إليها إلا به واجبا فمعرفة الذنوب إذن واجبة والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى فى ترك أوفعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامه والله الموفق للصواب برحمته

(بيان أقسام الذنوب بالاضافة إلى صفات العبد)

اعلم أن للانسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ماعرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لأن طينة الانسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الأخلاط فى المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران فى السكنجبين آثارا مختلفة . فأما مايقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدّوها ذنوبا وهى المهلكات العظيمة التى هى كالأمهات لأكثر المعاصى كما استقصيناه فى ربع المهلكات . الثانية هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى

عدوى ولاتسئ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا تسلط علىّ من لايرحمنى اللهم هذا خلق جديد فافتحه علىّ بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها وماعملت فيه من سيئة فاغفرلى إنك غفور رحيم ودود رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم وخير مافيه وأعوذ بك من شره وشر مافيه وأعوذ بك من شر

البدع والضلال . الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم إذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع والمكر والحيلة وهى الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهى الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فانه واضح . قسمة ثانية : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير فاما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالاغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب فى المعاصى وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء فى الخبر «الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذى يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذى لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذى لا يترك فمظالم العباد [1]» أى لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها : قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة وهذا ضعيف إذ قال تعالى ـ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلا كريما ـ وقال تعالى ـ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ـ وقال ﷺ «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر [2]» وفى لفظ آخر «كفارات لما بينهن إلا الكبائر» وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس [3]» واختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر هن سبع وقال عبد الله بن عمرو هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ـ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ـ فكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكى

طوارق الليل والنهار ومن بغتات الأمور وفجاءة الأقدار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقا يطرق منك بخير يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما وأعوذ بك أن أزل أو أزل أو أضل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك وعظمت نعماؤك أعوذ بك من شر ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها أعوذ بك من حسد الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتعاطى الكلفة اللهم إنى أعوذ من

---

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر الحديث أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسى الدقيقى ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبرانى (٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر مسلم من حديث أبى هريرة (٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس رواه البخارى.

الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار (١) وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة في القلب وهي الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره

(١) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس والسحر وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى . وسأذكر ما ورد منها مرفوعا وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وماهي؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني حليلة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس إنما هي أربع لاتشركوا بالله شيئا ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعوني على أن لاتشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو وأعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبزار من حديث ابن عباس باسناد حسن أن رجلا قال يارسول الله ما الكبائر؟ قال الشرك بالله والإياس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع الفحل وفيه صالح بن حيان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أولهن الإشراك بالله وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حثمة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث واثلة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل علي مالم أقل وله أيضا من حديثه إن من أكبر الكبائر أن ينتفي الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه ﷺ مر على قبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لايستتر من بوله الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها سكت عليه أبو داود واستغربه البخاري والترمذي وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع إصرار وفيه أبو شيبة الخراساني

مباهاة المكثرين والإزراء على المقلين وأن أنصر ظالما أو أخذل مظلوما وأن أقول في العلم بغير علم أو أعمل في الدين بغير يقين أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وابن عبديك وعلى عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي

وأربع فى اللسان ، وهى شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك . وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار . والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث فى البطن وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم . واثنتان فى الفرج وهما الزنا واللواط . واثنتان فى اليدين وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة فى جميع الجسد وهو عقوق الوالدين . قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما وإن يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما هذا ماقاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهى جناية على الأموال ، ولم يذكر فى كبائر النفوس إلا القتل فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لاشك فى أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفى الخبر من الكبائر « السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم [1] وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر [2] . وقالت طائفة : كل عمد كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر فى السرقة أهى كبيرة أم لا لايصح مالم يفهم معنى

والحديث منكر يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشراك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم . وروى ابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الإصرار وإسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لايصح إسناده كما تقدم وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ماورد فى المرفوع وماورد فى الموقوف وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هى إلى السبعين أقرب وروى البيهقى أيضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة ، والله أعلم (١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم عزاه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لأحمد وأبى داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة فى عرض المسلم بغير حق كما تقدم (٢) حديث أبى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبزار بسند صحيح وقال من الموبقات بدل الكبائر ورواه البخارى من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد .

إنه لايغفر الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا . اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وماسكن فيهما لله الواحد القهار . أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان

الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ، لامطمع فى تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده فى السرقة ، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ومامن ذنب إلاوهو كبير بالاضافة إلى مادونه وصغير بالاضافة إلى مافوقه فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالاضافة إلى النظرة صغيرة بالاضافة إلى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة إلى ضربه صغيرة بالاضافة إلى قتله ، نعم للانسان أن يطلق على ماتوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونعنى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ماأوجب الحدّ عليه مصيرا إلى أن ماعجل عليه فى الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ماورد فى نص الكتاب النهى عنه فيقول تخصيصه بالذكر فى القرآن يدل على عظمه ثم يكون عظيما وكبيرة لامحالة بالاضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات لاحرج فيها ومانقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولايبعد تنزيلها على شئ من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ــ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ــ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر» فان هذا إثبات حكم الكبائر والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع إلى مايعلم استعظامه إياها وإلى مايعلم أنها معدودة فى الصغائر وإلى مايشك فيه فلايدرى حكمه فالطمع فى معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لايمكن فان ذلك لايمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إنى أردت بالكبائر عشرا أوخمسا ويفصلها ، فان لم يرد هذا بل ورد فى بعض الألفاظ «ثلاث من الكبائر [1]» وفى بعضها «سبع من الكبائر [2]» . ثم ورد «أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر» وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع فى عدد مالم يعده الشرع وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس فى طلبها ، نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظنّ والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلاسبيل إلى معرفته . وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه وأنه لاوصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله وإليه الإشارة بقوله تعالى ــ وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ــ أى ليكونوا عبيدا لى ولايكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء ولكن لايتم هذا إلا فى الحياة الدنيا ، وهو المعنىّ بقوله عليه الصلاة والسلام «الدنيا مزرعة الآخرة [3]» فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة إليه

للثان بديع السموات والأرض ذو الجلال والاكرام أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ياحى ياقيوم ياحى حين لاحى فى ديمومة ملكه وبقائه ياحى محى الموتى ياحى مميت الأحياء ووارث الأرض والسماء ، اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لاإله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولانوم اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم الذى إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت يانور النور يامدبر الأمور

---

(١) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا الحديث وقد تقدم (٢) حديث سبع من الكبائر طب فى الأوسط من حديث أبى سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله فى الكبير من حديث عبدالله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات (٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذه اللفظ مرفوعا وروى العقيلى فى الضعفاء وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضعيف .

والمعلق من الدنيا بالآخرة شيئان النفوس والأموال فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسد باب حياة النفوس ويليه ما يسد باب المعايش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب ، فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : الأولى ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ويتلو الجهل الذي يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فإن هذا أيضا عين الجهل فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع . المرتبة الثانية : النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا في أصل شرع قصد به الاصلاح وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل وينبغي أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته . المرتبة الثالثة : الأموال فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق : أحدها الخفية ، وهي السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك . الثاني أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعني به في حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلا وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس

إعالم ما في الصدور ياسميع ياقريب يامجيب الدعاء يالطيفا لما يشاء يارءوف يارحيم ياكبير ياعظيم ياألله يارحمن ياذا الجلال والاكرام الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم وعنت الوجوه للحي القيوم ياإلهي وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت اللهم إني أسألك باسمك ياألله الله الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وسعت كل شيء رحمة وعلما كهيعص حم عسق الرحمن ياواحد ياقهار

وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها . وأما أكل الربا فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع فى مثله وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع فى مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا فى الدين فيبقى مما ذكره أبو طالب المكى القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة بل لا خير فى النفس دون العقل فازالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجرى فى قطرة من الخمر فلا شك فى أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها فى محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس فى قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فان ثبت إجماع فى أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فللتوقف فيه مجال. وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال فى الرتبة ولتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالاضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الإعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذى نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته فان لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا فى مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة فى رتبة الحاجات فاذن هذا أيضا يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر. وأما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره. وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شىء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بغصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك فى السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف فى هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر . فاذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعنى بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغى أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفى والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال . فان قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده . فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الابهام لأن دار التكليف هى دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها فى الدنيا من حيث إنها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة والابهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر

يا عزيز يا جبار يا أحد يا صمد يا ودود يا غفور وهو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين اللهم إنى أعوذ باسمك المكنون المخزون المنزل السلام المطهر الطاهر القدوس المقدس يا دهر يا ديهور يا ديهار يا أبد يا أزل يا من لم يزل ولا يزال ولا يزول هو ياهو لا إله إلا هو يا من لاهو إلا هو يا من لا يعلم ما هو إلا هو يا كان يا كينان يا روح يا كائن قبل كل كون يا كائن بعد كل كون يا مكونا

فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ـ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ـ ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس فان مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه فهذا معنى تكفيره فان كان عنينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لايصلح للتكفير أصلا وكل من يشتهى الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لايكفر عنه الصغائر التى هى من مقدماته كسماع الملاهى والأوتار، نعم من يشتهى الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها فى السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفات: فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة [1] » قيل ماترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لامحالة مبهما . فان قلت الشهادة لاتقبل إلا ممن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطا فى قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا . فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف فى أن من يسمع الملاهى ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب فى أوانى الذهب والفضة لاتقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعى رضى الله عنه إذا شرب الحنفى النبيذ حددته ولم أرد شهادته فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفيا وإثباتا لاتدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدح فى العدالة إلا ما لا يخلو الانسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب فى بعض الأقوال وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع مايحتاجون إليه من أمر الدين فهذه ذنوب لايتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسماع الملاهى واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فالى مثل هذا المنهاج ينبغى أن ينظر فى قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر.

(بيان كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا)

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأعنى بالدنيا حالتك قبل

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة الحديث الحاكم من حديث أبى هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد .

لكل كون أهيا شراهيا أدوناى أصبؤت بإجلى عظائم الأمور ـ فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ـ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ـ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع وقلب لايخشع ودعاء لا يسمع اللهم إنى أعوذ بك من فتنة الدجال وعذاب القبر

الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة فانا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت ولايتصوّر شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلابضرب الأمثال ولذلك قال تعالى ـ وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلاالعالمون ـ وهذا لأنّ عالم الملك نوم بالاضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا [١] » وماسيكون فى اليقظة لايتبين لك فى النوم إلابضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير فكذلك ماسيكون فى يقظة الآخرة لايتبين فى نوم الدنيا إلا فى كثرة الأمثال وأعنى بكثرة الأمثال ماتعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن فى يدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال إنك مؤذن تؤذن فى رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنى أصبّ الزيت فى الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فان أمك سبيت فى صغرك لأنّ الزيتون اصل الزيت فهو يردّ إلى الأصل فنظر فاذا جاريته كانت أمه وقد سبيت فى صغره وقال له آخر رأيت كأنى أقلد الدرّ فى أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوّله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال وإنما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فانه لم يختم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذى يراد الختم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلابضرب الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم فى النوم والنائم لا يكشف له عن شىء إلا بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أنّ المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن [٢] » وهو من المثال الذى لايعقله إلاالعالمون فأما الجاهل فلايجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلا كما يسمى تفسير مايرى من الأمثلة فى النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعا ، تعالى الله عن قوله علوّا كبيرا . وكذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم «إنّ الله خلق آدم على صورته [٣] » فانه لايفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك، تعالى الله عن قوله علوّا كبيرا . ومن ههنا زلّ من زلّ فى صفات إلهيـة حتى فى الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد الأحمق ويكذب [٤] » ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول ياسبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال ـ ومايعقلها إلاالعالمون ـ ولايدرى المسكين أن من قال رأيت فى منامى أنه جىء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد وذبح فقال المعبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولايعود قط لأن

ومن فتنة المحيا والممات اللهم إنى أعوذ بك من شر ماعلمت وشر مالم أعلم وأعوذ بك من شر سمعى وبصرى ولسانى وقلبى اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والمسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسائر الأسقام ، اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك ، اللهم إنى أسألك الصلاة على

(١) حديث الناس نيام فاذاماتوا انتبهوا لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى على بن أبى طالب (٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم (٣) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٤) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من حديث أبى سعيد .

المذبوح وقع اليأس منه فان المعبر صادق فى تصديقه وهو صادق فى رؤيته وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذى يطلع الأرواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس فى الدنيا وهى بالاضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعانى إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعانى فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقليب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذى نضربه معناه لا صورته . فنقول : الناس فى الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة فى هذا المعنى أصلا ألبته فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس . فنقول الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين . ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ويخلى بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له فى أصل الدولة ولا يعذب إلا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلى إلا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم فى المعاندة وتعذيب المعذبين فى الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس فى الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل فى دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحلون فى جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار (١) كما ورد فى الخبر وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصى فلنذكر كيفية توزعها عليها : الرتبة الأولى وهى رتبة الهالكين . ونعنى بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى إذ الذى قتله الملك فى المثال الذى ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معانى المثال وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه فان السعادة الأخروية فى القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التى يعبر عنها

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

محمد وعلى آله وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل وأسألك ما سألك عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث

بالإيمان والتصديق والجاحدون هم المنكرون والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لامحالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين مايشتهيه لامحالة فهو لامحالة يكون محترقا نارجهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنامن نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفواكه فقد لايشتهيها وأما النار فقد لايتقيها إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فان نار الفراق نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ونار جهنم لاشغل لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام تستحقر مع ألم الفؤاد ولذلك قيل :

وفى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا فقد رؤى من غلب عليه الوجد فعدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لايحس به لفرط غلبة مافى قلبه وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال فتصيبه جراحات وهو لايشعر بها فى الحال لأن الغضب نار فى القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار [1] » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرق بين جزءين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن فى الأجسام فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لايدرك من لاقلب له شدة هذا الألم ويستحقره بالاضافة إلى ألم الجسم فالصبى لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو فى الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لايناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب وكما لايكون الذوق إلا فى اللسان والسمع إلا فى الآذان فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب ، فمن لاقلب له ليس له هذا الحس كمن لاسمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى — إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب — فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذى هو من عالم الأمر وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وسائر الأعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه — قل الروح من أمر ربى — هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادى روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين

(١) حديث الغضب قطعة من النار الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه وقد تقدم .

لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله يانور السموات والأرض ياجمال السموات والأرض ياعماد السموات والأرض يابديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام ياصريخ المستصرخين ياغوث المستغيثين يامنتهى رغبة الراغبين والفرج عن المكروبين والمروح عن المغمومين ومجيب دعوة المضطرين وكاشف السوء وأرحم الراحمين وإله العالمين منزول بك كل حاجة ياأرحم الراحمين اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى

الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين فى طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم وهى حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاتدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها . الرتبة الثانية : رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الايمان ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه فان رأس الايمان هو التوحيد وهو أن لايعبد إلا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه فهوموحد بلسانه لابالحقيقة بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى ـ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ـ وهو أن تذر بالكلية غيرالله، ومعنى قوله تعالى ـ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ ولما كان الصراط المستقيم الذى لايكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف فى الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير إذ لايخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل وذلك قادح فى كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضى لامحالة نقصانا فى درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثانى كثرة اتباع الهوى وقلته وإذ لايخلو بشر فى غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى ـ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ـ ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا فى النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان[1] قال الحسن ياليتنى كنت ذلك الرجل . واعلم أن فى الأخبار مايدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأن الاختلاف بالشدة لانهاية لأعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها . أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرته فبكثرتها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الايمان وهو المعنى بقوله تعالى ـ وما ربك بظلام للعبيد ـ وبقوله تعالى ـ اليوم تجزى كل نفس

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان أحمد وأبو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

وأقلنى عثراتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن أغتال من تحتى ، اللهم إنى ضعيف فقو فى رضاك ضعفى وخذ إلى الخير بناصيتى واجعل الاسلام منتهى رضاى ، اللهم إنى ضعيف فقونى اللهم إنى ذليل فأعزنى، اللهم إنى فقير فأغننى برحمتك ياأرحم الراحمين، اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى وتعلم مافى نفسى فاغفرلى ذنوبى، اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم

بما كسبت ـ وبقوله تعالى ـ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ـ وبقوله تعالى ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ـ إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتى غضبى [1] » وقال تعالى ـ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ـ فإذن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار . فنقول : كل من أحكم أصل الايمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض : أعنى الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة فى الحساب فقط فانه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد فى الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه ، فينبغى أن يكون بعد ظهور الرجحان فى الميزان وبعد الفراغ من الحساب فى عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله فى جنات عدن أوفى الفردوس الأعلى فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان تقليدى كإيمان العوام يصدقون بما يسمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كشفى يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ماهو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس فى الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الأعلى وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين فى المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى فى الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين وهم أيضا على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها : أعنى الأركان الخمسة التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ أصلا وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة لا سيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فان التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة فى الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين ،

(١) حديث سبقت رحمتى غضبى مسلم من حديث أبى هريرة .

أنه لن يصيبنى إلا ما كتب لى والرضا بما قسمت لى ياذا الجلال والاكرام اللهم ياهادى المضلين ويا راحم المذنبين ومقيل عثرة العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أنت الوكيل

فنى الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف [١] » فلاتظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فان هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوى عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار فان لم يفهم من المثل إلا المثل فى الوزن والثقل فلاتكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان والجمل فى الكفة الأخرى عشر عشيره بل هو موازنة معانى الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فان الجمل لايقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لايدرك صدقه إلا الجوهريون فان روح الجوهرية لاتدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبى بل القروى والبدوى ويقول ماهذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب فى قوله إنى أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبى ولكن لاسبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة فى السموات [٢] » كما ورد فى الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبى تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوى وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلى بالبليد الأبله فى تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل [٣] » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل [٤] » فلاتظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذى ينزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر [٥] » فاذن لاتخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب

وإليك المصير يامن لايشغله شأن عن شأن ولا يشغله سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الأصوات ويا من لاتغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويامن لايتبرم بإلحاح الملحين أذقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم إنى أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعملا متقبلا أسألك من خير ماتعلم وأعوذ بك من شر ماتعلم وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إنى أسألك إيمانا لايرتد ونعيما لاينفد وقرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد وأسألك حبك

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث كون الجنة فى السموات خ من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال الحديث ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحترى، واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبرانى من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر البخارى من حديث ابن مسعود .

من الايذاء وأنواع البلاء بالاخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون المتاض عن الجل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين للضيمن. فاذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على مايدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجلين لأن الحمار يشاركك فى الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهى عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه فإدراك مايخرج عن عالم الحواس الخمس لايصادف إلا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها فلاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله إذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسى الله أنساه الله لامحالة نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى وخان فى الأمانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعرضا لنقمته إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة فان البهيمة تتخلص بالموت. وأما هذا فعنده أمانة سترجع لامحالة إلى مودعها فاليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الفانى وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى ـ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ـ فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أوأكثر ولايخرج من النار إلا موحد. ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لاإله إلا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلاينفع إلا فى عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدى الغانمين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة فحيث لاتبقى رقبة ولامال لاينفع القول باللسان وإنما ينفع الصدق فى التوحيد وكمال التوحيد أن لايرى الأمور كلها إلا من الله. وعلامته أن لايغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه إذ لايرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال. ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة، فمن فى قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار. وفى الخبر يقال «أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان[1]» وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود وأكثر مايدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذى لايترك فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها فى الأثر إن العبد ليوقف بين يدى الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لوسلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لاتبقى له حسنة، فتقول

(١) حديث أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم.

وحب من أحبك وحب عمل يقرب إلى حبك. اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على خلقك أحيني ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى ماكانت الوفاة خيرا لى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وكلمة العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وأعوذبك من ضراء مضرة وفتنة مضلة. اللهم اقسم لى من خشيتك ماتحول به بينى وبين معصيتك ومن طاعتك مايدخلنى جنتك ومن اليقين ماتهون به علينا مصائب الدنيا. اللهم ارزقنا حزن خوف

الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لا أفعل ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها فكيف أمحوها وقال هو وغيره ذنوب إخوانى من حسناتى أريد أن أزين بها صحيفتى فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة لهما أسباب خفية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التى لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فان الاعتماد على التقوى والتقوى فى القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى ــ وما ربك بظلام للعبيد ــ ولا قوله تعالى ــ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ــ وكل ذلك صحيح فليس للانسان إلا ما سعى وسعيه هو الذى يرى وكل نفس بما كسبت رهينة فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى ــ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ــ وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها وإنما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الاشارة بقوله تعالى ــ ما كذب الفؤاد ما رأى ــ . الرتبة الثالثة : رتبة الناجين وأعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق[1] فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار

الوعيد وسرور رجاء للموعود حتى نجد لذة ما نطلب وخوف ما منه نهرب اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا وأسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب إلينا مما سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك نسألك تمام النعمة بتمام التوبة ودوام العافية بدوام العصمة وأداء الشكر بحسن العبادة اللهم إنى أسألك بركة الحياة وخير الحياة وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة وأسألك خير ما بينهما أحينى حياة

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف البزار من حديث أبى سعيد الخدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من رواية أبى معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ويحيى ابن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار

ومن

ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا فى عالم النبوة ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار فى حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضى الله عنها لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ومايدريك (١) فاذن الاشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام . الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم المقربون السابقون فان المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام فى الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره مافصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذى لا يمكن التعبير عنه فى هذا العالم فهو الذى أجمله قوله تعالى ـ فلاتعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين ـ وقوله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لايتصور أن تخطر على قلب بشر فى هذا العالم . وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فانهم لايحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولايطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهى غاية السعادة ونهاية اللذات

السعداء حياة من تحب بقاءه وتوفنى وفاة الشهداء وفاة من تحب لقاءه ياخير الرازقين وأحسن التوابين وأحكم الحاكين وأرحم الراحمين ورب العالمين ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم ماخلقت واغفر ماقدرت وطيب مارزقت وتمم ماأنعمت وتقبل مااستعملت واحفظ ما استحفظت ولا تهتك ماسترت فانه لاإله إلا أنت أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير خدمتك ومن كل سرور بغير قربك ومن كل فرح بغير مجالستك ومن كل

وقصرت سيئاتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبى عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال فى الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين (١) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال مايدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار فى حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخارى من حديث سمرة بن جندب فى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فابراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطبرانى من حديثه سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائى من حديث الأسود ابن سريع كنا فى غزاة لنا الحديث فى قتل الذرية ، وفيه ألاإن خياركم أبناء المشركين ثم قال لاتقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث وإسناده صحيح ، وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفى رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبى داود فى آخر الحديث فقالوا يارسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث ثابت بن الحرث الأنصارى كانت يهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذبت يهود مامن نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد الحديث وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة فى النار وله من حديث عائشة قلت يارسول الله ذرارى المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذرارى المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث خديجة قلت يارسول الله أين أطفالى منك قال فى الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالى قبلك قال فى النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة فى أولاد المشركين هم من آبائهم وفى رواية هم منهم .

ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك فى الجنة فقالت الجار ثم الدار فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شىء سواه حتى عن أنفسهم ومثالهم مثال العاشق المستهتر بعشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فانه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه لايحس بما يصيبه فى بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت هومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة إلى قرة عين لايتصور أن تخطر فى هذا العالم على قلب بشر كما لايتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف فى بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الموفق بلطفه.

(بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب)

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب . منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ « خير الأعمال أدومها وإن قل[1] » والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره فى إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الانسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ولذلك لايؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة فان القلب لايتأثر بما يجرى فى الغفلة وقد جاء فى الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره [2] » وقال بعضهم الذنب الذى لايغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله فاذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لاتنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لاصغيرة بل كل مخالفة فهى كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة

شغل بغير معاملتك اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه اللهم إنى أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به اللهم إنى أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم إنى أستغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ماليس لك، اللهم إنى أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ماأعطيتنا ياحافظ

---

(١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم

(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث البخارى من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقى فى الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا .

رضى الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالاضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم مالا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامى فى أمور لايتجاوز فى أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه كما يقول أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ويقول المناظر فى مناظرته أما رأيتنى كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول العامل فى التجارة أما رأيت كيف روّجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته فى ماله وكيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فان الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به فى الحمل عليها فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدوّ عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لايرجى شفاؤه . ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولايدرى أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالامهال إثما فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى ـ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ـ ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فتغلظت به فان انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر وفى الخبر « كل الناس معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه (١) » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولايهتك الستر فالاظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم لاتذنب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ولذلك قال تعالى ـ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ـ وقال بعض السلف ماانتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الابريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الانكار عليهم وإطلاق اللسان فى الأعراض وتعديه باللسان فى المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لايقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه وفى الخبر « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لاينقص من أوزارهم شيئا (٢) » وقال تعالى ـ ونكتب ماقدموا وآثارهم ـ والآثار مايلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق وقال بعضهم

(١) حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ كل أمتى وقد تقدم (٢) حديث من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبدالله وقد تقدم فى آداب الكسب .

الحافظين وياذاكر الذاكرين وياشاكر الشاكرين بذكرك ذكروا وبفضلك شكروا ياغياث يامغيث يامستغاث ياغياث المستغيثين لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع اكلأنى كلاءة الوليد ولاتخل عنى وتولنى بما تتولى به عبادك الصالحين أنا عبدك وابن عبدك ناصيتى بيدك جار فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك نافذ فىّ مشيئتك إن تعذب فأهل ذلك أنا ، وإن ترحم فأهل ذلك أنت فافعل اللهم يامولاى ياالله يارب ماأنت له أهل ولاتفعل

مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفى الاسرائيليات : إن عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الاصلاح دهرا فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار . فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب والأخرى إخفاؤه وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فاذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب فى جميع ذلك فحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها .

اللهم يارب ياالله ماأنا له أهل إنك أهل التقوى وأهل المغفرة يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى مالا يضرك وأعطنى مالا ينقصك يارينا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ربنا

(الركن الثالث فى تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر)

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من بيانها . أما العلم فالنظر فيه نظر فى سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ولوحدثه إنسان واحد يسمى طبيبا أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال فى الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفى الخبر « جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة [1] » ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة . وفى الاسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته فقال وعزتى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ماقبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه . فان قلت فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ . فأقول من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فاذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ . فان قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغى أن يدوم إلى الموت

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق افئدة لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبدالله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمعة وأرق قلبا .

وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم فى العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار فى كل ذنب . وأما القصد الذى ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك مافرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها فان كان قد ترك صلاة أو صلاها فى ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها فان شك فى عدد مافاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ويقضى الباقى وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد. وأما الصوم فان كان قد تركه فى سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسى النية بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ويشتغل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فان الزكاة واجبة فى مال الصبى فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته فان أداها لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك فان ذلك لا يجزيه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج فان كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فانه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا [١] » والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم وقعود فى مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها [٢] » بل من قوله تعالى ـ إن الحسنات يذهبن السيئات ـ فيكفر سماع الملاهى بسماع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر القعود فى المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس المصحف محدثا باكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله بأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك

آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من المعصية وإفراغ الصبر فى الخدمة وإيداع الشكر فى النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن المنقلب إليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر

---

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم فى الحج (٢) حديث اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذى من حديث أبى ذر وصححه وتقدم أوله فى آداب الكسب وبعضه فى أوائل التوبة وتقدم فى رياضة النفس .

الطريق المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم [١] » وفي لفظ آخر « إلا الهم بطلب المعيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه [٢] » ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع . فان قلت هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة . فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكئيب فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال فماله عند الله قال أجر مائة شهيد فاذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والاتيان بالحسنات التي هي أضدادها فيقابل إيذاءه الناس بالاحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتاق إيجاد لا يقدر الانسان على الأكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعني به الايذاء المحض. أما النفوس فان جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص فان لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فان شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فان رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى « أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفي لفظ آخر إلا الهم في طلب المعيشة طس وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح

(٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم وتقدم أيضا في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن .

لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم اللهم اغفرلي ولوالدي ولمن تولدا وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر لأعمامنا وعماتنا وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات وارحم الراحمين يا خير الغافرين ولما كان الدعاء مخ العبادة أحببنا أن نستوفي من ذلك قسما صالحا نرجو بركته وهذه الأدعية استخرجها الشيخ

فقال

فقال يارسول الله إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يارسول الله إنى قد زنيت فرده الثانية فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماتوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم (١) » وجاءت الغامدية فقالت « يارسول الله إنى قد زنيت فطهرنى فردها فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردنى لعلك تريد أن تردنى كما رددت ماعزا فوالله إنى لحبلى فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهبى حتى تضعى فلما ولدت أتت بالصبى فى خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه فلما فطمته أتت بالصبى وفى يده كسرة خبز فقالت يانبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال مهلا ياخالد فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) ».

وأما القصاص وحد القذف: فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان التناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لامن حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فان مايجب فى مال الصبى يجب على الصبى إخراجه بعد البلوغ إن كان الولى قد قصر فيه فان لم يفعل كان ظالما مطالبا به إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبى والبالغ وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب فى القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه فان حصل مجموع ماعليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فانهم لايقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه مايقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فانه إن لم تف بها حسناته حمل من السيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لايعرف وربما يكون الأجل قريبا فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته. أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك مايعرف له مالكا معينا ومالا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام. وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم فى الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا فى القيامة وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته

أبو طالب المكى رحمه الله فى كتابه قوت القلوب وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا أو فى الجماعة إماما أو مأموما ويختصر منها مايشاء [الباب الخمسون فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات] فمن ذلك أن يلازم موضعه الذى صلى هو فيه مستقبل القبلة إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شىء فان السكوت فى هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يجده أهل

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم: لقد تابت توبة الحديث مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذى قبله.

وتعرضه له فالاستحلال المبهم لايكفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فان كان في جملة جنايته على الغير مالو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه مايستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال فان أبى إلا الاصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التى يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين وفى المتفق عليه من الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمى فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا مابين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة [1] » وفى رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها . وفى رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال قيسوا مابينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له ، فبهذا تعرف أنه لاخلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضى. وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لايعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالذى يعلم فى مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزما أنه لايتناول الفاكهة مالم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد فى الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ولكن لايكون تائبا مالم يتأكد عزمه فى الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان رأس المعاصى أكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لايقدر على ترك الشهوات

للعاملة وأرباب القلوب وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى المفلحون والآيتين وإلهكم إله واحد وآية الكرسى والآيتين بعدها وآمن الرسول والآية قبلها وشهد الله وقل اللهم مالك الملك وإن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض إلى المحسنين ولقد جاءكم رسول إلى الآخر وقل ادعوا الله الآيتين وآخر الكهف من إن الذين آمنوا وذا النون إذ ذهب مغاضبا إلى خير الوارثين فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون

(١) حديث أبى سعيد الخدرى المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبى سعيد .

فى

فى المأكولات والملبوسات وقد قال بعضهم من صدق فى ترك الشهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم مايجب عليه فى المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لاتصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم فى خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب إلى أنها لاتصح إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية فان العلة شاملة لهما إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لأن توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصى دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فان استحال ذلك من حيث إن المعصية فى الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصى آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فاذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات فهو كالملك المرتب على الايجاب والقبول فانه إذا لم يتم الايجاب والقبول نقول إن العقد لايصح أى لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ماتركه وثمرة الندم تكفير ماسبق فترك السرقة لايكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصى وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء . فنقول التوبة عن بعض الذنوب لاتخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذى يجنى على أهل الملك وحرمه ويجنى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده فى الشرع فقد كثر التائبون فى الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لايظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر . الثانى أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لايترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضا ممكن كما فى تفاوت

وسبحان ربك إلى آخر السورة وقد صدق الله وأول سورة الحديد إلى بذات الصدور وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا ثم يسبح ثلاثا وثلاثين وهكذا يحمد مثله ويكبر مثله ويتمها مائة بلا إله إلا الله وحده لاشريك له فاذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظا أو من المصحف أو يشتغل بأنواع الأذكار ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس فان النوم فى هذا الوقت مكروه جدا فان غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائما مستقبل القبلة فان لم يذهب النوم بالقيام يخطو خطوات

الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لاتتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لايدرى فيحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على الماضى . الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذى يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو مايجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه مامن مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فان سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ماهو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق فى نفسه : إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى فلا ينبغى أن أخلع العذار وأرخى العنان بالكلية بل أجاهده فى بعض المعاصى فعسانى أغلبه فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى ، ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وإن كانت لله فاترك الفسق لله فان أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى مالم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول لله تعالى على أمران ولى على المخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملى فى أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه فى الآخر فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتى فيه أن يكفر عنى بعض ماعجزت عنه بفرط شهوتى فكيف لايتصور هذا وهو حال كل مسلم . إذ لامسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لاذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة فى حق الشهوة وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما فى اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة فانه قد يتناول قليلها ولكن لايستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شىء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ماتاب عنه مخالفا لما بقى عليه إما فى شدة المعصية وإما فى غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت فى اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله فى الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله فى الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله فى جميع الأوامر والنواهى . فان قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة . فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ومالا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لابتركه إياه ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية

نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة فى إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر فى هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين ، وأثر ذلك فى حق من يجمع فى الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فاذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد حكم بقيامه وتبقى أوقات النهار جميعا على هذا البناء فلذا قارب طلوع الشمس يبتدىء بقراءة المسبعات العشر

لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فانى أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته إذ لاخلاف فى أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذن لايستحيل أن تبلغ قوة الندم فى حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لايعرفه من نفسه فان كل من لايشتهى شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة فى هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين: أحدهما حرقة الندم، والآخر شدة المجاهدة بالترك فى المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا إن التوبة لاتقبل مالم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه فى عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لايدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا. فان قلت إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر يبقى فى نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه، فقال أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر فى توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو فى عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لايخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان: إحداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور فى نفس الشهوة فقط فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين، وأعنى بقوة الدين قوة الارادة التى تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لايعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل لأنه فى أمن من خطر الشهوة والصبى أفضل من البالغ لأنه أسلم والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لاعدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز فى الأخطار وأن العلو شرطه اقتحام الاغرار بل كقول القائل الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالما بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد. الحالة الثانية: أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع فلا تهيج إلا بالاشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد القاسى لهيجان الشهوة وقمعها، وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصودا لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لايستجرك إلى شهواته وان عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة فأنت بعد فى طلب الظفر ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالاضافة إلى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال ولا يدرى كيف يسلم ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نعمتان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالاضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد زل

وهى من تعليم الخضر عليه السلام علمها ابراهيم التيمى وذكر أنه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينال بالمداومة عليها جميع التفرق فى الأذكار والدعوات، وهى عشرة أشياء سبعة سبعة الفاتحة والمعوذتان وقل هو الله أحد وقل ياأيها الكافرون وآية الكرسى وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والصلاة على النبى وآله ويستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ويقول سبعا اللهم افعل بى وبهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة

فى هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل فى اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات . فان قلت فما قولك فى تائبين أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه فأيهما أفضل . فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالاضافة إلى حالين وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالاضافة إلى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة فى القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك فى أصل الهداية . فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدىء لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالاضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالاضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغى أن لا يعرج على غير السلوك فان ظهر له مبادى الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماسبق من أحواله وهو الكمال بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر فى عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطىء النهر بعد عبوره يبكى متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع ، نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يعبر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله فان حصل له من التنبيه ماوثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والقصد والعائق وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه فى كتاب العلم وفى ربع المهلكات بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته ولكن إن كان شابا فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغى أن يتفكر فى لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له فى الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدى أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الأنبياء قياس فى غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم فانهم مابعثوا إلا لارشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للأمر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إنى لا أنسى ولكنى أنسى لأشرع [1] » وفى لفظ « إنما أسهو لأسن » .

مانت له أهل ولا تفعل ربنا يامولانا مانحن له أهل إنك غفور حليم جواد كريم رءوف رحيم . وروى أن ابراهيم التيمى لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الخضر رأى فى المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة وقيل إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة فاذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر رمح .

(١) حديث أما إنى لا أنسى ولكن أنسى لأشرع ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر

ولا تعجب من هذا فان الأمم فى كنف شفقة الأنبياء كالصبيان فى كنف شفقة الآباء وكالمواشى فى كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبى كيف ينزل إلى درجة نطق الصبى كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ (١) » لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته بل الذى يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا فى تعليمه فاياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان أقسام العباد فى دوام التوبة)

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات . الطبقة الأولى : أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التى ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا (٢) » فان فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملى بمجاهدتها وردها ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فانما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغى للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع فى الانكفاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك فى كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته فى الابتداء . الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقعد فى مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم يصلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلى الركعتين وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت وإذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد فى باطنه أثرا ونورا وروحا وأنسا إذا كان صادقا والذى يجده

لا يوجد فى الموطأ إلا مرسلا لا إسناد له وكذا قال حمزة الكنانى إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطى وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا (١) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها فى فيه البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم فى كتاب الحلال والحرام (٢) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله الحديث الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم .

أسبابها التى تعرضه لها وهـذه النفس جديرة بأن تـكون هى النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ماتستهدف له من الأحوال الذميمة لاعن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهى أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالـكلية كفة السيئات فذلك فى غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ـ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ـ فكل إلمام يقع بصغيرة لاعن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى ـ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب [1] » وفى خبر آخر « المؤمن كالسنبلة يفىء أحيانا ويميل أحيانا [2] » وفى الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة [3] » أى الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لاينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لايؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبى ﷺ « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون [4] » وقال أيضا « المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه [5] » أى واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى ـ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ـ فما وصفهم بعدم السيئة أصلا.

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوات فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى فى قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم ـ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ـ فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو

---

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب البيهقى فى الشعب بسند ضعيف (٢) حديث المؤمن كالسنبلة تفىء أحيانا وتميل أحيانا أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبرانى من حديث عمار بن ياسر والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تفىء وفى الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس (٣) حديث لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون الترمذى واستغربه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون . قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى (٥) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالا فسعيد بدل فخيرهم .

من البركة ثواب معجل له على عمله هذا وأحب أن يقرأ فى هاتين الركعتين فى الأولى آية الكرسى وفى الأخرى آمن الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه فى يومه وليلته ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما فى كل ركعة سورة وتكون صلاته هذه ليستعيذ بالله تعالى من شر يومه وليلته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ بامعك وكلماتك التامة من شر السامة والهامة

فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره فى المشيئة فإن تدارك الله بفضله وجبر كسره وامتنّ عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ماسبق عليه من القول فى الأزل لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء فى حقه وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه النفس الذى به تستحق المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق فى الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى ـ ونفس وماسوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ـ فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها[1]» فاذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ماقبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الأنفاس والإ وقع فى المحذور ودامت الحسرات حين لاينفع التحسر . الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره فى مشيئة الله فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الانسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز فى المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب يعدّ عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين وإن كان ماينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصرّ على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المتوهين والعجب من عقل هذا المتوه وترويجه حماقته فى صيغة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجنته ليست

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبى هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبى هريرة إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر مايجرى به الليل والنهار إن ربى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ويقول بعد الركعتين الأوليين اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ماأكره ولا أملك نفع ماأرجو وأصبحت مرتهنا بعملى وأصبح أمرى بيد غيرى فلا فقير أفقر منى اللهم لاتشمت بى عدوّى ولاتسوء بى صديقى ولاتجعل مصيبتى فى دينى ولاتجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى ولا تسلط علىّ من

تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لاتحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ويقول ماهذا الهوس السماء لاتمطر ذهبا ولافضة وإنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولاتبديل لسنة الله ولايعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لاتبديل لها فيهما جميعا وأنه قد أخبر إذ قال ـ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ـ فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسى قوله تعالى ـ وفي السماء رزقكم وماتوعدون ـ فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى ـ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا ـ أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت ـ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ـ فارجعنا نسعى وعند ذلك لايمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب.

(بيان مايبنغى أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أوعن إلمام بحكم الاتفاق)

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلاينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفرلي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار مايدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أوالعزم على التوبة وحب الاقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين[1] وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات[2]

لايرحمني اللهم إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ثم يصلي ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله في يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الاطلاق وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصليها أمام كل أمر يريده ويقرأ في هاتين الركعتين ـ قل ياأيها الكافرون ـ وقل هو الله أحد ـ ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده

---

(١) أثر إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلاغفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعا وموقوفا فلعل المصنف عبر بالأثر لارادة الوقوف فذكرته احتياطا وإلافالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل

وفى الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية [١] » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار ، وفى الخبر الصحيح « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شىء إلا المسيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ما صليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات [٢] » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فعلى الأحوال كلها ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات. فإن قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار ، وفى الخبر « المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله [٣] » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فاعلم أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها فى كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ـ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ـ فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقى الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا [٤] . فنقول : الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة [٥] » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب والتوبة

من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدبة فقام نادما فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل ـ وأقم الصلاة طرفى النهار ـ الآية وإسناده جيد (١) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية البيهقى فى الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبرانى من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر الحديث (٢) حديث إن رجلا قال يارسول الله إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شىء إلا المسيس الحديث فى نزول ـ إن الحسنات يذهبن السيئات ـ متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ماصليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبى أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم الحديث (٣) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله ابن أبى الدنيا فى التوبة ومن طريقه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزىء بربه وسنده ضعيف (٤) حديث بعض الصحابة فى قوله تعالى ـ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ـ الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبى موسى الأشعرى ورفعه الترمذى من حديثه أنزل الله على أمانين الحديث وضعفه وابن مردويه فى تفسيره من قول ابن عباس (٥) حديث ما أصر من استغفر الحديث تقدم فى الدعوات .

فى هذا اليوم اجعل فيه الخيرة . ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ فى الأولى سورة الواقعة وفى الأخرى سورة الأعلى ويقول بعدها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك أحب الأشياء إلى وخشيتك أخوف الأشياء عندى واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عينى بعبادتك واجعل طاعتك فى كل شىء منى يا أرحم الراحمين ثم يصلى بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئا من حزبه من القرآن ثم بعد ذلك

والاستغفار درجات وأوائلها لاتخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ،ولذلك قال سهل لابد للعبد فى كل حال من مولاه فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شىء فإن عصى قال يارب استر على فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب على فاذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة وإذا عمل قال يارب تقبل منى وسئل أيضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فاستجابة أعمال الجوارح والانابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش ، وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التائب حبيب الله » فقال إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ماذكر فى قوله تعالى ــ التائبون العابدون ــ الآية . وقال الحبيب هو الذى لايدخل فيما يكرهه حبيبه ، والمقصود أن للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لاذنب له . والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا والتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الاصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لاريب فيها أن قول الله تعالى ــ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ــ صدق وأنه لاتخلو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لايرجح الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لاتقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول أى غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك فى الثياب ولا تدرى المتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لاتضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالاضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل . فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك فى الخير وعوده الذكر ولم يستعمله فى الشر ولم يعوده الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصى فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ماتعود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ماأحمقك وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله وإذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصى فى إحدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى ــ إن الله لايضيع أجر المحسنين ــ ومعانى قوله تعالى ــ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ــ فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا

إن كان متفرغا ليس له شغل فى الدنيا يتنقل فى أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى وإن كان ممن له فى الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغى أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلى ركعتين ليقيه الله سوء المخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين ليقيه الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من فى المنزل من الزوجة وغيرها وإن لم يكن فى البيت

يعلمون ــ فإياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق فى هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا فلاجرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه . وأما الظالم المغرور فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل : وافق شن طبقه . وافقه فاعتنقه . وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه باشراك القلب فى العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالاضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لاأنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة إلى الكاتب لا بالاضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهكذا ينبغى أن تفهم ذم مايذم وحمد مايحمد وإلا جهلت معنى ماقال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فان هذه أمور تثبت بالاضافة فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغى أن لاتستحقر ذرات الطاعات والمعاصى ولذلك قال جعفر الصادق إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث رضاه فى طاعته فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه وغضبه فى معاصيه فلا تحقروا منها شيئا فلعل غضبه فيه وخبأ ولايته فى عباده فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولى الله تعالى وزاد وخبأ إجابته فى دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه .

(الركن الرابع فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة [(١)] » وهذا عزيز نادر. والقسم الثانى هو الذى لايخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الاصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لايحصل إلا بالدواء ولايقف على الدواء من لايقف على الداء إذلا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله ولا يبطل الشىء إلا بضده ولا سبب للاصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى ــ وأولئك هم الغافلون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ــ فلادواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الاصرار فاذن لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بدمن بيانهما.

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

أحد يسلم أيضا ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين وإن كان متفرغا فأحسن أشغاله فى هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة فان كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر وإلا فليصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن فقد كان من الصالحين من يختم القرآن فى الصلاة بين اليوم والليلة وإلا فليصل أعدادا من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبالآيات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ــ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ــ

فان قلت أينفع كل علم لحل الاصرار أم لابد من علم مخصوص . فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع فى علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب وهذا هو الايمان بأصل الطب فان من لايؤمن به لايشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الايمان بأصل الشرائع وهذا لابد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الايمان . الثانى أنه لابد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لايلبس ولا يكذب فان إيمانه بأصل الطب لاينفعه بمجرده دون هذا الايمان ، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بأن كل مايقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف . الثالث أنه لابد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء ووزانه من الدين الاصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع مايلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث بها الخوف القوى على الصبر الذى هو الركن الآخر فى العلاج . الرابع أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولا تفصيل مايضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شىء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته فى الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفير ماسبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصى إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لايدرى أن مايرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز مايضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغى أن يصبر إلى أن يسئل عنه بل ينبغى أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فانهم ورثة الأنبياء والأنبياء ماتركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لايعرفون مرضهم كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لايعرف برصه مالم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لايولدون إلا جهالا فلابد من تبليغ الدعوة إليهم فى الأصل والفرع والدنيا دار المرضى إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لايحتمى أو الذى غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل : إحداها أن المريض به لايدرى أنه مريض . والثانية أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم بخلاف مرض البدن

وأمثال هذه الآية يقرأ فى كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ويقدر الطالب أن يصلى بين الصلاة التى ذكرناها بعد طلوع الشمس وصلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان فى الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ومن ليس له فى الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يبطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى . قال سهل بن عبد الله التسترى لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله فى الدنيا حاجة فاذا ارتفعت الشمس

فان

فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه ومابعد الموت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد فى هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال . والثالثة : وهو الداء العضال فقد الطبيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضا شديدا عجز واعن علاجه وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لايظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا ومانطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا مايرغب العوام ويستميل قلوبهم ولايتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألذ فى الأسماع وأخف على الطباع فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه فالرجاء والخوف دواءآن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه مالاتطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة إسرافه فى الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال وكذلك المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التى سبقت يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب ، فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء فإذن فساد الأطباء هى المعضلة الزباء التى لاتقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولايمكن استقصاؤه ، نعم نشير إلى الأنواع النافعة فى حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهى أربعة أنواع : الأول أن يذكر مافى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم «مامن يوم طلع فجره ولاليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما :ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : ياليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : ياليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا [1]» وفى بعض الروايات «ليتهم تجالسوا فتذكروا ماعلموا ، ويقول الآخر : ياليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف مامن عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات

وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما ينتصف العصر بين الظهر والمغرب يصلى الضحى فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صلاة الضحى إذا رمضت الفصال »وهو أن ينام الفصيل فى ظل أمه عند حر الشمس. وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك إن كان هناك

---

(١) حديث مامن يوم طلع فجره ولاليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم أجده هكذا . وروى أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف إن لله ملكا ينادى فى كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده الحديث وفيه ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث .

فذلك معنى قوله تعالى ـ إنّ الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ـ وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها[1] » وفى حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسدّ على القلب فذلك هو الطبع [2] » وقال الحسن : إنّ بين العبد وبين الله حدا من المعاصى معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير والأخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لاتحصى فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه ماخلف دينارا ولادرهما إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ماأصابه [3] .

النوع الثانى : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وماجرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه ومالقيه من الاخراج من الجنة حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحلّ الإكليل عن جبينه ونودى من فوق العرش : اهبطا من جوارى فانه لايجاورنى من عصانى قال فالتفت آدم إلى حوّاء باكيا وقال هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب. وروى أنّ سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما وقيل لأنّ المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلايطعم فاذا قال أطعمونى فانى سليمان بن داود شجّ وطرد وضرب . وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت فى وجهه . وفى رواية أخرجت عجوز جرّة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين (أيام العقوبة) قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجنّ والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال لاألومكم فيما فعلتم من قبل ولاأحمدكم فى عذركم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولابدّ منه .

وروى من الاسرائيليات أن رجلا تزوّج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبيا فى بنى إسرائيل وفى قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بتركى المعاصى لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديدا فكأنه أعجبه قال فوضعته الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نطيعك إذا أطعت الله .

(١) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فاذا انتهكت الحرمات الحديث ابن عدىّ وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحه . قلت هكذا قال المصنف وفى حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه فى شعب الايمان للبيهقى من قول حذيفة (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم ماخلف دينارا ولادرهما إنما خلف العلم والحكمة البخارى من حديث عمرو بن الحرث قال ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولادرهما ولا عبدا ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة ماترك دينارا ولادرهما ولاشاة ولابعيرا ولى حديث أبى الدرداء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولادرهما إنما ورثوا العلم الحديث وقد تقدّم فى العلم .

حتى يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة يمضى فيه وإلا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهرا وباطنا وقلبا وقالبا وإلا فباطنا وترتيب ذلك أنه يصلى مادام منشرحا ونفسه مجيبة فان سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة فان مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة فان سئم التلاوة أيضا يذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة فان سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم ملازما لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته ـ أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ـ لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لاقال لأنك رجوتنى وقلت ـ عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ـ وبما قلت ـ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا ـ وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك ـ اذكرنى عند ربك ـ قال الله تعالى ـ فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ـ وأمثال هذه الحكايات لاتنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار وورود الأسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار، نعم كانت سعادتهم فى أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغى أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فانه نافع فى تحريك دواعى التوبة . النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغى أن يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر كما حكى فى قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه [1] » وقال ابن مسعود إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود إليه أبدا [2] » وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا فى الوجه ونقصا فى المال إنما اللعنة أن لاتخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللعنة هى الطرد والإبعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى فى الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشى فى وسط الوحل ويبكى ويقول هذا مثل العبد لايزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض فى الذنوب خوضا وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبى فى سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى فى فأر بيتى وقال بعض صوفية الشام نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمر بى ابن الجلاء الدمشقى فأخذ بيدى فاستحييت منه فقلت ياأباعبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدى وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الدارانى الاحتلام عقوبة وقال لايفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه وفى الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم [3] » وفى الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ماأصنع

الذكر وأفضله فان عجز عن ذلك أيضا وتملكته الوساوس وتزاحم فى باطنه حديث النفس فلينم ففى النوم السلامة وإلا فكثرة حديث النفس تقسى القلب ككثرة الكلام لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصى حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فانه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر مامضى ورأى وسمع كشخص آخر فى باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ويمكن للطالب الجد

(١) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود إليه أبدا تقدم (٣) حديث ماأنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم البيهقى فى الزهد من حديث أبى الدرداء

بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي [1] » . وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائما ذات يوم أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سوادا حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة فلما أتيته قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة . واعلم أنه لايذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه فان كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر وإن كان شقيا أخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب مابعده صفته فان ابتلي بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وكل ذلك مما لايمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولا بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد « أوصني يارسول الله ولا تكثر علي قال لاتغضب [2] » وقال له آخر « أوصني يارسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في أيدي الناس فان ذلك هو الغنى وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع وإياك وما يعتذر منه [3] » وقال رجل لمحمد بن واسع أوصني فقال أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة قال وكيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم أوصني فقال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فان الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء اليأس فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حل السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبي لي كتابا توصيني فيه ولا تكثري فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

أن يصلي من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزءا من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد أخر من الركعات حسن . قال سفيان كان يعجبهم إذا فرغوا أن يناموا طلبا للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يعين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس إذا استراحت عادت جديدة فبعد الإنتباه

وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هانىء . قلت : هو متهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل (١) حديث يقول الله إن أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي غريب لم أجده (٢) حديث قال رجل أوصني ولا تكثر علي قال لاتغضب تقدم (٣) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس (١)» والسلام عليك فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد ؛ فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام . فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان . فان قلت : فان كان الواعظ يتكلم في جمع أوسأله من لايدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فان في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ماروى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري أوصني قال عليك بتقوى الله عزوجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت إلامن خير فانك بذلك تغلب الشيطان. وقال رجل للحسن أوصني فقال أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه يابني زاحم العلماء بركبتيك ولاتجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولاتصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولاتجالس السفيه ولاتخالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه يابني لاتضحك من غير عجب ولاتمش في غير أرب ولاتسأل عمالايعنيك ولاتضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ماقدمت ومال غيرك ماتركت يابني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لايملك لسانه يندم وقال رجل لأبي حازم أوصني فقال كل مالوجاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه وكل مالوجاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بساما ولاتكن غضابا وكن نفاعا ولاتكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولاتمش في غير حاجة ولاتضحك من غير عجب ولاتعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك ياابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف أوصني فقال اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات قال وماغلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلامالابد منه وترك كثرة الكلام إلافيما لابد منه وترك مخالطة الناس إلافيما لابدمنه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمهم الله تعالى : أما بعد ، فخف مماخوفك الله واحذر مماحذرك الله وخذ ممافي يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام ، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ، فان الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولابد لك من مشاهدة ذلك إمابالنجاة وإمابالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم فاذا زللت فارجع وإذاندمت فأقلع وإذاجهلت فاسأل وإذاغضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبدالله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فان الدنيادار عقوبة ولها يجمع من لاعقل له وبها يغتر من لاعلم عنده فكن فيها ياأمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر

من نوم النهار تجد في الباطن نشاطا آخر وشغفا آخر كما كان في أول النهار فيكون للصادق في النهار نهاران يغتنمهما بخدمة الله تعالى والدؤوب في العمل وينبغي أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكرا أومسبحا أوتاليا قال الله تعالى ــ وأقم الصلاة طرفي النهار ــ وقال ــ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ــ قيل قبل طلوع الشمس صلاة الصبح

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس الحديث الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم .

على شدّة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن أرطاة أما بعد ، فان الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم. وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتى إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام . فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستشرى الفساد وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ماليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف ، فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . الأصل الثاني الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله مايضرّه وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته وإما لشدة غلبة شهوته فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضرّ فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوّة الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلابدّ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتدّ خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر إليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإنما لله الآخرة والأولى. فان قلت فقد رجع الأمر كله إلى الايمان لأن ترك الذنب لا يمكن الا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون الا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الايمان فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لانه غير مؤمن . فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الايمان بل يكون لضعف الايمان اذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور : أحدها أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالاضافة إلى تأثرها بالحاضر . الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن

العاجل

وقبل غروبها صلاة العصر - ومن آناء الليل فسبح - أراد العشاء الأخيرة - وأطراف النهار - أراد الظهر والمغرب لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب فصار الظهر آخر الطرف الأول والمغرب آخر الطرف الآخر فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الأول وقد عاد بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل ويصلى في أول الزوال قبل السنة والفرض أربع ركعات

العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى ـ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ـ وقال عز وجل ـ بل تؤثرون الحياة الدنيا ـ وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات [١] » وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فقال وعزتك لايسمع بها أحد فيدخلها فحفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها فحفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد [٢] » فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر. الثالث أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الايمان. الرابع أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لاتوجب العقوبة إيجابا لايمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للاصرار على الذنب مع بقاء أصل الايمان ، نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب عن تناول مايضره في المرض فان كان المحذر ممن لايعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر . فان قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ماهو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب والتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ماجده ومفارقته الدنيا لابد منها فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول إذا كنت لاأقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار وإذا كنت لاأصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف لأن المسوف يبنى الأمر على ماليس إليه وهو البقاء فلعله لايبقى وإن بقي

بتسليمة واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه صلاة الزوال وقبل الظهر في أول أوقاتها ويحتاج أن يراعي لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء فيشرع في صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة ثم يستعد لصلاة الظهر فان وجد في باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه ولا يشرع في صلاة الظهر إلا بعد أن يجد الباطن عائدا إلى حاله

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة .

فلا يقدر على الترك غدا كما لايقدر عليه اليوم فليت شعرى هل عجز فى الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد فليست الشهوة التى أكدها الانسان بالعادة كالتى لم يؤكدها وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة فى أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ومامثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لاتنقلع إلى بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف .وأما المثال الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ماسبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة فان إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده وترك ذخائر أمواله فى صحن داره وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لايتفرغ إلى دارى أو إذا انتهى إلى دارى مات على باب الدار فان الموت ممكن والغفلة ممكنة. وقد حكى فى الأسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه فى غاية الحماقة والجهل إذ قد لايمكن ولا يكون. وأما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التى تعرفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ماقاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة فان قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لاوجود لمثل هذا فى العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك فى البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة فيقول أتركه لا محالة لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتنى الحياة والموت بالاضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال له ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ماظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس فى العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا فى كيفيته فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لانسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط فى كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد ابن سليمان التنوخى المعرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لاتبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولى فالخسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا إن صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا وإلا فقد تخلصت وهلكت أى العاقل يسلك طريق الأمن فى جميع الأحوال. فان قلت هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته وما علاج القلوب لردها إلى الفكر لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله. فاعلم أن المانع من الفكر أمران

من الصفاء والله الموفق حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الأنس فى الصلاة ويتكدرون بيسير من الاسترسال فى المباح ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة ولكن حسنات الأبرار سيآت المقربين فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكدر وحل العقد بصدق الانابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى ودواء مايحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولدان أن يكون فى مجالسته

أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . والثانى أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ومامن إنسان إلا وله فى كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أو فى مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك ، وأما علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت وما بعده تألما بذكره مع استحقار ألم مواقعته فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به وأما الثانى وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فانها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدثور وهى مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفى التوبة عن المعاصى والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون فى ابتداء التوبة ولكنها بعدما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تتعود والخير عادة والشر لجاجة ، فاذن هذه الأفكار هى الهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل فى الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب إليه ويعبر عن السبب الذى أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الارادة وبين المعنى الذى هو طاعة نافعة فى الآخرة وقد روى فى حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ياأمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بنى ، فقال على رضى الله عنه بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمى نسى الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله مالم يكن يحتسب ، فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر فى التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فنذكره فى كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء ، والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء [أما بعد] فان الايمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر (١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن

غير راكن إليهم كل الركون بل يسترق القلب فى ذلك نظرات إلى الله تعالى فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة إلا أن يكون قوى الحال لا يحجبه الخلق عن الحق فلا ينعقد على باطنه عقدة فهو كما يدخل فى الصلاة لا يجدها ويجد باطنه وقلبه لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استرواح نفسه منغمرا بروح قلبه لأنه يجالس ويخالط وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية فلا ينعقد على باطنه عقدة وصلاة

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من

ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة مابه الايمان ومن به الايمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الايمان وعن إدراك مابه الايمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . الشطر الأول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الايمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

(بيان فضيلة الصبر)

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل ـ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ـ وقال تعالى ـ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ـ وقال تعالى ـ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ـ وقال تعالى ـ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ـ وقال تعالى ـ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ـ فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى « الصوم لي وأنا أجزي به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى ـ واصبروا إن الله مع الصابرين ـ وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى ـ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ـ وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى ـ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ـ فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول . وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الايمان [1] » على ماسيأتي وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ـ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم ـ [2] » الآية وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الايمان فقال « الصبر والسماحة [3] » وقال أيضا « الصبر كنز من كنوز الجنة [4] » وسئل مرة « ما الايمان فقال الصبر [5] » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة [6] » معناه معظم الحج عرفة

---

(١) حديث الصبر نصف الايمان أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم (٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الايمان فقال الصبر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم في الحج .

الزوال التي ذكرناها تحل العقد وتهيء الباطن لصلاة الظهر فيقرأ في صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة في النهار الطويل وفي القصير ماتيسر من ذلك قال الله تعالى : ـ وعشيا وحين تظهرون ـ وهذا هو الإظهار فإن انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرض وقرأ الدعاء الذي بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن وكذلك ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به إلى صلاة الفجر ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسي ويسبح

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس(١)» وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال «أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة(٢)» وقال صلى الله عليه وسلم «في الصبر على ما تكره خير كثير(٣)» وقال المسيح عليه السلام : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين(٤)» والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار : فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال علي كرم الله وجهه : بني الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعني بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى ـ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ـ وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية ـ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ـ بكى وقال واعجباه أعطى وأثنى أي هو المعطي للصبر وهو المثني. وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

(بيان حقيقة الصبر ومعناه)

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور : معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم فان الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك في البهائم وللملائكة أما في البهائم فلنقصانها . وأما في الملائكة فلكمالها وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة

ويحمد ويكبر ثلاثا وثلاثين كما وصفنا ولو قدر على الآيات كلها التي ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئا لله تعالى ثم يحيي بين الظهر والعصر كما يحيي بين العشاءين على الترتيب الذي ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ومن دام سهره ينام نومة خفيفة في النهار الطويل بين الظهر والعصر ولو أحيا بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن

(١) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس لا أصل له مرفوعا وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس (٢) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله الحديث الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (٣) حديث في الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي .

عليهم السلام فإنهم جرّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة مايصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف . وأما الانسان فانه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلاشهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضادمقتضياتهما ومطالبهما وليس فى الصبي إلاجند الهوى كما فى البهائم ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه. والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لامعرفة لها ولاهداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا فى الحال فلاتطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية مالم تكن له قدرة على ترك ماهو مضر فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لاقدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها فى نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد كما أن نور الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لاينحصر فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الانسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة ، فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإذن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة فاذا قوى يقينه أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ماتتقاضاه الشهوة فلايتم ترك الشهوة الابقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين باذن الله تعالى وتسخيره اياهما ، وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . واذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذى أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، ينبغى أن يكون مسلما له فهو اذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال . وللعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء اليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات باثباتهما فلذلك سميا كراما

كاتبين

أو يقرأ ذلك فى أربع ركعات فهو خير كثير وان أراد أن يحيى هذا الوقت بمائة ركعة فى النهار الطويل أمكن ذلك أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة فى كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال اذا كان صائما وان لم يكن صائما فأى وقت تغير فيه الفم . وفى الحديث « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وعند القيام من الفرائض يستحب قيل إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا ، وقيل هو خير وإن أراد أن يقرأ بين

كاتبين أما الكرام فلا تنفاع العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبون فلإثباتهما الحسنات والسيئات وإنما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ماتعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شىء من عالم الملكوت لاتدركه الأبصار فى هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة فى القيامة الصغرى ومرة فى القيامة الكبرى وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات فقد قامت قيامته [1] » وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال — ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة — وفيها يقال — كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا — أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والهول الأول هو هول القيامة الصغرى ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت فانك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لابزلزلة مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فأما بدن غيرك فليس بحظك والأرض التى أنت جالس عليها بالاضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لاتخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط فهى أرضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فاذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها فاذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا فاذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارا فاذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فاذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا فاذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا فاذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت مافيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكنى أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من القيامة الكبرى شىء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التى بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلى جهة الرأس فمن لا رأس له لاسماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هى القيامة الصغرى والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال وتمت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا فى وصفها فانا لم نذكر عشر عشير أوصافها وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فان للإنسان ولادتين: إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

الصلاتين فى صلاته فى عشرين ركعة فى كل ركعة آية أو بعض آية تقرأ فى الركعة الأولى — ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار — ثم فى الثانية — ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين — ثم — ربنا لا تؤاخذنا — إلى آخر السورة ثم — ربنا لاتزغ قلوبنا — الآية ثم — ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان — الآية ثم — ربنا آمنا بما أنزلت — ثم — أنت ولينا فاغفر لنا — ثم — فاطر السموات والأرض أنت وليى — ثم — ربنا إنك تعلم

فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل أوسع وأعظم فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الاشارة بقوله تعالى - وننشئكم فيما لا تعلمون - فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال ، فما أعظم غفلتك يامسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الأهوال فان كنت لاتؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ماسمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا[1] » أو ماسمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هون على محمد سكرات الموت [2] » أو ماتستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لاينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا إن كل لما جميع لدينا محضرون ولكن ماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين وذلك لأنا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ولنرجع إلى الغرض فان هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة . فنقول قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الاقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض وهما لايكتبان إلا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والإعراض ولعمري إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لاترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ماينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين وإليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

ماتخفي وما نعلن - الآية ثم - وقل رب زدني علما - ثم - لا إله إلا أنت سبحانك - ثم - رب لاتذرني فردا - ثم - وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - ثم - ربنا هب لنا من أزواجنا - ثم - رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين - ثم - يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور - ثم - رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي - الآية من سورة الأحقاف ثم - ربنا اغفر لنا

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ اللهم أعني على سكرات الموت .

« أنا

«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة [1]» وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم .

(بيان كون الصبر نصف الايمان)

اعلم أن الايمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للايمان ركنان : أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» الحديث إلى آخره . الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع مايلاقيه العبد إلى ماينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما وله بالاضافة إلى مايضره حال الصبر وبالاضافة إلى ماينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الايمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين . باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الايمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الايمان فان اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة .

(بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالاضافة إلى ماعنه الصبر)

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر فان كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلما ويضاده التذمر وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوما وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ويضاده

ولاخواننا الذين — الآية ثم — ربنا عليك توكلنا — ثم — رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا — مهما يصل فليقرأ بهذه الآيات وبالمحافظة على هذه الآيات في الصلاة مواطئا للقلب واللسان يوشك أن يرقى إلى مقام الاحسان ولو ردد فرد آية من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت مناجيا لمولاه وداعيا وتاليا ومصليا والدؤوب في العمل واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لايصح

---

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم .

الحرص وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفه [1]» وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى ـ والصابرين فى البأساء ـ أى المصيبة ـ والضرّاء ـ أى الفقر ـ وحين البأس ـ أى المحاربة ـ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ـ فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظنّ أنّ هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامى مختلفة والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أوّلا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامى فانها وضعت دالة على المعانى فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع لابدّ وأن يزل وإلى الفريقين الاشارة بقوله تعالى ـ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ـ فانّ الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

(بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوّة والضعف)

اعلم أنّ باعث الدين بالاضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعى الهوى فلاتبقى له قوّة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلاجرم هم الصدّيقون المقرّبون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادى المنادى ـ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ـ . الحالة الثانية أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولايجاهد ليأسه من المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سرّ من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله وإليهم الاشارة بقوله تعالى ـ ولوشئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم ـ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ـ وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [2]» وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها أولم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال إن الله غفور رحيم كريم فلاحاجة به إلى توبتى وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلايستعمل عقله إلا فى استنباط دقائق الحيل التى بها يتوصل إلى قضاء شهوته فقد صار عقله فى يد شهواته كمسلم أسير فى أيدى الكفار فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ماكان حقه أن لايستسخر وسلط ماحقه أن لايتسلط عليه وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فمهما سخر المعنى الشريف

إلا لعبد تزكت نفسه بكمال التقوى والاستقصاء فى الزهد فى الدنيا وانتزع منه متابعة الهوى ومتى بقى على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لايدوم روحه فى العمل بل ينشط وقتا ويسأم وقتا ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شئ من الهوى بنقصان تقوى أومحبة دنيا وإذا صح فى الزهد والتقوى فان ترك العمل بالجوارح لايفتر عن العمل بالقلب فمن رام دوام الروح واستحلاء الذوق فى العمل فعليه بحسم مادة الهوى والهوى روح النفس لايزول ولكن

(١) حديث الحج عرفة أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم فى الحج

(٢) حديث الكيس من دان نفسه الحديث تقدم فى ذم الغرور .

الذى

الذى هو من حزب الله وجند للملائكة الممنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته لأن الهوى أبغض إله عبد فى الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض . الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد مايصبر عنه : فانه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لايغلب شيئا منها أو يغلب بعضها دون بعض وتنزيل قوله تعالى ـ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ـ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون المجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ولذلك قيل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر إلى مايشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا وإلى مايكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى ـ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ـ ومثال هذه القسمة قدرة الصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لايلقاه فى مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتى فى كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير [1] » وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين فى كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجرى فى صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا . واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكاره نفل والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على مايجرى على أهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الايمان لاينبغى أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

(بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لايستغنى عنه فى حال من الأحوال)

اعلم أن جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين : أحدهما هو الذى يوافق هواه.

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم .

تزول متابعته والنبى عليه السلام مااستعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته فقال « أعوذ بك من هوى متبع » ولم يستعذ من وجود الشح فانه طبيعة النفس ولكن استعاذ من طاعته فقال « وشح مطاع » ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وغلو الحال فقد يكون متبعا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر إليهم وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال فى النوم والأكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع وهذا شغل من ليس له شغل إلا فى الدنيا

والآخر هو الذي لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر. النوع الأول: ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فانه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان فان الانسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق. وقال سهل: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ـ وقال عز وجل ـ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ـ وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخلة مجبنة محزنة (١) » . « ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله ـ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ـ إني لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته (٢) » ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب وأن يرعى حقوق الله في ماله بالانفاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتي وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء. النوع الثاني ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام: القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان. الضرب الأول: الطاعة والعبد يحتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله ـ أنا ربكم الأعلى ـ ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان ممتنعا من إظهاره فان استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء؟ فاذن العبودية شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال: الأولى قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية والاخلاص والصبر عن شوائب الرياء

ثم يصلي العبد قبل العصر أربع ركعات فان أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فلكل ذلك أثر ظاهر في تنور الباطن وتكميل الصلاة ويقرأ في الأربع قبل العصر إذا زلزلت والعاديات والقارعة والهاكم ويصلي العصر ويجعل من قراءته في بعض الأيام والسماء ذات البروج وسمعت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الدماميل ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك فاذا صلى

(١) حديث الولد مجبنة مبخلة محزنة أبو يعلى الموصلي من حديث أبي سعيد وتقدم (٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن المنبر الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذي حسن غريب.

ودواعي

ودواعي الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس ، وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى (١) » وقال تعالى ـ وماأمروا إلاليعبدوا الله مخلصين له الدين ـ ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى ـ إلاالذين صبروا وعملوا الصالحات ـ الحالة الثانية : حالة العمل كي لايغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى ـ نعم أجر العاملين الذين صبروا ـ أي صبروا إلى تمام العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذيحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل مايبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ـ ولا تبطلوا أعمالكم ـ وكما قال تعالى ـ لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ـ فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى فقد أبطل عمله . والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله ـ إنّ الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ـ فالعدل هو الفرض ، والاحسان هو النفل ، وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج إلى صبر . الضرب الثاني المعاصي فما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى ـ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ـ وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه (٢) » والمعاصي مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فان العادة طبيعة خامسة فاذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلايقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصدبها الازراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم فان ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه ، وهي ضد ماأمر به من العبودية ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولايستنكر ذلك مع ماورد في الخبر « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد (٣) » فلاينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلاجرم يبقى

العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقي وقت الأذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده في الدنيا ويسدد كلامه عرا التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوي عزائم المؤيدين فاذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار وإن عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليتروح بالتنقل في أنواع الأذكار وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائي في الكبرى بالشطر الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسنادين جيدين وقد تقدما (٣) حديث إنّ الغيبة أشد من الزنا تقدم في آفات اللسان .

حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد وإلا فان لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه . القسم الثاني مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه كما لو أوذي بفعل أو قول وجني عليه في نفسه أوماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى ، وقال تعالى ـ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ـ « وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر [1] » وقال تعالى ـ ودع أذاهم وتوكل على الله ـ وقال تعالى ـ واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ـ وقال تعالى ـ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك ـ الآية وقال تعالى ـ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور ـ أي تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى ـ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ـ وقال صلى الله عليه وسلم «صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك [2] » ورأيت في الانجيل قال عيسى ابن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لاتقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا . القسم الثالث : مالايدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ماقبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فان ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «أسألك من اليقين ماتهون على به مصائب الدنيا [3] » فهذا صبر مستنده حسن اليقين . وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على مانكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم «قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أوماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا [4] »

في أول النهار ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء . وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازه المشايخ والصالحون ويقول كلما خرج من منزله بسم الله ماشاء الله حسبي الله لاقوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتني ؛ وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمرة أو لقمة فان القليل بحسن النية كثير . وروى أن عائشة رضي الله عنها أعطت السائل

---

(١) حديث قسمه مرة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٢) حديث صل من قطعك الحديث تقدم (٣) حديث أسألك من اليقين ماتهون به على مصائب الدنيا الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات (٤) حديث قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أوولده أوماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف .

وقال

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى - إنا لله وإنا إليه راجعون - اللهم اؤجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك [(٢)] » وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي [(٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فاذا أبرأته أبرأته ولاذنب له وإن توفيته فالى رحمتي [(٤)] » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ماأنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله ، قيل وكيف ذلك ؟ قال الراضي لايتمنى فوق منزلته ، وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال من أنتم قالوا أحباؤك جاءوك زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي ، وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها - واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا - ويقال إن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه، وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك [(٥)] » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كمه صرة فافتقدها فاذا هي قد أخذت من كمه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسقيك ماء فقال جرني قليلا إلى العدو واجعل الماء في الترس فاني صائم فان عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكي طريق

عتبة واحدة وقالت إن فيها لمثاقيل ذر كثير . وجاء في الخبر « كل امرىء يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من العصر إلى الغرب مائة مرة لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به

---

(١) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمرو وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذي من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم في الدعوات (٢) حديث مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس إن الله قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه الحديث الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسملي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ إذا أخذت كريمتي عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يارسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضعيف (٤) حديث يقول الله إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه الحديث مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد التيمي وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقي موقوفا على أبي هريرة (٥) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لاتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك .

الآخرة على بلاء الله تعالى . فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر فى المصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى فان كان المراد به أن لا تكون فى نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل فى الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة فى الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة فى اللبس والمفرش والمطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميصاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبى قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال مالهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ماصنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما فى ليلتهما [(١)] قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتنى دخلت الجنة فاذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة ، وقد قيل الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان إلى الموت ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبى صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له « أما نهيتنا عن هذا فقال إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسيأتى ذلك فى كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبى نجيح يعزى بعض الخلفاء إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له . واعلم أن الماضى قبلك هو الباقى لك والباقى بعدك هو المأجور فيك. واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذن مهما دفع الكراهة بالتفكر فى نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام فى جميع الأحوال والأفعال فان الذى كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يسكن وأكثر جولان الخواطر إنما يكون فى فائت لا تدارك له وفى مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون هذا إن كان فكره ووسواسه فى المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه فى جميع عمره أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه بل يقدر المخالفة من أخلص الناس فى حبه حتى فى أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر فى كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به

(١) حديث الرميصاء أم سليم توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت الحديث طب ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية والقصة فى الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين فقد ورد أن من قال فى يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله ويقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله الكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة ومائة

فى محالفته ولايزال فى شغل دائم فللشيطان جندان جندبطيروجنديسير والوسواس عبارةعن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلايتصور نار مشتعلة لاتتحرك بل لاتزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال ـ خلقتني من نار وخلقته من طين ـ فاذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلاينبغى أن يطمع فى سجوده لأولاده ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه وانقياده بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولوجعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة فلاينبغى أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلايتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلاأن تصبح وهمومك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلايجد الملعون مجالا فيك فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين ولاتظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء فى القدح فانك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أوبغيره فقد طمعت فى غير مطمع بل بقدر مايخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين لايخلو عن جولان الشيطان وإلافمن غفل عن الله تعالى ولوفى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ولذلك قال تعالى ـ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهوله قرين ـ وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ [1]» وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزدوج أفراخه أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلايزال تتوالد النار من النار ولاتنقطع البتة بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لاتبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلايبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة فاذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهى صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ماهو فقال هى نفسك إن لم تشغلها شغلتك فاذن حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لايقطعه إلا الموت نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

(بيان دواء الصبر ومايستعان به عليه)

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وإن كان شاقا أوممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الأخلاط التى منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك مما يطول

مرة ماشاء الله لاقوة إلا بالله ورأيت بعض الفقراء من المغرب بمكة وله سبحة فيها ألف حبة فى كيس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثنتى عشرة مرة بأنواع الذكر . ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم والليلة ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة ولقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح سبحان الله العلى الديان سبحان الله شديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار

(١) حديث إن الله يبغض الشاب الفارغ لم أجده .

ولكنا نعرف الطريق فى بعض الأمثلة . فنقول إذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لاتزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة . فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور : أحدها أن ننظر إلى مادة قوتها وهى الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلابد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل فى نفسه ضعيف فى جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة . الثانى قطع أسبابه المهيجة فى الحال فانه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس [1] » وهو سهم يسدده اللعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه . الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى تشتهيه وذلك بالنكاح فان كل مايشتهيه الطبع ففى المباحات من جنسه مايغنى عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع فى حق الأكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقمع الشهوة فى حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء [2]» فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضارى ليضعف فتسقط قوته . الثانى يضاهى تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لاتتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث يضاهى تسليتها بشىء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ماتصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقين أحدهما إطماعه فى فوائد المجاهدة وثمراتها فى الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره فى الأخبار التى أوردناها فى فضل الصبر وفى حسن عواقبه فى الدنيا والآخرة وفى الأثر: إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته مالايبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن أسلم خسيسا فى نفيس فلاينبغى أن يحزن لفوات الخسيس فى الحال وهذا من باب المعارف وهو من الايمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوى قوى باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وإن ضعف ضعفه وإنما قوة الايمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ماأوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر والثانى أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرىء عليها وتقوى منته فى مصارعتها فان الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التى تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين وبالجملة فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة فالعلاج الأول يضاهى أطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال ـ وإنكم إذا لمن المقربين ـ والثانى يضاهى تعويد الصبى

سبحان من لايشغله شأن عن شأن سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان . روى أن بعض الأبدال بات على شاطىء البحر فسمع فى هدء الليل هذا التسبيح فقال من الذى أسمع صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت فقلت مااسمك فقال مهلهيائيل قلت ماثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . وروى أن عثمان رضى

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام إبليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم الحديث تقدم فى النكاح .

الذى

الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفى مالم تصر الهموم هما واحدا وهو الله تعالى ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفى ذلك مالم يكن له مجال فى الفكر وسير بالباطن فى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو فى جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة . وأما النوع الثانى فهو ضرورى أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش فان تهيئة ذلك أيضا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة وفى تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى فى ملكوت السموات والأرض مالا يقدر على عشر عشيره فى زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ماينكشف ومبالغ مايرد من لطف الله تعالى فى الأحوال والأعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد ، نعم اختيار العبد فى أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى ــ وفى السماء رزقكم وما توعدون ــ وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندرى متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلى سنة عن مطر فكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الارادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة كما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما فى يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى

الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ــ له مقاليد السموات والأرض ــ فقال سألتنى عن شىء عظيم ماسألنى غيرك هو لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله عز وجل وأستغفر الله الأول الآخر الظاهر الباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شىء قدير من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال فأول خصلة أن يحرس من إبليس وجنوده الثانية أن يعطى قنطارا من الأجر الثالثة يرفع له درجة فى الجنة

تستدر بها الأمطار فى أوقات الاستسقاء وهى لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك فى قلبك وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب واظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من استرسالها إليها من مكان بعيد منخفض عنها ولكونه حاضرا فى القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الايمان تذكرا فقال تعالى ـ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ـ وقال تعالى ـ وليتذكر أولوا الألباب ـ وقال تعالى ـ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ـ فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر. قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق فى حب الحق شديد والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات فى الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهى الربوبية والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى ـ قل الروح من أمر ربى ـ وليس القلب مذموما على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضله وأغواه وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه وعزا لا ذل فيه وأمنا لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالا لا نقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموما على طلب ذلك بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو فى الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الانسان عجولا راغبا فى العاجلة فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التى فى طبعه فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور فى الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال ﷺ «والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فعبر عن المخذولين بقوله تعالى ـ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ـ وقال تعالى ـ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ـ وقال تعالى ـ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ـ ولما استطار مكر الشيطان فى كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ما تم على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقى عن الملك المجازى الذى لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلا فنادوا فيهم ـ يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ـ فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد والمراد منهم أن يكونوا ملوكا فى الدنيا ملوكا فى الآخرة أما ملك الدنيا فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاء لا فناء فيه وعزا لاذل فيه وقرة عين أخفيت فى هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضرتان ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضا

الرابعة يزوجه الله من الحور العين الخامسة اثنا عشر ملكا يستغفرون له السادسة يكون له من الأجر كمن حج واعتمر ويقول أيضا فى هذا الوقت وفى أول النهار اللهم أنت خلقتنى وأنت هديتنى وأنت تطعمنى وأنت تسقينى وأنت تميتنى وأنت تحيينى أنت ربى لارب لى سواك ولا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك ويقول ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله ويقول حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت

ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم فى التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقضى العمر ـ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ـ فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى ـ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ـ والزهد فى الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصده عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الايمان وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقته إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم اغترار الانسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا فى الدنيا منكوسا فى الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبدلى فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدلى فهذا إذن هو الملك فى الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك فى الآخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فاذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط فى ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكا فى الحال وترجو به ملكا فى الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه فى العلاج مجرد العلم والكشف بل لا بد وأن يضيف إليه العمل وعمله فى ثلاثة أمور : أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كى لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله فى سعة الأرض إذ قال تعالى ـ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ـ الثانى أن يكلف نفسه فى أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزى التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل فى مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغى أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة إلا بالمضادة . الثالث أن يراعى فى ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فان الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج فيترك البعض ويسلى نفسه بالبعض ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه وإلى هذا التدريج الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى [1] » وإليه الاشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فان من يشاده يغلبه [2] » فاذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر فى جميع الأقسام التى فصلناها من قبل فان تفصيل الآحاد يطول ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر

(١) حديث إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث أحمد من حديث أنس والبيهقى من حديث جابر وتقدم فى الأوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فانه من شاده يغلبه تقدم فيه .

وهو رب العرش العظيم ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة ويقرأ المسبعات قبل الغروب ويديم التسبيح والاستغفار بحيث تغيب الشمس وهو فى التسبيح والاستغفار ويقرأ عند الغروب أيضا والشمس والليل والمعوذتين ويستقبل الليل كما استقبل النهار قال الله تعالى ـ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ـ فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ينبغى أن يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر

دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب وإلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد ؟ فقال الصبر في الله تعالى فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فقال فإيش ؟ قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى ـ اصبروا وصابروا ورابطوا ـ اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه :

والصبر عنك فمذموم عواقبه   والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا : الصبر يجمل في المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر ، وله ثلاثة أركان

الأول : في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه . الثاني : في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة . الثالث : في بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول في نفس الشكر

(بيان فضيلة الشكر)

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال ـ ولذكر الله أكبر ـ فقال تعالى ـ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ـ وقال الله تعالى ـ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ـ وقال تعالى ـ وسنجزي الشاكرين ـ وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين ـ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ـ قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال تعالى ـ وقليل من عبادي الشكور ـ وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ـ واستثنى في خمسة أشياء في الاغناء والاجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى ـ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ـ وقال فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ـ وقال: يرزق من يشاء بغير حساب وقال : ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال : ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى ـ والله شكور حليم ـ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى ـ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ـ وقال ـ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ـ وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر[1]» وروى عن عطاء أنه قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأي شأنه لم يكن عجبا أتاني ليلة فدخل معي في فراشي أو قالت في لحافي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي قالت قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ولم لا أفعل ذلك

(١) حديث الطعام الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف .

ولا يتخللها شيء كما لا يتخلل بين الليل والنهار شيء والذكر جميع أعمال القلب والشكر أعمال الجوارح قال الله تعالى ـ اعملوا آل داود شكرا ـ والله الموفق المعين .

[الباب الحادي والخمسون في آداب المريد مع الشيخ] أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب وللقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد قال الله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن

وقد أنزل الله تعالى على ـ إن فى خلق السموات والأرض ـ (١) »الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغى أن لاينقطع أبدا وإلى هذا السر يشير ماروى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى ـ وقودها الناس والحجارة ـ فأنا أبكى من خوفه فسأله أن يجيره من النار فأجاره ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكى الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء فى حال الخوف والشكر جميعا . وروى عنه ﷺ أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقم الحامدون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحامدون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال (٢) »وفى لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء» وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن (٣) » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام إنى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائى فى كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضا فى صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إلى أزيدهم ولما نزل فى الكنوز مانزل . قال عمر رضى الله عنه « أى المال نتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شا كرا (٤) » فأمر باقتناء القلب الشا كر بدلا عن المال . وقال ابن مسعود الشكر نصف الايمان.

(بيان حد الشكر وحقيقته)

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل ، فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل فى حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال معانيه . فالأصل الأول : العلم وهو علم بثلاثة أمور بعين النعمة ووجه كونها نعمة فى حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفتها هذا فى حق غير الله تعالى فأما فى حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى فى معارف الايمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل وعن هذا عبر

الله سميع عليم ـ . روى عن عبد الله بن الزبير قال قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى تميم فقال أبو بكر أمر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ماأردت إلا خلافى وقال عمر ماأردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا ـ الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتقدموا لاتتكلموا بين يدى كلامه وقال جابر كان ناس يضحون قبل رسول الله فنهوا عن تقديم الأضحية على

---

(١) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب مارأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأى أمره لم يكن عجبا الحديث فى بكائه فى صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزى فى الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبى حية ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان فى صحيحه من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء دون قولها وأى أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر الحديث (٢) حديث ينادى يوم القيامة ليقم الحامدون الحديث الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة الحامدون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (٣) حديث الحمد رداء الرحمن لم أجد له أصلا وفى الصحيح من حديث أبى هريرة الكبر رداؤه الحديث وتقدم فى العلم (٤) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شا كرا الحديث تقدم فى النكاح .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله [(٢)] » وقال « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله [(٣)] » ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها فى القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التى هى من أبواب الإيمان واليقين.

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به فى النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا فى حق الملك، نعم لا يغض من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه وبالكاغد الذى كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الإيصال وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من إضافة النعمة إلى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا فى يد الكاتب وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها فإن الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتفعل شاءت أم أبت كالخازن المضطر الذى لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعى وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك وألقى فى قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرا إلى الإيصال إليك فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته: إلهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال الله عز وجل اعلم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه فإن خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأصل. الأصل الثانى: الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا فى نفسه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان قوم يقولون لو أنزل فى كذا وكذا فكره الله ذلك وقالت عائشة رضى الله عنها أى لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكلبي لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذى يأمركم به وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف فى نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى فى باب المشيخة وقيل لا تقدموا لا تمشوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات الحديث تقدم فى الدعوات (٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن ابراهيم النخعى يقال إن الحمد أكثر الكلام تضعيفا .

شكر على تجرّده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه ، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام ، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول: الملك الذى يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس وهذا فرح من لا حظ له فى الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح . الوجه الثانى أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا أو استحقاره له بالاضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك . الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج فى خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشىء من ماله على أحد إلا بواسطته ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الانعام فى المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وإنما الشكر التامّ فى الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا . وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلى رحمه الله : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال الخوّاص رحمه الله : شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواسّ من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرّة كما قيل :

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّا به الماء الزلالا

فاذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فان لم تكن إبل فمعزى ، فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية . أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه .

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح . أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من

أبو الدرداء قال كنت أمشى أمام أبى بكر فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة وقيل نزلت فى أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا سئل الرسول عليه السلام عن شىء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى فنهوا عن ذلك وهكذا أدب المريد فى مجلس الشيخ ينبغى أن يلزم السكوت ولا يقول شيئا بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له فى ذلك وشأن

الاستعانة بها على معصيته حتى إن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال فى الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذى أردت منك [1]» وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وماكان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لاتقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شىء إلى عبد مملوك لايقدر على شىء فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء وذلّ العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذلّ وإظهار الذلّ للعبد مع كونه عبدا مثله ذلّ قبيح قال الله تعالى ـ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ـ وقال تعالى ـ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ـ فالشكر باللسان من جملة الشكر. وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال ياأمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أسنّ منك فقال تكلم فقال لسنا وفد الرغبة ولاوفد الرهبة أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان ونتصرف. فهذه هى أصول معانى الشكر المحيطة بمجموع حقيقته. فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب. وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرّد عمل اللسان وقول القائل إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معانى الشكر لايشذ منه إلا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك فى الشكر طفيليا إشارة إلى أن معنى للمعرفة من معانى الشكر فقط وقول الجنيد الشكر أن لاترى نفسك أهلا للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولاتتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد فى حالتين لأنهم لايتكلمون إلاعن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عمالايهمهم أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج إليه وإعراضا عما لايحتاج إليه فلاينبغى أن تظنّ أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لوعرض عليهم جميع المعانى التى شرحناها كانوا ينكرونها بل لايظنّ ذلك بعاقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ فى أن اسم الشكر فى وضع اللسان هل يشمل جميع المعانى أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعانى تكون من توابعه ولوازمه ولسنا نقصد فى هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة فى شىء والله الموفق برحمته.

المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه فتطلعه الى الاستماع ومايرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطلعه الى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شىء لنفسه وذلك جناية المريد. وينبغى أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لايحتاج إلى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد لأن الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق

---

[1] حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال فى الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذى أردت منك الطبرانى فى الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال فى الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه فى المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله إليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك فى الموطأ موقوفا على عمر باسناد صحيح.

(بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى)

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ فى الشكر فانا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم فى القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التى هى إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم فى صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشىء من ذلك وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعا سجدا فشكرنا إياه بما لا حظ له فيه يضاهى شكرنا الملك النعم علينا بأن تنام فى بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ولا حظ لله تعالى فى أفعالنا كلها. الوجه الثانى أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التى هى أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا للأول منا بل كان الثانى يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك فى الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع . فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفى لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى وفى خبر آخر إذا عرفت أن النعمة منى رضيت منك بذلك شكرا . فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم فانى أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه . فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهى أعلى من علوم المعاملة ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره وأن كل شىء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذن ليس فى الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قرأ ـ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ـ فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث قرىء بين يديه ـ يحبهم ويحبونه ـ فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم

وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقى لهم فيكون لسانه وقلبه فى القول والنطق مأخوذين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح به عليه لأن الشيخ يعلم تطلع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله والقول كالبذر يقع فى الأرض فاذا كان البذر فاسدا لا ينبت وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها فالشيخ ينقى بذر الكلام عن شوب الهوى ويسلمه إلى الله ويسأل الله المعونة والسداد ثم يقول فيكون كلامه بالحق

فيحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لاتفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل مافى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته فان أحبه فما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل فى كل يوم أرطالا من الخبز فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعانى كلامهم وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الاشارة بقوله تعالى ـ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ـ ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم إذ قال تعالى ـ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ـ وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال ـ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ـ فهذا أحد النظرين. النظر الثانى نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين لأنهم نفوا ماهو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لاثبات لهم ولا وجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الموجود وبين الموجد وليس فى الوجود إلا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان وإذا كان كل من عليها فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثانى ليس بهم عمى ولكن بهم عور لأنهم يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذى قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتا بين الموجودين فأثبت عبدا وربا فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل فى حد التوحيد ثم إن كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه وبقدر مايزيد فى بصره يظهر له نقصان ماأثبته سوى الله تعالى فان بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو فينمحى عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصا فى وجود ماسوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد وبينهما درجات لاتحصى فبهذا تتفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هى الكحل الذى به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم الكحالون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا ـ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ـ فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لايثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لايدوم والدوام فيه عزيز:

من الحق الحق فالشيخ للمريدين أمين الإلهام كما أن جبريل أمين الوحى فكما لا يخون جبريل فى الوحى لايخون الشيخ فى الإلهام وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاينطق عن الهوى فالشيخ مقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا لايتكلم بهوى النفس. وهوى النفس فى القول بشيئين: أحدهما طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه وما هذا من شأن الشيوخ. والثانى ظهور النفس باستحلاء الكلام والعجب وذلك خيانة عند المحققين

لكلّ إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه سلم بطلب القرب فقيل له ـ واسجد واقترب ـ قال فى سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك [(١)] » فقوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلاالله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال «أعوذ برضاك من سخطك» وهماصفتان ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وأعوذبك منك » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارّا منه إليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال «لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فقوله صلى الله عليه وسلم «لاأحصى» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله « أنت كما أثنيت على نفسك » بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن ـ كل شىء هالك إلاوجهه ـ فكان أوّل مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهوأن لايرى إلاالله تعالى وأفعاله فيستعيذ بفعل من فعل فانظر إلى ماذا انتهت نهايته اذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لايرقى من رتبة إلى أخرى إلاويرى الأولى بعدا بالاضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصافى سلوكه وتقصيرا فى مقامه وإليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة [(٢)] » فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أوّلها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالاضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك،ولماقالت عائشة رضى الله عنها «أليس قد غفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وماتأخر فماهذا البكاء فى السجود وماهذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا [(٣)] » معناه أفلا أكون طالبا للمزيد فى المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ـ وإذا تغلغلنا فى بحار المكاشفة فلنقبض العنان ، ولنرجع إلى مايليق بعلوم المعاملة ، فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعندذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر فى ذلك المقام بالاضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ولا يعرف ذلك إلا بمثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبدقد بعدمنه مركوبا وملبوسا ونقدا لأجل زاده فى الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان : إحداهما أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية فى خدمته ، والثانية أن لايكون للملك حظ فى العبد ولاحاجة به إليه بل حضوره لايزيد فى ملكه

والشيخ فيما يجرى على لسانه راقد النفس تشغله مطالعة نعم الحق فى ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب فيكون الشيخ لما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقى إليه وكان يقول أنا فى هذا الكلام مستمع كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل هو يعلم مايقول كيف يكون كمستمع لايعلم حتى يسمع منه فرجع إلى منزله فرأى ليلته

---

(١) حديث قال فى سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك الحديث (٢) حديث إنه ليغان على قلبى الحديث تقدّم فى التوبة وقبله فى الدعوات (٣) حديث عائشة لماقالت له غفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وماتأخر فماهذا البكاء الحديث رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدّم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو فى الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبة .

لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغنى فيه غناه وغيبته لاتنقص من ملكه فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو فى نفسه لالينتفع الملك به وبانتفاعه فمنزل العباد من الله تعالى فى المنزلة الثانية لافى المنزلة الأولى فان الأولى محال على الله تعالى والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لايكون شاكرا فى الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يقم بخدمته التى أرادها الملك منه . وأما فى الحالة الثانية فلايحتاج إلى الخدمة أصلا ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بأن يستعمل ماأنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لالأجل نفسه وكفره أن لايستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد فى بعده منه فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلافى الطريق فقد شكره مولاه إذا استعمل نعمته فى محبته: أى فيما أحبه لعبده لالنفسه وان ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أى استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لالنفسه وان جلس ولم يركب لافى طلب القرب ولافى طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته اذ أهملها وعطلها وان كان هذا دون مالو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وإنما سعادتهم فى القرب منه فأعد لهم من النعم مايقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال ــ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا ــ الآية فاذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها فى الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها فى معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية وإن عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع وكل ماخلق فى الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله فى الأسباب التى استعملها فى الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها فى طريق البعد فهو كافر جار فى غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لاتشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من إفشائه وقد انحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وبهذا أيضا ينحل الثانى فانا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله فى جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك وثناؤه نعمة أخرى منه إليك فهو الذى أعطى وهو الذى أثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى إلى جهة محبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شىء إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أنت لاشىء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك فأما باعتبار النظر إلى الذى جعل الأشياء شيئا فأنت شىء إذ جعلك شيئا فان قطع النظر عن جعله كنت لاشىء تحقيقا وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له[1]» لما قيل له يارسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض وقوله اعملوا وإن كان جاريا على

في المنام كأن قائلا يقول له أليس الغواص يغوص فى البحر لطلب الدر ويجمع الصدف فى مخلاته والدر قد حصل معه ولكن لايراه إلا اذا خرج من البحر ويشاركه فى رؤية الدر من هو على الساحل فهم بالمنام إشارة الشيخ فى ذلك فأحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولا وفعلا وقيل أيضا فى قوله تعالى ــ لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ــ لاتطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث على وعمران بن حصين .

لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وإنبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثانى كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ومعنى كونه شرطا أنه لايستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه . فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان وما إلينا شيء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ولا قادر إلا الملك الجبار وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى ــ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ــ ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ولكن الغافلين لايسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لاينفعهم الكشف ، فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فانه أصل أسباب الهلاك .

(بيان تمييز مايحبه الله تعالى عما يكرهه)

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لايتم إلا بمعرفة مايحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه ولتمييز مايحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان : أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار . والثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد فمن لايطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه اذ ماخلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها

محاسن الآداب وأعزها وينبغى للمريد أن لايحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ بل يحب للشيخ كل منزلة عالية ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الإرادة وهذا يعز فى المريدين فإرادته للشيخ تعطيه فوق مايتمنى لنفسه ويكون قائما بأدب الإرادة . قال السرى رحمه الله حسن الأدب ترجمان العقل . وقال أبو عبد الله بن خفيف قال لى رويم يابنى اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا ، وقيل التصوف كله أدب

بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التى تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى ـ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا ـ الآية . وأما الحكمة فى سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذى يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى ـ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ـ فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش واليد للبطش لا للمشى والرجل للمشى لا للشم فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالاضافة إلى ما فى علم الله تعالى ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ـ فاذن كل من استعمل شيئا فى جهة غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذ الإبصار يتم بهما وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه ويتقى بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما فى غير ما أريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به فى الدنيا والتجافى عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس والراجع إلى الله تعالى هى النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك قال تعالى ـ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق ـ الآية فكل من استعمل شيئا فى غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لابد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التى ليست فى غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة فى أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة فى مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد فى مقدار العوض من تقدير إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله فى الوزن أو الصورة وكذا من يشترى دارا بثياب أو عبدا بخف أو دقيقا بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى

لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ـ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ـ كان ثابت بن قيس بن شماس فى أذنه وقر وكان جهورى الصوت فكان إذا كلم انسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأنزل الله تعالى الآية تأديبا له ولغيره .

مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لاغرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك في حق من لاغرض له فلا ينتظم الأمر فاذن خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولاغرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا فانه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلا فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء والشيء إنما تستوى نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون فكذلك النقد لاغرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لامعنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره فهذه هي الحكمة الثانية وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لايليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لاغرض للآحاد في أعيانهما فانهما حجران وإنما خلقا لتتداولهما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لاحرف فيه ولاصوت الذي لايدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه فقال تعالى ـ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ـ وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد وإنما الأواني لحفظ المائعات ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم[1] وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لالنفسهما إذ لاغرض في عينهما فاذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ماوضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لايقدر على أن يشترى به طعاما ودابة إذ ربما لايباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فانهما وسيلتان إلى الغير لاغرض في أعيانهما وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون إن الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره وكموقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا محمد ابن المثنى قال ثنا مؤمل ابن إسمعيل قال ثنا نافع ابن عمر بن جميل الجمحي قال حدثني حابس بن أبي مليكة قال حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر استعمله على قومه فقال عمر لا تستعمله يارسول الله فتكلما عند النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة ولم يصرح المصنف بكونه حديثا .

كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم . فان قلت : فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله . فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر فى مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا ففى المنع منه مايشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إن ذلك لايرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لانخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه فلا نمنع مما لاتتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لايتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لايرضى بمثله من الردىء فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة فى الردىء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر إليهما فيما يقصد فى عينه ، وما لاغرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر إلى مضافات دقيقة فى صفاته وإنما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة فى أعيانها وحقها أن لاتقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فانما لم يجز ذلك لأنه لايقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر . والمعارضة لاحمد فيها ولا أجر فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها فى معرض المعاوضة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف عن جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها فى الأيدى ويؤخر عنها الأكل الذى أريدت له فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها . إذ من معه طعام فلم لايأكله إن كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ولهذا ورد فى الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ماذكرناه فى كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالتمر معذور إذ أحدهما لايسد مسد الآخر فى الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لاتسمح به إلا عند التفاوت فى الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لايرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوى الردىء فى أصل الفائدة ويخالفه فى وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع فى تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فانه أقوى من جميع ماأوردناه فى الخلافيات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله فى التخصيص بالأطعمة دون المكيلات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأقوات ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ماهو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لايقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق فى اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فعين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى ـ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ـ

ولأن

حتى علت أصواتهما فقال أبو بكر لعمر ماأردت إلا خلافى وقال عمر ما أردت خلافك فأنزل الله تعالى الآية فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبى صلى الله عليه وسلم لايسمع كلامه حتى يستفهم . وقيل لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لايتكلم عند النبى صلى الله عليه وسلم إلا كأخى السرار فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ لاينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ فرفع الصوت تنحية جلباب الوقار والوقار إذا سكن

ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد كما حد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ماخلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ـ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ـ ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء (١)» وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين إذ خلق الله لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ثم أحوجك من أعطائك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فاذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك وقسم الجهات إلى مالم يشرفها وإلى ماشرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك وكذلك انقسمت أفعالك إلى ماهي شريفة كالطاعات وإلى ماهي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق فاذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأن الخف وقاية للرجل فللرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروها حتى إن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين بلي باصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها فقبيح أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع خمرا في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال خان من وجهين : أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض فينمحق بعضها في جنب البعض فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق

القلب عقل اللسان مايقول وقد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ مالا يستطيع المريد أن يشبع النظر إلى الشيخ وقد كنت أحم فيدخل على عمي وشيخي أبو النجيب السهروردي رحمه الله فيترشح جسدي عرقا وكنت أتمنى العرق لتخف الحمى فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ علي ويكون في قدومه بركة وشفاء وكنت ذات يوم في البيت خاليا وهناك منديل وهبه لي الشيخ وكان يتعمم به فوقع قدمي على المنديل اتفاقا فتألم

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية فى نفسه فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه فى الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثر فى العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذى هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى فى خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة. وأما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل فان كان له غرض صحيح فله ذلك إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الانسان فانهما جميعا فانيان هالكان فافناء الأخس فى بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا وإليه الاشارة بقوله تعالى ــ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ــ نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا لأن كل شجرة بعينها لا تفى بحاجات عباد الله كلهم بل تفى بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر ووضعه فى الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك ، فان نبت ذلك فى موات الأرض لا بسعى آدمى اختص بغرسه أو بغرسه فلابد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فللسابق خاصية السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا الملك الملوك الذى له ما فى السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم فى الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد فان اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفى بحاجة كل العبيد فالعدل فى التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته، فهكذا ينبغى أن تفهم أمر الله فى عباده ولذلك نقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا فى حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة وأواخر الأعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار فى الاتفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن اليه إذ قال تعالى ــ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ــ بل الحق الذى لا كدورة فيه والعدل الذى لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج اليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التى بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه

باطنى من ذلك وهالنى الوطء بالقدم على منديل الشيخ وانبعث من باطنى من الاحترام ما أرجو بركته . قال ابن عطاء فى قوله تعالى ــ لا ترفعوا أصواتكم ــ زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة وقال سهل فى ذلك لا تخاطبوه إلا مستفهمين . وقال أبو بكر بن طاهر لا تبدءوه بالخطاب ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أى لا تغلظوا له فى الخطاب ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادى بعضكم بعضا ولكن فخموه

فى الدنيا والآخرة لحن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لانفى إلا بالقليل وإنما أوردنا هذا القدر لتعلم علة الصدق فى قوله تعالى ـ وقليل من عبادى الشكور ـ وفرح إبليس لعنه الله بقوله ـ ولاتجد أكثرهم شاكرين ـ فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرورا، ذلك تنقضى الأعمار دون استقصاء مباديها ، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فان قلت فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة فى كل شىء وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الأشكال باق وهو أن فعل العبد المنقسم إلى مايتمم الحكمة وإلى مايرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى فأين العبد فى البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا أخرى . فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير ويجحدها من عجز عن الإيضاع فى السير فضلا عن أن يجول فى جو الملكوت جولان الطير فنقول : إن لله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادى إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض فى نور الشمس ولكن لضعف فى أبصار الخفافيش فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم فى الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التى سبقت عبارة المشيئة فهى توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات التى هى حروف وأصوات المتفاهمين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ماينساق إلى المنتهى الذى هو غاية حكمتها وإلى مايقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التى بها تم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل إنهما جميعا داخلان فى وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى فى النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجملا عند طالبى الفهم من الألفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم فى الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها فى بعض الأمور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين فى إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه فى الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال وظهر على من ارتضاه فى الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف

واحترموه وقولوا له : يانبى الله يارسول الله ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ وإذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب . ولما كلفت النفوس محبة الأولاد والأزواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهى تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها فاذا امتلأ القلب حرمة ووقارا تعلم اللسان العبارة . وروى لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى فمر به عاصم بن عدى فقال

بخلعة الثناء والإطراء زيادة فى الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فاذا تم زينته قال ياجميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور فى الأزل وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل إنه كلح بالبصر أو هو أقرب ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلى ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادى إلى غير نهاية وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى فى السموات والأرض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فمسته نار فاشتعل نورا على نور فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هى عليه فقيل لهم تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا [(١)] فان للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين فى كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب ... كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلا له وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما فاذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشى على الماء إلى المشى على الأرض والسباحة يمكن أن تتعلم فأما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للنبى صلى الله عليه وسلم « إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لمشى على الهواء [(٢)] » فهذه

ما يبكيك ياثابت قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فى ـ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ـ وأنا رفيع الصوت على النبى صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملى وأكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى إذا خرجت عطفته وقال لا أخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الطبرانى من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا (٢) حديث قيل له يقال إن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء وهذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزنى قال فقد الحواريون نبيهم فقيل له توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه . فلما انتهوا إلى البحر

رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والانس إلا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى ـ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ـ وقال تعالى ـ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ـ وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى ـ ليضل عن سبيله ـ والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى غضب عليه والارشاد سياقة لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى أحبه وعندك فى العادة له مثال فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغى أن تقول هذا فعلى ولم يكون فعله دون فعلى؟ فانك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل فان عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك فى التعبير هو فعله الذى رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك فى عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذى ينظر ليلا إلى لعب الشعبذ الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهى مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر فى ظلام الليل ورءوسها فى يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد ، وأما العقلاء فانهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذى يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذى الأمر إليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفون والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رءوس تلك الخيوط فى مناطات لها هى معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى أيدى الملائكة المحركين للسموات وشاهدوا أيضا ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كى لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات فى القرآن وقيل ـ وفى السماء رزقكم وما توعدون ـ وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل ـ خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ـ وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص

آتى عاصم النبي وأخبره بخبره قال اذهب فادعه فجاء عاصم إلى المكان الذى فيه رآه فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده فى بيت الفرس فقال له إن رسول الله يدعوك فقال اكسر الضبة فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ياثابت فقال أنا صيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ترضى أن تعيش سعيدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال قد رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتى أبدا على

إذا هو قد أقبل يمشى على الماء فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

الراسخين فى العلم بعلوم لاتحتملها أفهام الخلق حيث قرأقوله تعالى ـ يتنزل الأمر بينهن ـ فقال لوذكرت ماأعرفه من معنى هذه الآية لرجمتمونى وفى لفظ آخر لقلتم إنه كافر. ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ماليس منه فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول: إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملا فى إتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضا ترتيب ومامنهم إلاوله مقام معلوم وأعلاهم فى رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام وإنما علوّ درجتهم لأنهم فى أنفسهم كرام بررة وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ويلى درجتهم درجة الأنبياء فانهم فى أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته وأعلاهم رتبة نبينا ﷺ وعليهم إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فانهم فى أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ماأصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فانه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ثم يلى العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع . واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغى أن يستحقر وإن كان ظالما فاسقا . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم. وقال النبى صلى الله عليه وسلم «سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ويفسدون ومايصلح الله بهم أكثر فان أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر[1]». وقال سهل من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أى الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال مهلا إن لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم فيطلع فى صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصا يقصون.

(الركن الثانى من أركان الشكر ماعليه الشكر)

وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فان إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى ـ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ـ فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد والله الموفق للصواب .

(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هى

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدون ومايصلح الله بهم أكثر الحديث مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ورواه الترمذى بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أوحاف أوظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأماقوله ومايصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ إلاأنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله اصبروا فان جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثا والإمارة الفاجرة خير من الهرج رواه الطبرانى فى الكبير باسناد لابأس به .

رسول الله فأنزل الله تعالى ـ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ـ قال أنس كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة ماكنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله

السعادة الأخروية وتسمية ماسواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لاتعين على الآخرة نعمة فان ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات [القسمة الأولى] أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ماهو نافع فى الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق وإلى ماهو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق وإلى ماينفع فى الحال ويضر فى المآل كالتلذذ باتباع الشهوات وإلى مايضر فى الحال ويؤلم ولكن ينفع فى المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع فى الحال المضر فى المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فانه يعده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة فالصبى الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيء له أسبابه فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها فان الأب لكمال عقله يلمح العاقبة والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال والصبى لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوا له ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطنا فى صورة صديق لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل إنسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو [قسمة ثانية] اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ولكن تنقسم إلى مانفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب وإلى ماضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكافىء ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لايزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه [قسمة ثالثة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ماهو مؤثر لذاته لالغيره وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول مايؤثر لذاته لالغيره كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التى لاانقضاء لها فانها لاتطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها . الثانى مايقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته كالدراهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لاتنقضى بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده وهو غاية الجهل والضلال . الثالث مايقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا وتقصد أيضا لذاتها فان الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذى تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل

صلى الله عليه وسلم وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام فقال له اعلم أن فلانا رجلا من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهو فى ناحية من العسكر وعنده فرس يستن فى طيله وقد وضع على درعى برمة فائت خالد ابن الوليد فأخبره حتى يسترد درعى وائت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له إن على دينا حتى يقضى عنى وفلان من عبيدى عتيق فأخبر الرجل خالدا فوجد الدرع والفرس على ماوصفه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر

من حيث إنها سلامة فإذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا وما يؤثر لذاته ولغيره أيضافهو نعمة ولكن دون الأول فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان فى أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة [قسمة رابعة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل فاللذيذ هو الذى تدرك راحته فى الحال والنافع هو الذى يفيد فى المآل والجميل هو الذى يستحسن فى سائر الأحوال . والشرور أيضا تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما فى الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما فى الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال فى عذاب دائم لا محالة . والضرب الثانى المقيد وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالاضافة إلى بعض الأحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح فى الحال إلى أن يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال فى البحر عند خوف الغرق فإنه ضار للمال نافع للنفس فى نجاتها والنافع قسمان ضرورى كالإيمان وحسن الخلق فى الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما وإلى مالا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا فى تسكين الصفراء فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه [قسمة خامسة] اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ واللذات بالإضافة إلى الانسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات أما العقلية فكلذة العلم والحكمة إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجودا وهى أشرفها أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم والحكمة لا يستلذها إلا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ودائمة لا تمل فالطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل ومن قدر على الشريف الباقى أبد الآباد إذا رضى بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد فهو مصاب فى عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص بالانفاق والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لا تمتد إليه أيدى السراق بالأخذ ولا أيدى السلاطين بالعزل فيكون صاحبه فى روح الأمن أبدا وصاحب المال والجاه فى كرب الخوف أبدا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل فى كل حال أبدا والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرآن فى مواضع وإن سماه خيرا فى مواضع وأما قصور أكثر الخلق

عن

بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس رضى الله عنهما لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه فهذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعتبر المريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض مالو كان فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال ــ أولئك

عن إدراك لذة العلم فإما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق إذالشوق تبع الذوق وإمالفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذى لايدرك حلاوة العسل ويراه مرّا وإما لقصور فطنتهم إذلم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذى لايدرك لذة العسل والطيور السمان ولايستلذ إلااللبن وذلك لايدل على أنها ليست لذيذة ولااستطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة إما من لم يحى باطنه كالطفل وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى ـ فى قلوبهم مرض ـ إشارة إلى مرض العقول وقوله عزوجلّ ـ لينذر من كان حيا ـ إشارة إلى من لم يحى حياة باطنة وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عندالله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان . الثانية لذة يشارك الانسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود فى الأسدوالنمر وبعض الحيوانات . الثالثة مايشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا وهى أخسها ولذلك اشترك فيها كل مادبّ ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبث به لذة الغلبة وهو أشدّها التصاقا بالمتغافلين فان جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصدّيقين ولاينال تمامها إلابخروج استيلاء حب الرياسة من القلب وآخر مايخرج من رءوس الصدّيقين حبّ الرياسة وأماشره البطن والفرج فكسره ممايقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لايقوى على كسرها إلاالصدّيقون فأما قمعها بالكلية حتى لايقع بها الإحساس على الدوام وفى اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى فى أحوال لايقع معها الاحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لايدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لاتقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعندهذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام قلب لايحبّ إلاالله تعالى ولايستريح إلابزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لايدرى مالذة المعرفة ومامعنى الأنس بالله وإنمالذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه فى بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه فى بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة أماالأوّل فان كان ممكنا فى الوجود فهو فى غاية البعد وأماالثانى فالدنيا طافحة به وأما الثالث والرابع فموجدان ولكن على غاية الندور ولايتصوّر أن يكون ذلك إلانادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة وإنماتكون كثرته فى الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلايزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإنما وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادى ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لايكثرون فكما لايكون الفائق فى الملك والجمال إلانادرا وأكثر الناس من دونهم فكذا فى ملك الآخرة فانّ الدنيا مرآة الآخرة فانها عبارة عن عالم الشهادة والآخر عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة والصورة فى المرآة وإن كانت هى الثانية فى رتبة الوجود فانها أولى فى حق رؤيتك فانك لاترى نفسك وترى صورتك فى المرآة أوّلا فتعرف بها صورتك التى هى قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فالقلب التابع فى الوجود متبوعا فى حق المعرفة والقلب التأخر متقدّما وهذا نوع من الانعكاس

الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ـ أى اختبر قلوبهم وأخاصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه وكما أن اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدّب القلب فهذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ . قال أبوعثمان الأدب عند الأكابر وفى مجالسة السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا والخير فى الأولى والعقبى ألاترى إلى قول الله تعالى ـ ولوأنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ـ ومما علمهم الله تعالى قوله سبحانه ـ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات

ولكن الانعكاس والاتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلاينظر فى شئ من عالم الملك إلاويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال ـ فاعتبروا ياأولى الأبصار ـ ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس فى عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفئدة إلا أنّ بينه وبين إدراك ألمها حجابا فاذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ومرة بادراك آخر يسمى عين اليقين وعين اليقين لايكون إلا فى الآخرة وعلم اليقين قد يكون فى الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فلذلك قال الله تعالى ـ كلا لوتعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم ـ أى فى الدنيا ـ ثم لترونها عين اليقين ـ أى فى الآخرة فاذا قد ظهر أنّ القلب الصالح لملك الآخرة لايكون إلاعزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا.

(قسمة سادسة حاوية لجامع النعم)

اعلم أنّ النعم تنقسم إلى ماهى غاية مطلوبة لذاتها وإلى ماهى مطلوبة لأجل الغاية أماالغاية فانها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء لهوسرور لاغمّ فيهوعلم لاجهل معهوغنى لافقر بعده وهى النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاعيش إلاعيش الآخرة[(١)]» وقال ذلك مرة فى الشدّة تسلية للنفس وذلك فى وقت حفر الخندق فى شدّة الضرّ وقال ذلك مرة فى السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحداق الناس به فى حجة الوداع[(٢)] وقال رجل «اللهم إنى أسألك تمام النعمة فقال النبى صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ماتمام النعمة؟ قال لا قال تمام النعمة دخول الجنة[(٣)]» وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى مايليه فى القرب كفضائل البدن وهو الثانى وإلى مايليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة وإلى مايجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهى إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الايمان وحسن الخلق وينقسم الايمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وإلى علوم المعاملة، وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لايمتنع أصلا ولايقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى ـ أن لاتطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان ـ فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أوترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات أوترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج فقد طغى فى الميزان وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان فاذن الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولايتم هذا فى غالب الأمر إلا بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية

أكثرهم لايعقلون ـ وكان هذا الحال من وفد بنى تميم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوا يامحمد اخرج إلينا فان مدحنا زين وذمنا شين قال فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم وهو يقول «إنما ذلكم الله الذى ذمه شين ومدحه زين» فى قصة طويلة وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم فغلبهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والأنصار بالخطبة وفى هذا تأدب للمريد فى الدخول على الشيخ والإقدام عليه وتركه الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الشيخ من

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لاعيش إلاعيش الآخرة متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث قوله فى حجة الوداع لاعيش إلاعيش الآخرة الشافعى مرسلا والحاكم متصلا وصححه وتقدم فى الحج (٣) حديث قال رجل اللهم إنى أسألك تمام النعمة الحديث الترمذى من حديث معاذ بسند حسن

وهى

وهى أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولاتتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهى أربعة المال والأهل والجاه وكرم العشيرة ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهى الأسباب التى تجمع بينها وبين مايناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى أربعة : هداية الله ورشده وتسديده وتأييده ، فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لاسبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما فليس للانسان إلاماسعى وليس لأحد فى الآخرة إلاما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية التى تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورى . وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل فان ذلك لوعدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة. فان قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشيرة. فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود . أما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية : كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نعم المال الصالح للرجل الصالح [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على تقوى الله المال [2] » وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب الأقوات وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات. وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعيم فقال : الغنى فانى رأيت الفقير لاعيش له ، قيل زدنا ، قال الأمن فانى رأيت الخائف لاعيش له ، قيل زدنا ، قال العافية فانى رأيت المريض لاعيش له ، قيل زدنا ، قال الشباب فانى رأيت الهرم لاعيش له ، وكأن ماذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها [3] » وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على الدين المرأة الصالحة [4] » وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له [5] » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد فى كتاب النكاح . وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدى فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة فى دينه مالوانفرد به لطال شغله وكل مايفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو إذن نعمة . وأما العز

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله المال أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا ومن طريقه رواه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا (٣) حديث من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه الحديث الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصارى وقد تقدم (٤) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم أجد له إسنادا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبى هريرة وتقدم فى النكاح .

موضع خلوته . صحت أن الشيخ عبدالقادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير فانتهى ماخطر للفقير إلى الشيخ فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبية فنكتفى معه بموافقة القلوب

والجاه فيه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضيم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لاينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . قال تعالى ـ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ـ ولا معنى للجاه إلى ملك القلوب كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لاملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه وكذلك علماء الدين لاعلى قصد التناول من خزائنهم والاستئثار والاستكثار فى الدنيا بمتابعتهم ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة [1] ، فان قلت كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش [2] » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام [3] وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، فقيل وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء فى النبت السوء [5] » فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل . فان قلت فما معنى الفضائل البدنية . فأقول لاخفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى

(١) حديث مانال صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد مالقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل الحديث والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت فى الله ومايؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبى ﷺ هاربا من مكة ومعه بلال وللبخارى عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ماصنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه الحديث وللبزار وأبى يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وإسناده صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الأئمة من قريش النسائى والحاكم من حديث أنس باسناد صحيح (٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة فى نسب آدم. الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد إسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى إن الله اصطفى من ولد إبراهيم اسمعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب بن ربيعة وصححه وللمطلب بن أبى وداعة وحسنه إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس مابال أقوام يتبذلون أصلى فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم فى النكاح (٥) حديث إياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا .

وتقنع بها عن ملاقاة الظاهرة بهذا القدر وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر فمتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش لحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ ، قيل لأبى منصور المغربى كم صحبت أبا عثمان قال خدمته لاصحبته فالصحبة مع الإخوان والأقران ومع المشايخ الخدمة وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شىء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كيف كان الخضر يفعل أشياء

طول العمر إذ لايتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى [(١)] » وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ، ولعمرى الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضا أما فى الدنيا فلايخفى نفعه فيها وأما فى الآخرة فمن وجهين : أحدهما أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الاجابة أقرب وجاهه فى الصدور أوسع فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لايقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثانى أن الجمال فى الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذاتم إشراقه تأدى إلى البدن فالنظر والخبر كثيرا مايتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ، ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم ، ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافى النفس ،وقيل ما فى الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فأسقط اسمه من الديوان وقال الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة أو على الباطن ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولاباطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه [(٢)] » وقال عمر رضى الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالامامة ، وقال تعالى ممتنا بذلك ـ وزاده بسطة فى العلم والجسم ـ ولسنا نعنى بالجمال مايحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وإنما نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال فى اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لاتنبو الطباع عن النظر إليه . فان قلت فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد فى حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٣)] وكذا العلماء قال تعالى ـ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ـ وقال عزوجل ـ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ـ وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب : الناس أبناء مايحسنون وقيمة كل امرىء مايحسنه ، وقيل المرء بنفسه لابأبيه فامعنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ماهى عليه ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها إلاأن فيها فتنا ومخاوف ، فمثال المال مثال الحية التى فيها ترياق نافع وسم ناقع فان أصابها المعزم الذى يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة وإن أصابها السوادى الغر فهى عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذى تحته أصناف الجواهر واللآلىء فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن

ينكرها موسى وإذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره فماينكره المريد لقلةعلمه بحقيقة مايوجد من الشيخ فللشيخ فى كل شىء عذر بلسان العلم والحكمة . سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد فأجابه الجنيد فعارضه فى ذلك فقال الجنيد فان لم تؤمنوا لى فاعتزلون وقال بعض المشايخ من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب ، وقيل من قال لأستاذه لا ، لايفلح أبدا . أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على

---

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر فى عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللترمذى من حديث أبى بكرة أن رجلا قال يارسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح (٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه أبو يعلى من رواية إسمعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٣) حديث ذم المال والجاه الترمذى من حديث كعب بن مالك ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه وقد تقدم فى ذم المال والبخل .

مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك فقد هلك فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى المال » وكذلك مدح الجاه والعز إذ منّ الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحببه فى قلوب الخلق وهو المعنىّ بالجاه ولكن المنقول فى مدحهما قليل والمنقول فى ذم المال والجاه كثير ، وحيث ذمّ الرّياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص فى بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا فى أعيانهما مذمومين بالاضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزمون فقد يضر الصبي مالا يضر المعزم ، نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض فى الترياق وله غرض فى حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه فى الترياق بغرضه فى حفظ الولد ، فاذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها فى عينه ويعرفه أن فيها سما قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدثه أصلا بما فيها من نفع الترياق فان ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص فى البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر ، فان كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الأمة فى حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم [2] » وحظهم الأوفر فى حفظ أولادهم عن المهالك فانهم لم يبعثوا إلا لذلك وليس لهم فى المال حظ إلا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه فان الانفاق فيه الترياق وفى الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الانفاق فلذلك قبحت الأموال والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده فى السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله . فأما إذا سمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب [3] » معناه لأنفسكم خاصة

قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتركونى ما تركتكم وإذا حدثتكم فخذوا عنى فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » قال الجنيد رحمه الله رأيت مع أبى حفص النيسابورى إنسانا كثير الصمت لا يتكلم فقلت لأصحابه من هذا

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله لولده وقد تقدم
(٢) حديث إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس . وقال مسلم ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب ابن ماجه

ولا

وإلا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع واحد ويفرقها فى موضعه ولا يمسك منها حبة ، ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فى أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف[1] » الحديث. فإذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار فلا تعدل بالسلامة شيئا فى حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه . فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد . فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الانسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة فى الارادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ـ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ـ وقال تعالى ـ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ـ وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أى بهدايته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا[2] » . وللهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى ـ وهديناه النجدين ـ وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى ـ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ـ فأسباب الهدى هى الكتب والرسل وبصائر العقول وهى مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار قال تعالى ـ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ ومن جملة المعميات الإلف والعادة وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى

فقيل لى هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة وقال أبو يزيد البسطامى صحبت أبا على السندى فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفا . وقال أبو عثمان صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى فلم أجعل مكافآتى له على كلامه أن أولى ظهرى إليه فانصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت

والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلغة وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد . قلت هو من رواية أبى سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب (١) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مره أن يطعم المسكين الحديث الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد . قلت : كلا فيه خالد بن أبى مالك ضعيف جدا (٢) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله متفق عليه من حديث أبى هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة وفى رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

ـ إنا وجدنا آباءنا على أمة ـ الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى ـ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ـ وقوله تعالى ـ أبشرا منا واحدا نتبعه ـ فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ وهو المراد بقوله تعالى: ـ والذين اهتدوا زادهم هدى ـ والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها إلى مالا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الاضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى ـ قل إن هدى الله هو الهدى ـ وهو المسمى حياة في قوله تعالى ـ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ـ والمعنى بقوله تعالى ـ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ـ وأما الرشد فنعنى به العناية الإلهية التي تعين الانسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على مافيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ـ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ـ فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها فالصبي إذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لايسمى رشيدا لالعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على مايعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزبها عن الجاهل الذي لايدرى أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت فان الهداية بمجردها لاتكفي بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لايكفي بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد وأما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل ـ إذ أيدتك بروح القدس ـ وتقرب منه العصمة وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس وإياه عنى بقوله تعالى ـ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ـ فهذه هي مجامع النعم ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على مايقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا وتستدعي تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجإ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لايحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ـ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ـ وبالله التوفيق.

(بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء)

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم تقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلايخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ولابد لها من قدرة على الحركة

عنه واعتقدت أن أحفر لنفسي بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا باذنه فلما رأى ذلك مني قربني وقبلني وصيرني من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة أن المريد لايبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة فان المريد من شأنه التبتل للخدمة في السجادة إيماء إلى الاستراحة والتعزز ولايتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال في السماع وتقيده واستغراقه في

الحركة ولابد من إرادة للحركة ولابد من علم بالمراد وإدراك له ولابد للآكل من مأكول ولابد للمأكول من أصل منه يحصل ولابد له من صانع يصلحه ولنذكر أسباب الادراك ثم أسباب الارادات ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .

(الطرف الأول فى نعم الله تعالى فى خلق أسباب الإدراك)

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التى لا تنمى ولا تتغذى فان النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التى فى الأرض وهى له آلات فيها يجتذب الغذاء وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كل ورقة ثم تغلظ أصولها ثم تتشعب ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط فى أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فان الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة فى طلب الغذاء فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواس الخمس التى هى آلة الادراك فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس لأنه لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه فان الاحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التى فى الطين فانها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدرى أنها جاءت من أى ناحية فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك كالشجرة يصب فى أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق فى مقدمة دماغك إدراك آخر يسمى حسا مشتركا تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولاه لطال الأمر عليك فانك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فاذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانيا لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلابد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا حتى إذا أدرت الصفرة حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات إذ للشاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا فان البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف

الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع ومن الأدب أن لا يكتم على الشيخ شيئا من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة وإجابة وينكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه وما يستحى من كشفه يذكره إيماء وتعريضا فان المريد متى انطوى ضميره على شئ لا يكشفه للشيخ تصريحا أو تعريضا يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول ومن الأدب أن

تتخلص إذاقيدت وقد تلقى نفسها فى بئر ولاتدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قدتأكل البهيمة ماتستلذه فى الحال ويضرها فى ثانى الحال فتمرض وتموت إذليس لها إلا الاحساس بالحاضر فأماإدراك العواقب فلا، فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هى أشرف من الكل وهو العقل فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك فى الأكل الذى هو سبب صحتك وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة فى عالمه وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس فى حقك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحى المملكة وقدوكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها باخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحى العالم فيأخذها وهى مختومة ويسلمها إذليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها فأمامعرفة حقائق مافيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل الذى هو الأمير والملك سلم الإنهاآت إليه مختومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا المقام وبحسب مايلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهى الأعضاء مرة فى الطلب ومرة فى الهرب ومرة فى إتمام التدبيرات التى تعن له فهذه سياقة نعمة الله عليك فى الادراكات ولا تظنن أنا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هى بعض الادراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم فهذا فى حس واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفى حكم الله تعالى وأنواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة مع أن جملته لا تزيد على جوزة صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الادراكات.

(الطرف الثانى فى أصناف النعم فى خلق الارادات)

اعلم أنه لوخلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والادراك معطلا فى حقه فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى مايوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضى الذى يضطرك إلى التناول حتى تتناول وتغتذى فتبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لولم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها لا كالزرع فانه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب فى أسفله حتى يفسد فيحتاج الى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولوقصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم وخلق

لايدخل فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو محبته ولاينفذ القول فيه ولايستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فان المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمحبة والتألف هو الواسطة بين المريد والشيخ وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال لأن المحبة علامة التعارف والتعارف علامة الجنسية والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أوبعض حاله

دم الحيض وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليهما من الفقار الذى هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع فى بعضها فتتشكل بشكل الإناث وكيفية إدارتها فى أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك فى مبدأ خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكنا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى فى الأكل وحده كى لا يطول الكلام . فاذن شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأتيك المهلكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل مايضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ماحصلته من الغذاء فان كل واحد يشتهى مافى يديك فتحتاج إلى داعية فى دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل مايضادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى مايضر وينفع فى الحال وأما فى المآل فلا تكفى فيه هذه الارادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعروف للعواقب كما خلق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك فى الاحتراز عنها مالم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراما لبنى آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد سمينا هذه الارادة باعثا دينيا وفصلناه فى كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

(الطرف الثالث فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة وآلات الحركة)

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الادراك والارادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والهرب فكم من مريض مشتاق إلى شىء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما فلا بد من آلات للحركة وقدرة فى تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ماهو للطلب والهرب كالرجل للانسان والجناح للطير والقوائم للدواب ومنها ماهو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان وفى هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها مايكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ماخلق له أربع قوائم ومنها ماله رجلان ومنها مايدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التى بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفى مالم تتمكن من أن تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات فتمتد وتنثنى إليك فلا تكون كخشبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هى الأصابع وجعلها فى صفين بحيث يكون الإبهام فى جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض ثم خلق لها أظفارا وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع فتأخذها برءوس أظفارك ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا مالم يصل إلى المعدة وهى فى الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال ثنا سليمان ابن أحمد قال ثنا أنس ابن أسلم قال ثنا عتبة ابن رزين عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغى له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الاسلام » ومن الأدب أن يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الأمور وكلياتها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليصير

دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ثم إن وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحى الأسفل متحركا حركة دورية واللحى الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فان كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذى صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام فى فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان أو كيف تستجره الاسنان إلى نفسها أو كيف يتصرف باليد فى داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف فى جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق والحكم التى لسنا نطنب بذكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام المطحون المنعجن من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد فى المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوى إلى المعدة فى دهليز المرىء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التى تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير فى تشابه أجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة فى أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر فى أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافى الصالح لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هى التى تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد فى جميع ما يطبخ إحداهما شبيهة بالدردى والعكر وهو الخلط السوداوى والأخرى شبيهة بالرغوة وهى الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخلا فى تجويفه

حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته. قال إبراهيم بن شيبان كنا نصحب أبا عبد الله المغربى ونحن شبان ويسافر بنا فى البرارى والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتغير عليه حال الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان . ومن أدب المريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر

فيجذب

فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية وتجذب الطحال العكر السوداوى فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ولأخرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا فى تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب مافيها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق فاذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل مايفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك فى البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا فيجرى الدم الصافى فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى حدثت الأمراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة أما المرارة فانها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له فى ثفل الطعام رطوبة مزلقة ويحدث فى الأمعاء لذع يحركها للدفع فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقى مع الثفل وأما الكلية فانها تغتذى بما فى تلك المائية من دم وترسل الباقى إلى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى فى الأسباب التى أعدت للأكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه بل فى الآدمى آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولاشىء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يامسكين فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهى فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح فاذا لم تعرف أنت من نفسك إلا مايعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذى رمزنا إليه على الايجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط فقس على الاجمال ما أهملناه من جملة ماعرفناه حذرا من التطويل وجملة ماعرفناه وعرفه الخلق كلهم بالاضافة إلى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعالى ـ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ـ ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن

فان كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له وماكان من عند الله لا يختلف وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ويكتسب المريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالمريد لعله فى واقعته يخامره كون إرادة فى النفس فيشتبك كون الارادة بالواقعة مناما كان ذلك أو يقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن فى النفس وإذا ذكره للشيخ فما فى المريد من كون إرادة النفس مفقود فى حق الشيخ فان

إلا ويحدث عند وصوله فى تلك الأجزاء مايحتاج إليه من قوّة حس وإدراك وقوّة حركة وغيرها كالسراج الذى يدار فى أطراف البيت فلايصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأطباء الروح ومحله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة والدم الأسود الذى فى باطن القلب له كالفتيلة والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة فى سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضا ينطفىء مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لاتقبل الزيت فينطفىء السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذى تشبث به هذا البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفىء مع وجود الغذاء فانه لايقبل الغذاء الذى يبقى به الروح كما لايقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به وكما أن السراج تارة ينطفىء بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفىء بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لايكون إلا بأسباب مقدرة فى علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذى أجل له فى أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح هى أنوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر مايجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه ـ لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ـ عزّ وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا. فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ «سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال ـ قل الروح من أمر ربى ـ(١)» فلم يصفه لهم على هذا الوجه. فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع فى لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لانطول بذكرها ونحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روحا وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه فى الأعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى فى الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة فى مجرى هذا الروح فلايعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ فى شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء ومايرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل. وأما الروح التى هى الأصل وهى التى إذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولارخصة فى وصفه إلا بأن يقال هو أمر ربانى كما قال تعالى ـ قل الروح من أمر ربى ـ والأمور الربانية لاتحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتتزلزل فى ذكر مبادى وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة فى مضيقها فلا يدرك بالعقل شىء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور فى عالم النبوة والولاية نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا فكما يدرك الصبى المحسوسات ولايدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولايدرك ماوراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد

كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ وإن كان ينزع واقعته إلى كون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوّة حاله وصحة إيوائه إلى جناب الحق وكمال معرفته ومن الأدب مع الشيخ أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ فى شىء من أمر دينه أو أمر دنياه لايستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ فكما أن للدعاء أوقاتا وآدابا وشروطا لأنه مخاطبة الله تعالى

(١) حديث أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربى متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدّم فى شرح عجائب القلب.

وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الايمان واليقين وذلك الشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد بل لايطلع عليه إلا واحد بعد واحد ولجناب الحق صدر وفى مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وعلى أول الميدان عتبة هى مستقر ذلك الأمر الربانى فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل للميدان فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من المشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه وأنى يصادف هذا فى خزانة الأطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالاضافة إلى هذا الأمر الربانى كالكرة التى يحركها صولجان الملك بالاضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبى فظن أنه أدرك الأمر الربانى كان كمن رأى الكرة التى يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ولا يشك فى أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أخفى منه جدا ولما كانت العقول التى بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى فى كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته أما نسبته ففى قوله تعالى ـ من أمر ربى ـ وأما فعله فقد ذكر فى قوله تعالى ـ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ـ ولنرجع الآن إلى الغرض فان المقصود ذكر نعم الله تعالى فى الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى فى آلات الأكل .

(الطرف الرابع: فى نعم الله تعالى فى الأصول التى يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمى بعد ذلك بصنعته)

اعلم أن الأطعمة كثيرة ولله تعالى فى خلقها عجائب كثيرة لاتحصى وأسباب متوالية لاتتناهى وذكر ذلك فى كل طعام مما يطول فان الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية فلنأخذ الأغذية فانها الأصل ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة فى نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفى بتمام حاجتك فخلق الله تعالى فى حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك فان النبات إنما يفارقك فى الحس والحركة ولا يخالفك فى الاغتذاء لأنه يغتذى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه . فنقول : كما أن الخشب والتراب لايغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لاتغتذى بكل شىء بل تحتاج إلى شىء مخصوص بدليل أنك لو تركتها فى البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ومجرد الهواء لايصلح لغذائها ولو تركتها فى الماء لم تزد ولو تركتها فى أرض لاماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا وإليه الاشارة بقوله تعالى ـ فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ـ ثم لا يكفى الماء والتراب إذ لو تركت فى أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج إلى تركها فى أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ثم الهواء لايتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الاشارة بقوله تعالى ـ وأرسلنا الرياح لواقح ـ وإنما إلقاحها فى إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل ذلك لايغنيك لو كان فى برد مفرط وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج الماء ليساق

فالقول مع الشيخ أيضا آداب وشروط لأن من معاملة الله تعالى ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مخاطبته فقال ـ ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ـ يعنى أمام مناجاتكم قال عبد الله بن عباس سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسئلة فأدبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك

إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقى فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه إلى أقطار الأرض وهى سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشى ونعم الله فى الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها وأما الحرارة فانها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض فى وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار فى ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التى يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ولا نطول فيما لا مطمع فى استقصائه بل نقول كل كوكب فى السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يخلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفى قوة البشر باحصائها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ـ ربنا ما خلقت هذا باطلا ـ وقوله عز وجل ـ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ـ وكما أنه ليس فى أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس فى أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهى متعاونة تعاون أعضاء بدنك فى جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغى أن تظن أن الايمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه فى أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم (١) بل المنهى عنه فى النجوم أمران : أحدهما أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر . والثانى تصديق المنجمين فى تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التى لا يشترك كافة الخلق فى دركها لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى فى الأرض وفى النبات وفى الحيوان ليس قادحا فى الدين بل هو حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح فى الدين ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى

وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الأغنياء يأتون النبى عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبى عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلأنهم لم يجدوا شيئا وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى ـ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ـ وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة

(١) حديث النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد وللطبرانى من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإسنادهما ضعيف وقد تقدم فى العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها فى الجاهلية كنا نأتى الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث .

الهواء على طلوع الشمس وإذا سألت عن تغير وجه الانسان فقال قرعتنى الشمس فى الطريق فاسودّ وجهى لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار إلا أنّ الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالمجهول لايجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فاذن الكواكب ماخلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لاتحصى ولهذا « نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى – ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار – ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته [1] » ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذى مسح بها سبلته فلله تعالى فى ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فانّ من أحبّ عالما فلايزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له فكذلك الأمر فى عجائب صنع الله تعالى فانّ العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده فان تعجبت من تصنيف فلاتتعجب من المصنف بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلاتعجب من اللعب فانها خرق محركة لامتحركة ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار فاذن المقصود أن غذاء النبات لايتمّ إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولايتمّ ذلك إلا بالأفلاك التى هى مركوزة فيها ولاتتمّ الأفلاك إلا بحركاتها ولاتتمّ حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ماأهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

(الطرف الخامس : فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك)

اعلم أنّ هذه الأطعمة كلها لاتوجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد فى بعض الأماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حبّ المال وشهوة الربح مع أنهم لايغنيهم فى غالب الأمر شىء بل يجمعون فإما أن تغرق بها السفن أوتنهبها قطاع الطريق أويموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدّ أعدائهم لوعرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح ويركبوا الأخطار ويغرروا بالأرواح فى ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل فى البرارى وانظر إلى الابل كيف خلقت وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب وإلى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البرّ والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل مايحتاج

لم يناج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علىّ ابن أبى طالب فقدم دينار افتصدّق به وقال علىّ فى كتاب الله آية ماعمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ماترى فى الصدقة كم تكون دينارا قال على لايطيقونه قال كم قال على تكون حبة أوشعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لزهيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ومانبه الحق عليه بالأمر بالصدقة فلومافيه من حسن الأدب وتقييد اللفظ والاحترام

(١) حديث قرأ قوله تعالى – ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار – ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى ترك تأملها الثعلبى من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبوجناب يحى بن أبى حية ضعيف .

إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وماتحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للايجاز .

(الطرف السادس : فى إصلاح الأطعمة)

اعلم أن الذى ينبت فى الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك بل لابد فى كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور أخر لا تحصى واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول فلنعين رغيفا واحدا ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر فى الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ثم الثور الذى يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسقى الماء مدة ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الأفعال التى ذكرناها ومالم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التى يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصناع فى إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن وكيف جعل الأرض قطعا متجاورات مختلفة ، فان فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدىء من الملك الذى يزجى السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهى النوبة إلى عمل الانسان ، فاذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التى بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الانسان فى تلك الآلات حتى إن الابرة التى هى آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذى يمنع البرد عنك لاتكمل صورتها من حديدة تصلح للابرة إلا بعد أن تمر على يد الابرى خمسا وعشرين مرة ويتعاطى فى كل مرة منها عملا ، فلولم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت إلى عمل المنجل الذى تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذى خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر إلى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشىء معا ويقطعانه بسرعة ولولم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التى بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتى أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق فى إصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا أوعن الحداد أوعن الحجام الذى هو أخس العمال أوعن الحائك أوعن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته . ولنوجز القول فى هذه الطبقة أيضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

(الطرف السابع : فى إصلاح المصلحين)

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ـ لو أنفقت مافى الأرض جميعا

ما ألفت

مانسخ ، والفائدة باقية . أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد ابن سلمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال حدثنا سليمان ابن أحمد قال حدثنا مطلب بن شعيب قال حدثنا عبدالله بن صالح قال ثنا ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه» فاحترام العلماء توفيق وهداية وإهمال ذلك خذلان وعقوق.

ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ـ فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ففى جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة وذلك مما يؤدى إلى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدة والأسباب وألقى رعبهم فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع فى حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة فى ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه مااهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهى إلى الملك المقرب الذى لاواسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة والسلطان يصلح الصناع والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهى إلى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بعين الطمع إلى الاحاطة بكنه نعمه لتشوقنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى ـ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ـ فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا وإن سكتنا فبقهره انقبضنا ، إذ لامعطى لما منع ولا مانع لما أعطى لأنا فى كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار ـ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ـ فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

(الطرف الثامن فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام)

ليس يخفى عليك ماسبق من نعمة الله فى خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحى إليهم ولاتظنن أنهم مقتصرون فى أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة فى ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسماوية وحملة العرش. فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذى ذكرناه دون ماجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما . واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لايغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ماوراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف وذلك الغذاء يصير دما فى آخر الأمر ثم يصير لحما وعظما وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهى لاتتحرك بأنفسها ولاتتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفى فى ترددها فى أطوارها كما أن البر بنفسه لايصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا مخبوزا إلا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما

[الباب الثانى والخمسون فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلامذة]
أهم الآداب : أن لايتعرض الصادق للتقدم على قوم ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحانا من الله تعالى والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة وفى الخمول السلامة، فإذا بلغ الكتاب أجله وتمكن

وعظما وعروقا وعصبا إلا بصناع والصناع فى الباطن هم الملائكة كما أن الصناع فى الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغى أن تغفل عن نعمه الباطنة . فأقول لابد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فان الغذاء لايتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولابد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لايكون منفصلا ولا بد من سابع يرعى المقادير فى الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالمجوف مالا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبى ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته بل ينبغى أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأفخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته مايليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل فى القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبى وسائر بدنه من الغذاء ماينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت فى حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا فى ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبى فلا ينتفع بنفسه البتة فمراعاة هذه الهندسة فى هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لايدرى مايقول فهذه هى الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت فى النوم تستريح وفى الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء فى باطنك ولا خبر لك منهم وذلك فى كل جزء من أجزائك الذى لايتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك تركنا تفصيل ذلك للإيجاز والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لايحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام، والأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب [1] أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به . فان قلت فهلا فوضت هذه

العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالارشاد والتعليم للمريدين فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد للولد عما ينفعه فى دينه ودنياه وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى فى معناه ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه وفى القول معه ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به فى الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى رحمه الله يوصى بعض أصحابه ويقول لاتكلم أحدا من الفقراء إلا فى أصفى

(١) حديث الأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب انتهى، فى الصحيحين من حديث أبى ذر فى قصة الاسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح الحديث ولهما من حديث أبى هريرة إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام وفى الصحيحين من حديث عائشة فى قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فنادانى ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين الحديث ولهما من حديث أنس إن الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمى مامن نبت ينبت إلا وتحته ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبرى وأبو عمر البكراوى واسمه عثمان بن عبدالرحمن وكلاهما ضعيف وللطبرانى من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف إن لله ملائكة ينزلون فى كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة فى عنقها جرس وللترمذى وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهود يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبى هريرة بينا رجل بفلاة من الارض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة الحديث.

الأفضال إلى ملك واحد ولم أفتقر إلى سبعة أملاك والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولا ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الانس ظاهرا ؟ . فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم إلا وهو وحدانى الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الاشارة بقوله تعالى ـ وما منا إلا له مقام معلوم ـ فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم فى تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع فى إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولاهما ينازعان الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التى هى آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذى يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحدانى الصفة فلم يكن وحدانى الفعل ولذلك ترى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن فى طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية فى حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراكع منهم راكع أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لا اختلاف فى أفعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فانك مهما جزمت الارادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف فى طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا باشارتك فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذن هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الأرضية والسماوية وحاجتك إليهما فى غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال ـ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ـ فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الاثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة ، بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والأرض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى فى سوادها أنها تجمع ضوء العين إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله تعالى فى ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبثا للأقذاء التى تتناثر فى الهواء وله فى كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين تؤام نصبها وله فى اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك الشعر فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق

أوقاتك ، وهذه وصية نافعة لأن الكلمة تقع فى سمع المريد الصادق كالحبة تقع فى الأرض وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فعند الكلام مع أهل الصدق والارادة ينبغى أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد فيكون ناظرا إلى الله مصغيا إليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ثم ينبغى

أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الأقذاء إلى زوايا العين والأجفان والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الأجفان ولا تقوم الأجفان إلا بعين ولا العين إلا برأس ولا الرأس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ولا السموات إلا بالملائكة فان الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فاذن قد كفر كل نعمة فى الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ويلعنه ولذلك ورد فى الأخبار أن البقعة التى يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم (١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر (٢) وأن الملائكة يلعنون العصاة (٣) فى ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصى بتطريفة واحدة جنى على جميع ما فى الملك والملكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيتبدل اللعن بالاستغفار فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : ياأيوب مامن عبد لى من الآدميين إلا ومعه ملكان فاذا شكرنى على نعمائى قال الملكان اللهم زده نعما على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريبا فكفى بالشاكرين علو رتبة وعندى أنى أشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم ، وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعما كثيرة فاعلم أن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك بل فى كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى ـ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ـ قال إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان أن لينت أصلها وأن طمست رأسها وكذا ورد فى الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وجميع ماذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ماسواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه فى العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع فى غير مطمع .

(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة

(١) حديث إن البقعة التى اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم لم أجد له أصلا (٢) حديث إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر تقدم فى العلم (٣) حديث إن الملائكة يلعنون العصاة مسلم من حديث أبى هريرة الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وان كان أخاه لأبيه وأمه.

الشيخ أن يعتبر حال المريدين ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة مايتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال الصوالح وطريق الأبرار ومن المريدين من يكون مستعدا صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ولكل من الأبرار والمقربين مباد ونهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص ومايصلح له والعجب أن الصحراوى

واستيلاء

واستيلاء الشيطان . أما الغفلة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعده نعمة ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما فان ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكرا لله عليها وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة عم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا فقال لا قال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا . وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فعدد عليه سورا ثم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه فقال له عظني فقال لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ، وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والعلم أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به فاذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كنزا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه فان أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقه كالباقي وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها فاذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء ، وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به

يعلم الأراضي والغروس ويعلم كل غرس وأرضه وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها حتى المرأة تعلم قطنها وما يتأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس على قدر عقولهم ويأمر كل شخص بما يصلح له فمنهم من كان يأمره بالانفاق ومنهم من أمره بالإمساك ومنهم من أمره بالكسب ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

حتى لايطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقا وإما فى بعض الأمور فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو فى سائر محابه أمورا لو سلب ذلك منه وأعطى ماخصص به غيره لكان لايرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لاجمادا وإنسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا فان كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا فان هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها بل له أمور لايبدلها بأحوال الآدميين أيضا وذلك إما أن يكون بحيث لايبدله بما خص به أحد من الخلق أو لايبدله بما خص به الأكثر فاذا كان لايبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لايعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما فى الجملة وإما فى أمر خاص فاذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فانه لامحالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لايسوى دنياه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن فى الفساق كثرة فينظر أبدا فى الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره فى الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق فى الدين خير منه وحاله فى الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لايلزمه الشكر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه وفى الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا [(١)] » فاذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لاسيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به في دينه ثم فى دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله [(٢)] » وهذا إشارة إلى نعمة العلم وقال عليه السلام « إن القرآن هو الغنى الذى لاغنى بعده ولا فقر معه [(٣)] » وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله [(٤)] » وقال ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن [(٥)] » وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى [(٦)] » وقال بعض السلف يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة

يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فأما فى رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة يدعو على الاطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لايضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فان رسول الله

---

(١) حديث من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا الحديث الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف (٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث إن القرآن هو الغناء الذى لاغناء بعده ولا فقر معه أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن القرآن غنى لافقر بعده ولاغنى دونه قال الدارقطنى رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسلا وهو أشبه بالصواب (٤) حديث من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله البخارى فى التاريخ من حديث رجاء الغنوى بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر أعظم النعم وقد تقدم فى فضل القرآن ورجاء مختلف فى صحبته وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن تقدم فى آداب التلاوة (٦) حديث كفى باليقين غنى الطبرانى من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبى الدنيا فى القناعة موقوفا عليه وقد تقدم.

إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أعممت عليه نعمى عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما فى يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ماالقوت يأتيك كذا الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال «من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها[(1)]» ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى الايمان الذى به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم بل البصير ينبغى أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والايمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى فى الآخرة بل لو قيل له لك فى الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللذات فى الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفى مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت إلى الآن وهكذا تكون ما بقى الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغنى حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها فى تعب قائم وعناء دائم وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها فى لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقعت أرباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغى أن تقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فان المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم المعرض يفضى إلى لذة فى الآخرة وتألم المقبل يفضى إلى الألم فى الآخرة فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ــ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ــ فاذن إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة . فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر . فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التى تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل فى صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد فى طاعته فان يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبنى إذ ضيعت بعض الأوقات فى المباحات، وأما العاصى فغبنه ظاهر فاذا شاهد المقابر

(١) حديث من أصبح آمنا فى سربه الحديث تقدم غير مرة .

صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصليها ويدوم عليها وأوقات يخلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو كثر لطف ذلك أو كثف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترسل فى الممازجة والمخالطة وجعل نفسه مناخ للبطالين بلقمة تؤكل عنده ورفق يوجد منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا بغيته سلوك طريق المتقين فافتتن وأفتن وبقى فى خطة القصور ووقع فى

وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر مابقي له فيصرف بقية العمر إلى مايشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل في الامهال في كل نفس من الأنفاس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ماخلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر وقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلا في عنقه وينام في لحده ثم يقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا ثم يقوم ويقول ياربيع قد أعطيت ماسألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . ومماينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وفي الخبر « ماعظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه (١) » فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى ـ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ـ فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

(بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد)

لعلك تقول ماذكرته في النعم إشارة إلى أن لله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لاوجود له أصلا فما معنى الصبر إذن وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على مايصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألما والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان ومامعنى ماذكرتموه من أن لله تعالى في كل ماأوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق ومايعين عليهما وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبدا وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لاتكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لايؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولامعنى للصبر عليه وكذا المعصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لايعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لايتألم بسبب غشية أوغيرها فلاصبر عليه والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية بل كل بلاء يقدر الانسان على دفعه فلايؤمر بالصبر عليه فلو ترك الانسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلايؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بازالة الألم وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ماليس ببلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده

دائرة الفتور فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدى الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه فيكون له في كل كلمة إلى الله رجوع وفي كل حركة بين يدى الله خضوع وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس واغترارهم بيسير من الموهبة وقلة تأدبهم بالشيوخ . كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوسي معكم ماجلست عندكم فاذا رأى الفضل في الخلوة يخلو

(١) ماعظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه الحديث ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ إلاعظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال إنه موضوع على حجاج الأعور .

والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه فكذلك مامن بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى ـ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ـ وقال تعالى ـ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ـ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه [1] » وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ماذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعما في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدها نعمة مثاله جهل الإنسان بأجله فانه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لامحالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لايعرف. ومنها إبهام الله تعالى أمر القيامة وإبهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإبهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها فان لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لافي حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذن قد صح ماذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم فاذن في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى فاذن كل حالة لاتوصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا . فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لاصبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها . أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لاتتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزها فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه . قال رجل لسهل رضي الله تعالى عنه دخل اللص بيتي

وإذا رأى الفضل في الجلوة يجلس مع الأصحاب فتكون جلوته في حماية خلوته وجلوته مزيدا لخلوته وفي هذا سر وذلك أن الآدمي ذو تركيب مختلف فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه مترددا بين السفلي والعلوي ولما فيه من التغاير له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ولهذا كان لكل عامل فترة والفترة قدتكون تارة في صورة العمل وتارة في عدم الروح في العمل وإن لم تكن في صورة العمل ففي وقت الفترة المريدين والسالكين تضييع

(١) حديث إن الله ليحمي عبده الدنيا الحديث الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وأخذ متاعي فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علي فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني وإذ لم يكن أعظم منه وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه فقال له اشكر الله فضربه فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه فقال اشكر الله فجيء بمجوسي فحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسي فأرسل إليه فقال اشكر الله فكان المجوسي يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضي حاجته فكتب إليه بذلك فقال اشكر الله فقال إلى متى هذا وأي بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذي في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذن ما من إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداهما فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فقيل له ما هذه السجدة فقال كنت أنتظر أن تصب علي النار فالاقتصار على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار فقال أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطيء الحجر . فإن قلت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خبيء له ما هو أكثر وإنما أمهل حتى يستكثر من الاثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى ـ إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ـ وأما العاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ولذلك قال تعالى في مثله ـ وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ـ فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم الله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا [1] » الرابع أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي فإنه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب فكان يخسر جميع عمره فكذلك المال والأهل والأقارب

واسترواح النفس وركون إلى البطالة فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق فأفلح الخلق بقسم فترته وما ضاع قسم فترته كضياعه في حق المريدين فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة أكثر من عود الفقير بجدة إرادته من فترته فيعود من الخلق إلى الخلوة منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور وروح متخلصة عن

(١) حديث إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا الترمذي وابن ماجه من حديث علي من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده الحديث لفظ ابن ماجه وقال الترمذي من أصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له الحديث.

والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظنّ بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فانّ حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتمّ وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روى «أنّ رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تتهم الله في شيء قضاه عليك (١)» «ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسرّاء رضي وكان خيرا له وإن قضى له بالضرّاء رضي وكان خيرا له (٢)»

الوجه الثاني أنّ رأس الخطايا المهلكة حبّ الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٣)» والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضي بها واطمأنّ إليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين الى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفيّ وبقدر حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفيّ بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق فاذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا فانك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصوّر منه الشكر لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأنّ ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة . وحكي أن أعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال :

مضيق مطالعة الأغيار قادمة بجدة شغفها الى دار القرار . ومن وظيفة الشيخ حسن خلقه مع أهل الارادة والطلب والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ واستعماله التواضع . حكى الرقي قال كنت بمصر وكنا في المسجد جماعة من الفقراء جلوسا فدخل الزقاق فقام عند أسطوانة يركع فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه فلما فرغ جاء إلينا وسلم علينا فقلنا نحن كنا أولى بهذا من الشيخ فقال ما عذب الله

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تتهم الله في شيء قضاه عليك أحمد والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله وفي إسناده ابن لهيعة (٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحكه عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

قال ابن عباس ماعزاني أحد أحسن من تعزيته. والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يصب منه[1]» وقال ﷺ قال الله تعالى «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أوماله أوولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أوأنشر له ديوانا. وقال عليه السلام «مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى - إنالله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها إلافعل الله ذلك به» وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «من سلبت كريمتيه فجزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي» وروى أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال ﷺ «لاخير في عبد لايذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره[2]» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك[3]» وعن خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا يارسول الله ألاتدعو الله تستنصره لنا فجلس محمرا لونه ثم قال «إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه[4]» وعن علي كرم الله وجهه قال: أيما رجل حبسه السلطان ظالما فمات فهو شهيد وإن ضربه فمات فهو شهيد. وقال عليه السلام «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك» وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على مايفنى وتذرون مايبقى ألاحبذا المكروهات الثلاث الفقر والمرض والموت. وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا فاذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وإن دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى لبيك عبدي وسعديك لاتسألني شيئا إلاأعطيتك أودفعت عنك ماهو خير وادخرت لك عندي ماهو أفضل منه فاذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلاينصب لهم ميزان ولاينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا

قلبي بهذا قط يعني ماتقيدت بأن أحترم وأقصد. ومن آداب الشيوخ النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم. قال بعضهم: إذارأيت الفقير الفقه بالرفق ولا تلقه بالعلم فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه فاذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم. ومن آداب الشيوخ التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم في الصحة والمرض ولا يترك حقوقهم اعتمادا على إرادتهم وصدقهم

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصب منه البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لاخير في عبد لايذهب ماله ولايسقم جسده إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري باسناد فيه لين (٣) حديث ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك أبوداود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية اللؤلؤي ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يروعنه إلاأبو المليح الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يروعن خالد إلاابنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فالله أعلم وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبونعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فالله أعلم (٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث تقدم.

فيود

فيود أهل العافية فى الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون من يذهب به أهل البلاء من الثواب » فذلك قوله تعالى ـ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب[١] ـ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يارب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لايطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد لى والبلاء لى وكل يسبح بحمدى فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيآته . وروى أنه لما نزل قوله تعالى ـ من يعمل سوءا يجز به ـ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست يصيبك الأذى ألست تحزن فهذه مما تجزون به[٢] » يعنى أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى ـ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ـ[٣] » يعنى لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا أى بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة . وعن الحسن البصرى رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضى الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط فأثر فى وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا[٤] » وقال على كرم الله وجهه ألا أخبركم بأرجى آية فى القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم ـ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ـ فالمصائب فى الدنيا بكسب الأوزار فاذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا وإن عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة

قال بعضهم لاتضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة . وحكى عن الجريرى قال وافيت من الحج فابتدأت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لايتعنى ثم أتيت منزلى فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجنيد خلفى فقلت ياسيدى إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا فقال لى يا أبا محمد هذا حقك وذاك فضلك . ومن آداب الشيوخ أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا فى مراغمة النفس وقهرها واعتياد صدق العزيمة أن يرفقوا

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشى عن أنس أخصر منه دون قوله فاذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشى ضعيفان ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشى ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى ـ من يعمل سوءا يجز به ـ قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض » الحديث من رواية من لم يسم عن أبى بكر ورواه الترمذى من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه قال وليس له إسناد صحيح وقال الدارقطنى وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير قال وليس فيها شيء يثبت (٣) حديث عقبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب بسند حسن (٤) حديث الحسن البصرى فى الرجل الذى رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا أحمد والطبرانى باسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبرانى أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذى وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذى .

أحبّ إلى الله من قطرة دم أهريقت فى سبيل الله أوقطرة دمع فى سواد الليل وهوساجد ولايراه إلا الله ، وماخطا عبد خطوتين أحبّ إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرّحم [(١)] » . وعن أبى الدرداء قال : توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه فى زىّ الخصوم ،فقال أحدهما: بذرت بذرا فلما استحصد مرّ به هذا فأفسده ، فقال للآخر ماتقول ، فقال أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أماعلمت أن لابدّ للناس من الطريق . قال فلم تحزن على ولدك أماعلمت أن للموت سبيل الآخرة فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال يابنى : لأن تكون فى ميزانى أحبّ إلى من أن أكون فى ميزانك ، فقال ياأبت لأن يكون ماتحب أحبّ إلىّ من أن يكون ماأحب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله وأجرقد ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعناماأمر الله تعالى . قال تعالى ـ واستعينوا بالصبر والصلاة ـ . وعن ابن المبارك أنه مات له ابن فعزاه مجوسى يعرفه ، فقال له ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم مايفعله الجاهل بعد خمسة أيام ،فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذه . وقال بعض العلماء إن الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب. وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير. وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد بيوسف وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى إسرائيل واختفى فى الشجرة فعرفوا ذلك فجىء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا فأن منه أنة فأوحى الله تعالى إليه يازكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين . وقال أبو السعود البلخى : من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أوضرب صدرا فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه : يابنى إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكى ضرسى ، فقلت لعمى مانمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ماعلم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام إذا نزلت بك بلية فلاتشكنى إلى خلقى واشك إلى كما لاأشكوك إلى ملائكتى اذا صعدت مساويك وفضائحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة .

---

(١) حديث أنس ماتجرع عبد قط جرعتين أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث على بن أبى طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهوالفدكى منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد مامن جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة ماقطر فى الأرض قطرة أحب الى الله عز وجل من دم رجل مسلم فى سبيل الله أوقطرة دمع فى سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكى منكر الحديث .

به ويوقفوه على حد الرخصة ففى ذلك خير كثير وما دام العبد لايتخطى حريم الرخصة فهو حر ثم إذاثبت وخالط الفقراء وتدرب فى لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة . قال أبوسعيد بن الأعرابى كان شاب يعرف بابراهيم الصائغ وكان لأبيه نعمة فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى فربما كان يقع بيد أبى أحمد شىء من الدراهم فكان يشترى له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود

(بيان فضل النعمة على البلاء)

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء. فأقول لاوجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة [1] » وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة [2] » وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها [3]. وقال علي كرم الله وجهه اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية [4] » وروى الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين [5] » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن. وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لاشر فيه العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر. وقال مطرف بن عبدالله لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلي [6] » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالاضافة إلى ماهو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر بالاضافة إلى مايرجى من الثواب فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع مافوقه من البلاء ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فانه قادر على أن يعطي على الشكر مالا يعطيه على الصبر. فان قلت : فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار وقال سمنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ   فكيفما شئت فاختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم أنه حكى عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب. وأما محبة الانسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولو زايله سكره علم أن ماغلب عليه كان حالة لاحقيقة لها فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق

النعمة فيجب أن نرفق به ونؤثره على غيره. ومن آداب الشيوخ التنزه عن مال المريد وخدمته والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه لأنه جاء لله تعالى فيجعل نفسه وإرشاده خالصا لوجه الله تعالى فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات. وقد ورد « ماتصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه في الناس » وقد قال الله تعالى تنبيها على خلوص ماله وحراسته من الشوائب إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا فلا ينبغي للشيخ أن يطلب

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة أحمد من حديث بشر بن أبي أرطاة بلفظ أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبي داود من حديث عائشة اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالعنعنة (٢) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعوبها النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا في الدنيا الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبدالله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مابين الركنين ربنا آتنا الحديث (٣) حديث كان يستعيذ من شماتة الأعداء تقدم في الدعوات (٤) حديث قال علي رضي الله عنه اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فسله العافية الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما قال سمع رجلا وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث علي كنت ساكنا فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فان كان بلاء فصبرني فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح (٥) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة باسناد جيد وقد تقدم (٦) حديث وعافيتك أحب إلي ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا

يستلذ سماعه ولا يعوّل عليه كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه فقال ماالذي يمنعك عني، ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال يانبي الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ماأريد لما يريد

وهو أيضا محال ومعناه أني أريد مالا يريد لأن من أراد الوصال ماأراد الهجر فكيف أراد الهجر الذي لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين: أحدهما أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب والوسيلة إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما في درهمين فهو محب الدرهمين يترك الدرهم في الحال . الثاني أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث إنه رضاه فقط ويكون له لذة في استشعار رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصوّر أن يريد مافيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا فهؤلاء إذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلا فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المنّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين.

(بيان الأفضل من الصبر والشكر)

اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سيان وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى فنقول في بيان ذلك مقامان: المقام الأول البيان على سبيل التساهل وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش حقيقته وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوعاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم والظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات بل باللبن اللطيف وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لها بقوته ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول: هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضي تفضيل الصبر فان الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فاذا أضيف إليه ماورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم «من أفضل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر [1]» وفي الخبر «يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أماترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى : كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين [2]» وقد قال الله تعالى ـ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ـ وأما قوله «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر [3]»

(١) حديث من أفضل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجد له أصلا (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر رواه أبو عبدالله بن منده من حديث عبدالله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

على صدقته جزاء إلا أن يظهر له في شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه أو صلاح يتراءى للشيخ في حق المريد بذلك فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد مأمونة الغائلة من جانب الشيخ قال الله تعالى ـ يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ـ معنى يحفكم أي يجهدكم ويلح عليكم . قال قتادة : علم الله تعالى أن في خروج المال إخراج الأضغان وهذا

فهو

فهو دليل على أن الفضيلة فى الصبر إذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علوّ درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة فى الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الجمعة حجّ المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل [١]» وكقوله صلى الله عليه وسلم «شارب الخمر كعابد الوثن [٢]» وأبدا الشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» لايدلّ على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فان كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وإن كان بينهما تفاوت كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الايمان فلايدل ذلك على أن العمل يساوى العلم ، وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه [٣]» وفى خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا [٤]» وفى الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلاباب الصبر فانه مصراع واحد وأوّل من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام [٥]» وكل ماورد فى فضائل الفقر يدلّ على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى، فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم . المقام الثانى : هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لاتمكن الموازنة بينهما مع الابهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لاتمكن الموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلايتبين حكمهما فى الرجحان

تأديب من الله الكريم والأدب أدب الله . قال جعفر الخلدى جاء رجل إلى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر فقال له الجنيد لاتخرج من مالك كله احبس منه مقدار مايكفيك وأخرج الفضل وتقوّت بما حبست واجتهد فى طلب الحلال لاتخرج كل ماعندك فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك وكان النبى عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملا ثبت وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشىء يكسبه من

---

(١) حديث الجمعة حج للمساكين وجهاد للمرأة حسن التبعل الحرث بن أبى أسامة فى مسنده بالشطر الأوّل من حديث ابن عباس بسند ضعيف أوالطبرانى بالشطر الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فمايعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهنّ وفى رواية ماجزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن فياض وثقه أبوداود وضعفه ابن معين وباقى رجاله ثقات (٢) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه بلفظ شارب الحرث بن أبى أسامة من حديث عبدالله بن عمر وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبى هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهانى (٣) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه الطبرانى فى الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاما وقال لم يروه إلاشعيب بن خالد وهو كوفى ثقة ، وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبدالرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف (٤) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا تقدّم حديث معاذ قبله ورواه أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشى أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٥) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلاباب الصبر فانه باب واحد الحديث لم أجدله أصلا ولا فى الأحاديث الواردة فى مصاريع أبواب الجنة تفرقة ، فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والذى نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أوكمابين مكة وبصرى وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا أن مابين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام .

والنقصان مع الاجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فان الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لامحالة أفضل منه . وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة ففائدتها إصلاح العمل وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه ، فيكون بالاضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فان السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرّة التي لاقيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ماعداها من المعارف عبيد وخدم بالاضافة إليها فانها إنما تراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى فان بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل . وأما الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق فاذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة ، وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لامحالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الأعمال فان تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول المعصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فاخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولاهو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه والشح المطاع من جملة المهلكات ولايزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لايزيله إلا إخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه فاذن باعتبار هذه الأحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب للمطلق فيه خطأ

إذ

الحال مالايستطيع به إلى المال فحينئذ يجوز له أن يفسح للمريد في الخروج من المال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله ، ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض المريدين مكروها أو علم من حاله اعوجاجا أو أحس منه بدعوى أو رأى أنه داخله عجب أن لايصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ويكشف عن وجه المذمة مجملا فتحصل بذلك الفائدة للكل فهذا أقرب إلى المداراة وأكثر أثرا لتألف

إذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فان اجتمعا فلينظر إلى الأغلب فان كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل فان تساويا فهما متساويان وكذا إذا قيل السكنجبين أفضل أم شراب النيلوفر لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء . فنقول : عدم الصفراء لأن السكنجبين مراد له وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة فاذن فى بذل المال عمل وهو الإنفاق وعمل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه فالأفضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل . فان قلت فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ فى ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله ـ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ـ وقال تعالى ـ ويأخذ الصدقات ـ فكيف لا يكون الفعل والانفاق هو الأفضل. فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا امرآة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به فالسبيل معه المبالغة فى الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك فى حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة بى إلى تكرار ودراسة لأنه يظن أن ما يحفظه فى الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبى المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول مابالى قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبى لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفى به وأعلم أنه لا نقصان لأبى بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه فى العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدرى وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأى معنى لقوله ـ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ـ ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار ـ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ـ وقالوا أيضا ـ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ـ فانظر كيف كانوا صادقين فى كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى ثم قالوا لا حظ لنا فى المساكين ولا حظ لله فينا وفى أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبى لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم فى نفسه وتأكده فى قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته فى الدنيا وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به فى استجراره إلى ما فيه سعادته، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذن للمسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن يكون له

القلوب وإذا رأى من المريد تقصيرا فى خدمة ندبه إليها وحمل تقصيره ويعفو عنه ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين وإلى ذلك ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الكروخى قراءة عليه قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا قتيبة قال ثنا رشدين بن سعد عن أبى هلال الخولانى عن ابن عباس بن جليد الحجرى عن عبد الله بن

غرض في أن يصنع شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها [١] كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها [٢] والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرتا في البلاء والمصائب وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمى شكرا بالاضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصرع به باعث الشهوة وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فإذن مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة والمعصية والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة والمعصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إما أن تعم ضرورية كالعينين مثلا وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى و لا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين: أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية، والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فان الأعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون إلا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فانه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية فان أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله

(١) حديث النهي عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة إن هذه الصدقة لا تحل لنا إنما هي أوساخ القوم وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وفي رواية له أوساخ الناس.

عمر قال جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يارسول الله كم أعفو عن الخادم قال «كل يوم سبعين مرة» وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس باحياء سنته في كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات يعرفه

تعالى

تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد وأن الجملة أعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوّة والغني أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام ولكن لا بد من قوّة في الصبر عن الحرام أيضاً إلا أن القوّة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوّة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها فإن الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان فما دل على زيادة قوة في الإيمان فهو أفضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا أن يصرفها إلى الطاعة، فإذن الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما فشرط الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزعجها أتم حالاً ممن متع صفته ونعمها والأمر على ما قاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواه ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابتني ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر. فإن قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق. فاعلم أن الذي نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهراً وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذيذاً عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذاً وقد كان مؤلماً له أوّلاً ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق، فإذا إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر

أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد بل يعرفه أن هذه نعمة تشكر ومن ورائها نعم لا تحصى ويعرفه أن شأن المريد طلب المنعم لا النعمة حتى يبقى سره محفوظاً عند نفسه وعند شيخه ولا يذيع سره فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوّتين آخذة ومعطية وكلتاهما تتشوف إلى الفعل المختص بها ولولا أن الله تعالى وكل المعطية بإظهار ما عندها

فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فاذا أردت التحقيق فقصل فان للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهومقام وراءالصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذالصبرمع التألم والرضايمكن بمالاألم فيه ولافرح والشكر لايمكن إلاعلى محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل فى جملتها أمور دونها فان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضا نعمةمن نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر إذقال عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله [1]» وقد ذكرنا حقيقة ذلك فى كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر ومايندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لاتحصر آحادها وهى درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلاعلى سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد فى الأخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت فى بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن فى السن فسألته عن حاله فقال إنى كنت فى ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى وهى كذلك كانت تهوانى فاتفق أنها زوجت منى فليلة زفافها قلت تعالى حتى نحيى هذه الليلة شكرا لله تعالى على ماجمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فمنذ سبعين أوثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يافلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لوصبرا على بلاء الفرقة أن لولم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه فلايخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذن لاوقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق والله أعلم .

ماظهرت الأسرار فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها فى مواضعها فيجل حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم وينبغى للمريد أن يحفظ سره من بثه ففى ذلك صحته وسلامته وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك للمريدين الصادقين فى موردهم ومصدرهم .

[الباب الثالث والثلاثون فى حقيقة الصحبة ومافيها من الخير والشر] المقتضى للصحبة وجود الجنسية وقد يدعو اليها أعم الأوصاف

﴿ كتاب الخوف والرجاء ﴾

(وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه المخوف مكره وعقابه الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لأنقته والتهدف لسخطه ونقمته قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف الى جنته ، والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته .

[أما بعد] فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود فلايقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلاأزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا أسياط التخويف وسطوات التعنيف فلابد اذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل الى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ونحن

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم فى الزكاة .

﴿ كتاب الرجاء والخوف ﴾

تجمع ذكرهما فى كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الأول فى الرجاء والشطر الثانى فى الخوف أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذى يجتلب به الرجاء .

(بيان حقيقة الرجاء)

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل وإلى ماهو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضى العمل وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة وبيانه أن كل مايلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود فى الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر فى الاستقبال فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمى ذكرا وتذكرا وإن كان ماخطر بقلبك موجودا فى الحال سمى وجدا وذوقا وإدراكا وإنما سمى وجدا لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شىء فى الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمى انتظارا وتوقعا فإن كان المنتظر مكروها حصل منه ألم فى القلب سمى خوفا وإشفاقا وإن كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة فى القلب وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ماهو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنى أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على مايتردد فيه أما مايقطع به فلا ، إذ لايقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لاينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا مازرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لاينمو بذر فى أرض سبخة فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل مايمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لاينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقا وغرورا لارجاء وإن بث البذر فى أرض طيبة لكن لاماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لاتغلب الأمطار ولا يمتنع أيضا سمى انتظاره تمنيا لارجاء ، فاذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات

وقد يدعو إليها أخص الأوصاف فالدعاء بأعم الأوصاف كيل جنس البشر بعضهم إلى بعض والدعاء بأخص الأوصاف كيل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ثم أخص من ذلك كيل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض وكيل أهل المعصية بعضهم إلى بعض فاذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى فليتفقد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص وينظر ما الذى يميل به إلى صحبته ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع فان

وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان فى إتمام أسباب المغفرة إلى الموت وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور قال صلى الله عليه وسلم «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة [1]» وقال تعالى ـ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ـ وقال تعالى ـ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ـ وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال ـ ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ـ فاذن العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع مافرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة فإذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق إليها فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى ـ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ـ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية . قال يحيى ابن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصى وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الافراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان فان من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذن حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له فان هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل

(١) حديث الأحمق من أتبع نفسه هواها الحديث تقدم غير مرة .

رأى أحواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال فقد جعل الله تعالى مرآته بجلاوة يلوح له فى مرآة أخيه جمال حسن الحال وإن رأى أفعاله غير مسددة فليرجع إلى نفسه باللائمة والاتهام فقد لاح له فى مرآة أخيه سوء حاله فبالجدير أن نفر منه كفراره من الأسد فانهما إذا اصطحبا ازدادا ظلمة واعوجاجا ثم إذا علم من صاحبه الذى مال إليه حسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك فى مرآة أخيه فليعلم أن الميل بالوصف الأعم مركوز فى جبلته والميل بطرقه واقع وله

ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور [1]».

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له والحب يغلب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما في وقت الموت قال تعالى ـ لا تقنطوا من رحمة الله ـ فحرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى [2]» وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء [3]» «ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك فقال أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف [4]» وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه ياهذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لأن الله عز وجل عير قوما فقال ـ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ـ وقال تعالى ـ وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ـ وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإن لقنه الله حجته قال يارب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرته لك [5]» وفي الخبر الصحيح «أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيرا قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا [6]» فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات وقال تعالى ـ إن الذين يتلون كتاب الله

بحسبه أحكام وللنفس بسببه سكون وركون فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية وملذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد يفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد على فساد طريقهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال إليهم بجنسية الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي ﷺ الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى فقام زيد الخير فقال يارسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك (٢) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك الحديث الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد (٥) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف (٦) حديث أن رجلا كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر الحديث مسلم من حديث أبي مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه واتفقا عليه من حديث حذيفة

وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ـ ولما قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادى فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم (١)» وفى الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى إلى خلقى فقال يارب كيف أحببك إلى خلقك قال اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى وإحسانى وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل (٢)» ورؤى أبان بن أبى عياش فى النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال أوقفنى الله تعالى بين يديه فقال ما الذى حملك على ذلك فقلت أردت أن أحببك إلى خلقك فقال قد غفرت لك ورؤى يحيى بن أكثم بعد موته فى النوم فقيل له ما فعل الله بك فقال أوقفنى الله بين يديه وقال ياشيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذنى من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عنى فقلت حدثنى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء وكنت أظن بك أن لا تعذبنى فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبى وصدق أنس وصدق الزهرى وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين يدى الولدان إلى الجنة فقلت يالها من فرحة . وفى الخبر «أن رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم أويسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها (٣)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى ياحنان يامنان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فأتنى بعبدى قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك فيقول شر مكان قال فيقول ردوه إلى مكانه قال فيمشى ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عز وجل إلى أى شىء تلتفت فيقول لقد رجوت أن لا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها فيقول الله تعالى اذهبوا به إلى الجنة (٤)» فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

(بيان دواء الرجاء والسبيل الذى يحصل منه حال الرجاء ويغلب)

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف فى المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفى الافراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال فأما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصى فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة فى حقه وتنزل منزلة العسل الذى هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل المغرور لا يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها فإن المطلوب هو العدل

حقيقة الصحبة لله فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب والتخلف عن بلوغ الأرب فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة ويأخذ من الصحبة أصفى الأقسام ويذر منها ما يسد فى وجهه المرام قال بعضهم هل رأيت شرائط الإلهى تعرف ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصحبة ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة كإبراهيم بن أدهم وداود الطائى وفضيل ابن عياض وسليمان الخواص وحكى عنه أنه قيل له جاء إبراهيم ابن أدهم أما تلقاه قال لأن ألقى سبعا ضاريا

---

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا الحديث وفيه فهبط جبريل الحديث ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه بزيادة ولخرجتم إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى الحديث لم أجد له أصلا وكأنه من الاسرائيليات كالذى قبله (٣) حديث أن رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث رواه البيهقى فى الشعب عن زيد بن أسلم فذكره مقطوعا (٤) حديث إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى ياحنان يامنان الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث أنس .

والقصد

والقصد فى الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها فاذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد فى ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة فى التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون فى طغيانهم تماديا قال على كرم الله وجهه إنما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله . ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل فى حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء فى حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذى يظن أن كل شىء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والأخبار والآثار . أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ماذكرناه فى أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا وعجائب حكمه التى راعاها فى فطرة الإنسان حتى أعد له فى الدنيا كل ماهو ضرورى له فى دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود وإنما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده فى أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة فى الدنيا حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا أو لا يحشر أصلا فليست كراهتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة وإنما الذى يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه إلا فى حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فاذا كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجدها تبديلا فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسنتها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من أقوى أسباب الرجاء فقيل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل عن رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط فى حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذى لا عوض له منه .

الفن الثانى استقراء الآيات والأخبار : فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى ــ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ــ وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالى إنه هو الغفور الرحيم[1] وقال تعالى ــ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ــ وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه وإنما خوف بها أولياءه فقال ــ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ــ وقال تعالى ــ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ــ وقال تعالى ــ فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها

أحب إلى من أن ألقى إبراهيم بن أدهم قال لأنى إذا رأيته أحسن له كلامى وأظهر نفسى باظهار أحسن أحوالها وفى ذلك الفتنة وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها وهذا واقع بين المتصاحبين إلا من عصمه الله تعالى . أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة قال أنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابى قال أنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق قال حدثنا

(١) حديث قرأ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى الترمذى من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

إلا الأشقى الذي كذب وتولى ـ وقال عز وجل ـ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ـ ويقال « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية ـ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ـ [1] » وفي تفسير قوله تعالى ـ ولسوف يعطيك ربك فترضى ـ قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله ـ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ـ الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى ـ ولسوف يعطيك ربك فترضى ـ وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال « أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقيل هذا فداؤك من النار [2] » وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فدائي من النار فيلقى فيها [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار [4] » وروى في تفسير قوله تعالى ـ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه « أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام أني أجعل حساب أمتك إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا نخزيك فيهم [5] » وروى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلي لئلا يطلع على مساويهم غيري فأوحى الله تعالى إليه هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم [7] »

سليمان بن الأشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم ـ وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربي ـ استظهر بالعزلة على قومه . قيل : العزلة نوعان فريضة وفضيلة فالفريضة العزلة عن الشر وأهله

---

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزل عليك وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والثعلبي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ أحد العيش الحديث (٢) حديث أبي موسى أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن الحديث أبو داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه.(٣) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم الحديث مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٤) حديث الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني الحديث في تفسير قوله تعالى ـ يوم لا يخزي الله النبي ـ ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلي الحديث لم أقف له على أصل (٧) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه باسناد ضعيف.

وقال

وقال صلى الله عليه وسلم يوما «يا كريم العفو فقال جبريل عليه السلام أتدرى ماتفسيريا كريم العفو هو إن عفا عن السيئات برحمة بدلهاحسنات بكرمه [(١)]» وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول «اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال هل تدري ماتمام النعمة ؟ قال لا، قال دخول الجنة [(٢)]» قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الاسلام لنا إذ قال تعالى ـ وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ـ وفي الخبر «إذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته انظروا إلى عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له [(٣)]» وفي الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرني ورجاني [(٤)]» وفي الخبر «لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقراب الأرض مغفرة [(٥)]» وفي الحديث إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة [(٦)]» وفي لفظ آخر «فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فتلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال أعرابي وإن تاب عنه قال محي عنه قال فان عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الأعرابي فان تاب قال محي من صحيفته قال إلى متى ؟ قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فاذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فان عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فاذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل [(٧)]» وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال

والفضيلة عزلة الفضول وأهله ويجوز أن يقال الخلوة غير العزلة فالخلوة من الأغيار والعزلة من النفس وما تدعو إليه وما يشغل عن الله فالخلوة كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود. قال أبو بكر الوراق ماظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وماسلم إلا من جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصمت وواحد في العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليلزم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلازم

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل تدرى ماتفسير يا كريم العفو الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره (٢) حديث سمع رجلا يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث تقدم (٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ إن عبدا أصاب ذنبا فقال أي رب أذنبت ذنبا فاغفر لي الحديث وفي رواية أذنب عبد ذنبا فقال الحديث (٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء الحديث الترمذي من حديث أنس ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك وقال حسن (٥) حديث لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة وللترمذي من حديث أنس الذي قبله ياابن آدم لو لقيتني الحديث (٦) حديث إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه الحديث قال وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضا أطول منه وفيه إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ولم أجد لذلك أصلا (٧) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال أعرابي فان تاب عنه قال محي عنه قال فان عاد الحديث وفيه إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار

«يارسول الله إنى لاأصوم إلاالشهر لاأزيد عليه ولاأصلى إلاالخمس لاأزيد عليها وليس لله فى مالى صدقة ولاحج ولاتطوّع : أين أنا إذامتّ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : نعم معى ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغلّ والحسد ، ولسانك من اثنتين : الغيبة والكذب ، وعينيك من اثنتين : النظر إلى ماحرم الله ، وأن تزدرى بهما مسلما دخلت معى الجنة على راحتى هاتين [(١)] » وفى الحديث الطويل لأنس « أن الأعرابى قال يارسول الله من يلى حساب الخلق ؟ فقال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه ؟ قال نعم فتبسم الأعرابى فقال صلى الله عليه وسلم ضحكت ياأعرابى فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم صدق الأعرابى ألالا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ثم قال فقه الأعرابى [(٢)] » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولوأن عبدا هدمها حجراحجرا ثم أحرقها مابلغ جرم من استخف بولىّ من أولياء الله تعالى . قال الأعرابى ومن أولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أماسمعت قول الله عز وجل ـ الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ـ » وفى بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة [(٣)] » « والمؤمن طيب طاهر [(٤)] » « والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة [(٥)] » وفى الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة [(٦)] » . وفى خبر آخر « يقول الله عز وجلّ

الحديث البيهقى فى الشعب بلفظ جاء رجل ، فقال يارسول الله : إنى أذنبت ذنبا . قال استغفر ربك قال فأستغفر ثم أعود . قال فاذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرّات أوأربعا . قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور وفيه أبوبدر بشار بن الحكم الصرى منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أحدنا يذنب . قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفرله ويتاب عليه قال فيعود الحديث وفيه لايمل الله حتى تملوا وليس فى الحديثين قوله فى آخره فاذاهمّ العبد بحسنة الخ وهو فى الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيا يرويه عن ربه فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان همّ بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم فى رواية أومحاها الله ولايهلك على الله إلاهالك ولهما نحوه من حديث أبى هريرة (١) حديث جاء رجل ، فقال يارسول الله إنى لاأصوم إلاالشهر لاأزيد عليه ولاأصلى إلاالخمس لاأزيد عليها وليس لله فى مالى صدقة ولاحج ولاتطوع الحديث تقدم (٢) حديث أنس الطويل قال أعرابى يارسول الله من يلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فتبسم الأعرابى الحديث لم أجدله أصلا (٣) حديث المؤمن أفضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ماأعظمك وأعظم حرمتك والذى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلاخيرا ، وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصى ضعفه أبوحاتم ووثقه ابن حبان وقدتقدم (٤) حديث المؤمن طيب طاهر لم أجده بهذا اللفظ . وفى الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لاينجس (٥) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة ابن ماجه من رواية أبى المهزم يزيد بن سفيان عن أبى هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف (٦) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده

الصمت فانه أصل والكلام عارض ولا يتكلم إلابحجة فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم والأخبار والآثار فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة والكتب بها مشحونة . وأجمع الأخبار فى ذلك ماأخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح باسناده السابق إلى أبى سليمان قال حدثنا أحمد بن سليمان النجاد قال ثنا محمد ابن يونس الكريمى قال ثنا محمد ابن منصور الجشمى قال ثنا مسلم بن سالم قال ثنا السرى ابن يحيى عن الحسن

إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم [١] » وفى حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماخلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه [٢] » وفى الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن رحمتى تغلب غضبى [٣] » وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة [٤] » . « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار [٥] » . ومن لقى الله لايشرك به شيئا حرمت عليه النار [٦] » . ولا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان [٧] » وفى خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ماأيس من جنته أحد [٨] » ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « - إن زلزلة الساعة شىء عظيم - قال أتدرون أى يوم هذا هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مالكم لاتعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ماحدثتنا بهذا فقال كم أنتم فى الأمم أين تاويل وثاريث ومنسك ويأجوج ومأجوج أمم لايحصيها إلا الله تعالى إنما أنتم فى سائر الأمم كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود وكالرقمة فى ذراع

عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتين على الناس زمان لايسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذى يروغ قالوا ومتى ذلك يارسول الله قال إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرتنا بالتزوج قال إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فان لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته

إلى الجنة لم أجده هكذا ويغنى عنه مارواه البخارى من حديث أبى هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة فى السلاسل (١) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم لم أقف له على أصل (٢) حديث أبى سعيد ماخلق الله شيئا إلا جعل له مايغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الميزان ليس بواه ولا بمجهول (٣) حديث إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى تغلب غضبى متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٤) حديث معاذ وأنس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة الطبرانى فى الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو فى اليوم والليلة للنسائى بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ ومن حديث أنس أيضا وتقدم فى الأذكار (٥) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٦) حديث من لقى الله لايشرك به شيئا حرمت عليه النار الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ مامن عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار وزاد البخارى صادقا من قلبه وفى رواية له من لقى الله لايشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جعله الله فى الجنة وللنسائى من حديث أبى عمرة الأنصارى فى أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى رسول الله لايلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة (٧) حديث لايدخلها من فى قلبه وزن ذرة من إيمان أحمد من حديث سهل بن بيضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان إنى لأعلم كلمة لايقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هى كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة ، نعم لايبقى فى النار من فى قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبى سعيد وفيه فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . وقال مسلم من خير بدل من إيمان (٨) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ماأيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبى هريرة.

الدابة (١) » فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر فى الأول ما رآه سببا للشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر . فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف فى استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفى الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم (٢) » وفى لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم » وفى الخبر « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب . قيل وما هو قال العجب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٤) » وفى الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت على قلب أحد حتى إن إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه (٥) » وفى الخبر « إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعا وتسعين رحمة وأظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض قال فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك (٦) » وفى الخبر « مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته (٧) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى أترونها للمطيعين المتقين بل هى للمتلوثين المخلطين (٩) »

وولده فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته قالوا وكيف ذلك يارسول الله قال يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة » . وقد رغب جمع من السلف فى الصحبة والأخوة فى الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا فقال سبحانه وتعالى ـ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ـ وقال تعالى ـ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف

(١) حديث لما تلا ـ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ـ قال أتدرون أى يوم هذا الحديث الترمذى من حديث عمران بن حصين ، وقال حسن صحيح . قلت هو من رواية الحسن البصرى عن عمران ولم يسمع منه ، وفى الصحيحين نحوه من حديث أبى سعيد (٢) حديث لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم ، وفى لفظ لذهب بكم الحديث مسلم من حديث أبى أيوب واللفظ الثانى من حديث أبى هريرة قريبا منه (٣) حديث لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو شر من الذنوب قيل ماهو قال العجب البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وتقدم فى ذم الكبر والعجب (٤) حديث والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بنحوه (٥) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف (٦) حديث إن لله تعالى مائة رحمة الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٧) حديث مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٨) حديث اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله تقدم أيضا (٩) حديث إنى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى الحديث الشيخان من حديث أبى هريرة لكل نبى دعوة وإنى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى ، ورواه مسلم من حديث أنس ، وللترمذى من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ، ولابن ماجه من حديث أبى موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم .

وقال

وقال عليه الصلاة والسلام «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة [1]» وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن فى ديننا سماحة [2]» ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين فى قولهم - ولا تحمل علينا إصرا - وقال تعالى - ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم - وروى محمد بن الحنفية عن على رضى الله تعالى عنهما أنه قال «لما نزل قوله تعالى - فاصفح الصفح الجميل - قال ياجبريل وماالصفح الجميل قال عليه السلام إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه فقال ياجبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه فبكى جبريل وبكى النبى صلى الله عليه وسلم فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرئكما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا مالايشبه كرمى [3]» . والأخبار الواردة فى أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال على كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه فى الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره فى الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة . وقال الثورى ماأحب أن يجعل حسابى إلى أبوى لأنى أعلم أن الله تعالى أرحم بى منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن مصعب إلى أسود بن سالم يخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول : يارب حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة يارب قال الله تعالى حتى متى تحجبون عنى صوت عبدى قد علم عبدى أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيرى أشهدكم أنى قد غفرت له . وقال ابراهيم بن أدهم رحمة الله عليه خلا لى الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت فى الملتزم عند الباب فقلت : يارب اعصمنى حتى لاأعصيك أبدا فهتف بى هاتف من البيت ياابراهيم أنت تسألنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون منى ذلك فاذاعصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر ، وكان الحسن يقول:لولم يذنب المؤمن لكان يطير فى ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين . ولقى مالك بن دينار أبانافقال له إلى كم تحدث الناس بالرخص فقال ياأبا يحيى إنى لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامةماتخرق له كساءك هذا من الفرح . وفى حديث ربعى بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت . قال لما مات أخى سجى بثوبه ، ألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إنى لقيت ربى عز وجل فحيانى بروح وريحان وربى غير غضبان وإنى رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تغتروا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاةوقعت فى طست فحملناه ودفناه . وفى الحديث

بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - وقد اختار الصحبة والأخوة فى الله تعالى سعيد ابن المسيب وعبد الله ابن المبارك وغيرهما . وفائدة الصحبة أنها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان ويقع بطريق

---

(١) حديث بعثت بالحنيفية السمحة السهلة أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله وللطبرانى من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحق رواه بالعنعنة (٢) حديث أحب أن يعلم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة أبو عبيد فى غريب الحديث وأحمد (٣) حديث محمد بن الحنفية عن على لما نزل قوله تعالى - فاصفح الصفح الجميل - قال ياجبريل وما الصفح الجميل قال إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه الحديث ابن مردويه فى تفسيره موقوفا على على مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفى إسناده نظر .

«أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويزجره فكان يقول دعني وربي أبعثت على رقيبا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته [١]» وروي أيضاً أن لصا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا قال فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري ويقول في نفسه مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد قال وأحس الحواري به فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة السلام فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حوارييه . وروي عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطيء عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته قال فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال اذهب فلن يغفر الله لك فأوحى الله تعالى إليه تتألى علي في عبادي إني قد غفرت له . ويقرب من هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فنزل عليه قوله تعالى ـ ليس لك من الأمر شيء ـ الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للاسلام [٢]» وروي في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فاذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته علي في عليين فيقول الله سبحانه إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل عبد سؤله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لانعامه وأكرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال ﷺ «سلوا الله الدرجات العلى فانما تسألون كريما [٣]» وقال «إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فان الله تعالى لا يتعاظمه شيء [٤]» وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على

الصحبة والأخوة التعاضد والتعاون وتقوى جنود القلب وتستروح الأرواح بالتشام وتتفق في التوجه إلى الرفيق الأعلى ويصير مثالها في الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام وإذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام . ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «المؤمن كثير بأخيه» وقال الله تعالى مخبرا عمن لا صديق له ـ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ـ والحميم في الأصل الحميم إلا أنه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجهما إذ هما من

---

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة باسناد جيد (٢) حديث ابن عباس كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فنزل قوله تعالى ـ ليس لك من الأمر شيء ـ فترك الدعاء عليهم الحديث البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله عز وجل ـ ليس لك من الأمر شيء . إلى قوله : فانهم ظالمون ـ ورواه الترمذي وسماهم أبا سفيان والحرث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد فتاب عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للاسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما لم أجده بهذا اللفظ وللترمذي من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ (٤) حديث إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فان الله لا يتعاظمه شيء مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم

مالك

مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها فقلنا ياأبا عبد الله كيف تجدك قال لاأدرى ماأقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله مالم يكن لكم فى حساب ثم ما برحنا حتى أغمضناه. وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى إياك مع الأعمال لأنى أعتمد فى الأعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف. وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفتك فمر المجوسى فأوحى الله تعالى إليه ياإبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسى فرده وأضافه فقال له المجوسى ما السبب فيما بدا لك فذكر له فقال له المجوسى أهكذا يعاملنى ثم قال اعرض على الاسلام فأسلم. ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا. ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لاتوصف فقال له ياأستاذ بم نلت هذا فقال بحسن ظنى بربى. وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه أن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال فجاءوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال فقلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال. وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشترى شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع الغلام إليه الدراهم فقال منصور ما الذى تريد أن أدعو لك فقال لى سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى قال أن يخلف الله على دراهمى فدعا ثم قال الأخرى قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ثم قال الأخرى فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم أبطأت فقص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت لنفسى العتق فقال له اذهب فأنت حر قال وأيش الثانى قال أن يخلف الله على الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم وأيش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال تبت إلى الله تعالى قال وأيش الرابع قال أن يغفر الله لى ولك وللقوم قال هذا الواحد ليس إلى فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له أنت فعلت ما كان إليك أفترى أنى لاأفعل ما إلى قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين. وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت فقلت للمرأة من كان هذا الميت منك قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا أمره قلت وأيش كان هذا قالت مخنثا قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى فقلت من أنت فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس إياى. وقال إبراهيم الأطروش كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخى على دجلة إذ مر أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا لمعروف أما تراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة فقال

حروف الحلق والهميم مأخوذ من الاهتمام أى يهتم بأمر أخيه فالاهتمام بهم الصديق حقيقة الصداقة. وقال عمر إذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك وقد قال القائل :

وإذا صفا لك من زمانك واحد
فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال ياداود مالى أراك منتبذا وحدك قال إلهى قليت الخلق من أجلك فأوحى الله إليه ياداود كن يقظانا مرتادا لنفسك اخوانا

اغفرلى إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فان الله عز وجل لا يتعاظمه شيء أعطاه والبخارى من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذى من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

القوم إنما سألناك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول فى دعائه يارب وأى أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ماأحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك يا ربنا لاتغضب فهذه هى الأسباب التى بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا شيئا من ذلك بل يسمعون ماسنورده فى أسباب الخوف فان أكثر الناس لايصلح إلا على الخوف كالعبد السوء والصبى العرم لايستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة فى الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا .

(الشطر الثانى من الكتاب فى الخوف)

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

(بيان حقيقة الخوف)

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال ، وقد ظهر هذا فى بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولارجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها ، وإلى هذا أشار الواسطى حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا إذا ظهر الحق على السرائر لايبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه فى مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا فى الشهود وإنما دوام الشهود غاية المقامات ، ولكنا الآن إنما نتكلم فى أوائل المقامات فنقول : حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضى إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع فى يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك فى نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع إليه فى حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذى وقع فى مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وإن كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع فى مجرى سيل أوجوار حريق فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه لايسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله [1] » وكذلك قال الله تعالى ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ ثم إذا كملت المعرفة أورثت

وكل خدن لايوافق على مسرتى فلاتصحبه فانه عدو يقسى قلبك ويباعدك منى . وقد ورد فى الخبر « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون فالمؤمن آلف مألوف » وفى هذا دقيقة وهى أنه ليس من اختار العزلة والوحدة قد يذهب عنه هذا الوصف فلايكون آلفا مألوفا فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجبلى ، وهذا الخلق يكمل فى كل من كان أتم معرفة ويقينا وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفر الناس حظا

(١) حديث أنا أخوفكم البخارى من حديث أنس والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له وللشيخين

أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما فى البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفضى إلى الموت أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ، ولذلك قيل ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب إليه ، وقيل لذى النون متى يكون العبد خائفا قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام . وأما فى الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل فى القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر فى خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله حال من وقع فى مخالب سبع ضار لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذى هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق فى التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ويدخل فى الصدق التقوى ويدخل فى التقوى الورع ويدخل فى الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فإذن الخوف يؤثر فى الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا ووراءه اسم الصديق والمقرب وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل كما أنك تقول الانسان إما عربى وإما عجمى والعربى إما قرشى أو غيره والقرشى إما هاشمى أو غيره والهاشمى إما علوى أو غيره والعلوى إما حسنى أو حسينى فإذا ذكرت أنه حسنى مثلا فقد وصفته بالجميع وإن وصفته بأنه علوى وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت إنه تقى وورع وعفيف فلا ينبغى أن تظن أن كثرة هذه الأسامى تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعانى من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ للمعانى فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

من هذا الوصف الأنبياء ثم الأولياء وأتم الجميع فى هذا نبينا صلوات الله عليه وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة كان أكثر تبعا ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعا وقال «تناكحوا تكثروا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ـ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ـ وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ومن كان هذا الوصف فيه

من حديث عائشة والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية .

(بيان درجات الخوف واختلافه فى القوّة والضعف)

اعلم أن الخوف محمود وربما يظنّ أن كل ماهو خوف محمود فكلما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والأصلح للبهيمة أن لاتخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لايدل على أن المبالغة فى الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية لايؤلمها ألما مبرحا فلايسوقها إلى المقصد ولايصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فانهم أبعد الناس عن الخوف بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك مما قد عزّ وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك إن قلت لا كفرت وإن قلت نعم كذبت وأشار به إلى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ومالم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لايستحق أن يسمى خوفا . وأما المفرط فانه الذى يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضا لأنه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف ماهو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز . أما الجهل فانه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفا لأن المخوف هو الذى يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لايقدر على دفعه فاذن هو محمود بالاضافة إلى نقص الآدمي وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل مايجوز أن يوصف الله تعالى به وما لايجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال فى ذاته وإنما يصير محمودا بالاضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لأنه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذى يقتل الصبي والسوط الذى يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل مايراد لأمر فالمحمود منه مايفضى إلى المراد المقصود منه ومايقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل مايقدح فى هذه الأسباب فهو مذموم . فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموما . فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لاينالها لومات فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة إليه فضيلة فأما بالاضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقى فى درجات المعارف فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلاينبغى أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى فكل ماأبطل العمر أو العقل أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالاضافة إلى أمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالاضافة

إلى

أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر فى الابتداء ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة فى أول أمره وكان يخلو فى غار حراء ويتحنث الليالى ذوات العدد وطلب العزلة لايسلب وصف كونه آلفا مألوفا وقد غلط فى هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلبا لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ماأسلفنا فى أول الباب إن فى الانسان ميلا إلى الجنس بالوصف

إلى أمور أخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة إلى مادونها لا بالاضافة إلى درجة المتقين والصديقين فاذن الخوف إن لم يؤثر فى العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذى لا يزيد فى حركة الدابة وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فان لم يحمل إلا على العفة وهى الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا أثمر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى مايحمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل .

(بيان أقسام الخوف بالاضافة إلى مايخاف منه)

اعلم أن الخوف لايتحقق إلا بانتظار مكروه والمكروه إما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضى إلى المكروه كما تكره المعاصى لأدائها إلى مكروه فى الآخرة كما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره فى قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء أو خوف مالا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التى سبقت له فى الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فان الأمر فيه خطر وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء فى أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك فى حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عماذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذى خطر له فى حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذى جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى مايظهر فى الأبد وإليه أشار النبى صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى

الأعم فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح فاذا وفوا التصفية حقها اشرأبت الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصلى الأولى وأعادها الله تعالى إلى الخلق ويخالطتهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح وظهرت صفة الجبلة من الألفة المكلة آلفة مألوفة فصارت العزلة من أهم الأمور عند من

وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لايزاد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله والأعمال بالخواتيم [1] »
وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التى تقتضى الهيبة لامحالة فهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وإن كان فى طاعة الصديقين وأما الآخر فهو فى عرصة الغرور والأمن إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بأن يخاف من غير جناية بل العاصى لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها فان تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصى قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا المطيع فالذى يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل فى أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذى عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة فكان الفعل بعد الارادة والقدرة ضروريا فليت شعرى ماالذى أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه وما الذى أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعى المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلى من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذى لايجوز إفشاؤه ولايمكن تفهم الخوف منه فى صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة فقد جاء فى الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام ياداود خفنى كما تخاف السبع الضارى [2] » فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لايقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل مايفعل ولا يبالى فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة إذ لايقدح ذلك فى عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ولله المثل الأعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التى هى أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق فى قوله «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى النار ولا أبالى » ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة.

بألف فيؤلف ومن أدل الدليل على أن الذى اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذم العزلة على الاطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها فى وقتها والصحبة مرغوبا فيها فى وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لايجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . وكان بشر بن الحرث يقول إذاقصر العبد فى طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالأنيس يجيشه الله

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم الحديث الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى داود ياداود خفنى كما تخاف السبع الضارى لم أجد له أصلا ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء فى الخبر وكثيرا مايعبر بذلك عن الاسرائيليات التى هى غير مرفوعة .

الطبقة الثانية من الخائفين : أن يتمثل فى أنفسهم ماهو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدته أوسؤال منكر ونكير أوعذاب القبر أوهول المطلع أوهيبة الوقف بين يدى الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أوالخوف من النار وأغلالها وأهوالها أوالخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات أوالخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة فى نفسها فهى لامحالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هوخوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وماقبل ذلك خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن العارف لايخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك فى باطنه منكرا وتعجب منه فى نفسه وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولامنع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد وإلا فباطنه لايصدق به لأنه لايعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأمالذة العارفين فلايدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاله ومن كان أهلاله استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

(بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه)

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار . أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشئ بقدر غنائه فى الافضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة إذلامقصود سوى السعادة ولاسعادة للعبد إلافى لقاء مولاه والقرب منه فكل ماأعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر أنه لاوصول إلى سعادة لقاء الله فى الآخرة إلابتحصيل محبته والأنس به فى الدنيا ولاتحصل المحبة إلابالمعرفة ولاتحصل المعرفة إلابدوام الفكر ولايحصل الأنس إلابالمحبة ودوام الذكر ولاتيسر للمواظبة على الذكر والفكر إلابانقطاع حب الدنيا من القلب ولاينقطع ذلك إلابترك لذات الدنيا وشهواتها ولايمكن ترك المشتهيات إلابقمع الشهوات ولاتنقمع الشهوة بشئ كما تنقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فإن فضيلته بقدر مايحرق من الشهوات وبقدر مايكف عن المعاصى ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لايكون الخوف ذافضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهى الأعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى ــ وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ــ وقال تعالى ــ إنما يخشى الله من عباده العلماء ــ وصفهم بالعلم لخشيتهم وقال عز وجل ــ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ــ وكل مادل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء فى خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لايشاركون فيه فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله

للصادقين رفقا من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا والأنيس قد يكون مفيدا كالمشايخ وقد يكون مستفيدا كالمريدين فصحيح الخلوة والعزلة لايترك من غير أنيس فإن كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به وإن كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من المريدين وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله ومن الله وفى الله. وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «المتحابون فى الله على عمود من ياقوته حمراء فى رأس العمود سبعون

تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأعلى [(١)] » فاذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولايخفى ماورد فى فضائلهما حتى إنّ العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة إلى نفسه فقال تعالى ـ لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم ـ وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى ـ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ـ ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ـ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ـ وقال عز وجل ـ وخافون إن كنتم مؤمنين ـ فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه فى الايمان فلذلك لايتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة التقوى « إذاجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فاذاهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول . ياأيها الناس إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هى أعمالكم ترد عليكم . أيها الناس إنى قد جعلت نسبا وجعلتم نسبا فوضعتم نسبى ورفعتم نسبكم . قلت ـ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ـ وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى أين المتقون فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب [(٢)] » وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله [(٣)] » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقانى فأكثر من الخوف بعدى [(٤)] » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير . وقال الشبلى رحمه الله : ماخفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة مارأيته قط . وقال يحيى بن معاذ : مامن مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين . وفى خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فانه لايبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما فى يديه إلا الورعين فانى أستحى منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فان خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسامى وكذلك ماورد فى فضائل الذكر لايخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال ـ سيذكر من يخشى ـ وقال تعالى ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ وقال صلى الله عليه وسلم « قال عز وجل وعزتى

ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضئ حسنهم لأهل الجنة كما تضئ الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله عز وجل فاذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضئ الشمس لأهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل » وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ إنى أحبك فى الله فقال له أبشر ثم أبشر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول

(١) حديث لما خير فى مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبى حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما نزل به ورأسه فى حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فعلمت أنه لايختارنا وعرفت أنه الحديث الذى كان يحدثنا وهو صحيح الحديث
(٢) حديث إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أدناهم فيقول ياأيها الناس إنى قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هى أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إنى جعلت نسبا الحديث الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك بسند ضعيف والثعلبى فى التفسير مقتصرا على آخره إنى جعلت نسبا الحديث من حديث أبى هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله أبو بكر بن لال الفقيه فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه فى دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصلح أيضا
(٤) حديث إن أردت أن تلقانى فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل.

لاأجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فان أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء [(٢)] » وقال ﷺ « أتمكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظرا [(٣)] » وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه. وقال ذو النون أيضا ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب. وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا فقال أشدهم خوفا اليوم. وقال سهل رحمه الله لاتجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن ياأبا سعيد كيف نصنع نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله مافارق الخوف قلبا إلا خرب. وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يارسول الله ـ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ـ هو الرجل يسرق ويزني قال لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه [(٤)] » والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لاتنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كل ماورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان فان كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته فان كان لا يخاف فوته فهو إذا لايحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما يجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ المعلوم لايرجى ولا يخاف فاذن المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لامحالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه نعم أحد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالاضافة إليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى ـ ويدعوننا رغبا ورهبا ـ وقال عزوجل ـ يدعون ربهم خوفا وطمعا ـ ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى ـ مالكم لاترجون لله وقارا ـ أي لاتخافون وكثيرا ماورد في القرآن الرجاء بمعنى

العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولايخافون وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون فقيل من هؤلاء يارسول الله ؟ قال المتحابون في الله عز وجل ». وروى عبادة ابن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عزوجل حقت محبتي للمتحابين في والمتزاورين في والمتباذلين في والمتصادقين في » أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة قال أنا أحمد بن الحسين

(١) حديث لاأجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا

(٢) حديث من خاف الله خافه كل شيء الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم

(٣) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا الحديث لم أقف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء

(٤) حديث عائشة قلت يارسول الله ـ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ـ هو الرجل يسرق ويزني قال لا ، الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد . قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروي عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة.

الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى – فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا – وقال تعالى – يبكون ويزيدهم خشوعا – وقال عز وجل – أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون – وقال ﷺ « ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النار (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع (٣) » وقال عقبة بن عامر « ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك (٤) » وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهريقت في سبيل الله سبحانه وتعالى (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان [١] بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جمرا (٧) » وقال ﷺ « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (٨) » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع . وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فو الذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة

(١) حديث ما من مؤمن يخرج من عينه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب الحديث الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه الحديث الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يلج النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى لم أقف له على أصل (٦) حديث ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمعة من خشية الله الحديث الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبراني في الكبير وفي الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ورواه الحسين المروزي في زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر الله وذكر الدارقطني في العلل أن من قال فيه عن أبيه وهم إنما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا قال وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربي وليس بابن عمر انتهى وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في الكنى وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فإن الراوي له عن سالم عبد الله أبو سلمة وإنما ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم ، نعم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروي عن سالم المحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

[١] قوله تشفيان بذروف الدمع الذي في الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اهـ.

ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله المحاملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو إسحق إبراهيم بن إسحق الحربي قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد ابن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة » وبإسناد إبراهيم الحربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت

يوم القيامة فان سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ولو أن رجلا بكى فى أمة ماعذبت تلك الأمة . وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق. وقال كعب الأحبار رضى الله عنه والذى نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلىّ من أن أتصدق بألف دينار . وروى عن حنظلة قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فدنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا فى الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت فى نفسى قد نافقت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت أنادى نافق حنظلة فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال كلا لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافق حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا لم ينافق حنظلة فقلت يارسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم ياحنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة [1] » فاذن كل ماورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب .

(بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما)

اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليهما فيعتريه شك فى أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهى قول القائل الخبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فان اجتمعا نظر إلى الأغلب فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل مايراد لمقصود ففضله يظهر بالاضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دواآن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين إذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء . وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصى. فأما التقىّ الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافق حنظلة الحديث وفيه ولكن ياحنظلة ساعة وساعة مسلم مختصرا .

أبا مسلم يقول سمعت أبا هريرة يقول الخبر وفى الخبر تحذير عن البغضة وهو أن يجفو المختلى الناس مقتا لهم وسوء ظن بهم وهذا خطأ وإنما يريد أن يخلو مقتا لنفسه وعلما بما فى نفسه من الآفات وحذرا على نفسه من نفسه وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره فمن كانت خلوته بهذا الوصف لايدخل تحت هذا الوعيد والاشارة بالحالقة يعنى أن البغضة حالقة للدين لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت . وأخبرنا الشيخ أبو الفتح باسناده إلى إبراهيم

قيل لووزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى أن عليا كرّم الله وجهه قال لبعض ولده يابنى خف الله خوفا ترى أنك لوأتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك وارج الله رجاء ترى أنك لوأتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ولذلك قال عمر رضى الله عنه لو نودى ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره . فان قلت مثل عمر رضى الله عنه لاينبغى أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغى أن يغلب رجاؤه كما سبق فى أوّل كتاب الرجاء وأن قوّته ينبغى أن تكون بحسب قوّة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح فى أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغى أن تكون أحوال المتقين . فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله وذلك وإن أوردناه مثالا فليس يضاهى مانحن فيه من كل وجه لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة فى تلك البقاع وغيرها واعما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه وقد بثّ فى أرض غريبة لم يعدها الزارع ولم يختبرها وهى فى بلاد ليس يدرى أتكثر الصواعق فيها أم لافمثل هذا الزارع وإن أدىّ كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه والبذر فى مسألتنا هو الإيمان وشروط صحته دقيقة والأرض القلب وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفى والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة والآفات هى الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها فى مستقبل الزمان وإن سلم فى الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة إذ قد يعرض من الأسباب ما لايطاق مخالفته ولم يجرب مثله والصواعق هى أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والادراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق هذه الأمور فان كان ضعيف القلب جبانا فى نفسه غلب خوفه على رجائه لامحالة كما سيحكى فى أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر رضى الله عنه يبالغ فى تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضى الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين (١) فمن ذا الذى يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفىّ وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبقى بينه وبين الجنة إلا شبر (٢)» ، وفى رواية «إلاقدر فواق

الحربى قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال إن لله تعالى ملكا نصفه من نار ونصفه من ثلج وإن من دعائه اللهم فكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج ألف بين قلوب عبادك الصالحين وكيف لاتأتلف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقته العزيز بقاب قوسين فى وقت لا يسعه فيه شىء لطف حال الصالحين وجدهم فى ذلك المقام العزيز

---

(١) حديث إن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين مسلم من حديث حذيفة فى أصحابى اثنا عشر منافقا ثمانية لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط الحديث

(٢) حديث إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبقى بينه وبين الجنة إلاشبر وفى رواية إلاقدر فواق ناقة الحديث مسلم من حديث أبى هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار وللبزار والطبرانى فى الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن وللشيخين فى أثناء حديث لابن مسعود إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلاذراع الحديث

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار» وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذن أقصى غايات المؤمن ان يعتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى ـ يدعون ربهم خوفا وطمعا ـ وقال عز وجل ـ ويدعوننا رغبا ورهبا ـ وأين مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا إلى الانهماك في المعاصي فان ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار . وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذن لابد من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته وأما روح الرجاء فانه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله تعالى فان من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة فان المصير إليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين مايشتهيه ولا يخفى حال من يحال بينه وبين مايشتهيه فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول مايلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزى والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ولا سبيل إليه إلا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب مايقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد[1]» والغرض

وقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين وصحبتهم لازمة وعزءتهم في التواصل في الدنيا والآخرة جازمة . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أن رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغض فيه مانفعه ذلك . أخبرنا رضى الدين أحمد بن اسمعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سماعا قال أنا أبو المظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول سمعت عبد الله

ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة (١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث الترمذي من حديث معاذ وتقدم في الأذكار والدعوات .

أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال ﷺ «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه[1]» وقال تعالى «أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء» ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة قال لابنه يابنى حدثنى بالرخص واذكر لى الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لى الأخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن حببنى إلى عبادى فقال بماذا قال بأن تذكرهم آلائى ونعمائى فاذن غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أباسليمان الدارانى فى المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أفلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له إنه مات البارحة.

(بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف)

اعلم أن ماذكرناه فى دواء الصبر وشرحناه فى كتاب الصبر والشكر هو كاف فى هذا الغرض لأن الصبر لايمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء لأن أول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدى مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدى دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدى كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذن فيما ذكرناه فى علاج الصبر كفاية ولكنا نفرد الخوف بكلام جملى فنقول: الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله أن الصبى إذا كان فى بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لايخاف وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبى إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال فى الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه فى الهرب فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته. وأما خوف الابن فإنما هو بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لايخاف إلا من سبب مخوف فى نفسه فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثانى الخوف منه فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته مايقتضى الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ـ ويحذركم الله نفسه ـ وقوله عز وجل ـ اتقوا الله حق تقاته ـ وأما الأول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال

(١) حديث لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه مسلم من حديث جابر وقد تقدم.

ابن المسلم يقول سمعت أبا بكر التلسانى يقول اصحبوا مع الله فان لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله. وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار النيسابورى إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا نصر الأصفهانى يقول سمعت أبا جعفر الحداد يقول سمعت على بن سهل يقول: الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل

يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان فاتت المشاهدة فالسماع لايخلو عن تأثير وأما الثانى وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف أعنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد أيضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه وذلك لايستند إلى بصيرة فلاجرم يضعف ويزول على قرب حتى إن الصبي ربما يرى المزمر يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه والعقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات واجتناب المعاصى مدة طويلة على الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلايحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا فى مخالبه لايحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفنى كما تخاف السبع الضارى ولا حيلة جلب فى الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع فى مخالبه فلايحتاج إلى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل مايشاء ولايبالى ويحكم مايريد ولايخاف قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة بل صفته ماترجمه قوله تعالى هؤلاء فى الجنة ولاأبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى وإن خطر ببالك أنه لايعاقب إلا على معصية ولايثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يعد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد العاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة فان كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لامحالة على أول لاعلة له من جهة العبد بل قضى عليه فى الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجدلك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتبه الله علىّ قبل أن أعمله وقبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى [1]» فمن عرف السبب فى هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع فى قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف فى مخالب السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب مايتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لايعرفه سمى اتفاقا وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا والواقع فى مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لايخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع افترس وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بألفاظ أخر .

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد نبه القائل نظما على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله :

وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من قعود المرء وحده

[الباب الرابع والخمسون فى أداء حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى]

قال الله تعالى ـ وتعاونوا على البرّ والتقوى ـ وقال تعالى ـ وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالمرحمة ـ وقال فى وصف أصحاب

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن المهلك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكلّ واحد أهلا يسوقه القدر للتفرّع عن القضاء الجزم الأزلى إلى ماخلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا فلايرى أحد نفسه فى ملتطم أمواج القدر إلاغلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسرّ القدر فمن قعدبه القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين فلايتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء. وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء . أمارسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأوّلين والآخرين (١) وكان أشدّ الناس خوفا (٢) حتى روى أنه كان يصلى على طفل ، ففى رواية أنه سمع فى دعائه يقول «اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٣) » وفى رواية ثانية «أنه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال مايدريك أنه كذلك والله إنى رسول الله ومأأدرى مايصنع بى إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لايزاد فيهم ولاينقص منهم (٤)» وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لماقالت أم سلمة هنيئالك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لاأزكى أحدا بعد عثمان (٥) وقال محمد بن خولة الحنفية والله لاأزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاأبى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى فى حديث آخر «عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : ومايدريك لعله كان يتكلم بما لاينفعه ويمنع مالايضره (٦)» وفى حديث آخر «أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبى هريرة أناسيدولدآدم ولافخر الحديث (٢) حديث كان أشد الناس خوفا تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله إنى لأخشاكم لله وقوله والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (٣) حديث إنه كان يصلى على طفل فسمع فى دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على صبى أو صبية وقال لوكان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبى واختلف فى إسناده فرواه فى الكبير من حديث أبى أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبى (٤) حديث إنه سمع قائلة تقول لطفل مات هنيئالك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال مايدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفى صبى فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فغضب وقد تقدم (٥) حديث لما توفى عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة الحديث البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أباالسائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث ، وورد أن التى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلا من أهل الصفه استشهد فقالت أمه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئا لك يابنى الجنة ورواه البيهقى فى الشعب إلاأنه قال فقالت أمه هنيئالك الشهادة وهو عند الترمذى إلاأنه قال إن رجلا قال له أبشر بالجنة وقد تقدم فى ذم المال والبخل مع اختلاف.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة لمن اختار صحبة أو أخوة فأدبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع ويسأل البركة فى الصحبة فانه يفتح على نفسه بذلك إما بابا من أبواب الجنة وإما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى ـ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ـ وقيل

لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله تعالى فقال المريض هى أمى يارسول الله فقال وما يدرك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لايغنيه (١) » وكيف لايخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول « شيبتنى هود وأخواتها (٢) » سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى ـ ألا بعدا لعاد قوم هود ـ ألا بعدا لثمود ـ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ـ مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها ، وفى سورة الواقعة ـ ليس لو قعتها كاذبة ، خافضة رافعة ـ أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا ، وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى ـ وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت ـ وفى عم يتساءلون ـ يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ـ الآية ، وقوله تعالى ـ لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ـ والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى ـ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ـ لكان كافيا إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها ، وأشد منه قوله تعالى ـ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين ـ وقوله تعالى ـ ليسأل الصادقين عن صدقهم ـ وقوله تعالى ـ سنفرغ لكم أيه الثقلان ـ وقوله عز وجل ـ أفأمنوا مكر الله ـ الآية وقوله ـ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ـ وقوله تعالى ـ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ـ الآيتين وقوله تعالى ـ وإن منكم إلا واردها ـ الآية وقوله ـ اعملوا ماشئتم ـ الآية وقوله ـ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ـ الآية وقوله ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ـ الآيتين وقوله تعالى ـ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل ـ الآية وكذلك قوله تعالى ـ والعصر إن الإنسان لفى خسر ـ إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ـ ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ـ حتى روى أن النبى وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما فقالا ومن يأمن مكرك (٣) وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لاوقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله قد أمنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما كما أن إبراهيم ﷺ لما وضع فى المنجنيق قال حسبى الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبى الله فأخبر الله تعالى عنه فقال ـ وإبراهيم الذى وفى ـ أى بموجب قوله حسبى الله وبمثل هذا أخبر عن موسى ﷺ حيث قال ـ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى ـ ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له ـ لاتخف إنك أنت الأعلى ـ ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له ادخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله . فان قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول إنى كنت أعمل لى وله فيعطى جميع مايسأل لأخيه ويرفع ويرفع أخوه إلى درجته وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شرا فهو باب من أبواب النار . قال الله تعالى ـ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ـ وإن كانت الآية

---

(١) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة الحديث تقدم أيضا
(٢) حديث شيبتنى هود وأخواتها الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو فى الشمائل من حديث أبى جحيفة وقد تقدم فى كتاب السماع (٣) حديث أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيان الحديث ابن شاهين فى شرح السنة من حديث عمر ورويناه فى مجلس من أمالى أبى سعيد النقاش بسند ضعيف .

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك [1] » فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لايصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض مايصدر عنها بالمكر وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لامحالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له ـ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك ـ وقال ـ إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم ـ الآية . فوض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لايبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لايحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ثم يخبر عنه ويقول ـ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ وقال تعالى ـ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم ـ الآية فكيف لايخاف ماحق من القول في الأزل ولا يطمع في تداركه ولو كان الأمر أنفا لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وإن القلب أشد تقلبا من القدر في غليانها وقد قال مقلب القلوب عز وجل ـ إن عذاب ربهم غير مأمون ـ فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لأني لاأدري ماظهر له من التقلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام لأني لا أدري مايعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل

وردت في قصة مشهورة ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصحبة والأخوة اتفاقا من غير نية في ذلك وتثبت في أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار . وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كلام له وهل يفسد الناس إلا الناس ، فالفساد بالصحبة متوقع والصلاح متوقع وما هذا سبيله كيف لايحذر في أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار

---

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك البخاري من حديث ابن عباس بلفظ : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم الحديث .

حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال — وقلوبهم وجلة — . ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع فقيل له ياأبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفوالله أعظم من ذنوبك ، فقال أوعلى ذنوبي أبكي ؟ لوعلمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه ، فقال إذا حضرتني الوفاة فاقعد عند رأسي ، فان رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ماأملكه فاشتربه لوزاوسكرا وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت ، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لايغتروا بشهودجنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه . وكان سهل يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر . وكان أبويزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجدفكأن في وسطي زنارا أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجدفينقطع عني الزنار فهذا لي في كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين أنتم تخافون المعاصي ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروى في أخبار الأنبياء أن نبيا شكا إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبدي أمارضيت أن عصمت قلبك أن تكفربي حتى تسألني الدنيا فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، وقال بلى قد رضيت يارب فاعصمني من الكفر ، فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لايخافه الضعفاء ، ولسوءالخاتمةأسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لوأعلم أني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس وماعنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الإيمان بل المراد به مايجتمع مع أصل الايمان فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر[1] » وفي لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لايخلو عن شيء منه إلاصديق إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونسي كونها منكرا بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات[2] وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم

وسؤال البركة والخيرة في ذلك وتقديم صلاة الاستخارة . ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل وكل عمل يحتاج إلى النية وإلى حسن الخاتمة وقد قال عليه الصلاة والسلام في الخبر الطويل « سبعة يظلهم الله تعالى فمنهم اثنان تحابا في الله فعاشا على ذلك وماتا عليه » إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول . قيل ماحسد

---

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا الحديث أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد .

من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر (١) . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ماتأتى مثله ، وأن تحبّ على شئ من الجور ، وأن تبغض على شئ من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشئ ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله إناندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فاذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . وروى أنه سمع رجلا يذمّ الحجاج ويقع فيه ، فقال : أرأيت لوكان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . وأشد من ذلك ماروى أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون فى شئ من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتى على القلب ساعة يمتلىء بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة ويأتى عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لايكون للايمان فيه مغرز إبرة . فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصى . ومنها النفاق ، ومتى يخلو العبد عن شئ من جملة ذلك وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إنى أخاف على نفسى النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلايزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قدبقى لايدرى ماالله قاض فيه فو الذى نفسى بيده مابعد الموت من مستعتب ولابعد الدنيا من دار إلا الجنة أوالنار (٥) » ، والله المستعان .

(بيان معنى سوء الخاتمة)

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة فما معنى سوء الخاتمة . فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة الهائلة : فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك : وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ماغلب على القلب من عقدة الجحود حجابا

الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين فى الله متحابين فيه فانه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد مابينهما . وكان الفضيل يقول : إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة ،والأخوةفى الله تعالى مواجهة قال الله تعالى ـ إخوانا على سرر متقابلين ـ ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءا أوكره منه شيئا ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه فماواجهه بل استدبره قال الجنيد رحمه الله ماتواخى اثنان فى الله واستوحش

---

(١) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر الحديث البخارى من حديث أنس وأحمد والبزار من حديث أبى سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده وتقدم فى التوبة (٢) حديث قال رجل لابن عمر إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبرانى وقد تقدم فى قواعد العقائد (٣) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لوكان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج (٤) حديث إن نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون فى شئ من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى الحديث البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم فى ذم الدنيا ذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس.

بينه وبين الله تعالى أبدا وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لايبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لاتأخذ إلا المحجوبين عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهبى فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن المرء يموت على ماعاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه إذ لاتصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الايمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان إيمانه فى القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين. فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة . فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الايمان بل الصحيح عند ذوى الأبصار ماصحت به الأخبار وهو «أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١) » . «وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم (٢) » كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الخاتمة وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملأ من الأشهاد فى القيامة (٦) ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) إلى آخر ماوردت به الأخبار فلا يزال الشقى مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته ولا تظنن أن محل الايمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث إنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم لم أجد له أصلا (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٥) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٦) حديث الافتضاح على ملأ الاشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من انتفى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رءوس الأشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والعقيلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر (٧) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران . قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلا فى خزنة جهنم مابين منكبى أحدهم كما بين المشرق والمغرب .

أحدهما من صاحبه إلا لعلة فى أحدهما فالمؤاخاة فى الله أصفى من الماء الزلال وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه وكل ماصفا دام والأصل فى دوام صفائه عدم المخالفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه» . قال أبو سعيد الخراز : صحبت الصوفية خمسين سنة ماوقع بينى وبينهم خلاف فقيل له وكيف ذلك ؟ قال لأنى كنت معهم على نفسى . أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة قال أنا عمر بن أحمد الصفار قال أنا

فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الايمان وقد كانت من وقت الموت إلى الاعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية . فان قلت فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة . فاعلم أن أسباب هذه الأمور لايمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الاشارة إلى مجامعها أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وإن كانت أعماله صالحة ولست أعني مذهبا . فأقول إنه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ماهو عليه إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان مااعتقده جهلا إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادىء سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الايمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى ــ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ــ وبقوله عز وجل ــ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ــ وكما أنه قد ينكشف في النوم ماسيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت فيطالع مافي اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ماهي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليدا وإما نظرا بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لايكفي لدفع هذا الخطر بل لاينجي منه إلا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالا ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله [1] » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ماجاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه ومنعوهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كئودة ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقي إليها في مبتدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر ثم الطباع

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البزار من حديث أنس وقد تقدم .

أبو بكر أحمد بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت عبد الله الداراني قال سمعت أبا عمرو الدمشقي الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل على أي شرط أصحب الخلق فقال إن لم تبرهم فلا تؤذهم. وإن لم تسرهم فلا تسؤهم . وبهذا الاسناد قال أبو عبد الله لاتضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة فان الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقا لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه ومن حقوق الصحبة أنه إذا وقع فرقة ومباينة لايذكر

بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول مع تفاوت الناس فى قرائحهم واختلافهم فى طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق فى أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الايمان ويظن أنه ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ـ ولتعلمن نبأه بعد حين ـ وينبغى أن ينشد فى هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض فى البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو فى ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغلب. وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إما مع الأدلة التى حرروها فى تعصباتهم أو دون الأدلة فان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقا به فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض فى البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذى هو مشرق فى عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنى يتيسر وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا فى هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة فى سوء الخاتمة.

وأما السبب الثانى فهو ضعف الايمان فى الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهى المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذى يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التى هى أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى ـ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ـ فاذن كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله بقلبه فى تفريقه بينه وبين أهله وماله

أخاه إلا بخير. قيل كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها ما يكره فكان يقال له استخبارا عن حالها فيقول لا ينبغى للرجل أن يقول فى أهله إلا خيرا ففارقها وطلقها فاستخبر عن ذلك فقال امرأة بعدت عنى وليست منى فى شئ كيف أذكرها وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى أنه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح وإذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع فهل يبغضه أولا اختلف القول فى ذلك. كان أبو ذر يقول إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته وقال غيره لا يبغض الأخ

وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يخفى ما يستحقه من الخزى والنكال وأما الذى يتوفى على الحب فانه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا فى لقائه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الاكرام وبدائع الانعام . وأما الخاتمة الثانية التى هى دون الأولى وليست مقتضية للخلود فى النار فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصى وإن قوى الايمان والآخر ضعف الايمان وإن قلت المعاصى وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الإلف والعادة وجميع ما ألفه الانسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فان كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذى لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذى لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذى غلبت عليه المعاصى وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهو أنه لا يخفى عليك أن الانسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهداته فى اليقظة وحتى إن المراهق الذى يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه لأنه إنما يظهر فى حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب طول الإلف فطول الإلف بالمعاصى والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الايمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما أن ما يخطر فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشئ إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل فى شدة التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الانسان وقد ينتقل الخاطر من شئ إلى شئ ولا يدرى وجه مناسبته له وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل أن ينتقل من شئ إلى شئ ثان ومنه إلى شئ ثالث ثم ينسى الثانى ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثانى مناسبة وبين الثانى والأول مناسبة فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الخياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل أصبعه التى لها عادة بالكشتبان ويأخذ الازار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمديده إلى المقراض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصى والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر فى فطامه

بعد الصحبة ولكن يبغض عمله قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم - فان عصوك فقل إنى برئ مما تعملون - ولم يقل إنى برئ منكم . وقيل . كان شاب يلازم مجالس أبى الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر وانتهى إلى أبى الدرداء ما كان منه فقيل له لو أبعدته وهجرته فقال سبحان الله لا يترك الصاحب بشئ كان منه . قيل : الصداقة لحمة كلحمة النسب . وقيل لحكيم مرة أيما أحب إليك أخوك أوصديقك فقال إنما

نفسه عنها وفى قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذى يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتى الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذى طال إلفه له قبل الموت. وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهرة تتلألأ نورا فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله فى العرش على الصورة التى كان عليها فاذا كان فى سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف مايجل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك مايكون فى المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهى جزء من أجزاء النبوة فاذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وإن كان لطول الإلف فيه تأثير فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لأنه لو أراد الانسان أن لا يرى فى المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لاتدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة مايظهر فى النوم لما غلب فى اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا على الفارمذى رحمة الله عليه يصف لى وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لايكون فى قلبه إنكار لكل مايقوله ولا فى لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخى أبى القاسم الكرمانى مناما لى وقلت رأيتك قلت لى كذا فقلت لم ذاك قال فهجرنى شهرا ولم يكلمنى وقال لولا أنه كان فى باطنك تجويز المطالبة وإنكار ماأقوله لك لما جرى ذلك على لسانك فى النوم وهو كما قال إذ قلما يرى الانسان فى منامه خلاف مايغلب فى اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذى نسمح بذكره فى علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة وماوراء ذلك فهو داخل فى علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هى عليه من غير جهل وتزجى جميع العمر فى طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلابد وأن يغلب عليك من الخوف ماغلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم فى النفس الأخير الذى عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جدا ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول إنى لا أعجب ممن هلك كيف هلك ولكنى أعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثورى يوما يبكى فقيل له علام تبكى فقال بكينا على الذنوب زمانا فالآن نبكى على الاسلام. وبالجملة من وقعت سفينته فى لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة فى حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب [1]» ولايتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة بل هى الخواطر التى تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأنى أدخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبى فسألتهم ماأخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا قالوا سوء

(١) حديث إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة الحديث تقدم.

أحب أخى إذا كان صديقى وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهرا وباطنا وأما الملازمة باطنا إذا وقعت المباينة ظاهرا فتختلف باختلاف الأشخاص ولايطلق القول فيه إطلاقا من غير تفصيل فمن الناس من كان تغيره رجوعا عن الله وظهور حكم سوء السابقة فيجب بغضه وموافقة الحق فيه ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت يرجى عوده فلاينبغى أن يبغض ولكن يبغض عمله فى الحالة الحاضرة ويلحظ بعين الود منتظرا له الفرج والعود إلى أوطان

الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة ، وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق فى القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب إذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت إلا حبا لله وطلبا لمرضاته وبائعا دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذى بايعه الله به إذ قال تعالى ـ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ـ والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ومجرد حب العوض المطلوب فى قلبه ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب فى بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فان من هذا حاله وإن قتل فى المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار(١) وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصى ومشاهدة أهلها جهدك فان ذلك أيضا يؤثر فى قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة فان كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قلبك فى كل تطريفة وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا مادمت فى يقظتك وأما إذا نمت فاياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه وأنه لا يغلب فى النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك فى نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه فى يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه فى نومه فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فانك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك فى خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلهم هلكى إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك مالم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك ، مطعم وملبس ومسكن والباقى كله فضول والضرورة من الطعام مايقيم صلبك ويسد رمقك فينبغى أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك فى قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام فى البطن وإخراجه فهما ضرورتان فى الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التى يشتغل بها قلبك فلا ينبغى أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك مايدخل بطنك فقيمتك مايخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء

الصلح فقد ورد «أن النبى عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذى أتى بفاحشة قال مه وزجرهم بقوله ولا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم» وقال إبراهيم النخعى لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فانه يركبه اليوم ويتركه غدا وفى الخبر «اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته» وروى أن عمر رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال مافعل أخى فقال له ذاك أخو الشيطان قال له مه قال له إنه قارف

---

(١) حديث المقتول فى الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى إن رجلا قال يارسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وفى رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء وفى رواية يقاتل غضبا .

حاجتك فعلامة ذلك تظهر فى ثلاثة أمور: من ما كولك فى وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكتفى فى اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا تزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مئونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله فان الحلال يعز ولا يفى بجميع الشهوات وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم فى تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكتف به فى خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب وكذلك المسكن إنما كتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والأرض مستقرا فان غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت فى مهواة يبعد رقيك منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله فى أى واد أهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فاذا دفعته يوما بيوم فى تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة فى غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية فى تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك فى أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخر ميتا إلى الأرض ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر فى قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون .

(بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فى الخوف)

روت عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله[1]» وقرأ صلى الله عليه وسلم آية فى سورة الواقعة فصعق[2]» وقال تعالى «وخر موسى صعقا» ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق[3]» وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل

الكبائر حتى وقع فى الخمر فقال إذا أردت الخروج فآذنى قال فكتب إليه - حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر فتاب ورجع . وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال يارسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال ياعبد الله إذا آخيت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث قرأ فى سورة الحاقة فصعق المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده - لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما - فصعق كما رواه ابن عدى والبيهقى فى الشعب مرسلا وهكذا ذكره المصنف على الصواب فى كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبى ﷺ جبريل أن يراه فى صورته فقال ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا

فى الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ماجاءنى جبريل قط إلا وهو يرعد فرقا من الجبار (٢)» وقيل لما ظهر على إبليس ماظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء فقالا يارب ما نأمن مكرك فقال الله تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكرى . وعن محمد بن المنكدر قال لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم عادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «مالى لا أرى ميكائيل ضاحكا فقال جبريل ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٣)» ويقال إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحدهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضى الله عنهما «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل فقلت يارسول الله لا أشتهيه فقال لكنى أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربى لأعطانى ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين فى قلوبهم قال فوالله مابرحنا ولا قمنا حتى نزلت ـ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ـ قال فقال رسول الله ﷺ إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله ألا وإنى لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد (٤)» . وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام فى الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه . وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فنودى ياداود أجائع أنت فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال يارب اجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فاذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه مارفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل وكان يقول فى مناجاته : إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضاقت على الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روحى سبحانك إلهى أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتى فكلهم عليك يدلنى فبؤسا للقانطين من رحمتك . وقال الفضيل بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعا يده على

كان مرضا عدته وإن كان مشغولا أعنته » وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما ماختلف رجل إلى مجلس ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلمت ماكافأته فى الدنيا وكان يقول سعيد بن العاص لجليسى على ثلاث إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان فان ما كان معلولا يزول بزوال علته ومن لا يستند فى خلته إلى علة يحكم بدوام خلته ومن شرط الحب فى الله

بلفظ فغشى عليه وفى الصحيحين عن عائشة رأى جبريل فى صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له ستمائة جناح (١) حديث كان إذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم فى كتاب السماع (٢) حديث ماجاءنى جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائصه من الجبار لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن سماك الحنفى يحتاج إلى معرفته (٣) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لا أرى ميكائيل يضحك فقال ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين فى السنة من حديث ثابت مرسلا وورد ذلك أيضا فى حق إسرافيل رواه البيهقى فى الشعب وفى حق جبريل رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين (٤) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل الحديث ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقى هذا إسناد مجهول والجراح بن منهال ضعيف.

رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلنى إلا البكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء وكان يعاتب فى كثرة البكاء فيقول دعونى أبكى قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن تؤمر بى ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهى بح صوتى فى صفاء أصوات الصديقين ، وروى أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب أما ترحم بكائى فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال إلهى وسيدى كيف أنسى ذنبى وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجارى عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلنى الطير على رأسى وأنست الوحوش إلى محرابى إلهى وسيدى فما هذه الوحشة التى بينى وبينك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية يا داود آدم خلق من خلقى خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى وأسجدت له ملائكتى وألبسته ثوب كرامتى وتوجته بتاج وقارى وشكا لى الوحدة فزوجته حواء أمتى وأسكنته جنتى عصانى فطردته عن جوارى عريانا ذليلا يا داود اسمع منى والحق أقول أطعتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك . وقال يحيى بن أبى كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبرارى والصوامع والبيع فينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتى الوحوش من البرارى والآكام وتأتى السباع من الغياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتى داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ فى الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ فى ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ فى أهوال القيامة وفى النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بنى إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ فى الدعاء فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بنى إسرائيل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مغشيا عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتى بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجى ربه فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول يا أبتاه تقو بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بنى إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشى خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم فخرج فى أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا وما رجع إلا فى عشرة آلاف قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقى وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك

إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى ـ يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ـ فقوله تعالى ـ لا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ـ أى لا يحسدون إخوانهم على ما لهم وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انتزاع الحسد على شىء من أمر الدين والدنيا . والثانى الإيثار بالمقدور . وفى الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام «المرء على دين خليله ولا خير

فرجع إلى أبويه فمر بصبيان يلعبون فقالوا له يايحيى هلم بنا للعب فقال إنى لم أخلق للعب قال فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب فخرج أبواه فى طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه فى الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لاأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكانى منك فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبر فرده أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام يصلى بكى حتى يبكى معه الشجر والمدر ويبكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يبكى حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يابنى لوأذنت لى أن أتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فعمدت إلى قطعتى لبود فألصقتهما على خديه فكان إذا قام يصلى بكى فاذا استنقعت دموعه فى القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما فاذا رأى دموعه تسيل على ذراعى أمه قال اللهم هذه دموعى وهذه أمى وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا يوما يابنى إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقر عيناى بك فقال يحيى ياأبت إن جبريل عليه السلام أخبرنى أن بين الجنة والنار مفازة لايقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يابنى فابك. وقال المسيح عليه السلام: معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل. وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول ياجبريل إنى إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين فى شدة الخوف)

روى أن أبابكر الصديق رضى الله عنه قال لطائر ليتنى مثلك ياطائر ولم أخلق بشرا. وقال أبوذر رضى الله عنه وددت لو أنى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة. وقال عثمان رضى الله عنه وددت أنى إذا مت لم أبعث وقالت عائشة رضى الله عنها وددت أنى كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما وأخذ يوما تبنة من الأرض فقال ياليتنى كنت هذه التبنة ياليتنى لم أك شيئا مذكورا ياليتنى كنت نسيا منسيا ياليتنى لم تلدنى أمى وكان فى وجه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع. وقال رضى الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع مايريد ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون ولما قرأ عمر رضى الله عنه - إذا الشمس كورت - وانتهى إلى قوله تعالى - وإذا الصحف نشرت - خر مغشيا عليه ومر يوما بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى - إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع - نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانا ورجع إلى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون مامرضه وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فاذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فكأنى بالقوم باتوا غافلين

لك فى صحبة من لايرى لك مثل مايرى لنفسه» وكان يقول أبو معاوية الأسود إخوانى كلهم خير منى قيل وكيف ذاك؟ قال كلهم يرى لى الفضل عليه ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى ولبعضهم نظما:
تذلل لمن إن تذللت له
يرى ذاك للفضل لاللبله
وجانب صداقة من
من لم يزل
على الأصدقاء يرى
الفضل له.

[الباب الخامس والخمسون فى آداب الصحبة والأخوة]
سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة

ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم ، وقال عمران بن حصين : وددت أنى أكون رمادا تنسفنى الرياح فى يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فيأكلون لحمى ويحسون مرقى ، وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله ماهذا الذى يعتادك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم . وقال موسى بن مسعود كنا إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القارىء يوما ـ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ـ الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك لاعصيتك جهدى أبدا فأعنى بتوفيقك على طاعتك ، وكان المسور ابن مخرمة لايقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياما حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه ـ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ـ فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين أعد على القول أيها القارىء فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة ، وقرىء عند يحيى البكاء ـ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ـ فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة ، وقال مالك بن دينار بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار وتبكى فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخا أقول ثكلت مالكا أمه ، وروى أن الفضيل رؤى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكى بكاء الثكلى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال واسوأتاه منك وإن غفرت ثم انقلب مع الناس ، وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف فرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدى الله ربنا موقفنا . ومر الحسن بشاب وهو مستغرق فى ضحكه وهو جالس مع قوم فى مجلس فقال له الحسن يافتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فما رؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا . وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأننت فيقول تلك جلسة الآمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى ، وقال مالك بن دينار لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدونى ويغلونى ثم ينطلقوا بى إلى ربى كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده ، وقال حاتم الأصم لاتغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقى آدم عليه السلام فيها مالقى ولا تغتر بكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تعبده لقى مالقى ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقى ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه . وقال السرى : إنى لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى ، وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر إلى نظر السخط وأعمالى تدل على ذلك ، وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال إنى اجترأت البارحة على الله سألته الجنة ، وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها يابنى إنى أعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع فى ليلك ونهارك فقال ياأماه مايؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال وعزتى وجلالى لاغفرت لك ، وقال الفضيل إنى لاأغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة إنما أغبط من لم يخلق . وروى «أن فتى من الأنصار

فقال حفظ حرمات المشايخ وحسن العشرة مع الاخوان والنصيحة للأصاغر وترك صحبة من ليس فى طبقتهم وملازمة الايثار ومجانبة الادخار والمعاونة فى أمر الدين والدنيا فمن أدبهم التغافل عن زلل الاخوان والنصح فيما يجب فيه النصيحة وكتم عيب صاحبه واطلاعه على عيب يعلم منه . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه قال جعفر ابن برقان قال لى

دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك فى البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا فقال ﷺ جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده (١) » وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول ياليت أمي لم تلدني فقالت له أمه ياميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك هداك إلى الاسلام قال أجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا فى يوم واحد وكان عطاء السلمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل الله العفو وقيل له فى مرضه ألا تشتهي شيئا فقال إن خوف جهنم لم يدع فى قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه مارفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة وأنه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق فى بطنه فتق وكان يمس جسده فى بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال هذا من أجلي يصيبهم لو مات عطاء لاستراح الناس ، وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم فى رءوسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين فبينما هم يمشون إذ مر أحدهم بمكان فخر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله يبكون فى يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره فقال إني ذكرت أني كنت عصيت الله فى ذلك المكان. وقال صالح المري قرأت على رجل من المتعبدين ـ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ـ فصعق ثم أفاق فقال زدني ياصالح فاني أجد غما فقرأت ـ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ـ فخر ميتا، وروى أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ ـ فاذا نقر فى الناقور ـ خر مغشيا عليه فحمل ميتا. ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظني يايزيد فقال ياأمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت فبكى ثم قال زدني قال ياأمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكى ثم قال زدني يايزيد فقال ياأمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل فخر مغشيا عليه . وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية ـ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ـ صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدرون عليه (٢) ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول يا ابناه ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ماعلمت أن فى الملة الحنيفية مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلي فقلت يارب على قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٣) » وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته

(١) حديث إن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه فى البيت الحديث ابن أبي الدنيا فى الخائفين من حديث حذيفة والبيهقي فى الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر . (٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لموعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي لم أقف له على أصل (٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا تقدم فى قواعد العقائد

ميمون بن مهران قل لي فى وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه مايكرهه فان الصادق يحب من يصدقه والكاذب لا يحب الناصح قال الله تعالى ـ ولكن لا تحبون الناصحين ـ والنصيحة ما كانت فى السر. ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان فى دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة فقال له العباس قلعت ما كان

ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث إنما هذا زمان بكاء وتضرّع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق إنما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ماتعرف ودع ماتنكر ورؤى الفضيل يوما وهو يمشى فقيل له إلى أين؟ قال لاأدرى وكان يمشى والها من الخوف . وقال ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذرّ : مابال المتكلمين يتكلمون فلايبكى أحد فاذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يابنىّ ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة وحكى أن قوما وقفوا بعابد وهو يبكى فقالوا ماالذى يبكيك يرحمك الله ؟ قال قرحة يجدها الخائفون فى قلوبهم قالوا وماهى ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عزوجل. وكان الخواص يبكى ويقول فى مناجاته قد كبرت وضعف جسمى عن خدمتك فأعتقنى . وقال صالح المرى : قدم علينا ابن السماك مرة فقال أرنى شيئا من بعض عجائب عبادكم فذهبت به إلى رجل فى بعض الأحياء فى خصّ له فاستأذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه ــ إذالأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ــ فشهق الرجل شهقة وخرّ مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخرّ مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا فقرأت ــ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ــ فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط فى دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فأدرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا فاذا امرأة من داخل الخص تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس فى مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال ألا إنّ للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدى من ويحك ثم بقى مبهوتا فاتحا فاه شاخصا بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لاتنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فاذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لايؤدّى فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لايضحك أبدا ولاينام مضطجعا ولايأكل سمنا أبدا فما رؤى ضاحكا ولامضطجعا ولاأكل سمنا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغنى أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدّت وقال رجل للحسن ياأبا سعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألنى عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أىّ حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالى أشدّ من حالهم .ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد فى بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها فرقدت فاستبكت فى منامها ثم انتبهت فقالت ياأمير المؤمنين إنى والله رأيت عجبا قال وما ذلك ؟ قالت رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على متنها فقال هيه قالت فجىء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فمامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فمامضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جىء بك والله ياأمير المؤمنين فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خرّ مغشيا عليه فقامت إليه فجعلت تنادى فى أذنه ياأمير المؤمنين إنى رأيتك والله قد نجوت إنى رأيتك والله قد نجوت قال وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بيده فقال إذن لايرده إلى مكانه غير يدك ولايكون لك سلم غير عاتق عمر فأقامه على عاتقه ورده إلى موضعه ومن أدبهم أن لايرون لنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم بن شيبان كنا لانصحب من يقول نعلى . أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبى المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال سمعت أبا حاتم الصوفى قال سمعت أبانصر السراج يقول ذلك وقال أحمد بن القلانسى دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرمونى

ويحكى أنّ أويسا القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكى من كلامه فاذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه إنّ المؤمن لايسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة فى المقلى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين . وقال الحسن البصرى رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ياليتنى كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة. وروى أنه ماضحك أربعين سنة قال وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فاذا سكت كأنّ النار تسعر بين عينيه وعوتب فى شدّة حزنه وخوفه فقال مايؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع فىّ على بعض مايكره فمقتنى فقال اذهب فلاغفرت لك فأنا أعمل فى غير معتمل . وعن ابن السماك : قال وعظت يوما فى مجلس فقام شاب من القوم فقال ياأبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالى أن لانسمع غيرها قلت وماهى رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما فى الجنة أو فى النار ثم غاب عنى ففقدته فى المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد فأتيته أعوده فقلت ياأخى ما الذى أرى بك فقال ياأبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما فى الجنة أو النار قال ثم مات رحمه الله فرأيته فى المنام فقلت ياأخى مافعل الله بك ؟ قال غفرلى ورحمنى وأدخلنى الجنة قلت بماذا ؟ قال بالكلمة فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة وإلافليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلاقرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولامشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولاخطر الخاتمة يزعجنا فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا . ومن العجائب أنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وسهرنا ونجتهد فى طلب أرزاقنا ولانثق بضمان الله لنا ولانجلس فى بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذى إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول ـ وأن ليس للإنسان إلاماسعى . ولايغرنكم بالله الغرور . ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم ـ ثم كل ذلك لاينبهنا ولايخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فماهذه إلامحنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا وأن لايجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولايعمل ويسمع ولايقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلاعلامة للخذلان أعظم من هذا فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ماأوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفى والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلايغنى . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الخولانى وكان من خيار العباد أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله مايكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالنى منظره فقلت أيها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك فقال ياأخى بماذا أوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر

ويجلونى فقلت يوما لبعضهم أين إزارى فسقطت من أعينهم . وكان ابراهيم بن أدهم إذاصحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء أن تكون الخدمة والأذان له وأن تكون يده فى جميع مايفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه أنا لاأقدر على هذا فقال أعجبنى صدقك .وكان ابراهيم ابن أدهم ينظر البساتين ويعمل فى الحصاد وينفق على أصحابه . وكان من أخلاق السلف أن كل من احتاج إلى شىء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة قال الله

يخاف أن يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو فى المخافة ليله وإن أمن المغترون وفى الحزن نهاره وإن فرح البطالون ثم ولى وتركنى فقلت لو زدتنى شيئا عسى ينفعنى فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره وقد صدق فان القلب الصافى يحركه أدنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغى أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهى التى لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فاذا انكشف الغطاء ووضعت فى قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك فى قبرك وإنما هى صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فان أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام.

كتاب الفقر والزهد

(وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتندكدك من هيبته الجبال، خلق الانسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له فى قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ، ثم كحل بصيرة المخلص فى خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادى إشراقه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا فى صورة امرأة جميلة تميس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزى وضربت فى قالب النكال ، وهى متلففة بجلبابها لتخفى قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبائلها فى مدارج الرجال ، فهى تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ، ثم لا تجتزىء منهم بالخلف فى مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال ، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

[أما بعد] فان الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات ، وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات، فلا مطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات وحظ فى الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر فى شطر من الكتاب والزهد فى شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر فنقول:

[الشطر الأول من الكتاب فى الفقر] وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان

(كتاب الفقر والزهد)

تعالى ـ وأمرهم شورى بينهم ـ أى مشاع هم فيه سواء ومن أدبهم أنهم إذا استثقلوا صاحبا يتهمون أنفسهم ويتسببون فى إزالة ذلك من بواطنهم لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة فى الصحبة. قال أبو بكر الكتانى صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلا فوهبت له شيئا بنية أن يزول ثقله من قلبى فلم يزل فخلوت به يوما وقلت له ضع رجلك على خدى فأبى فقلت له لابد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده فى باطنى قال الرقى قصدت من الشام إلى الحجاز

خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغنى وبيان أدب الفقير فى فقره وبيان أدبه فى قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه .

(بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه)

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ماهو محتاج إليه أما فقد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا وإذا فهمت هذا لم تشك فى أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود فى ثانى الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فان كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا فليس فى الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى ـ والله الغنى وأنتم الفقراء ـ هذا معنى الفقر مطلقا ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص وإلا ففقر العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لاحصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذى نريد الآن بيانه فقط فنقول: كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة إلى المال الذى فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه فى حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها : الحالة الأولى وهى العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد . الثانية أن يكون بحيث لايرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا . الثالثة أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيها من الرغبة الضعيفة. الرابعة أن يكون تركه الطلب لعجزه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص . الخامسة أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته فى الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هى أعلى من الزهد وهى أن يستوى عنده وجود المال وفقده فان وجده لم يفرح به ولم يتأذ وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضى الله تعالى عنها إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو ذكرتينى لفعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى لافى يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون فى يده أو فى يد غيره وينبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال فى يده وإنما هو غنى عن دخول المال فى يده لا عن بقائه فهو إذن فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال فى يده وعن بقائه فى يده وعن خروجه من يده أيضا فانه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه وليس فاقدا له ليحتاج

حتى سألت الكتانى عن هذه الحكاية . ومن أدبهم تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له فى المجلس والايثار بالموضع . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فى صفة ضيقة فجاءه قوم من البدريين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى ـ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ـ الآية وحكى أن على بن بندار الصوفى ورد على أبى عبد الله بن خفيف زائرا فتماشيا فقال له

ليحتاج إلى الدخول فى يده فغناه إلى العموم أميل فهو إلى الغنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنا لا نسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شىء وأما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا أو عدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية فى أوقات متقاربة لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا . واعلم أن الزهد درجة هى كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد فى حقه نقصانا إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه أقرب إليك من حبل الوريد وليس هو فى مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر فى مجلس يجمع العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال فى أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع فى القلب حبان فى حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب فى حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها إلا أن المشغول بحبها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد والمشغول ببغضها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين فى طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبرها فهما سيان بالاضافة إلى الحال فى أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها وليس محمودا بالاضافة إلى المعتكف فى الكعبة الملازم لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة فى الوصول إليها فلا ينبغى أن تظن أن بغض الدنيا مقصود فى عينه بل الدنيا عائق عن الله تعالى ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله من زهد فى الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغى أن يشتغل بالآخرة فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج . فاذن قد ظهر أن الزهد فى الدنيا ان أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أريد به الرغبة فى عدمها فهو كمال بالاضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص ونقصان بالاضافة إلى درجة المستغنى بل الكمال فى حق المال أن يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر ولا قلته تؤذيك إلا فى قدر الضرورة مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير بل تقول أشرب

أبو عبد الله تقدم فقال بأى عذر فقال بأنك لقيت الجنيد ومالقيته ومن أدبهم ترك صحبة من همه شىء من فضول الدنيا قال الله تعالى ـ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ـ ومن أدبهم بذل الانصاف للاخوان وترك مطالبة الانصاف قال أبو عثمان الحيرى حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك ولا تطمع فى ماله وتنصفه من نفسك ولا تطلب منه الانصاف وتكون تبعا له ولا تطمع أن يكون تبعا لك وتستكثر مايصل اليك منه وتستقل مايصل اليك

منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فهكذا ينبغى أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد فى الحاجة وإنما الفرق بينهما فى قلة أحدهما وكثرة الآخر وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذى دبر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتى بيانه فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى، قال أحمد بن أبى الحوارى قلت لأبى سليمان الدارانى قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب إلى البيت فخذ الركوة التى أهديتها إلى فإن العدو يوسوس لى أن اللص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زاده فى الدنيا ما عليه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة فى بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان. فإن قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار. فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ماشربوا أكثر من حاجتهم فقروا عما وراءه ولم يجمعوه فى القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم بل تركوه فى الأنهار والآبار والبرارى للمحتاجين إليه لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو ببغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فأخذوها ووضعوها فى مواضعها وماهربوا منها (١) إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض المال والهرب منه فى حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به فى الترك إذ لو اقتدوا به فى الأخذ لهلكوا كما يفر الرجل المعزم بين يدى أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص، وأما المضطر فيتصور فى حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل إن سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى فى جميع أموره عامة وفى بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها فإنه أحق باسم العبد من الغافلين وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بك من الفقر (٢)»

منك. ومن أدبهم فى الصحبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة. قال أبو على الروذبارى الصولة على من فوقك قحة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز ومن أدبهم أن لا يجرى فى كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى أن يكون كذا فإنهم يرون هذه التمديرات عليه اعتراضا. ومن أدبهم فى الصحبة حذر المفارقة والحرص على الملازمة. قيل صحب رجل رجلا ثم أراد المفارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصحب أحدا إلا إذا كان فوقنا وإن كان

(١) حديث إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبى بكر وعمر فأخذوها ووضعوها فى مواضعها هذا معروف وقد تقدم فى آداب المعيشة من عند البخارى تعليقا مجزوما به من حديث أنس أتى النبى صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحدا إلا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحيرى فى صحيحه من هذا الوجه وفى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه الحديث ولهما من حديث جابر لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا فقلت إن النبى صلى الله عليه وسلم وعدنى فحثا لى ثلاثا (٢) حديث أعوذ بك من الفقر تقدم فى الأذكار والدعوات.

وقوله

وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا [١] » لا يناقض قوله « أحيني مسكينا وأمتني مسكينا [٢] » إذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

(بيان فضيلة الفقر مطلقا)

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى ـ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ـ الآية وقال تعالى ـ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض ـ ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر. وأما الأخبار : في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أي الناس خير فقالوا موسر من المال يعطي حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يا رسول الله قال فقير يعطي جهده [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا [٤] » وقال ﷺ « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال [٥] » وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام [٦] » وفي حديث آخر « بأربعين خريفا [٧] » أي أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الحريص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغني الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء في درجاتهم وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ولا تظنن أن تقدير رسول الله ﷺ يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة [٨] » فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره

فوقنا أيضا فلا تصحبه لأنك صحبتنا أولا فقال الرجل زال عن قلبي نية المفارقة . ومن أدبهم التعطف على الأصاغر . قيل : كان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد ويطعم الأصحاب وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل فقالوا ليلة تعالوا نأكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع فأفطروا وناموا فرجع إبراهيم فوجدهم نياما فقال مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق فعجنه فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعا

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا تقدم في ذم الحسد (٢) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا الترمذي من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أي الناس خير فقالوا موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطي جهده أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له (٤) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف (٥) حديث إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ابن ماجه من حديث عمران ابن حصين وقد تقدم (٦) حديث يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٧) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذي من حديث جابر وأنس (٨) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة البخاري من حديث أبي سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم .

بل مخالفا له بكثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثانى أن له فى نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بارادتنا وباختيارنا وهى القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى. والثالث أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات. والرابع أن له صفة بها يدرك ماسيكون فى الغيب إما فى اليقظة أو فى المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى مافيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لايمكن إلا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذى أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما المعلوم مجامع الصفات التى بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لايرشدنا إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس فى قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والغرض التنبيه على منهاج التقدير فى أمثال هذه الأمور فان الضعيف الايمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك . ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا « خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن لى حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى الفقر والجهاد[2] » وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يامحمد إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا[3] « وتكون معك أينما كنت فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال ياجبريل إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له فقال له جبريل يامحمد ثبتك الله بالقول الثابت . وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة فأيقظه وقال يانائم قم فاذكر الله تعالى فقال ماتريد منى ؟ إنى قد تركت الدنيا لأهلها فقال له فنم إذن ياحبيبى ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بعباءة فقال يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه ياموسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها وعن أبى رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه فأرسلنى إلى رجل من يهودى خيبر وقال قل له يقول لك محمد أسلفنى أو بعنى دقيقا إلى هلال رجب قال فأتيته فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله إنى لأمين فى أهل السماء أمين فى أهل الأرض ولو باعنى أو أسلفنى لأديت إليه اذهب بدرعى

محاسنه على التراب فقالوا له فى ذلك فقال قاتلكم لم تجدوا فطورا فنمتم فقالوا انظروا بأى شىء عاملناه وبأى شىء يعاملنا . ومن أدبهم أن لايقولوا عند الدعاء إلى أين ولم وبأى سبب ؟ قال بعض العلماء إذا قال الرجل للصاحب قم بنا فقال إلى أين فلا تصحبه . وقال آخر من قال لأخيه أعطنى من مالك فقال كم تريد ماقام بحق الإخاء وقد قال الشاعر :

لايسألون أخاهم حين يندبهم
للنائبات على ماقال برهانا

ومن أدبهم أن لا يتكلفوا للاخوان

---

(١) حديث خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها لم أجد له أصلا (٢) حديث إن لى حرفتين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجد له أصلا (٣) حديث أن جبريل نزل فقال إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا الحديث وفيه إن الدنيا دار من لادار له الحديث هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث أبى أمامة عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له الحديث وقد تقدم فى ذم الدنيا .

هذا إليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية ــ ولاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا [١] ــ الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس [٢]» وقال ﷺ «من أصبح منكم معافى فى جسمه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها [٣]» وقال كعب الأحبار «قال الله تعالى لموسى عليه السلام ياموسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين». وقال عطاء الخراسانى مرنبى من الأنبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يارب ماهذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما فلما رأى ماأعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفى لفظ آخر «فقلت أين الأغنياء فقيل حبسهم الجد» وفى حديث آخر «فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ماشأنهن فقيل شغلهن الأحمران الذهب والزعفران [٤]» وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر [٥]» وفى الخبر «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه [٦]» وفى حديث آخر «رأيته دخل الجنة زحفا [٧]» وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا [٨]» وفى الخبر «إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته [٩]» وقال موسى عليه السلام يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك فقال: كل فقير فقير فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديد الضر وقال المسيح صلوات الله

قيل لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواعا من الأطعمة فأنكر ذلك أبو حفص وقال صير أصحابى مثل الخانيث يقدم لهم الألوان والفتوة عندنا ترك التكلف وإحضار ماحضر فان التكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف وبترك التكلف يستوى مقامه وذهابه ومن أدبهم فى الصحبة المداراة وترك المداهنة وتشتبه المداراة بالمداهنة والفرق بينهما أن المداراة ماأردت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ماتكره

---

(١) حديث أبى رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر الحديث فى نزول قوله تعالى ــ ولاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم ــ الطبرانى بسند ضعيف (٢) حديث الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس الطبرانى من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى فى الكامل هكذا (٣) حديث من أصبح منكم معافى فى جسمه الحديث الترمذى وقد تقدم (٤) حديث اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم فى آداب النكاح مع الزيادة التى فى آخره (٥) حديث تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازى فى شرف الفقر وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لابأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو فى الأوسط للطبرانى باسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رأيته يعنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى (٩) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبى الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ياموسى فذكره بزيادة فى أوله ورواه أبو نعيم فى الحلية من قول كعب

عليه وسلامه إنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسامى إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولانجىء ونجىء إليك ولايجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبى ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين أجابهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لايجمعهم وإياهم مجلس واحد فنزل عليه قوله تعالى ـ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم ـ يعنى الفقراء ـ تريد زينة الحياة الدنيا ـ يعنى الأغنياء ـ ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ـ يعنى الأغنياء ـ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) ـ الآية . واستأذن ابن أم مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ـ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ومايدريك لعله يزكى أويذكر فتنفعه الذكرى ـ يعنى ابن أم مكتوم ـ أما من استغنى فأنت له تصدى (٢) ـ يعنى هذا الشريف . وعن النبى ﷺ أنه قال «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل فى الدنيا فيقول : وعزتى وجلالى مازويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة اخرج ياعبدى إلى هذه الصفوف فمن أطعمك فى أو كساك فى يريد بذلك وجهى فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة (٣)» وقال عليه السلام «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فان لهم دولة قالوا يارسول الله ومادولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أوسقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة (٤)»

والمداهنة ماقصدت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاه . ومن أدبهم فى الصحبة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط ، نقل عن الشافعى رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط . ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونغطيه فقال بل تكشفون عورته

الأخبار غير مرفوع باسناد ضعيف (١) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث فى نزول قوله تعالى ـ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ـ الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان (٢) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول ـ قوله تعالى ـ عبس وتولى ـ الترمذى من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا فيقول وعزتى وجلالى مازويت الدنيا عنك لهوانك على الحديث أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا منى أحبائى فتقول الملائكة ومن أحباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول أما إنى لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتى اليوم فتمنوا على ماشئتم اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبونعيم فى الحلية وسيأتى فى الحديث الذى بعده (٤) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فان لهم دولة الحديث أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادى فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا إلى الفقراء فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى

وقال

وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت فى أعلاها فاذا فقراء أمتى وأولادهم ونظرت فى أسفلها فاذا فيه من الأغنياء والنساء قليل فقلت يارب ماشأنهم قال أماالنساء فأضرّ بهنّ الأحمران الذهب والحرير وأماالأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابى فلم أرعبد الرحمن بن عوف ثم جاءنى بعد ذلك وهو يبكى فقلت ماخلفك عنى قال يارسول الله والله ماوصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنى لاأراك ، فقلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالى [(١)]» فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة [(٢)] وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلامن قال بالمال هكذا وهكذا [(٣)]» ومع هذا فقد استضرّ بالغنى إلى هذا الحدّ «ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم يرله شيئا فقال :لوقسم نورهذا على أهل الأرض لوسعهم [(٤)]» وقال صلى الله عليه وسلم «ألاأخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يارسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبرأشعث ذى طمرين لايؤبه له لوأقسم على الله لأبره [(٥)]» وقال عمران ابن حصين «كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال ياعمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ قلت نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يارسول الله قال أنا ومن معى قالت ومن معك يارسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذى بعثك بالحقّ نبيا مالى إلاعباءة قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدى بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يابنتاه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضرنى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لاتجزعى يابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث وإنى لأكرم على الله منك وَلوسألت ربى لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنكن فى بيوت من قصب لاأذى فيها ولاصخب ولانصب ثم قال لها اقنعى بابن عمك

قالوا سبحان الله من يفعل هذا قال أحدكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهر الغيب والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع المكاره عنهم .حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال إنى ابتليت بهوى فان شئت أن لاتعقد على محبتى لله فافعل فقال ماكنت لأحل عقد إخائك لأجل خطيئتك وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه وطوى أربعين يوما كلما يسأله

إلى أخيه فى الدنيا [١]

(١) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت إلى أعلاها فاذا فقراء أمتى وأولادهم الحديث الطبرانى من حديث أبى أمامة بسندضعيف نحوه وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر (٢) حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة أصحاب السنن الأربعة منحديث سعيد بن زيد قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث إلامن قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبى ذر فى أثناء حديث تقدم . (٤) حديث دخل على رجل فقير ولم يرله شيئا فقال لوقسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم لم أجده (٥) حديث ألاأخبركم عن ملوك الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولا ملوك وقد تقدم ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ ألاأخبركم عن ملوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشعث .

[١] قال البرهان الحلبى رأيت عن ابن تيمية أبى العباس بخط بعض الفضلاء حديث اتخذوامع الفقراء أيادى وكذا حديث الفقر فخرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت فى كلام له آخر .

فوالله لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة [(١)]» وروى عن على كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاة الأحكام والشوكة من الأعداء [(٢)]» . وأما الآثار فقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه: ذو الدرهمين أشد حبسا أوقال أشد حسابا من ذى الدرهم ، وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أرينى درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلى ويبكى إلى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل فى غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج [(٣)]» وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربتك ، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء .وقال المؤمل مارأيت الغنى أذل منه فى مجلس الثورى ولارأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله . وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا وقال ابن عباس : ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر . وقال لقمان عليه السلام لابنه: لاتحقرن أحدا لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين ، وفى الأخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : احذر أن أمقتك فتسقط من عينى فأصب الدنيا عليك صبا ، ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف درهم فى يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتينى لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولاتنزعى درعك حتى ترقعيه [(٤)]» وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا أفعل ذلك أبدا رضى الله عنه .

عن هواه يقول مازال فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال فأكل وشرب .ومن أدبهم أن لايحوجوا صاحبهم إلى المداراة ولايلجئوه إلى الاعتذار ولايتكلفوا للصاحب مايشق عليه بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه شر الأصدقاء من حوجك إلى مداراة أوألجأك إلى اعتذار وتكلفت له . وقال جعفر الصادق أثقل إخوانى على من يتكلف لى وأتحفظ منه وأخفهم على قلبى

---

(١) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال ياعمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة الحديث تقدم (٢) حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث أبو منصور الديلمى باسناد فيه جهالة وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام الحديث وفى أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها ، وقد روى أحمد فى الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفى إسناده يزيد بن أبى زياد تكلم فيه وفى رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذى من حديث أبى هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورقتين .
(٤) حديث قال لعائشة إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا [٢] » فالأول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لاثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة فى فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله فى حبس الدنيا عنه ورب راغب فى المال لايخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة فى فعله فتلك الكراهة هى التى تحبط ثواب الفقر ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة [٣] » وروى عن على كرم الله وجهه عن النبى ﷺ أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا [٥] » وقال « مامن أحد غنى ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا [٦] » وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال صلى الله عليه وسلم « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا [٧] » وقال ﷺ « يقول الله تعالى يوم القيامة أين صفوتى من خلقى فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائى الراضون بقدرى أدخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس فى الحساب يترددون [٨] » فهذا فى القانع والراضى . وأما الزاهد فسنذكر فضله فى الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار فى الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إن الطمع فقر واليأس غنى وإنه من يئس عما فى أيدى الناس وقنع استغنى عنهم . وقال أبو مسعود رضى الله تعالى عنه مامن يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش ياابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه مامن أحد إلا وفى عقله نقص وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ثم لايحزنه ذلك ويح ابن آدم ماينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان فبينا هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر وفى يده رغيف يأكله فلما أكل نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فجئنى به فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع

من أكون معه كما أكون وحدى فآداب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة والحكايات فى ذلك يطول نقلها وقد رأيت فى كتاب الشيخ أبى طالب المكى رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيئا كثيرا فقد أودع كتابه كل شىء حسن من ذلك وحاصل الجميع أن العبد ينبغى له أن يكون لمولاه ويريد كل مايريد لمولاه لالنفسه وإذا صاحب شخصا تكون صحبته إياه لله تعالى وإذا صحبه لله تعالى يجتهد له فى كل شىء يزيده عند الله زلفى وكل من قام بحقوق الله تعالى برزقه

---

(١) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم (٢) حديث يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث (٣) حديث إن لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدار قطنى فى غرائب مالك وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق وابن عدىّ فى الكامل وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر . (٤) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند ابن ماجه حديث إن الله يحب الفقير المتعفف (٥) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٦) حديث مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٧) حديث لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٨) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتى من خلقى ؟ فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا ؟ فيقول فقراء المسلمين الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس .

قال نعم قال فشبعت قال نعم قال ثم نمت طيبا قال نعم فقال إبراهيم فى نفسه فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ومرّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا فقال ألا أدلك على من رضى بشرّ من هذا قال بلى قال من رضى بالدنيا عوضا عن الآخرة وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج الى أحد . وقال الحسن رحمه الله لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ثم قرأ — وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق — الآية . وكان أبو ذر رضى الله عنه يوما جالسا فى الناس فأتته امرأته فقالت له أتجلس بين هؤلاء والله ما فى البيت هفة ولا سفة فقال يا هذه إن بين أيدينا عقبة كئودا لا ينجو منها إلا كل مخف فرجعت وهى راضية وقال ذو النون رحمه الله أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس وروى أن الله عز وجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت فاذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك وقد قيل فى القناعة:

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس … واقنع بيأس فان العز فى الياس

واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم … إن الغنىّ من استغنى عن الناس

وقد قيل فى هذا المعنى أيضا :

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه … مقدرا أىّ باب منه يغلقه

مفكرا كيف تأتيه منيته … أغاديا أم بها يسرى فتطرقه

جمعت مالا فقل لى هل جمعت له … يا جامع المال أياما تفرقه

المال عندك مخزون لوارثه … ما المال مالك إلا يوم تنفقه

أرفه ببال فتى يغدو على ثقة … أن الذى قسم الأرزاق يرزقه

فالعرض منه مصون ما يدنسه … والوجه منه جديد ليس يخلقه

إن القناعة من يحلل بساحتها … لم يبق فى ظلها همّ يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى هذا فذهب الجنيد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه فى هذا فأصابته محنة وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل ، فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار فى تفضيل الفقر ولابد فيه من تفصيل فنقول : انما يتصور الشك فى مقامين :أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أو راض بالاضافة الى غنى منفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على إمساك المال والثانى فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك وأن الغنى المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير لأنهما تساويا فى ضعف الحرص على المال والغنىّ متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما الغنى المتمتع بالمال وإن كان فى مباح فلا يتصوّر أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روى فى الخبر «أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحجّ والجهاد فعلمهم كلمات فى التسبيح وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء فتعلم الأغنياء ذلك

فكانوا

الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويعرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه فى ذلك كله ولا يفوته شئ مما يحتاج اليه فيما يرجع إلى حقوق الحق وفيما يرجع إلى حقوق الخلق فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تزكيتها وبقاء صفاتها عليه فان صحبت ظلمت بالافراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل فى النفس

فكانوا يقولونه فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١)» وقد استشهد ابن عطاء أيضا لما سئل عن ذلك فقال الغنى أفضل لأنه وصف الحق أما دليله الأول ففيه نظر لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال «بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال إنى رسول الفقراء إليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فان فى الجنة غرفا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا نبى فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا (٢)» فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الغنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض فانقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغى أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته (٣)» وقال سهل حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فانه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه فى كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغى أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفقر مطلوبا لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد وغاية المقصد فى الدنيا

(١) حديث شكا الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفى آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه

(٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بعث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه الحديث وفيه بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف فى هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا معشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى تقدم فى العلم وغيره.

زيادة تأثير ويكون كبُر يقلب فيه الماء من فوقه فلا يمكث فيه ولا ينتفع به وإذا أخذت بالتقوى والزهد فى الدنيا نبع منها ماء الحياء وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

[الباب السادس والخمسون فى معرفة الانسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك]

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزينى قال أنا كريمة المروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم

هو حب الله تعالى والأنس به ولايكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لايجتمع معه حب الله فى القلب والمحب للشئ مشغول به سواء كان فى فراقه أو فى وصاله وربما يكون شغله فى الفراق أكثر وربما يكون شغله فى الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذن إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال فى حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لاسبيل المعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصمة أن لايقدر ولذلك قال الصحابة رضى الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذى لايوجد فى الأعصار الكثيرة إلا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لامع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام : لاتنظروا إلى أموال أهل الدنيا فان بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : تقليب الأموال يمص حلاوة الايمان وفى الخبر «إن لكل أمة عجلا وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم (١)» وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا « إليك عنى (٢)» إذ كانت تتمثل له بزينتها وكان على كرم الله وجهه يقول : ياصفراء غرى غيرى ويابيضاء غرى غيرى وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق إذ قال عليه الصلاة والسلام «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس (٣)» وإذا كان ذلك بعيدا فاذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لاينفكون فى القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة فى بذلها وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم وبقدر مايأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر مايأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لامحالة إلى الله إذ لايتصور قلب فارغ وليس فى الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فانهما جهتان فالمتردد بينهما بقدر مايقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغى أن يكون مطمح نظر العارف قلبه فى عزوبه عن الدنيا وأنسه بها فاذن فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور فان الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب

(١) حديث لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم أبو منصور الديلمى من طريق أبى عبد الرحمن السلمى من حديث حذيفة باسناد فيه جهالة (٢) حديث كان يقول للدنيا إليك عنى الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

الكشميهنى قال أخبرنا أبو عبد الله الفربرى قال أنا أبو عبد الله البخارى قال ثنا عمر ابن حفص قال ثنا أبى قال ثنا الأعمش قال ثنا زيد بن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح وإن الرجل ليعمل بعمل

عن المال ويكون حبه دفينا فى باطنه وهو لايشعر به وإنما يشعر به إذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فان وجد لقلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التى كانت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا فى الفؤاد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فان حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور ولا يكون تأثيرها فى إثارة الأنس فى قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها فى قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفئ النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام . وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لى فقد أضرّ بى العيال فقال إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لى فى ذلك الوقت فانّ دعاءك أفضل من دعائى وكان يقول مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء ، وقد قال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه : اللهم إنى أسألك الذلّ عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصدّيق رضى الله عنه فى كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضى الله عنه ما أحب أن لى حانوتا على باب المسجد ولا تخطئنى فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب وماذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقائه فلايضاهى غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غنى بذاته لابما يتصور زواله والمال يتصوّر زواله بأن يسرق وماذكر من الردّ عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح فى ذمّ غنى يريد بقاء المال وماذكر من أن صفات الحق لاتليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شئ للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له أى يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فان التكبر على من لايستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصى فيليق به ، نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شئ وأنه يعلم أنه كذلك والعبد مأمور

أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار » وقال تعالى ـ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ـ أى حرز لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها ثم قال بعد ذكر تقلباته ـ ثم أنشأناه خلقا آخر ـ قيل هذا الانشاء نفخ الروح فيه . واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام

به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والمطيع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة في حقه إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة وليس يدرى الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر إذ ربما يختم للكافر بالايمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كمالا في حقه لأنه من صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء فاذن لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

[المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص] ولنفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فأي حالتيه أفضل فنقول: ننظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل لأن الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا» وقال «كاد الفقر أن يكون كفرا» أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح لأنهما استويا في الحرص وحب المال واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ولكن افترقا في أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغي الخلاص منه ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لا محالة إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا وقد قال ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فانك مفارقه [(١)]» وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصا عليها فاذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصي ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على

والامساك عن ذلك سبيل ذوي الأحلام وقد عظم الله تعالى شأن الروح وأسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال – وما أوتيتم من العلم إلا قليلا – وقد أخبرنا الله تعالى في كلامه عن إكرامه بني آدم فقال – ولقد كرمنا بني آدم – وروي «أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال وعزتي وجلالي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان» فمع هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى إياهم على

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فانك مفارقه تقدم .

طلب المال ليس له هم سواه وفى غنى دونه فى الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لوفقده كتفجع الفقير بفقره فهذا فى محل النظر والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده والعلم عند الله تعالى فيه .

(بيان آداب الفقير فى فقره)

اعلم أن للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغى أن يراعيها فأما أدب باطنه فأن لايكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى أنه لايكون كارها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله وإن كان كارها للفقر كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام بل ربما يتقلد منه منة فهذا أقل درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام «يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا» وأرفع من هذا أن لايكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وأرفع منه أن يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى واثقا به فى قدر ضرورته أنه يأتيه لامحالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذى لايتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئا من الدنيا إلا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث: شغل وهم وطول حساب .وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففى الحديث «إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال» وقال تعالى ـ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ـ وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند المحنة وقال بعضهم ستر الفقر من كنوز البر. وأما فى أعماله فأدبه أن لايتواضع لغنى لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها أن لايخالط الأغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع. قال الثورى رحمه الله إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. وقال بعض العارفين إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته فاذا سكن إليهم ضل وينبغى أن لايسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعا فى العطاء وأما أدبه فى أفعاله فأن لايفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل مايفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى. روى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يارسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل درهما من درهمين لايملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف[1]» وينبغى أن لايدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقى وفى الادخار ثلاث درجات إحداها أن لايدخر إلا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين والثانية أن يدخر لأربعين يوما فان مازاد عليه داخل فى طول الأمل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة

الملائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال ـ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ـ الآية قال ابن عباس قالت اليهود للنبى عليه السلام أخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التى فى الجسد وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه فيه شىء فلم يجبهم فأتاه جبرائيل بهذه الآية وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيته باذن الله تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره

---

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يارسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف الحديث النسائى من حديث أبى هريرة متصلا وقد تقدم فى الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا .

في أمل الحياة أربعين يوما وهـذه درجة المتقين والثالثة أن يدخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبعضهن قوت أربعين يوما وبعضهن يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

(بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال)

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو الذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما ممزوجا ببقية الأغراض أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فالأولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣) وقال «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي (٤)» وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أتاه رزق من غير مسألة فرده فانما يرده على الله (٥)» ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء

(١) حديث إن قبول الهدية سنة تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية (٢) حديث أهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من سمن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر وإسناده جيد وقال وكيع مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه (٣) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وايم الله لا أقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا الحديث فيه محمد ابن اسحق ورواه بالعنعنة (٤) حديث لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي الترمذي من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات (٥) حديث عطاء مرسلا من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فانما يرد على الله عز وجل لم أجده مرسلا هكذا ولأحمد وأبي يعلى والطبراني باسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسئلة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه الحديث .

الخوض فيه والاشارة إليه لا جرم لما تقاضت الأنفس الانسانية المتطلعة إلى الفضول المتشوفة إلى المعقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه والتسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه وأطلقت عنان النظر في مسارح الفكر وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتنوعت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ولو لزمت النفوس حدها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه ، وكان إبراهيم التيمى يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله فى قلبك أفضل منى قبل القبول فأخبرنى حتى آخذه وإلا فلا ، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه فى قبول صديقه هديته ، فان علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين . وقال بشر : ماسألت أحدا قط شيئا إلا سريا السقطى لأنه قد صح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشئ من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونا له على مايحب ، وجاء خراسانى إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال أفرقه على الفقراء ، فقال ماأريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ماأريد أن تنفقه فى الخل والبقل بل فى الحلاوات والطيبات فقبل ذلك منه ، فقال الخراسانى ماأجد فى بغداد أمن على منك ، فقال الجنيد ولا ينبغى أن يقبل إلا من مثلك . الثانى أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى كتاب أسرار الزكاة وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه ، فان كان مقارفا لمعصية فى السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن فان أخذه حرام محض لاشبهة فيه . الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولايقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثورى يرد مايعطى ، ويقول : لو علمت أنهم لايذكرون ذلك افتخارا به لأخذت ، وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال إنما أرد صلتهم إشفاقا عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم . وأما غرضه فى الأخذ فينبغى أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لابد منه أو هو مستغن عنه فان كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى فالأفضل له الأخذ . قال النبى صلى الله عليه وسلم « ماالمعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أتاه شئ من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله إليه (٢) » وفى لفظ آخر « فلا يرده » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط وقد كان سرى السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا فرده مرة ، فقال له السرى : ياأحمد احذر آفة الرد فانها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد أعد على ماقلت فأعاده ، فقال أحمد مارددت عليك إلا لأن عندى قوت شهر فاحبسه لى عندك فاذا كان بعد شهر فأنفذه إلى ، وقد قال بعض العلماء يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول فى شبهة أو غيره . فأما إذا كان ماأتاه زائدا على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما فى طبعه من الرفق والسخاء ، فان كان مشغولا بنفسه فلاوجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة فان ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو فى سبيل الشيطان أوداع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان : أحدهما أن يأخذ فى العلانية

(١) حديث ماالمعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا الطبرانى من حديث ابن عمر وقد تقدم فى الزكاة (٢) حديث من أتاه شئ من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله إليه ، وفى لفظ آخر فلا يرده تقدما قبل هذا بحديث .

وأولى فأما أقاويل من ليس متمسكا بالشرائع فننزه الكتاب عن ذكرها لأنها أقوال أبرزتها العقول التى ضلت عن الرشاد وطبعت على الفساد ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الأنبياء فهم كما قال الله تعالى ـ كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ـ . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ـ فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا فأصروا على

ويرد فى السر أو يأخذ فى العلانية ويفرق فى السر ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة . والثانى أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه فيفعل كليهما فى السر أو كليهما فى العلانية ، وقد ذكرنا حكم الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه فى كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطى رحمهما الله فانما كان لاستغنائه عنه إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره فان فى ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندى دراهم أعددتها للإنفاق فى سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفى أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يامن يرى ولا يرى فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه فقلت فى نفسى لا أجد لدراهمى موضعا أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مئزرين ودرهم أنفقه ثلاثا فلا حاجة بى إلى الباقى فرده . قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس فى نفسى منه شئ فالتفت إلى فأخذ بيدى فأطافنى معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس ، فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدى الخلق لأن هذه أثقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، والمقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى ــ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ــ وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا فى ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه ، فما زاد فهو حساب (١) » فاذن أنت فى أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب ، ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فان النفس إذا رخص لها فى نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فان أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون . وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره فان إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو فى قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع فى المال والتنعم فى المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله من حلال قضاه وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى

الجهالات وحجبوا بالمعقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدى به قوما ويضل به قوما آخرين فلم تنقل أقوالهم فى الروح واختلافهم فيه . وأما المتمسكون بالشرائع الذين تكلموا فى الروح فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم فى ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الأولى الامساك عن ذلك والتأدب بأدب النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الجنيد : الروح شئ استأثر الله بعلمه ولا

(١) حديث لاحق لابن آدم إلا فى ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب الترمذى من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح .

ومن

- ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله - قيل معناه ليبع أحد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم إن لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء والأسخياء والأغنياء فقيل من هؤلاء ؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى فاذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفى المال وفى المعطى فليأخذه وينبغى أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعى والإرادات والاعتقادات . وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لأصحابه إن هذا الرجل يقول من لم ير أنى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامى عليه حرام فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم كان دونهم فى الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا قال أردت أن أختبر توحيد أصحابى كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقى هكذا على أيدى بنى إسرائيل يغدينى هذا يوما ويعشينى هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائى أجرى أرزاقهم على أيدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم فلا ينبغى أن يرى المعطى إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه .

(بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه)

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم «للسائل حق ولو جاء على فرس [1]» وفى الحديث «ردوا السائل ولو بظلف محرق [2]» ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المتعدى على عدوانه والاعطاء إعانة فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام فى الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة : الأول إظهار الشكوى من الله تعالى إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة . الثانى أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فان فيه عزه فأما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله فلا ينبغى أن يذل لهم إلا لضرورة وفى السؤال ذل للسائل بالاضافة إلى المسئول . الثالث أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالبا لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه فان بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ وإن منع ربما استحيا وتأذى فى نفسه بالمنع إذ يرى نفسه فى صورة البخلاء ففى البذل نقصان ماله وفى المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب فى الايذاء والايذاء حرام إلا بضرورة ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله

---

(١) حديث للسائل حق وإن جاء على فرس أبو داود من حديث الحسين بن على ومن حديث على وفى الأول يعلى بن أبى يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفى الثانى شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح فى علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور فى الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق الحديث فانه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن على فى مسنده (٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف محرق أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى واللفظ له من حديث أم بجيد . وقال ابن عبد البر حديث مضطرب .

تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ولكن نجمل للصادقين محملا لأقوالهم وأفعالهم ويجوز أن يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة حيث حرم تفسيره وجوز تأويله إذ لا يسع القول فى التفسير إلا نقل وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل وهو ذكر ما تحتمل الآية من المعنى من غير القطع بذلك وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل . قال أبو عبد الله النباجى الروح جسم يلطف

صلى الله عليه وسلم «مسألة الناس من الفواحش ماأحل من الفواحش غيرها[(١)]» فانظر كيف سماها فاحشة ولايخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كمايباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لايجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم «من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم[(٢)]» «ومن سأل وله مايغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم» وفى لفظ آخر «كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه[(٣)]» وهذه الألفاظ صريحة فى التحريم والتشديد «وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة : ولاتسألوا الناس شيئا[(٤)]» وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا[(٥)]» وقال ﷺ «استغنوا عن الناس وماقل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يارسول الله قال ومنى[(٦)]» وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قدعشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لاتعد ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ مخلاته ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه وهو استبعاد مصدره القصور فى الفقه فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم فى حوصلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا فى معصية الله وحاشاه أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبى الله وهيهات فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذى لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم أن من أعطاه شيئا فانما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لايعرف أصحابه بأعيانهم فبقى مالا لامالك له فوجب صرفه إلى المصالح وإبل الصدقة وعلفها من المصالح ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ العلوى بقوله إنى علوى وهو كاذب فانه لايملك ما يأخذه وكأخذ الصوفى الصالح الذى يعطى لصلاحه وهو فى الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه وقد

عن الحس ويكبر عن اللمس ولايعبر عنه بأكثر من موجود وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم فكأنه عبر عنه . وقال ابن عطاء خلق الله الأرواح قبل الأجساد لقوله تعالى ـولقد خلقناكم ـيعنى الأرواح ـثم صورناكم ـيعنى الأجساد . وقال بعضهم الروح لطيف قائم فى كثيف كالبصر جوهر لطيف قائم فى كثيف وفى هذا القول نظر وقال بعضهم الروح عبارة والقائم بالأشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا إلا أن يحمل على معنى الإحياء فقد قال

---

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وماأحل الله من الفواحش غيرها لم أجد له أصلا (٢) حديث من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم الحديث أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية مقتصرا على ماذكر منه وتقدم فى الزكاة ولمسلم من حديث أبى هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثرا فانما يسأل جمرا الحديث وللبزار والطبرانى من حديث مسعود بن عمرو ولايزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه وفى إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد (٣) حديث من سأل وله مايغنيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم فى الزكاة (٤) حديث بايع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولاتسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعى (٥) حديث من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا ابن أبى الدنيا فى القناعة والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه حصين بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيهم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وماقل من السؤال فهو خير الحديث البزار والطبرانى من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله فى حديث فتعففوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه وما قل من السؤال الخ .

ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال . أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسئول بكونه مباحا والمسئول منه بكونه راضيا فى الباطن وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذان طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة ، فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الاباحة لأنها أيضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال وقال ليس تحت جبتى قميص والبرد يؤذينى أذى أطيقه ولكن يشق على فاذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى . وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز وكمن يسأل الكراء لفرس فى الطريق وهو واجد كراء الحمار أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسئول فهو حرام لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة . فان قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات . فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى . وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى يعلم أنه لا ينقصه ذلك فى عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك فان الذل لازم للمنة لا محالة . وأما الايذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة وإن كان فى القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من اللائمة ويكون الأحب إليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير اللائمة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا إلى التغافل إن أراد فاذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذ به وينبغى أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه فان الحياء من السائل يؤذى كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى . فان قلت فاذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة . فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام وضرب الباطن أشد نكاية فى قلوب العقلاء

بعضهم الإحياء صفة الحى كالتخليق صفة الخالق وقال ـ قل الروح من أمر ربى ـ وأمره كلامه وكلامه ليس بمخلوق أى صار الحى حيا بقوله كن حيا وعلى هذا لا يكون الروح معنى فى الجسد فمن الأقوال ما يدل على أن قائله يعتقد قدم الروح ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه ثم إن الناس مختلفون فى الروح الذى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال قوم هو جبرائيل ونقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال هو ملك من الملائكة له

ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر[١] » فان هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت إليه وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك فان المفتي معلم القاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفتي القلوب هم علماء الآخرة وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فاذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه فان كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته فان لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته فان تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى . فان قلت فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضيا . فأقول لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السري رحمة الله عليهما وقال لأني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب وانما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا لأن الأذى إنما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة فكان الامتناع طريق الورعين ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فان ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني السؤال من الأصدقاء والاخوان فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فاذا كانوا يسألون الاخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق وفي الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فان قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه[٢] »

(١) حديث إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم أجد له أصلا وكذا قال المزي لما سئل عنه.
(٢) حديث إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه تقدم .

سبعون ألف وجه ولكل وجه منه سبعون ألف لسان ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق من كل تسبيحة ملك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن الروح خلق من خلق الله صورهم على صورة بني آدم وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح وقال أبو صالح الروح كهيئة الانسان وليسوا بناس وقال مجاهد الروح على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل . ورءوس

وقد

وقد أوتى جوامع الكلم لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فيأكل من أيدى الناس وإن أعطى بغير سؤال فانما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل وأين من يقتصر فى السؤال على حدّ الضرورة ، فاذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذى اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك فاذن بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدى الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يغنينا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير .

(بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال)

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم «من سأل عن ظهر غنى فانما يسأل جمرا فليستقل منه أو ليستكثر» صريح فى التحريم ، ولكن حدّ الغنى مشكل وتقديره عسير وليس إلينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد فى الحديث «استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة [1]» وفى حديث آخر «من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا [2]» وورد فى لفظ آخر «أربعون درهما» ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغى أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة فان الحق فى نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا حق لابن آدم إلا فى ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب» فلنجعل هذه الثلاث أصلا فى الحاجات لبيان أجناسها والنظر فى الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهى هذه الثلاث ويلحق بها ما فى معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشى وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعا ولا ينبغى أن يطلب رقة الثياب وكون الأوانى من النحاس والصفر فيما يكفى فيه الخزف فان ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن فى غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدره فى اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والأدم على الدوام فضلة وقطعه بالكلية إضرار ففى طلبه فى بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله ما يجزئ من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه فى الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات : إحداها ما يحتاج إليه فى غد . والثانية ما يحتاج إليه فى أربعين يوما أو خمسين يوما . والثالثة ما يحتاج إليه فى السنة ، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فان ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث فان خمسة دنانير تكفى المنفرد

(١) حديث استغنوا بغنى الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة تقدم فى الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما يغنيه قال ما يغديه أو يعشيه ولأحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى؟ قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا وفى لفظ آخر أربعون درهما تقدما فى الزكاة .

يأكلون الطعام وليسوا بملائكة وقال سعيد ابن جبير لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش ولو شاء أن يبلغ السموات والأرضين السبع فى لقمة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة الآدميين يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه فى صف واحد وهو ممن يشفع لأهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لحرق أهل السموات من نوره فهذه الأقاويل لا تكون إلا نقلا وسماعا بلغهم عن رسول الله

فى السنة إذا اقتصد أما للعيل فربما لايكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة فان كان قادرا على السؤال ولاتفوته فرصته فلايحل له السؤال لأنه مستغن فى الحال وربما لايعيش إلى الغدفيكون قد سأل مالايحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذى ورد فى التقدير بهذا القدر وإن كان يفوته فرصة السؤال ولايجد من يعطيه لوأخر فيباح له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يعينه فان كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا وكان مالأجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخى المدة التى فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لايقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتى فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجىء الرزق فى المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلامن ضعف اليقين والاصغاء إلى تخويف الشيطان وقد قال تعالى ـ فلاتخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ـ وقال عز وجل ـ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ـ والسؤال من الفحشاء التى أبيحت بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه فى السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان فى الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

(بيان أحوال السائلين)

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لايسأل وإن أعطى لايأخذ فهذا مع الروحانيين فى عليين وفقير لايسأل وإن أعطى أخذ فهذا مع المقربين فى جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين فاذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة . قال شقيق البلخى لابراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك ياأبا اسحق فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا فقبل رأسه وقال صدقت ياأستاذ فاذن درجات أرباب الأحوال فى الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلابد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقى من حضيضها إلى قلاعها ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين وقد خلق الانسان فى أحسن تقويم ثم رد إلى أسفل سافلين ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين ومن لايميز بين السفل والعلو لايقدر على الرقى قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لايقدر عليه وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضى أن يكون السؤال مزيدا لهم فى درجاتهم ولكن بالاضافة إلى حالهم فان مثل هذه الأعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا اسحق النورى رحمه الله يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لايعظم هذا عليك فان النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم وانما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لايضرهم وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المعطى هى العليا [1] » فقال بعضهم يد المعطى هى يد الآخذ للمال لأنه يعطى الثواب والقدر له

صلى الله عليه وسلم ذلك واذا كان الروح المسئول عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح الذى فى الجسد فعلى هذا يسوغ القول فى هذا الروح ولايكون الكلام فيه ممنوعا وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أماكن معروفة لايعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كن لأنه لوخرج من كن كان عليه الذل قيل فمن أى شىء خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الاشارة خصها بسلامه وحياها بكلامه

(١) حديث يد المعطى هى العليا مسلم من حديث أبى هريرة .

لالما يأخذه ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال احملها إليه فقلت فى نفسى إنما يوزن الشئ ليعرف مقداره فكيف خلطبه مجهولا وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى النورى فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيئا وأخذ مازاد على المائة قال فزاد تعجبي فسألته فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عزوجل فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ماجعله لنفسه قال فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الأسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلوّ القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه الهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعلة فى باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وإن كان فى الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة وان كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين فى العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب .

[الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد] وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد فى المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة وبيان علامة الزهد .

(بيان حقيقة الزهد)

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأن أبواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل وكأنّ القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مرادا لعينه وإن لم يكن صادرا عن حال سمى إسلاما ولم يسم إيمانا والعلم هو السبب فى حال يجرى مجرى المثمر والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فنعنى بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ إلى ما هو خير منه فكلّ من عدل عن شئ إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وإنما عدل إلى غيره لرغبته فى غيره فحاله بالاضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبا فاذن يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمى زاهدا إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا وانما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشترى عنده خير من المبيع فيكون حاله بالاضافة إلى المبيع زهدا فيه وبالاضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا ولذلك قال الله تعالى ــ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ــ معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

فهى مستقلة بذلك كن وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح أمخلوقة هى قال نعم ولولا ذلك ما أقرت بالربوبية حيث قالت بلى والروح هى التى قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة وبالروح ثبت العقل وبالروح قامت الحجة ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لا حجة عليه ولا له وقيل إنها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات وأصفى الجواهر وأنورها وبها تتراءى المغيبات وبها يكون الكشف لأهل الحقائق وإذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح

ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحبّ إليهم من يوسف فباعوه طمعا فى العوض فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن فى الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للميل فى وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصوّر إلا بالعدول إلى شىء هو أحبّ منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحبّ محال والذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأوّل والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع فى الأكل ولا يترك التجمل فى الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته فى الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك فى المحظورات ، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فاذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهى الدرجة العليا وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فان ترك مالا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك يازاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيماذا زهدت ؟. وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالاضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصوّر أن تزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف أن ماعند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى أى لذاتها خير فى أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلئ فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لا يزال فى الذوبان إلى الانقراض والآخرة كالجوهر الذى لافناء له فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرّغبة فى البيع والمعاملة حتى إنّ من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى ـ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ـ . ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى ـ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ـ فليس يحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا : إما لضعف علمه ويقينه . وإما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه وكونه مقهورا فى يد الشيطان . وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت وإلى تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى ـ قل متاع الدنيا قليل ـ وإلى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل ـ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ـ فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب فى أحب منه . قال رجل فى دعائه « اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لاتقل هكذا ولكن قل أرنى

الأدب ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار وقابض ونازع وقيل الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء وقيل الأرواح أقسام أرواح تجول فى البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما تتحدث به فى السماء عن أحوال الآدميين وأرواح تحت العرش وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدارها من السعى إلى الله أيام الحياة . وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردها

الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك (١) » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة إلى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة فى حق نفسه بالاضافة إلى ماهو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا لأنه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ماسواه فيرى الكل فى درجة واحدة بالاضافة إلى جلاله ويراه متفاوتا بالاضافة إلى غيره والزاهد هو الذى يرى تفاوته بالاضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذى هو خير بالذى هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهى الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين فى الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به فان الذى بايعه بهذا البيع وفى بالعهد فمن سلم حاضرا فى غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فى بنيامين وإن كانوا قد قالوا ـ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ـ وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على إخراجه بل عند التسليم والبيع فعلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لأن ما لايقدر عليه لايقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغى أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصى عند تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات فاياك أن تثق بوعدها فى المباحات والوثق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة فاذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا فلابأس أن تثق بها وثوقا ما ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فانها سريعة النقض للعهد قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالاضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبى ليلى لابن شبرمة ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لانفتى فى مسألة إلا رد علينا يعنى أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدرى أهو ابن الحائك أم ماهو لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شئ محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ـ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم ـ (٢) .

إلى جسدها . وقيل إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات مايعاقب به الأحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر إلى الله ظاهرا عنه فانه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وقد ورد فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم

(١) حديث قال رجل اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال له لاتقل هكذا ولكن قل أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصرا اللهم أرنى الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبى القصير ولم يخرجه ولده (٢) حديث قال المسلمون إنا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شئ محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ـ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ـ الآية لم أقف له على أصل .

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعني من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ـ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ـ (١) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لامدخل لشيء منه في العبادات وإنما الزهد أن تترك الدنيا للعلك بحقارتها بالاضافة إلى نفاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فانه يتصور ممن لايؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لايكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنأ من المال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لما في حفظ المال من المشقة والعناء والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبا لما سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له ـ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ـ فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لاجدوى لها في الآخرة أصلا .

(بيان فضيلة الزهد)

قال الله تعالى ـ فخرج على قومه في زينته ـ إلى قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ـ فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى ـ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ـ وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل ـ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ـ قيل معناه أيهم أزهد فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى ـ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ـ وقال تعالى ـ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ـ وقال تعالى ـ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ـ فوصف الكفار بذلك فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا . وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات إذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فانه من المنجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد وقد أعطي صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه

وتزداد وجوههم بياضا وإشراقا » فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفي خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى فان كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لاتمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد وليست بمعان وأعراض ، سئل الواسطي لأي علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال لأنه خلق روحه أولا فوقع له صحبة التمكين والاستقرار ألا تراه يقول « كنت

---

(١) حديث ابن مسعود ماعرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ـ منكم من يريد الدنيا ـ الآية البيهقي في دلائل النبوة باسناد حسن (٢) حديث من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

فانه يلقى الحكمة (١) » وقال تعالى ـ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ـ ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال « قلنا يارسول الله أي الناس خير ؟ قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يارسول الله وما مخموم القلب ؟ قال التقى النقى الذى لاغل فيه ولاغش ولابغى ولاحسد قلنا يارسول الله فمن على أثره ؟ قال الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة (٢) » ومفهوم هذا أن شر الناس الذى يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا (٣) » فجعل الزهد سببا للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغى أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت «الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا (٤) » ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا مؤمن حقا قال وماحقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها وكأنى بالجنة والنار وكأنى بعرش ربى بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم ، عبد نور الله قلبه بالايمان (٥) » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان «ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى ـ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ـ وقيل له ماهذا الشرح ؟ قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله (٦) » فانظر كيف جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافى عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم «استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحى منه تعالى فقال ليس كذلك تبنون مالاتسكنون وتجمعون مالاتأكلون (٧) » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى «ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وماعلامة إيمانكم ؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلاتجمعوا مالاتأكلون ولاتبنوا مالاتسكنون ولاتنافسوا فيما عنه ترحلون (٨) » فجعل الزهد تكملة لايمانهم وقال جابر رضى الله عنه « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إذا رأيتم العبد قد أوتى صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف (٢) حديث قلنا يارسول الله وما مخموم القلب ؟ قال التقى النقى الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يارسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد المذكور الخرائطى في مكارم الأخلاق (٣) حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا لم أجده أصلا (٥) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا فقال وماحقيقة إيمانك الحديث البزار من حديث أنس والطبرانى من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى ـ فمن يرد الله أن يهديه ـ الحديث الحاكم وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبرانى من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وماعلامة إيمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر في تاريخيهما باسناد ضعيف من حديث جابر .

نبياء وآدم بين الروح والجسد » أى لم يكن روحا ولاجسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال ـ خلقتني من نار وخلقته من طين ـ ولم يدر أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهى للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا في علم الله لأن علم الخلق قليل لايبلغ ذلك والمختار عند أكثر متكلمى الاسلام أن الانسانية والحيوانية عرضان خلقا في الانسان والموت يعدمهما وأن الروح هى الحياة بعينها صار

فقال : من جاء بلا إله إلا الله لايخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام إليه علي كرم الله وجهه، فقال بأبي أنت وأمي يارسول الله مالايخلط بها غيرها ؟ صفه لنا نعرفه ، فقال : حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة (١)» . وفي الخبر «السخاء من اليقين ولايدخل النار موقن والبخل من الشك ولايدخل الجنة من شك (٢)» . وقال أيضا «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار (٣)» والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة . وروى عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام (٤)» وروى أنه صلى الله عليه وسلم « مر في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى ـ وإذا العشار عطلت ـ قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يارسول الله هذه أنفس أموالنا لم لاتنظر إليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلاقوله تعالى ـ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به ـ (٥)» الآية وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت «قلت يارسول الله ألاتستطعم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ، فقال ياعائشة والذي نفسي بيده لوسألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، ياعائشة إن الدنيا لاتنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، ياعائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال ـ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ـ والله مالي بد من طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولاقوة إلا بالله (٦)»

البدن بوجودها حيا وبالاعادة إليه في القيامة يصير حيا وذهب بعض متكلمي الاسلام إلى أنه جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر وهو اختيار أبي المعالي الجويني وكثير منهم مال إلى أنه عرض إلا أنه ردهم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد في البرزخ فحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم لأن العرض لا يوصف بأوصاف إذ الوصف معنى والمعنى لايقوم بالمعنى واختار بعضهم أنه عرض .

---

(١) حديث جابر من جاء بلا إله إلا الله لايخلط معها شيئا وجبت له الجنة لم أره من حديث جابر وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف نحوه (٢) حديث السخاء من اليقين ولايدخل النار موقن الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده (٣) حديث السخي قريب من الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه الحديث لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضعيفة (٥) حديث مر في أصحابه بعشار من النوق حفل الحديث وفيه ثم تلاقوله تعالى ـ ولاتمدن عينيك ـ الآية لم أجد له أصلا (٦) حديث مسروق عن عائشة قلت يارسول الله ألاتستطعم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث . وفيه ياعائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد ابن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا : ياعائشة إن الله لم يرض من أولي العزم

وروى عن عمر رضى الله عنه « أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر ياحفصة ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة . وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرّبتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشقّ ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أووضع على الأرض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجفّ ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ، وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساءين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج [1] » وفى بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لى

سئل ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان قيل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت قال فأين يذهب لحمها إذا مرضت . وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب إلى الاسلام: الروح تنفصل من البدن فى جسم لطيف . وقال بعضهم إنها إذا فارقت البدن تحل معها القوّة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات لأن

من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفنى ما كلفهم فقال تعالى ـ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ـ ومجالد مختلف فى الاحتجاج به (١) حديث إن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس لين الثياب إذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاها وبكى الخ لم أجده هكذا مجموعا فى حديث وهو مفرق فى عدّة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقى ربه وفيه عمرو ابن عبد الله القدرى متروك الحديث وللترمذى من حديث عائشة قالت ماأشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ماشبع من خبز ولحم مرّتين فى يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم فى آداب الأكل وللترمذى فى الشمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم؟: مسح تثنيه ثنتين فنام عليه الحديث ولابن سعد فى الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين الحديث وتقدما فى آداب المعيشة وللبزار من حديث أبى الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على مافيها قلت فيه سعيد ابن ميسرة قد كذبه يحيى القطان وضعفه البخارى وابن حبان وابن عدىّ وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى فى شملة قد عقد عليها زاد المطريزى فى جزئه المشهور فعقدها فى عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف وتقدّم فى آداب المعيشة .

صاحبان سلكا طريقا فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم (١) » وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال « لما نزل قوله تعالى ـ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ـ قال صلى الله عليه وسلم تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم فقلنا يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأي شيء ندخر فقال ﷺ : ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته (٢) » وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث هم لا يفارق قلبه أبدا وفقرا لا يستغني أبدا وحرصا لا يشبع أبدا (٣) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته (٤) » وقال المسيح ﷺ الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له يانبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إن ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي ﷺ ياجبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباء الحديث باسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل (٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى ـ والذين يكنزون الذهب والفضة ـ الآية قال تبا للدينار والدرهم الحديث وفيه فأي شيء ندخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبا للدينار والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي المال يتخذ كما في رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس (٣) حديث حذيفة من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث الحديث لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرق قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث شقاء لا ينفد عناه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ منتهاه وفي آخره زيادة (٤) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب إليه من كثرته لم أجد له اسنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن طلحة مرسلا لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسلة فالحديث إذن معضل .

تجردها من هيآت البدن عند المفارقة غير ممكن وهي عند الموت شاعرة بالموت وبعد الموت متخلية بنفسها مقبورة وتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة وتحس بالثواب والعقاب في القبر قال بعضهم أسلم المقالات أن يقال الروح شيء مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيي البدن مادام متصلا به وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد كما أن الجسد بمفارقته يذوق الموت فإن الكيفية والماهية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر في

القيامة أن تقوم قال لاولكن هذا إسرافيل عليه السلام قدنزل إليك حين سمع كلامك فأتاه إسرافيل فقال إن الله عز وجل سمع ماذكرت فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت وإن شئت نبيا ملكا وإن شئت نبيا عبدا فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال نبيا عبدا ثلاثا (١)» وقال صلى الله عليه وسلم «إذاأراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه (٢)» وقال ﷺ لرجل «ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس (٣)» وقال صلوات الله عليه «من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات (٥)» ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام «أربع لايدركن إلابتعب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشىء (٦)» وإيراد جميع الأخبار الواردة فى مدح بغض الدنيا وذم حبها لايمكن فان الأنبياء مابعثوا إلالصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية والله المستعان . وأما الآثار: فقد جاء فى الأثر: لاتزال لاإله إلاالله تدفع عن العباد سخط الله عزّ وجل مالم يسألوا مانقص من دنياهم وفى لفظ آخر: مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لاإله إلاالله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زهد فى الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك ؟ قال كانوا أزهد فى الدنيا منكم. وقال عمر رضى الله عنه الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان أشتهى أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لاتوجد وقال وهب بن منبه إن للجنة ثمانية أبواب فاذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لايدخلها أحد قبل الزاهدين فى الدنيا العاشقين للجنة . وقال يوسف بن أسباط رحمه الله إنى لأشتهى من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ولايكون على دين ولاعلى عظمى لحم فأعطى ذلك كله. وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال أتدرون مامثلى ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها وكذلك

(١) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث فى نزول إسرافيل وقوله إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداوياقوتا وذهبا وفضة الحديث تقدم مختصرا (٢) حديث إذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس دون قوله ورغبه فى الآخرة وزاد فقهه فى الدين وإسناده ضعيف (٣) حديث ازهد فى الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٤) حديث من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا لم أجد له أصلا (٥) حديث من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات الحديث ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بن أبى طالب (٦) حديث أربع لايدركن إلابتعب الصمت هو أول العبادة الحديث الطبرانى والحاكم من حديث أنس وقد تقدم .

شعاع الشمس ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهسم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أى هؤلاء فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم أنه جسم لطيف كاذكرنا واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم فما أحسن الامساك عن القول فيما هذا سبيله وكلام الشيخ أبى طالب المكى فى كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان فى الجسد وهكذا النفوس لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور فى القلب

أنتم أردتم ذبحي على كبر سني موتوا ياأهلي جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بدّ ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار . وقيل للحسن لم لا تغسل ثيابك قال الأمر أعجل من ذلك. وقال إبراهيم بن أدهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالمدح فاذا فرحت بالموجود فأنت حريص وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا . وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه (١) » فاذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الاعطاء المؤدي إلى السقم . وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء. وقال سهل لا يخلص العمل للمتعبد حتى لا يفزع من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل . وقال الحسن البصري أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شيء منها أدبر ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط فاذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

(بيان درجات الزهد وأقسامه بالاضافة إلى نفسه وإلى المرغوب عنه وإلى المرغوب فيه)

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث: الدرجة الأولى وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى التزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب أولا نفسه ثم كيسه والزاهد أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه والمتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير. الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالاضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لأجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان. الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالاضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالاضافة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة

(١) حديث إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم .

يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك وتتحرك الشر ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالاغواء وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير إلى الروح أقول : ما عندي في ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به إذ ميلي في ذلك إلى السكوت والامساك فأقول والله أعلم :الروح الانساني العلوي السماوي من عالم الأمر والروح الحيواني البشري من عالم الخلق والروح الحيواني البشري محل الروح العلوي ومورده والروح

ومثل

ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة فى البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبى موسى عبد الرحيم فى أى شئ تتكلم ؟ قال فى الزهد قال فى أى شئ ؟ قال فى الدنيا فنفض يده وقال ظننت أنه يتكلم فى شئ والدنيا لاشئ إيش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أنفذ أمره فى جميع مملكته أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه فى مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها فى حال المضغ وتنقضى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها فى المعدة ثم تنتهى إلى النتن والقذر ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالاضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالاضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للمتناهى إلى مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد فاذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به إلا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة فى الصبر وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده . وأما انقسام الزهد بالاضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدى العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها «إن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء (١) » فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فان الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم . الدرجة الثانية أن يزهد رغبة فى ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة فى جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فان هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له . الدرجة الثالثة وهى العليا أن لا يكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذى أصبح وهمومه هم واحد وهو الموحد الحقيقى الذى لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة إلى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفى وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين

الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ينبعث من القلب أعنى بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل المودعة فى الجانب الأيسر من الجسد وينتشر فى تجاويف العروق الضوارب وهذه الروح لسائر الحيوانات ، ومنه تفيض قوى الحواس وهو الذى قوامه باجراء سنة الله بالغذاء غالبا ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال المزاج الأخلاط ولورود الروح الانسانى العلوى على هذا الروح تجنس الروح الحيوانى وباين أرواح الحيوانات

---

(١) حديث إن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء أحمد من حديث ابن عباس التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير الحديث وفيه إنى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ماوصلت إليك حتى سال منى العرق مالوورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله .

والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع فى قلوبهم بل تلك اللذة بالاضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالاضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبى الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالاضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ماذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل . فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل . أما الاجمال فى الدرجة الأولى فهو كل ماسوى الله فينبغى أن يزهد فيه حتى يزهد فى نفسه أيضا ، والاجمال فى الدرجة الثانية أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها ، وفى الدرجة الثالثة أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس ، وفى الدرجة الرابعة أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه ، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فان جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال ـ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ـ ثم رده فى آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل ـ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ـ ثم رده تعالى فى موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى ـ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ـ ثم رد الكل إلى واحد فى موضع آخر فقال ـ ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ـ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا فينبغى أن يكون الزهد فيه وإذا فهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه فى الشرح مرة والاجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا فقصر أمله لا محالة لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بارادة البقاء فان من أراد شيئا أراد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن فى هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال ـ قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ـ فقال تعالى ـ قل متاع الدنيا قليل ـ أى لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين فى الايمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين

وأما

واكتسب صفة أخرى فصار نفسا علا للنطق والالهام قال الله تعالى ـ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ـ فتسويتها بورود الروح الانسانى عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى وصار تكون النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الأمر كتكون حواء من آدم فى عالم الخلق وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء وصار كل واحد منهما يذوق الموت

وأما الناقضون ففروا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ـ إن الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ـ فايثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ماذكره المتكلمون فى حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم مارآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بشر رحمه الله تعالى الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد فى الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوف فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد فى شهوة واحدة، ولعمرى هى أغلب الشهوات على الأكثر وهى المهيجة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل الزهد فى الدنيا هو القناعة وهذا إشارة إلى المال خاصة. وقال الثورى الزهد هو قصر الأمل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها. وقال أويس إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وماقصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطا فى الزهد . وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للمضمون وهو إشارة إلى الرزق. وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه فى الدنيا فهو صحيح ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ماهو من فضول الشهوات فان من العلوم مالافائدة فيه فى الآخرة وقد طوّلوها حتى ينقضى عمر الانسان فى الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن الزاهد الذى إذا رأى أحدا قال هذا أفضل منى فذهب إلى أن الزهد هو التواضع وهذا إشارة إلى نفى الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولاشك فى أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد ، وفى الزهد أقاويل وراء مانقلناه فلم نر فى نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف له الحق فى نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة فلاجرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلاجرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التى هى مقام العبد فى نفسه والأحوال تختلف فلاجرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، وأما الحق فى نفسه فلايكون إلا واحدا ولايتصوّر أن يختلف وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل فى نفسه وان لم يكن فيه تفصيل ماقاله أبو سليمان الدارانى إذ قال سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شئ يشغلك عن الله عزوجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر فى طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدّا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى ـ إلامن أتى الله بقلب سليم ـ فقال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى وقال إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان انقسام الزهد بالاضافة إلى أصناف المزهود فيه، فأما بالاضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة كما قاله إبراهيم بن أدهم فالفرض هو الزهد فى الحرام والنفل هو الزهد فى الحلال والسلامة هو الزهد فى الشبهات ، وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع فى كتاب الحلال

بمفارقة صاحبه قال الله تعالى ـ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ـ فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الانسانى العلوى إلى الروح الحيوانى وصيره نفسا وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب وأعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية فالمضغة اللحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس فى عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق ولولا السا كنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ماتكون القلب فمن

والحرام وذلك من الزهد إذ قيل لمالك بن أنس ماالزهد قال التقوى ، وأما بالاضافة إلى خفايا مايتركه فلانهاية للزهد فيه إذلانهاية لماتتمتع به النفس فى الخطرات واللحظات وسائر الحالات لاسيما خفايا الرياء فان ذلك لايطلع عليه إلاسماسرة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضادرجات الزهد فيها لاتتناهى فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا فى نومه فقال له الشيطان أماكنت تركت الدنيا فما الذى بدا لك قال وماالذى تجدد قال توسدك الحجر . أى تنعمت برفع رأسك عن الأرض فى النوم فرمى الحجر وقال خذه مع ماتركته لك ، وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل فأوحى الله تعالى إليه يايحيى آثرت على الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ماكان عليه ، وقال أحمد رحمه الله تعالى الزهد زهدأويس بلغ من العرى أن جلس فى قوصرة وجلس عيسى عليه السلام فى ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال ماأقمتنى أنت إنما أقامنى الذى لم يرض لى أن أتنعم بظل الحائط فاذن درجات الزهدظاهراوباطنالاحصرلها وأقل درجاته الزهد فى كل شبهة ومحظور ، وقال قوم الزهدهوالزهدفى الحلال لافى الشبهةوالمحظور فليس ذلك من درجاته فى شىء ثم رأوا أنه لم يبق حلال فى أموال الدنيا فلايتصور الزهدالآن . فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى . فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ولايتصور ذلك إلامع البقاء ولابقاء إلابضروريات النفس فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان مالايتوصل إلى الشىء إلابه فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها فى طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغى أن يكون بدنك فى طريق الله مثل ناقتك فى طريق الحج ولاغرض لك فى تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك فكذلك ينبغى أن تكون فى صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولاتقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لايناقض الزهد بل هو شرط الزهد . وإن قلت فلابد وأن أتلذذ بالأكل عندالجوع. فاعلم أن ذلك لايضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لايكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلايكون القلب منصرفا إليه فالانسان قد يستريح فى قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فمايصيبه من ذلك بغير قصد لايضره ولقد كان فى الخائفين من طلب موضعا لايصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان فى الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائى له حب مكشوف فيه ماؤه فكان لايرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم فى جميع ذلك الاحتياط فانه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لايثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المتعصمين بعروة اليقين فى معرفة المضادة التى بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة)

اعلم أن ماالناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالخيل المسومة مثلا إذ غالب الناس

القلوب قلب متطلع إلى الأب الذى هو الروح العلوى ميال إليه وهوالقلب المؤيد الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الايمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين

إنما يفتنها الترفه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري والمهم أيضاً يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلابد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة أمور: الطعم والملبس والمسكن وأثاثه والنكح والمال والجاه يطلب لأغراض وهذه الستة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة [الأول الطعم] ولابد للانسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض فلابد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طوله فبالاضافة إلى جملة العمر فإن من ملك طعام يومه فلا يقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا. الدرجة الثانية: أن يدخر لشهر أو أربعين يوماً. الدرجة الثالثة: أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جداً فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كداود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالاضافة إلى المقدار وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالاضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة وأعلاه خبز البر غير منخول فإذا ميز من النخالة وصار حوارى فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله وأما الأدم فأقله الملح أو البقل والخل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان وأعلاه اللحم أي لحم كان وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين فإن صار دائماً أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلا وأما بالاضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائماً وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ويأكل ليلة ولا يشرب وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها «كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالأسودين التمر والماء [1]» وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم. وقال الحسن «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد وأجلس كما تجلس العبيد [2]» وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير. وقال الفضيل

غلبت عليه حكم له بها والقلب المنكوس ميال إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميله إليها وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة والعقل جوهر الروح العلوي ولسانه والدال عليه وتدبيره القلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البار والزوج للزوجة الصالحة وتدبيره القلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة فمنكوس من وجه

(١) حديث عائشة كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان الحديث وفي رواية له ما يوقد فيه بنار ولأحمد كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار وفي رواية له ثلاثة أهلة (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار

ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر[١] . وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول : يابنى إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقدذكرنا سيرة الأنبياء والسلف فى المطعم والشرب فى ربع المهلكات فلانعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال «أما إنى لست أحرمه ولكن أتركه تواضعا لله تعالى[٢]» وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال اعزلوا عنى حسابها وقد قال يحيي بن معاذ الرازى الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والربّ أنيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى [المهم الثانى] الملبس وأقل درجته ما يدفع الحرّ والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حدّ الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود فى البيت ، فاذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار ، أما الجنس فأقله المسوح الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ ، وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوما حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضادّ للزهد إلا إذا كان المطلوب خشونته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدّق به فان أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين[٣] وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يحب المتبذل الذى لا يبالى ما لبس[٤]» وقال عمرو بن الأسود العنسى لا ألبس مشهورا أبدا ولا أنام بليل على دثار أبدا ولا أركب على مأثور أبدا ولا أملأ جوفى من طعام أبدا فقال عمر من سره أن ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود[٥] وفى الخبر « مامن عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا[٦] » واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم[٧]

الحديث تقدم دون قوله إنما أنا عبد فانه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البرّ تقدم (٢) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده الحديث تقدم (٣) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين الشيخان وقد تقدم فى آداب المعيشة (٤) حديث إن الله يحب المتبذل الذى لا يبالى ما لبس لم أجد له أصلا (٥) حديث عمر من سرّه أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود رواه أحمد باسناد جيد (٦) حديث مامن عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث أبى ذرّ باسناد جيد دون قوله وإن كان عنده حبيبا (٧) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم أبو يعلى من حديث أبى هريرة قال

ومنجذب إلى تدبيرها من وجه إذ لابد له منهما وقول القائلين واختلافهم فى محل العقل فمن قائل إن محله الدماغ ومن قائل إن محله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم فى ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه إلى البار تارة وإلى العاق أخرى والقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق فاذا رؤى فى تدبير العاق قيل مسكنه الدماغ وإذا رؤى فى تدبير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوى يهمّ بالارتفاع إلى مولاه شوقا وحنوا وتنزها

وكانت قيمة ثوبيه عشرة [١] . وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا [٢] . واشترى سراويل بثلاثة دراهم [٣] . وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف [٤] وكانت تسمى حلة لأنهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات [٥] . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم [٦] فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يارسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباج وكأنه إنما لبسه أولا تأكيدا للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه [٧] فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لأهلها الولاء [٨] فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح [٩] وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم فلما سلم قال شغلني النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته [١٠] يعني كساء ، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه فلما سلم قال أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت إليه في الصلاة

عن الأكوان ومن الأكوان القلب والنفس فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنو الولد الحنين البار إلى الوالد وتحن النفس إلى القلب الذي هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض وانزوت عروقها الضاربة في العالم السفلي وانطوى هواها وانحسمت مادته وزهدت في الدنيا وتجافت عن دار الغرور وأنابت إلى دار الخلود وقد تخلد النفس التي هي الأم إلى الأرض بوضعها الجبلي لسكونها من الروح الحيواني الجنس

دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم الحديث وإسناده ضعيف (١) حديث كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم لم أجده (٢) حديث كان إزاره أربعة أذرع ونصفا أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسلا كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي (٣) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه الشملة والبرد والحبرة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن مايكون من حلل اليمن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مايكون من الحلل وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب المعيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي وللبزار من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي (٥) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٦) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه الحديث (٧) حديث لبس يوما خاتما من ذهب [١] ثم نزعه متفق عليه وقد تقدم (٨) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لأهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٩) حديث أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث صلى في خميصة لها علم الحديث متفق عليه وقد تقدم في الصلاة.

---

[١] قول العراقي ثم نزعه الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يتكلم عليه الشارح فلينظر اهـ .

«ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال شغلني هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم (١)». «وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال: أعجبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يمقتني ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه (٢)» وعن سنان بن سعد قال حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال « انظروا ماأحسنها وماألينها قال فقام إليه أعرابي فقال يارسول الله هبها لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبخل به قال فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكة (٣)» وعن جابر « قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل فلما نظر إليها بكى وقال يافاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الأبد فأنزل الله عليه ـ ولسوف يعطيك ربك فترضى ـ (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «إن من خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويبكون سرا من خوف عذابه مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش (٥)» فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس «وقد أوصى أمته عامة باتباعه إذ قال « من أحبني فليستن بسنتي (٦)» وقال «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ (٧)» وقال تعالى ـ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ـ «وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال إن أردت اللحوق بي فاياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعي ثوبا حتى ترقعيه (٨)» وعد على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه . وقال الثوري وغيره البس من الثياب مالايشهرك عند العلماء ولايحقرك عند الجهال وكان يقول إن الفقير ليمر بي وأنا أصلي فأدعه يجوز ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولاأدعه يجوز . وقال بعضهم قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق . وقال ابن شبرمة خير ثيابي ماخدمني وشرها ماخدمته . وقال بعض السلف : البس من الثياب مايخلطك بالسوقة ولاتلبس منها مايشهرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة ثوب لله وهو مايستر العورة وثوب للنفس وهو مايطلب لينه وثوب للناس وهو مايطلب جوهره وحسنه . وقال بعضهم من رق ثوبه رق دينه

ومستندها في ركونها إلى الطبائع التي هي أركان العالم السفلي . قال الله تعالى ـ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ـ فاذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس انجذاب الولد المائل إلى الوالدة المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم وتنجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة

---

(١) حديث لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم الحديث تقدم (٢) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما الحديث تقدم (٣) حديث سنان بن سعد حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أنمار الحديث أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله وأمر أن يحاك له أخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الإحياء سيار بن سعد وهو غلط (٤) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق باسناد ضعيف (٥) حديث إن من خيار أمتي فيما آتاني الملأ الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه (٦) حديث من أحبني فليستن بسنتي تقدم في النكاح (٧) حديث عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين الحديث أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية (٨) حديث قال لعائشة إن أردت اللحوق بي فاياك ومجالسة الأغنياء

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف أول النسك الزى وفى الخبر « البذاذة من الايمان » وفى الخبر « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة فى تخات الياقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل لأوليائى لا يلبسوا ملابس أعدائى ولا يدخلوا مداخل أعدائى فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبى ذر فى بزته فجعل يتكلم فى الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب ابن عامر فشكاه إلى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرّم الله وجهه إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب فى خشونة لباسه قال هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال « إن لله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين (١) » وروى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا فقيل له أنت الأمير وتفعل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه وأمرنا أن نحتفى أحيانا (٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقيصر . وقال على كرم الله وجهه من تزيا بزى قوم فهو منهم وقال رسول الله ﷺ « إن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما أسفل من ذلك ففى النار ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا (٤) » وقال أبو سليمان الدارانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشعر من أمتى إلا مراء أو أحمق (٥) » وقال الأوزاعى لباس الصوف فى السفر سنة وفى الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة ما دعاك إلى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلك ولا تجيبنى فقال أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى أو فقرا فأشكو ربى وقال أبو سليمان لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض وكان لا يتخذ من كل شىء إلا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس

الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث نهى عن التنعم وقال إن لله عبادا ليسوا بالمتنعمين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٢) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه [١] وأمرنا أن نحتفى أحيانا أبو داود باسناد جيد (٣) حديث إن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم الحديث الطبرانى من حديث أبى أمامة باسناد ضعيف سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار أمتى وقد تقدم (٤) حديث أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه الحديث مالك وأبو داود والنسائى وابن حبان من حديث أبى سعيد ورواه أيضا النسائى من حديث أبى هريرة قال محمد بن يحيى الذهلى كلا الحديثين محفوظ (٥) حديث أبى سليمان لا يلبس الشعر من أمتى إلا مراء أو أحمق لم أجد له إسنادا .

---

[١] الإرفاه بكسر الهمزة ثم راء ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليست بتاء : التدهن والترجيل كل يوم . وقيل التوسع فى المطعم والمشرب برفهان اه .

ـ ذلك تقدير العزيز العليم ـ . وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان أين موضع العقل منك قال القلب لأنه قالب الروح والروح قالب الحياة . وقال أبو سعيد القرشى الروح روحان روح الحياة وروح الممات فاذا اجتمعا عقل الجسم وروح الممات هى التى إذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتا وروح الحياة ما به مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرها ، وقال بعضهم : الروح نسيم طيب يكون به الحياة والنفس ريح حارة تكون منها

الآخر حتى لايأتى عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لسلمان الفارسى رضى الله عنه مالك تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فاذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا ، وروى عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلى ، وقال الحسن لفرقد السبخى تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها فقلت إنك تكسى خيرا من هذا فقال ماضرهم ماأصابهم فى الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويبكى [المهم الثالث] المسكن وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات : أعلاها أن لايطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أوخص أوما يشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أوإجارة فان كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد فان طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالاضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل فى جميع ذلك وبالجملة كل مايراد للضرورة فلاينبغى أن يجاوز حدّ الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وماجاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى وأقل الدرجات فيه معلوم ومازاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطلب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شىء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد يعنى بالتدريز كف دروز الثياب فانها كانت تشلّ شلا والتشييد هو البنيان بالجصّ والآجر وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد [1] وقد جاء فى الخبر « يأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم علية كان قد علا بها [2] « ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر فذهب فهدمها فمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير [3] » وقال الحسن « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولاقصبة على قصبة [4] »

الحركات المذمومة والشهوات ويقال فلان حار الرأس وفى الفصل الذى ذكرناه قمع التنبيه بماهية النفس وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى مايظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة وهى التى تعالج بحسن الرياضة إزالتها وتبديلها والأفعال الرديئة تزال والأخلاق الرديئة تبدل . أخبرنا الشيخ العالم رضىّ الدين أحمد بن اسمعيل القزوينى قال أنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى قال أنا القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى قال أنا

---

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كف فروى الطبرانى والحاكم أن عمر قطع مافضل عن الأصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء فى الصحيحين من حديث أنس فى قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة الحديث ولهما من حديث أبى سعيد كان المسجد على عريش فوكف المسجد (٢) حديث أمر العباس أن يهدم علية له كان قد علاها الطبرانى من رواية أبى العالية أنّ العباس بنى غرفة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم اهدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بجنبذة معلاة فقال لمن هذه ؟ فقالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه الحديث أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة الحديث والجنبذة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة الحديث ابن حبان فى الثقات وأبو نعيم فى الحلية هكذا مرسلا وللطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة من سأل عنى أوسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة الحديث وإسناده ضعيف .

وقال

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين [1]» وقال عبد الله ابن عمر «مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ماهذا قلنا خص لنا قد وهى فقال أرى الأمر أعجل من ذلك [2]» واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب فقيل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من بنى فوق مايكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة [3]» وفي الخبر «كل نفقة للعبد يؤجر عليها إلا ماأنفقه في الماء والطين [4]» وفي قوله تعالى ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض ولافسادا ـ إنه الرياسة والتطاول في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم «كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنّ من حرّ أوبرد [5]» وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله «اتسع في السماء [6]» أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بجص وآجر فكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون ـ فأوقد لي ياهامان على الطين ـ يعني به الآجر ويقال إن فرعون هو أول من بنى له بالجص والآجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيته مبنيا من رهص ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان وكان منهم من إذا حج أوغزا نزع بيته أووهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة . قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدي إلى السقف ، وقال عمرو

أبو اسحق أحمد بن محمد ابن ابراهيم قال أنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفياني قال حدثنا محمد ابن الحسن اليقطيني قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي قال حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عن

ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه إنما يراد لمقصود فاذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف فى كل مايكفى فيه الخزف ولايبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح فى نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف وأعلاها أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس فان زاد فى العدد أوفى نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضى الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف(١). وقال الفضيل ماكان فراش رسول الله ﷺ إلاعباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف ، وروى وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمر فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ما الذى أبكاك ياابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقيصر وماهما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترضى ياعمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يارسول الله قال فذلك كذلك(٢)» ودخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال ياأباذر ماأرى فى بيتك متاعا ولاغير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا فقال إنه لابد لك من متاع مادمت ههنا فقال إن صاحب المنزل لايدعنا فيه ، ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضى الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ومعى جرابى أحمل فيه طعامى ومعى قصعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ومعى مطهرتى أحمل فيها شرابى وطهورى للصلاة فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى فقال عمر صدقت رحمك الله «وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها ﷺ فقال بأبى أنت قد أحسنت(٤)»

النفس لطيفة مودعة فى القالب منها الأخلاق والصفات المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة فى القلب منها الأخلاق والصفات المحمودة كما أن العين محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم والفم محل الذوق وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف المحمودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيش والثانى الشره وطيشها من جهلها وشرهها من حرصها وشبهت النفس فى طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاعباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف الترمذى فى الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع الحديث لم أره مجموعا ولأبى داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتى الباب فرأى القرام قد ضرب فى ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعلى انظر مارجعه الحديث والنسائى من حديث ثوبان باسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وفى يدها فتخ من ذهب الحديث

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه وقال « كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به إلى آل فلان[1] » وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدي العباءة الخلقة ونحي هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة[2] وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضي الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال « ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده[3] » وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه [المهم الخامس] المنكح وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات واللذة التي تلحق الانسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره إذا لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع

مصوب لا تزال متحركة بجبلتها ووضعها وشبهت في حرصها بالفراش الذي يلقي نفسه على ضوء المصباح ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذي فيه هلاكه فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر والصبر جوهر العقل والطيش صفة النفس وهواها وروحها لا يغلبه إلا الصبر إذ العقل يقمع الهوى ومن الشره يظهر الطمع والحرص وهما اللذان ظهرا في آدم حيث طمع في الخلود فحرص على أكل الشجرة وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها لأنها مخلوقة

وفيه أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وأنه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبدا فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار (١) حديث رأى على باب عائشة سترا فهتكه الحديث الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديثها (٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية الحديث ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه صوف فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل (٣) حديث أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده أحمد من حديث عائشة باسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ما ظن محمد الحديث وزاد أنفقها وفي رواية سبعة أو تسعة دنانير وله من حديث أم سلمة باسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهم [١] الوجه قالت فحسبت ذلك من وجع فقلت يا نبي الله ما لك ساهم الوجه فقال من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش وفي رواية أمسينا ولم تنفقها .

[١] ساهم بالمهملة متغير يقال سهم تغير عن حاله لعارض اهـ .

نسله فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا معناه سهل لامحالة ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لايشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن (١) فلامعنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان: الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة. وقال الجنيد رحمه الله أحب للمريد المبتدي أن لايشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب وطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفي أن لايكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا [المهم السادس] ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه: أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لايقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لامحالة في قلب خادمه لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لاعمق لها ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم فأما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان وقدر الحاجة فيه لاينضبط لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد أن لايسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن طلب المحل في القلوب لارخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره. وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه فإن كان كسوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام. هذا شرط الزهد فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نعني به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل وقد قال أبو سليمان لاينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله، نعم لاينبغي أن يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث كان لايشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن تقدم في النكاح.

من تراب ولها بحسبه وصف وقيل وصف الضعف في الآدمي من التراب ووصف البخل فيه من الطين ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون ووصف الجهل فيه من الصلصال وقيل قوله كالفخار فهذا الوصف فيه شيء من الشيطنة لدخول النار في الفخار لأن ذلك الخداع والحيل والحسد فمن عرف أصول النفس وجبلاتها عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر دواعي الحيوانية فيه بالعلم والعدل وهو

إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فاذا مايضطر الانسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع ومابينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر ومايقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه والدواء فرض تناوله ومابينهما مشتبه أمره فمن احتاط فانما يحتاط لنفسه ومن تساهل فانما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك مايريبه إلى مالايريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لامحالة ، والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لايجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة الشروط ، ويدل عليه ماروى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فأوحى الله تعالى إليه لوسألت خليلك لأعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا فأوحى الله تعالى إليه ليس الحاجة من الدنيا ، فاذن قدر الحاجة من الدين وماوراء ذلك وبال فى الآخرة وهو فى الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة فى كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه ، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه ، وربما يكونون أعداء له وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لايزال ينسج على نفسه حبا ثم يروم الخروج فلايجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فانما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراآة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلوخطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لايقدر على قطعها ولوترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا فى هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل فى قلبه معلقة بالدنيا التى فاتته وخلفها فهى تجاذبه إلى الدنيا ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين ، والذى ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لابطريق السراية إليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل مايراه من حسرة فوت النزول فى أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب . قال الله تعالى — كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم — فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ، فنسأل الله تعالى أن يقرر فى أسماعنا مانفث فى روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحبب من أحببت فانك مفارقه (١) وفى معنى ماذكرناه من المثال قول الشاعر :

رعاية طرفى الافراط والتفريط ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيمو الأخلاق المذمومة وكمال إنسانيته ويقتضاه أن لايرضى لنفسه بذلك ثم تنكشف له الأخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك فيرى أن صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف : بالطمأنينة قال — ياأيتها النفس المطمئنة — وسماها لوامة

---

(١) حديث نفث فى روعه أحبب من أحببت فانك مفارقه تقدم

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكلية حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم قالوا ماهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم قالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلايأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لامحالة يخاف من فساده والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى ـ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ـ وقال عز وجل ـ ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ـ . وقال تعالى ـ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ـ فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احملني معك في سياحتك ، فقال أخرج مالك والحقني . فقال لاأستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغني الجنة أوقال بشدة . وقال بعضهم : مامن يوم ذر شارقه إلاوأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق : ياباغي الخير هلم وياباغي الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وابنوا للخراب ، ويقول الآخر كلوا وتمتعوا لطول الحساب .

(بيان علامات الزهد)

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لايدل على الزهد دلالة قاطعة بل لابد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله . فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزهد مشكل وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لايفرح بموجود ولايحزن على مفقود كما قال تعالى ـ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ـ بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده . العلامة الثانية أن يستوي عنده ذامه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه . العلامة الثالثة أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لايخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء إذا دخل خرج الهواء ولايجتمعان وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره

قال ـ لاأقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ـ وسماها أمارة ، فقال ـ إن النفس لأمارة بالسوء ـ وهي نفس واحدة . ولها صفات متغايرة ، فاذا امتلأ القلب سكينة خلع على النفس خلع الطمأنينة لأن السكينة مزيد الإيمان وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظ اليقين وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب، وفي ذلك طمأنينتها وإذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعي طبيتها متطلعة إلى

ولذلك قيل لبعضهم إلى ماذا أفضى بهم الزهد فقال إلى الأنس بالله . فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المعرفة إذا تعلق الايمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما وإذا بطن الايمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ولهذا ورد فى دعاء آدم عليه السلام:اللهم إنى أسألك إيمانايباشر قلبى . وقال أبو سليمان من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لابد وأن يكون فى أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ولا يستدل بامساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا . قال ابن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان أكان داود الطائى زاهدا قال نعم قلت قد بلغنى أنه ورث عن أبيهعشرين دينارافأنفقها فى عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ، فقالأردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فان الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد فى جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل فى الزهد بقدر ماتركه وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لايتوسد حجرا كمافعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل فان أمثالنالايستجرىء على الطمع فى غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شئ فلا بعد فى أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال . فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لامحالة : مثل أن يترك الدنيا ولايبالى من أخذها . وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول أبنى رباطا أو أعمر مسجدا . وقال يحيى ابن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود . وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . وقالأبوسليمان : الصوفعلم من أعلام الزهد فلا ينبغى أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفى قلبه رغبة خمسة دراهم . وقال أحمد ابن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سرى : لايطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال النصراباذى : الزاهد غريب فى الدنيا والعارف غريب فىالآخرة . وقال يحيي بن معاذ : علامةالزهد ثلاث عمل بلاعلاقة وقول بلا طمع وعزبلا رياسة . وقالأيضا الزاهد لله يسعطك الخل والخردل والعارفيشمك المسك والعنبر وقال له رجل متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعدمع الزاهدين ، فقالإذا صرت منرياضتك لنفسك فىالسرإلىحدلوقطع اللهعنك الرزق ثلاثةأيام لم تضعف فى نفسك . فأما مالمتبلغهذه الدرجة فجلوسك علىبساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . وقال أيضا: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارفيشتغل باللهتعالى ولايلتفت إليها . وقال السرى مارست كل شئ من أمر الزهد فنلت منه ماأريد إلا الزهد فىالناس فانىلمأبلغه ولمأطقه . وقال الفضيل رحمه الله جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا . فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذاكان الزهد لايتم إلا بالتوكل فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى .

مقار الطمأنينة فهى لوامة لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها إلى محلها التى كانت فيه أمارة بالسوء ، وإذا أقامت فى محلها لا يغشاها نور العلم والمعرفة فهى على ظلمتها أمارة بالسوء فالنفس والروح يتطاردان ، فتارة يملك القلب دواعى الروح ، وتارة يملكه دواعى النفس . وأما السر فقد أشار القوم إليه ووجدت فى كلام القوم أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح ، ومنهم من جعله بعد

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

(وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مدبر الملك والملكوت المنفرد بالعزة والجبروت الرافع للسماء بغير عماد المقدر فيها أرزاق العباد الذى صرف أعين ذوى القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ورفع هممهم عن الالتفات إلى ماعداه والاعتماد على مدبر سواه فلم يعبدوا إلا إياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها ومامن دابة إلا على الله رزقها فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قامع الأباطيل الهادى إلى سواء السبيل وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فان التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين بل هو من معالى درجات المقربين وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل وانغماس فى غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ولايقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالاعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى .

(بيان فضيلة التوكل)

أما من الآيات فقد قال تعالى ـ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ـ وقال عز وجل ـ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ـ وقال تعالى ـ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ـ وقال سبحانه وتعالى ـ إن الله يحب المتوكلين ـ وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فان المحبوب لايعذب ولايبعد ولا يحجب وقال تعالى ـ أليس الله بكاف عبده ـ فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية فانه سؤال فى معرض استنطاق بالحق كقوله تعالى ـ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ـ وقال عز وجل ـ ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم ـ أى عزيز لايذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى ـ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ـ بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى ـ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ـ وقال عز وجل ـ ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون ـ وقال عز وجل ـ يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ـ وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار . وأما الأخبار : فقد قال

الرّوح وأعلى منها وألطف وقالوا السرّ محلّ للمشاهدة والرّوح محل المحبة . والقلب محل المعرفة والسرّ الذى وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور فى كتاب الله وإنما المذكور فى كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها والقلب والفؤاد والعقل وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ورأينا الاختلاف فى القول فيه وأشار قوم إلى أنه دون الروح وقوم إلى أنه ألطف من الروح فنقول والله أعلم : الذى سموه سرا ليس هو بشىء مستقل بنفسه

صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود «أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيأتهم فقيل لي أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل: من هم يارسول الله؟ قال الذين لايكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال: يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال: يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم: سبقك بها عكاشة[1]» وقال صلى الله عليه وسلم «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا[2]» وقال صلى الله عليه وسلم «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها[3]» وقال صلى الله عليه وسلم «من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه[4]» ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول: بهذا أمرني ربي عز وجل قال عز وجل ـ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ـ[5]» الآية وقال ﷺ «لم يتوكل من استرقى وا كتوى[6]» وروى أنه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما اليك فلا وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى ـ وإبراهيم الذي وفى ـ وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداود مامن عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا. وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغتني عقرب فأقسمت على أمي لتسترقين فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى ـ وتوكل على الحي الذي لايموت ـ إلى آخرها فقال ماينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى. وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولاتنال من الدنيا إلا ماقد كتب الله لك. وقال يحيى بن معاذ في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد. وقال إبراهيم ابن أدهم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني. وقال هرم ابن حيان لأويس القرني أين تأمرني أن أكون فأومأ إلى الشام قال هرم كيف المعيشة قال أويس أف

له وجود وذات كالروح والنفس وإنما له صفت النفس وتركت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس فأخذ في العروج إلى أوطان القرب وانتزح القلب عند ذلك عن مستقره متطلعا إلى الروح فاكتسب وصفا زائدا على وصفه فانعجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سرا ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح اكتسب الروح وصفا زائدا في عروجه وانعجم على الواجدين فسموه سرا والذي زعموا أنه ألطف من الروح روح

---

(١) حديث ابن مسعود أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل الحديث رواه ابن منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس (٢) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر وقد تقدم (٣) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٥) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي قال تعالى ـ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ـ الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه (٦) حديث لم يتوكل من استرقى وا كتوى الترمذي وحسنه والنسائي في الكبير والطبراني واللفظ له إلا أنه قال أو ومن حديث المغيرة بن شعبة وقال الترمذي من ا كتوى أو استرقى فقد برىء من التوكل وقال النسائي ماتوكل من ا كتوى أو استرقى.

لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

(بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل)

اعلم أن التوكل من أبواب الايمان وجميع أبواب الايمان لاتنتظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل . فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل وهو المسمى إيمانا فى أصل اللسان إذ الايمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوى سمى يقينا ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ماتنبنى عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك : لاإله إلاالله وحده لاشريك له والايمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك: له الملك والايمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك : وله الحمد فمن قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير تم له الايمان الذى هو أصل التوكل أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولايتم علم المعاملة إلا بها فاذن لاتتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة والافالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له فنقول: للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر وإلى قشر القشر ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الأولى من التوحيد هى أن يقول الانسان بلسانه لاإله إلاالله وقلبه غافل عنه أومنكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لايرى فى الوجود إلا واحدا وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لايرى إلا واحدا فلايرى نفسه أيضا وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق فالأول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلما وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لاتنحل عقدته والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا إذ انكشف له الحق كما هو عليه ولايرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هى عليه لا لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فان تلك رتبة العوام والمتكلمين إذلم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد فلايرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا من الجوز لاخير فيها بل إن أكل فهو مر المذاق وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر وإن أخذ

متصفة بوصف أخص مما عهدوه والذى سموه قبل الروح سرا هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه وفى مثل هذا الترقى من الروح والقلب ترقى النفس إلى محل القلب وتنخدع من وصفها فتصير نفسا مطمئنة ترتد كثيرا من مرادات القلب من قبل اذعار القلب يريد مايريد مولاه متبرئا عن الحول والقوة والارادة والاختيار وعندها ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حرا عن إرادته واختياراته وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة والبصيرة للروح بمثابة

حطبا أطفأ النار وأكثر الدخان وإن ترك فى البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى بعنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هى القلب والبدن وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا فانها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى ـ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ـ وبقوله عز وجل ـ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ـ وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالاضافة إلى القشر وكله المقصود ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق.

فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا. فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشىء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه فى عين الجمع والملتفت إلى الكثرة فى تفرقة فكذلك كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخر سواه كثير وبعضها أشد كثرة من بعض ومثال الانسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك وهذه المشاهدة التى لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور فى الأسفار فقال فيماذا أنت فقال أدور فى الأسفار لأصحح حالى فى التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد أفنيت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الاجمال.

فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه. فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض فى بيانه وليس التوكل أيضا مبنيا عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول وهو النفاق فواضح. وأما الثانى وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل

القلب والعقل بمثابة اللسان وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال له اقعد فقعد ثم قال له انطق فنطق ثم قال له اصمت فصمت فقال وعزتى وجلالى وعظمتى وكبريائى وسلطانى وجبروتى ما خلقت خلقا أحب إلىّ منك ولا أكرم علىّ منك بك أعرف وبك أحمد وبك أطاع وبك آخذ وبك أعطى وإياك أعاتب ولك الثواب وعليك العقاب وما أكرمتك

المبتدعة فيه مذكور فى علم الكلام وقد ذكرنا فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر الذى أهم منه . وأما الثالث : فهو الذى يبنى عليه التوكل إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لايورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذى يرتبط التوكل به دون تفصيله الذى لايحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله أن ينكشف لك أن لافاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لاشريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخرون لااستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين: أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثانى الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الغيم فى نزول المطر وعلى البرد فى اجتماع الغيم وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك فى التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى ـ فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ـ قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهى إلى المحرك الأول الذى لامحرك له ولاهو متحرك فى نفسه عز وجل فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لامن محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لاحكم له فى نفسه وإنما هو مسخر فى يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة كتسخير القلم فى يد الكاتب بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى ـ ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ـ فاذا انكشف لك أن جميع مافى السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأتاك فى المهلكة الثانية وهى الالتفات إلى اختيار الحيوانات فى الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك فكيف لاتخافه وكيف لاترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولاتشك فيه ويقول له أيضا ، نعم إن كنت لاترى القلم لأنه مسخر فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له وعند هذا زل أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لوكانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للاسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف فى الطريق

شئ أفضل من الصبر » وقال عليه السلام « لايعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ماعقده عقله » وسألت عائشة رضى الله عنها النبى صلى الله عليه وسلم قالت قلت يارسول الله بأى شئ يتفاضلون الناس ؟ قال بالعقل فى الدنيا والآخرة قالت قلت أليس يجزى الناس بأعمالهم ؟ قال ياعائشة وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر مايعملون يجزون » وقال عليه السلام « إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى وصلاته

على

على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض بقدرته التى بها نطق كل شئ حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لا يجاوز الأصوات فان الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربى ولا عجمى . فان قلت فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لى كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز . فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له ـ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر ـ الآية ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت وإفشاء السر لؤم بل صدور الأحرار قبور الأسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوجى بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق ولو جاز إفشاء كل سر لما قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (١)» بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون . ولما نهى عن إفشاء سر القدر (٢). ولما قال «إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا (٣)» ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار (٤). فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان : أحدهما استحالة إفشاء السر . والثانى خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ولكنا فى المثال الذى كنا فيه وهى حركة القلم نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هى حروفا وأصواتا ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما أنصفتنى فى هذه المقالة فانى ما سودت وجهى بنفسى ولكن سل الحبر فانه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا فقال صدقت فسأل الحبر عن ذلك فقال ما أنصفتنى فانى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا على فقال صدقت ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه فقال سل اليد والأصابع فانى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار متنزها بين خضرة الأشجار فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ومزقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى وفصلت بين أنابيبى ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى فى سواد الحبر ومرارته وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك فتنح عنى وسل من قهرنى فقال صدقت ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة فهى التى ترددنى

لا تعدل جناح بعوضة وإن الرجل ليأتى المسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلا قيل وكيف يكون أحسنهما عقلا ؟ قال أورعهما عن محارم الله وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه فى العمل والتطوع» . وقال : عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتا فان الرجلين يستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب أحد» وروى عن وهب بن

---

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النهى عن إفشاء سر القدر ابن عدى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره ألفظ أبى نعيم وقال ابن عدى لا تكلموا فى القدر فانه سر الله الحديث وهو ضعيف وقد تقدم (٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وتقدم فى العلم (٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار تقدم .

وتجول بى فى نواحى الأرض أما ترى الدر والحجر والشجر لايتعدى شىء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر أماترى أيدى الموتى تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ثم لامعاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لامعاملة بينى وبين القلم فسل القدرة عن شأنى فإنى مركب أزعجنى من ركبنى فقال صدقت ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومى ومعاتبتى فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لاذنب له وكيف خفى عليك أمرى وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولاأستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى ميتة أو معدومة لأنى ما كنت أتحرك ولاأحرك حتى جاءنى موكل أزعجنى وأرهقنى إلى ماتراه منى فكانت لى قوة على مساعدته ولم تكن لى قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الارادة ولاأعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزعجنى من غمرة النوم وأرهقنى إلى ماكان لى مندوحة عنه لوخلانى ورأيى فقال صدقت ثم سأل الارادة ماالذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولامناصا فقالت الارادة لاتعجل على فلعل لنا عذرا وأنت تلوم فإنى ماانتهضت بنفسى ولكن أنهضت ومانبعثت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار فإنى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولاأدرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكنى أدرى أنى فى دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما بل لايبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى مادام هو فى التردد مع نفسه والتحير فى حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأنى ودع عنى عتابك فإنى كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا   أن لاتفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لإشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ماشتعلت بنفسى ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقشت فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وماانخططت بنفسى فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى فسل القلم عنى لأن الخط لايكون إلا بالقلم فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال قدطال تعبى فى هذا الطريق وكثرت منازلى ولايزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ولكنى كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال فأما قولك إنى خط ونقش وإنما خطنى قلم فلست أفهمه فإنى لاأعلم قلما إلا من القصب ولالوحا إلا من الحديد أو الخشب ولاخطا إلا بالحبر ولاسراجا إلا من النار وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولاأشاهد من ذلك شيئا أسمع جعجعة ولاأرى طحنا فقال له القلم إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف . واعلم أن المهالك فى الطريق التى توجهت إليها كثيرة فالصواب لك أن تنصرف وتدع ماأنت فيه فما هذا بعشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق إلى القصد فألق سمعك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم فى طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت

منبه أنه قال إنى أجد فى سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا . واختلف الناس فى ماهية العقل والكلام فى ذلك يكثر ولا نؤثر نقل الأقاويل وليس ذلك من غرضنا فقال قوم : العقل من العلوم فإن الخالى من جميع العلوم لايوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فإن من

تلك للنازل على سهولة والثانى عالم الملكوت وهو ورائى فاذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله وفيه المهامه والفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا أدرى كيف تسلم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل فى أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التى هى فى الحركة بين الأرض والماء فلاهى فى حد اضطراب الماء ولاهى فى حد سكون الأرض وثباتها وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى فى عالم الجبروت فان انتهى إلى أن يمشى على الماء من غير سفينة مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع فان كنت لاتقدر على المشى على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافى وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام «لو ازداد يقينا لمشى على الهواء»[1] لما قيل له إنه كان يمشى على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبى خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامه التى وصفتها أم لا فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فان ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم فى أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ـ اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ـ فقال السالك لقد فتحت بصرى وحدقته فوالله ماأرى قصبا ولا خشبا ولا أعلم قلما إلا كذلك فقال العلم لقد أبعدت النجعة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لاتشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الأيدى ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدى ولاقلمه من قصب ولالوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولاخطه رقم ورسم ولاحبره زاج وعفص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات وأخذت تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى ـ إنى أنا ربك ـ فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور فقال له العلم اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهى

شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل فهو إذن من العلوم الضرورية وليس هو جميعها فان صاحب الحواس المختلة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية. وقال بعضهم العقل ليس من أقسام العلوم لأنه لوكان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لايتصف بكونه عاقلا ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلا وقالوا هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم . ونقل عن الحرث بن أسد المحاسبى وهو من أجل المشايخ أنه قال

(١) حديث قيل له إن عيسى يمشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء تقدم .

فاذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه ماهو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له فى كل قلب رأسا ولا رأس له فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عنى خيرا إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم فانى أراه قلما لا كالأقلام فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فسافر إليه وقال له: مابالك أيها القلم تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ماتبعث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات فقال أوقد نسيت مارأيت فى عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابى مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فانى فى قبضته وهو الذى يردّدنى وأنا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم الآدمى فى معنى التسخير وإنما الفرق فى ظاهر الصورة فقال فمن يمين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى ـ والسموات مطويات بيمينه ـ قال نعم قال والأقلام أيضا فى قبضة يمينه هو الذى يردّدها فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه مايزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شىء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ويد لا كالأيدى وأصبع لا كالأصابع فرأى القلم محركا فى قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابى مثل ماسمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة وهى الحوالة على القدرة إذ اليد لا حكم لها فى نفسها وإنما محركها القدرة لامحالة فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ماقبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة ـ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ـ فغشيته هيبة الحضرة فخرّ صعقا يضطرب فى غشيته فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ومالى إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك فأقول: اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لسانى لأثنى عليك فنودى من وراء الحجاب إياك أن تطمع فى الثناء وتزيد على سيد الأنبياء بل ارجع إليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه وماقاله لك فقله فانه مازاد فى هذه الحضرة على أن قال « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) » فقال إلهى إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع فى معرفتك فنودى إياك أن تتخطى رقاب الصديقين فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به فان أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الإدراك إدراك فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذرى فانى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد ولكل داخل دهشة فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صح عندى عذركم وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون فى قبضته وهو الأول والآخر والظاهر والباطن فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الأول والآخر وهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالأول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن فقال هو الأول بالاضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الآخر

(١) حديث سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم وعلى هذا يتقرر ماذكرناه فى أول ذكر العقل : أنه لسان الروح لأن الروح من أمر الله وهى المتحملة للأمانة التى أبت السموات والأرضون أن يحملنها ومنها يفيض نور العقل وفى نور العقل تتشكل العلوم فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب وهو صفته منكوس متطلع إلى النفس تارة ومنتصب مستقيم تارة فمن كان العقل فيه منكوسا إلى النفس فرقه فى أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق

بالاضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لايزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود وهو باطن بالاضافة إلى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ظاهر بالاضافة إلى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد . فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتنى على الايمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له إنكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لاتدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال وأنا منهم فانى لا أهتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق به فلعلنا نراه فى المنام ، فان قال وأنا من جملتهم فانى شاك أيضا فى المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك أياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء. هذا حكم الجاحد . وأما الذى لا يجحد ولكن لايفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة فى الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الازالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فان فى عالم الشهادة أيضا توحيدا إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فيقال له على حد عقله إله العالم واحد والمدبر واحد إذ لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق ما رآه فى عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عادتهم فى المحاورة . فان قلت. فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف فى إثارة الأحوال إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شئ من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا كما أن الذى يرى إنسانا فى وقت الإسفار لايزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامرى فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون ـ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ـ بل ـ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ـ فان البيان والكشف يمنع التغير . وأما أصحاب السامرى لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان فلما نظروا إلى عجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله ـ هذا إلهكم وإله موسى ـ ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر

الاهتداء ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب واهتدى إلى المكون ثم عرف الكون بالمكون مستوفيا أقسام المعرفة بالمكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكما أحب الله إقباله فى أمر دله على إقباله عليه وما كرهه الله فى أمر دله على الادبار عنه فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغى . قال بعضهم : العقل على

إلى ثعبان يكمر لامحالة إذا نظر إلى عجل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لاتجد فيه اختلافا وتضادا أصلا . فان قلت ماذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا فى حركات الانسان فانه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخرا . فاعلم أنه لوكان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ولايشاء إن لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه إذ لوكانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية وإذا لم تكن المشيئة اليه فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لامحالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة القدرة فهو مضطر فى الجميع . فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لاتنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا . فأقول لوانكشف الغطاء لعرفت أنه فى عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لايفهم الاختيار ، فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متطفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم تقصد به إلا علم المعاملة ، ولكنى أقول لفظ الفعل فى الانسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الانسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق فى الماء والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك فى أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمى تنفسه فعلا إراديا ونسمى كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لامحالة فيكون الخرق بعد التخطى ضروريا والتنفس فى معناه فان نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل اليه وكذلك الارادة ليست اليه ، ولذلك لوقصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارا ولوأراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض الأجفان اضطرارا فعل إرادى ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة فى مشاهدته بالادراك حدثت الارادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولوأراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والارادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعى فى كونه ضروريا . وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لايشاء فيظن من هذا أن الأمر اليه وهذا الجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، وبيانه أن الارادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشىء موافق لك والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد وإلى ماقد يتردد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بإبرة أو بدنك بسيف فلايكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك وموافق فلاجرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة الأجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالارادة ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلايدرى أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك فاذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان فاذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل

أنه

ضربين ضرب يبصر به أمر دنياه وضرب يبصر به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح والعقل الثانى من نور الهداية فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم والعقل الثانى موجود فى الموحدين مفقود من المشركين . وقيل إنما سمى العقل عقلا لأن الجهل ظلمة فاذا غلب النور بصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقالا للجهل ، وقيل عقل الإيمان مسكنه فى القلب ومتصله فى الصدر بين عينى الفؤاد والذى ذكرناه من كون العقل لسان

أنه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا من الخير أى هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الارادة ولم ينتظر فى انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الارادة وهو ظهور خيرية الفعل فى حقه إلا أن الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهى التى انبعثت باشارة العقل فيما له فى إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبعث الارادة إلا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الانسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لا لعدم القدرة فى اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة وإنما فقدت الارادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقا وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان فى عقوبة مؤلمة لا تطاق فان العقل هنا يتوقف فى الحكم ويتردد لأن تردده بين شر الشرين فان ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وان حكم بأن القتل أقل شرا وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الارادة والقدرة وأهلك نفسه كالذى يتبع بالسيف للقتل فانه يرمى بنفسه من السطح مثلا وإن كان مهلكا ولا يبالى ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فان كان يتبع بضرب خفيف فان انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمى فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبعث له داعية البتة لأن داعية الارادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدرى فانما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلا ولا فاذن معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختارا أنه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم أيضا جبرا فاذا هو مجبور على الاختيار ففعل النار فى الاحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنه لما كان فنا ثالثا واتبعوا فيه كتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد فان ذلك فى حقه محال وجميع الألفاظ المذكورة فى اللغات لا يمكن أن تستعمل فى حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه. فان قلت فهل تقول إن العلم ولد الارادة والارادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وأن كل متأخر حدث من المتقدم. فان قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شىء لا من قدرة الله تعالى وان أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض. فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأصل الذى لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون فى العلم فانهم وقفوا على كنه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك فى سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا وإلى هذا أشار قوله تعالى ـ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ـ وقوله تعالى ـ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما

الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء فى مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضىء بنور الشرع لأن انتصابه واعتداله هداه إلى الاستضاءة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبى المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الالهية ومكاشفة بصيرته التى هى للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل والتى

لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ـ فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذى وجد فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ولا تتأخر عنها الارادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس فى شئ من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتدبير وتفهيم ذلك عسير ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة وذلك بأن تقدر إنسانا محدثا قد انغمس فى الماء إلى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء عمل الماء فى سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيبه إذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه مالم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فاذن غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهى ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى لها لا بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شئ ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغى أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد فى الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك فى عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوى تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤنته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين فى العلم فكيف عند غيرهم . فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم . فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذى خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الارادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا لأن القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمى فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال فى القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى فى الموت ـ قل يتوفاكم ملك الموت ـ ثم قال عز وجل ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها ـ وقال تعالى ـ أفرأيتم ما تحرثون ـ أضاف إلينا ثم قال تعالى ـ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا ـ وقال عز وجل ـ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ـ ثم قال تعالى ـ فنفخنا فيها من روحنا وكان النافخ جبريل عليه السلام

يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرا كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من جمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التى هى من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر

السلام وكما قال تعالى ـ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ـ قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل ، وقال تعالى ـ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ـ فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى ـ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ـ وقال تعالى ـ ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ـ وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه ومارميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى ـ الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ـ ثم قال ـ الرحمن علم القرآن ـ وقال ـ علمه البيان ـ وقال ـ ثم إن علينا بيانه ـ وقال ـ أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ـ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام «إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا ، فيقول يارب أذكرأم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك [1]» وفي لفظ آخر «ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أوبالشقاوة» . وقدقال بعض السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا وماذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلايمكن أن يعلم إلابالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال ـ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ـ . وقال ـ شهد الله أنه لاإله إلاهو ـ فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى ـ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ـ وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين ففي الخبر «أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت أناأميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أناأحيي الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وماسخرتكما له من الصنع وأناالمميت والمحيي لايميت ولايحيي سواي [2]» فاذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلاتتناقض هذه المعاني إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة «خذها لولم تأتها لأتتك [3]» أضاف الاتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لاتأتي على الوجه الذي يأتي الانسان إليها وكذلك لما قال التائب أتوب إلى الله تعالى ولاأتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم «عرف الحق لأهله [4]»

والعقول دون الجامدين على مجرد العقول دون البصائر وقدقال بعضهم إن العقل عقلان عقل للهداية مسكنه في القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد والعقل الآخر مسكنه في الدماغ ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد فبالأول يدبر أمر الآخرة ، وبالثاني يدبر أمر الدنيا والذي ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة دبر الأمرين وإذا تفرد دبر أمرا واحداوهو أوضح وأبين ، وقد ذكرنا في أول الباب من تدبيره للنفس الطمئنة والأمارة

(١) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا الحديث البزار وابن عدي من حديث عائشة إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره فما من شيء إلاوهو يخلق معه في الرحم وفي سنده جهالة وقال ابن عدي إنه منكر ، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه (٢) حديث إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أناأميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الأموات فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما الحديث لم أجدله أصلا (٣) حديث قال للذي ناوله التمرة خذها لولم تأتها لأتتك ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح (٤) حديث إنه قال للذي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد عرف الحق لأهله تقدم في الزكاة .

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز والمستعير فى كلامه وللتجوّز وجه كما أن للحقيقة وجها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فانه مجاز بالاضافة إلى نسبته إلى الجلاد فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعته أيها اللغوى للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أى تتجوز به عما وضعه اللغوى له ولما جرى حقيقة للمعنى على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: * ألا كل شئ ماخلا الله باطل * (١)» أى كل مالا قوام له بنفسه وإنما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذن لا حق بالحقيقة إلا الحى القيوم الذى ليس كمثله شئ فانه قائم بذاته وكل ماسواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يامسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان. فان قلت قد ظهر الآن أن الكل جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه. فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه فى كتاب الشكر فلا نطول باعادته فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالايمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب والايمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا الايمان أيضا باب عظيم من أبواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ماتحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلى به ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ماخلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر مارأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ماقسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ماينبغى وكما ينبغى وبالقدر الذى ينبغى وليس فى الامكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الالهية بل كل فقر وضر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالاضافة إلى شخص فهو نعيم بالاضافة إلى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة ولولا النار

ما يتنبه الانسان به إلى كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة ومنفردا بوصفه تارة والله الملهم للصواب.

[الباب السابع والخمسون فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها]

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال أخبرنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال أنا هناد قال أنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود

(١) حديث أصدق بيت قالته العرب بيت لبيد: * ألا كل شئ ماخلا الله باطل * متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ قاله الشاعر وفى رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب

لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكما أن فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل ومالم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذلك الأمر في التفاوت الذى بين الخلق فى القسمة فى الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب فى السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضى به وقد كان ماقضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولنقتصر على هذه الرامز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشطر الثانى من الكتاب : فى أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ماقاله الشيوخ فى حد التوكل وبيان التوكل فى الكسب للمنفرد والمعيل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل فى دفع الضار وبيان التوكل فى إزالة الضرر بالتداوى وغيره والله الموفق برحمته .

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وإنما العلم أصله والعمل ثمرته وقد أكثر الخائضون فى بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة فى النقل والاكثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أى فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكول إليه وكيلا ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل فى الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شىء أصلا وأما القدرة والقوة فليستجرئ على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحى ولا يجبن فانه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهى أيضا من القدرة إلا أنها قدرة فى اللسان على الافصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس وأما منتهى الشفقة فيكون باعثا له على بذل كل مايقدر عليه فى حقه من المجهود فان قدرته لا تغنى دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا فى هذه الأربعة أو فى واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه فى هذه الأربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله بل بقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور

رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ ـ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ـ » وإنما يتطلع إلى معرفة الفتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلى ذلك تشوف العطشان إلى الماء لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه

وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر فلاجرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمأنينة والثقة تفاوتا لا ينحصر إلى أن ينتهى إلى اليقين الذى لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا وأقواهم بيانا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فاذا عرفت التوكل فى هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فان ثبت فى نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق فى التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فان الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فان كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين إما ضعف اليقين باحدى هذه الخصال الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له عن غير نقصان فى اليقين فان من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقنا بكونه ميتا وأنه جماد فى الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادرا عليه كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذى فى يده حية ولا يقلب السنور أسدا وإن كان قادرا عليه ومع أنه لا يشك فى هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت فى فراش أو الميت معه فى البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن فى القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الانسان عن شئ منه وإن قل وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فاذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون فى القلب شئ واليقين شئ آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لابراهيم عليه السلام ـ أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ـ فالتمس أن يكون مشاهدا إحياء الميت بعينه ليثبت فى خياله فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين فى ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة وذلك لا يكون فى البداية أصلا وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب فان اليهودى مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصرانى ولا يقين لهم أصلا وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه فاذن الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها فهى أحد الأسباب التى تضاد حال التوكل كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب فى التوراة ملعون من ثقته إنسان مثله وقد قال ﷺ «من استعز بالعبيد أذله الله تعالى (١)» وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التى سميت توكلا فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات :

وفساده ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة صفو اليقين ومنح الموقنين وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به فى طريقهم ومن أخذ فى طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ ومن الله الكريم من هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطاع إلى معرفة اللتين ولا يهتم بتمييز الخواطر ومن الخواطر ما هى رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم لى قلب إن عصيته

(١) حديث من اعتز بالعبيد أذله الله العقيلى فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث عمر أورده العقيلى فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموى . وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال يخالف فى روايته .

الدرجة الأولى : ماذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل . الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها فاذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فانها مفزعه فانه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه ولكن كل ذلك وراء الادراك فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلا حقا فان الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد فنى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى المتوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله لأن له التفاتا إلى توكله وشعورا به وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الأماني قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة : وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذي قوي يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجري عليه ويفارق الصبي فان الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطي ابتداء أفضل مما يسئل فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط . فان قلت فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثاني والثالث أعزها والأول أقرب إلى الامكان ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجل فان انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . فان قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأسا مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه باشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضا توكله عليه إذ ليس هو فزعا منه

عصيت الله وهذا حال عبد استقام قلبه واستقامة القلب اطمأنينة النفس وفي طمأنينة النفس يأس الشيطان لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه لأن صفاء القلب محفوف بالذكر والرعاية وللذكر نور يتقيه الشيطان كاتقاء أحدنا النار . وقد ورد في الخبر « إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فاذا ذكر الله تعالى تولى وخنس وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه » وقال الله تعالى ـ ومن يعش عن ذكر

إلى حول نفسه وقوته فى إظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له فى قوله لما حضر فقوله وأما المعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الخصم إلا من السجل فتمام توكله إن كان متوكلا عليه أن يكون معولا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته فاذن لا يستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى إحضار السجل ولو ترك شيئا من ذلك كان نقصا فى توكله فكيف يكون فعله نقصانا فيه ، نعم بعد أن حضر وفاء باشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظرا إلى محاجته فقد ينتهى إلى المقام الثانى والثالث فى حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته اذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه إلى حوله وقوته فى الحضور واحضار السجل باشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجرى وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال فى التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضا مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتى تفصيله فى الأعمال فاذا فزع المتوكل إلى حوله وقوته فى الحضور والاحضار لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلا وتعبا محضا بلا جدوى فاذن لا يصير مفيدا من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جعله معتمدا لمحاجته وعرفه ذلك باشارته وسنته فاذن لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها فى حق الوكيل لأنه ليس خالقا حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيدين فى أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإنما يصدق ذلك فى حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق فى التوحيد وهو الذى جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقا وصدقا فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذى وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله[1] وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها وهيهات فانما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التى ذكرناها فى التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى إذ فى هذه الكلمة إضافة شيئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالاضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين وإلى اللبين الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة [2]» وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والاخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الايمان والعمل الصالح فى بعض المواضع وأضافها إلى مجرد الايمان فى بعض المواضع والمراد به المقيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث نفس وإنما الصدق والإخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم فى الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهى إلى الملك أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر فى سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال ـ على

الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ـ وقال الله تعالى ـ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ـ فبالتقوى وجود خالص الذكر وبها ينفتح بابه ولا يزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره ثم يحميها من الفضول وما لا يعنيه فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ثم تنتقل تقواه إلى باطنه ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره ثم من الفضول حتى يتقى حديث النفس قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصى حديث النفس ويرى الإصغاء

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله تقدمت فى الدعوات (٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة الطبرانى من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ـ ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد على ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والحور العين وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم وهى مسيبة فى الرياض متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة فى سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين فى أعلى عليين هيهات هيهات ماأبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون فى درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى أن شبه كل شئ منجذب إليه وأن النفس التى نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة فهو بالأساكفة أشبه فى جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم ـ أولئك كالأنعام بل هم أضل ـ وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس فى قوتها طلب درجة الملائكة فتركها الطلب للعجز ، وأما الانسان ففى قوته ذلك والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال. وإذا كان هذا كلاما معترضا فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول لا إله إلا الله ومعنى قول لاحول ولاقوة إلا بالله وأن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل . فان قلت ليس فى قولك لاحول ولاقوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله فلو قال قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول. لا، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولامساواة بين الدرجتين ولاينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوزا فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر فى الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره فهى مهلكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا وهو شرك فى التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لاحول ولاقوة إلا بالله وقد ذكرنا أنه ليس فى التوحيد إلا عقبتان. إحداهما: النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات. والثانية: النظر إلى اختيار الحيوانات وهى أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التى هذه الكلمة ترجمتها فاذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان ما قاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليتبين أن شيئا منها لايخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى الديلى قلت لأبى يزيد ماالتوكل؟ فقال ماتقول أنت قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ماتحرك لذلك سرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فاذ ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وماذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وأن مافعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار

إلى ماتحدث به النفس ذنبا فيتقيه ويتقد القلب عند هذا الاتقاء بالذكر اتقاد الكواكب فى كبد السماء ويصير القلب سماء محفوظا بزينة كواكب الذكر فاذا صار كذلك بعد الشيطان ومثل هذا العبد يندر فى حقه الخواطر الشيطانية ولماته ويكون له خواطر النفس ويحتاج الى أن يتقيها ويميزها بالعلم لأن منها خواطر لا يضر إمضاؤها كمطالبات النفس بحاجاتها وحاجاتها تنقسم إلى الحقوق والحظوظ ويتعين التميز عند ذلك واتهام النفس بمطالبات

وأهل الجنة بالاضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطا في المقام الأول من التوكل فقد احترز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سد منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه وإنما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه والنظر في هذا مجال ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فان حركة السر من الحيات هو الخوف وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله فان احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال خلع الأرباب وقطع الأسباب فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الايمان بسعة القدرة وأن في المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك فالأول عام للمقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سببا يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو المتولي لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز . وقال أبو سعيد الخراز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير إلى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به واضطراب بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن إلى وعده والمسلم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالاضافة إلى المنظور اليه فان العلم هو الأصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلا نطول بها فان الكشف أنفع من الرواية والنقل فهذا ما يتحقق بحال التوكل والله الموفق برحمته ولطفه .

الحظوظ وقال الله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ـ أي فتثبتوا وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة حيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق فكذب عليهم ونسبهم إلى الكفر والعصيان حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم ثم بعث خالدا إليهم فسمع أذان المغرب والعشاء ورأى ما يدل على كذب الوليد بن عقبة فأنزل الله تعالى الآية في ذلك فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر وصار ذلك تنبيها من الله عباده على التثبت

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يثمر الأعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل نكشف الغطاء عنه ونقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضار قد نزل به

(١) حديث إن أبا بكر سد منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم .

كالتداوى من المرض فمقصود حركات العبد لاتعدو هذه الفنون الأربعة وهو جلب النافع أوحفظه أودفع الضار أوقطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

[الفن الأول : فى جلب النافع] فنقول فيه : الأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لاتثق النفس به ثقة تامة ولاتطمئن إليه . الدرجة الأولى: المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لايختلف كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعى ومد اليد إليه سعى وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل فى شئ فانك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز أو يخلق فى الخبز حركة إليك أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لولم تزرع الأرض وطمعت فى أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أوتلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولايمكن إحصاؤه فليس التوكل فى هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم . فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذى يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لاعلى اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال وتفلج ، وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك فى الحال مايزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ، وكيف تعول على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلابفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول فاذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فانه متوكل . الدرجة الثانية : الأسباب التى ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لاتحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادى التى لايطرقها الناس إلانادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا فى التوكل بل استصحاب الزاد فى البوادى سنة الأولين ، ولايزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لاعلى الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فان قلت : فهذا سعى فى الهلاك وإلقاء النفس فى التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قدراض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا ومايقاربه بحيث يصبر عنه بلاضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر فى ذكر الله تعالى . والثانى أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ومايتفق من الأشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين لايخلو فى غالب الأمر فى البوادى فى كل أسبوع عن أن يلقاه آدمى أو ينتهى إلى حلة أوقرية أو إلى حشيش يجتزئ به فيحيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لاتفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول . هذا لايقدح فى التوكل . وسببه أنه علم أن البوادى لايكون الماء فيها على وجه الأرض وماجرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلوولاحبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو فى البوادى كما يغلب وجود الحشيش والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه فى كل يوم أويومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لايصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام

فى الأمور قال سهل فى هذه الآية الفاسق الكذاب والكذب صفة النفس لأنها تملى أشياء وتقول أشياء على غير حقائقها فتعين التثبت عند خاطرها وإلقائها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت ولايستفزه الطبع ولايستعجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها وإظهار الفقر والفاقة إليه والاعتراف

وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولايوجد المقراض والإبرة فى البوادى غالبا عند كل صلاة ولايقوم مقامهما فى الخياطة والقطع شئ مما يوجد فى البوادى فكل ما فى معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لأنه يحتمل أن لايتخرق الثوب أويعطيه إنسان ثوبا أويجد على رأس البئر من يسقيه ولايحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا إلى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثانى فى معنى الأول ولهذا نقول لوانحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لاماء ولاحشيش ولايطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع فى هلاك نفسه كما روى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام فى سفح جبل سبعا وقال لاأسأل أحدا شيئا حتى يأتينى ربى برزقى فقعد سبعا فكاد يموت ولم يأته رزق فقال يارب إن أحييتنى فأتنى برزقى الذى قسمت لى وإلا فاقبضنى إليك فأوحى الله جل ذكره إليه وعزتى لأرزقنك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس فدخل المصر وقعد فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب وأوجس فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا أماعلمت أنى أن أرزق عبدى بأيدى عبادى أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتى فاذن التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لايناقض التوكل كما ضربناه مثلا فى الوكيل بالخصومة من قبل ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب أهو حرام أومباح أومندوب . فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة فى البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لايبعد أن يأتيه الرزق من حيث لايحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن إلى أن يتفق ولكن لوأغلق باب البيت على نفسه بحيث لاطريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولامتطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولايهتم برزقه فان الرزق يأتيه لامحالة وعند هذا يصح ماقاله بعض العلماء وهو أن العبد لوهرب من رزقه لطلبه كما لوهرب من الموت لأدركه وأنه لوسأل الله تعالى أن لايرزقه لما استجاب وكان عاصيا ولقال له ياجاهل كيف أخلقك ولاأرزقك ، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما اختلف الناس فى كل شئ إلا فى الرزق والأجل فانهم أجمعوا على أن لارازق ولامميت إلا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم «لوتوكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال [1]» وقال عيسى عليه السلام : انظروا الى الطير لاتزرع ولاتحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم . فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق . وقال أبو يعقوب السوسى المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدى العباد بلاتعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم العبيد كلهم فى رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل

بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه فانه إذا أتى بهذا الأدب يغاث ويعان ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق فان كان للحق أمضاه وإن كان للحظ نفاه وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لان الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم ثم من الناس من لايسعه فى محته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ ويمضى خاطره

(١) حديث لوتوكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد فى آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدما قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لوعرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقى فى الزهد من رواية وهيب المكى مرسلا دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع

بدل

بذل كالسؤال وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة . الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالاضافة إلى إزالة الضار فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وإنما حجابهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية فاذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات : الأول : مقام الخواص ونظرائه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا ومافوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك فان الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده. المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار وهذا أضعف من الأول ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالقعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق فان ذلك من الأسباب الجالبة إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسخر له سكان البلد لايصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم . المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعي لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فان ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالاضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك وإلى ماذا يميل وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته . والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذا الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي فاني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق

بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة لعبد مأذون له في السعة عالم بالاذن فيمضي خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته ونقصانه عالم بحاله يحكم لعلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لأنه أمر خاص لعبد خاص وإذا كان شأن العبد تميز خواطر النفس في مقام تخلصه من لمات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الأربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان إلا

فى مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل إلا مع الزهد فى الدنيا، نعم يصح الزهد دون التوكل فان التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكل بحضرته وكان يقول أستحى أن أتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى . واعلم أن الجلوس فى رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فان لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى فى توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق . فان قلت فما الأفضل أن يقعد فى بيته أو يخرج ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم .كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزى أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه فرده فلما ولى قال له أحمد الحقه وأعطه فانه يقبل فلحقه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ. وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد فى العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه فى أسفاره رأيت الخضر ورضى بصحبتى ولكنى فارقته خيفة أن تسكن نفسى إليه فيكون نقصا فى توكلى فاذن المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق فى كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا . فان قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية . فأقول علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه فى السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن إلى شىء لم يضطرب لفقده ومن اضطرب لفقد شىء فقد سكن إليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لأن البعادى كاتبه قال بلغنى أنك استعنت على رزقك بالمغازل أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك فى قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها . فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن . فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة وأن يوطن نفسه على

أن

نادرا لضيق مكانه من النفس لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاد إلى الارض ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر يصير قلبه سماويا يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته فى طبقات السموات وكلما ترقى تتضاءل النفس المطمئنة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات

أن الله لايفعل به إلا مافيه صلاحه فان أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وغايته أن يموت جوعا فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر «إنّ العبد ليهمّ من الليل بأمر من أمور التجارة مما لوفعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجاره وابن عمه من سبقني من دهاني وماهي إلا رحمة رحمه الله بها [(1)]» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لاأبالي أصبحت غنيا أوفقيرا فاني لاأدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فاني ماشممت منه رائحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ماأدركته ولعله أراد إدراك أقصاه ومالم يكمل الإيمان بأن لافاعل إلا الله ولارازق سواه وأن كل مايقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تبنى على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد . فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية . فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى ـ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ـ فان الانسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكي عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام لو اكتسبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال في الرابعة يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال إن كان صادقا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك فقال ياهذا لولم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام المسجد لبعض المصلين من أين تأكل فقال ياشيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روى عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم ابراهيم بن أدهم فقيل له ماأعجب مارأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى ابراهيم وقال ياحذيفة أرى بك الجوع فقلت هو مارأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس فجئت به إليه فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعرا :

بعروج باطنه كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهره وقلبه فاذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بأنوار القرب وبعد النفس عنه وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لأن الخاطر رسول والرسالة إلى من بعد وهذا قريب وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولايدوم بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك لأن الخواطر تستدعي وجودا . وما أشرنا إليه حال الفناء ولاخاطر فيه وخاطر

---

(1) حديث إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لوفعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف جدا نحوه إلا أنه قال إن العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا الحديث بنحوه .

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلىّ الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقيني كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو في المسجد الفلاني فدفع إلىّ صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا نصراني فجئت إلى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب الأقطع البصري : جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئا يسكن ضعفي فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة وكأن قائلا يقول لي جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت فاذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتني بها قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فاذا فيها سميد مصري ولوز مقشور وسكر كعاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم وقد قبلتها ثم قلت في نفسي رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي . وقال ممشاد الدينوري : كان علي دين فاشتغل قلبي بسببه فرأيت في النوم كأن قائلا يقول يا بخيل أخذت علينا هذا القدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما . وحكي عن بنان الحمال قال : كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد فجاءتني امرأة وقالت لي يا بنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك قال فرميت بزادي ثم أتى علي ثلاث لم آكل فوجدت خلخالا في الطريق فقلت في نفسي أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطيني شيئا فأرده عليه فاذا أنا بتلك المرأة فقالت لي أنت تاجر تقول عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئا ثم رمت لي شيئا من الدراهم وقالت أنفقها فاكتفيت بها إلى قريب من مكة . وحكي أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا هو ذا يجيء النفير فنشتري ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألحوا عليه فقال إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند فحملت إلى بنان وذكرت له القصة ، وقيل كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص فقال إن أكلته مت فوكل الله عز وجل به ملكا وقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده . وقال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتني فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسي في الرمل حفرة وواريت جسدي فيها إلى صدري فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا يا أهل المرحلة إن لله تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية . وروي أن رجلا لازم باب عمر رضي الله عنه فاذا هو بقائل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل

واشتغل

الحق انتفى لمكان القرب وخاطر النفس بعد عنه لبعد النفس وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل في ليلة المعراج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال . لو دنوت أنملة لاحترقت . قال محمد بن علي الترمذي المحدث والمكلم إذا تحققا في درجتهما لم يخافا من حديث النفس فكما أن النبوة محفوظة من إلقاء الشيطان كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من إلقاء النفس وفتنتها ومحروس بالحق والسكينة لأن السكينة حجاب المكلم والمحدث مع نفسه . وسمعت

واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني فقال إني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله فما الذي وجدت فيه فقال وجدت فيه ـ وفي السماء رزقكم وما توعدون ـ فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه . وقال أبو حمزة الخراساني حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر فهممت أن أصيح فقلت في نفسي إلى من أصيح هو أقرب منهما وسكنت فبينا أنا بعد ساعة إذا أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى ... وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما ... تبشرني بالغيب أنك في الكف
أراك وبي من هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محبا أنت في الحب حتفه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوي الايمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوي الايمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه ، تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات وإلا فلا يتم أصلا .

بيان توكل المعيل

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين : أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس . والآخر أبواب من الايمان ذكرناها من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأته رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وإن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضي وقدر له فبهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الايمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الايمان فاذن لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم فهذا حرام وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فانه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة فان كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روي أن أبا تراب النخشبي نظر إلى صوفي مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف الزم السوق أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو علي الروذباري إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله وإنما يفارقهم في شيء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع

الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري بالبصرة يقول الخواطر أربعة : خاطر من النفس وخاطر من الحق وخاطر من الشيطان وخاطر من الملك فأما الذي من النفس فيحس به من أرض القلب والذي من الحق من فوق القلب والذي من الملك عن يمين القلب والذي من الشيطان عن يسار القلب والذي ذكره إنما يصح لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد وتصفى وجوده واستقام ظاهره وباطنه فيكون قلبه كالمرآة المجلوة لا يأتيه الشيطان من ناحية

وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرقة والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فلما رأوه محتاجا ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فما رؤي إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه . فأقول إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطال والتوكل وإن كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه

إلا ويبصره فإذا اسود القلب وعلاه الرين لا يبصر الشيطان . روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه قال الله تعالى - كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - » سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقا كوشف به فقال الحديث في باطن الإنسان والخيال الذي تراءى لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر

فى قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لايغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس وماروى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو فى الأمصار فمات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه فى قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم مادبره تدبيرا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لامحالة وقد يقع ذلك أيضا فى بعض الأحوال لكن دبره تدبيرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لامحالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل مايزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لايحصل بغير اضطراب وهو فى الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا وفى النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فلذلك لايطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لايجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله فى حق المضطرب فاذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس أثمر ماقاله الحسن البصرى رحمه الله إذ قال وددت أن أهل البصرة فى عيالى وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقى لظننت أنى مشرك فاذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم فى نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فاياك أن تجمع بين الإفلاسين الإفلاس عن وجود المقام ذوقا والافلاس عن الايمان به علما ، فاذن عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فانه يأتيك لامحالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدى من لاتحتسب فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ـ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ـ الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة فما ضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه فان الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق لاتحصى ومجاريه لايهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه فى السماء قال الله تعالى ـ وفى السماء رزقكم وماتوعدون ـ وأسرار السماء لايطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق فقال إن علمتم أى موضع هو فاطلبوه قالوا نسأل الله قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننظر مايكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى الخراز كنت فى البادية فنالنى جوع شديد فغلبتنى نفسى أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطالبتنى أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بى ويقول :

ويزعم أنه منا قريب ... وأنا لانضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهدا ... كأنا لانراه ولايرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عز وجل فان أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتى من

هو من القلب وليس هو من النفس وهذا خلاف ماتقرر فسألته عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس مناغاة ومحادثات وتألفا وتوددا وكلما انطلقت النفس فى شئ بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر فاذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعاتبة للنفس وذكر النفس شيئا من فعلها وقولها كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك فاذا كان الخاطر أول الفصل

ليس مطمئنا فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا عابر دعليك من الأرزاق العجيبة التى لم تسكن فى ظنك وحسابك ولا تسكن فى توكلك منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فانه أصل حركة القلم والمحرك الأول واحد فلا ينبغى أن يكون النظر إلا إليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد أو يقعد فى الأمصار وهو خامل وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام بل يأتيه أضعافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فان اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار فى حق الخامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطى على نيل الثواب ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيما عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهائم

(بيان أحوال المتوكلين فى التعلق بالأسباب بضرب مثال)

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجتهدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فان الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فانى أختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت فى مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ومن أخطأه غلمانى فما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولا قائلا ليته أوصل إلىّ رغيفا فانى غدا أستوزره وأفوض ملكى إليه فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم فى الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة وقسم قالوا إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذ أعطونا رغيفا واحدا ونقنع به فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة وقسم رابع اختفوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد وإن أخطأونا

ومفتتحه لمعرفته من أهم شأن العبد لأن الأفعال من الخواطر تنشأ حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم» هو علم الخواطر قال لأنها أول الفعل وبفسادها فساد الفعل وهذا لعمرى لا يتوجه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب ذلك على كل مسلم وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر فمنها ما هو

أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما نفعهم ذلك إذ اتبعهم الغلمان فى كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة فى زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا فى جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والميدان هو الحياة فى الدنيا وباب الميدان الموت والميعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والتعلق بالغلمان هو المتدى فى الأسباب والغلمان المسخرون هم الأسباب والجالس فى ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون فى الأمصار فى الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون فى الزوايا هم السائحون فى البوادى على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية فى الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح فى البوادى ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان كذلك فى الأمصار السالفة وأما الآن فالتارك للأسباب لاينتهى إلى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثانى فى التعرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله فى الادخار ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكل إن كان جائعا ويلبس إن كان عاريا ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقى فى الحال ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالقدر الذى يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفى بموجب التوكل تحقيقا وهى الدرجة العليا . الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة والنملة وابن آدم . الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب المكى لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لامعنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعالى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير فى مثل هذا بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو فى نفس فان ذلك كالممتنع وجوده أما الناس فمتفاوتون فى طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهما درجات لاحصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى فى تدريج الأمور كما قال عليه السلام « إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا (١) » لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذن ما وراء

بذر السعادة ومنه ماهو بذر الشقاوة . وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لا خامس لها إما ضعف اليقين أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس فمن عصم عن هذه الأربعة يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ومن ابتلى بها لايعلمها ولا يطلبها وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض وأقوم الناس

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث

السنة لايدخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فان أسباب الدخل فى الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن ادّخر لأقلّ من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ومن كان أمله شهرين لم تسكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو بينهما فى الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلا ، وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقد روى فى الفقير الذى أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته فلما دفنه قال لأصحابه «إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية . قلنا وماهى يارسول الله ؟ قال كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه» ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر (١) » الحديث ، وليس الكوز والشفرة ومايحتاج إليه على الدوام فى معنى ذلك فان ادخاره لاينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلايحتاج إليه فى الصيف ، وهذا فى حق من لاينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدى الخلق بل لايلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فان كان يستشعر فى نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخله وافيا بقدر كفايته وكان لايتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمحذور مايشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا فى عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين فادخاره مايزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة ، وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة (٢) ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لغد (٣) ونهى بلالا عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال ﷺ «أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا» (٤)

بتمييز الخواطر وأقوامهم بمعرفة النفس ومعرفتها صعبة المنال لاتكاد تتيسر إلا بعد الاستقصاء فى الزهد والتقوى . واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لايفرق بين الالهام والوسوسة . وقال أبو على الدقاق من كان قوته معلوما لايفرق بين الالهام والوسوسة وهذا لايصح على الاطلاق إلا بتقييد وذلك أن من المعلوم مايقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد بإذن يسبق إليه فى الأخذ منه والتقوت به ومثل هذا المعلوم لايحجب عن تمييز الخواطر إنما ذلك

ابن مسعود وسلمان الفارسى باسناد ضعيف جدا وهو باطل (١) حديث أنه قال فى حق الفقير الذى أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه ببردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر الحديث وفى آخره من أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجد له أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا .

(٢) حديث ادخر لعياله قوت سنة متفق عليه وتقدم فى الزكاة (٣) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لغد تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها (٤) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا البزار من حديث ابن مسعود وأبى هريرة وبلال دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك ، وروى أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط حديث أبى هريرة وكلها ضعيفة وأما ماذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره .

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ (١) » اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال يتيمم مع قرب الماء ويقول « مايدريني لعلى لا أبلغه (٢) » وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لايثق بما ادّخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته فان أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة إلى قوته وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفى عياله ولكن ليسنّ ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر « أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه (٣) » تطييبا لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضرّ بعض الناس وقد لا يضرّ ، ويدل عليه ماروى أبو أمامة الباهلى « أن بعض أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن فقال ﷺ فتشوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين فى داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان (٤) » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك فى حقه وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين: أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى ـ تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ـ وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلبيس. والثانى أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين فى الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فان كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدّخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروى عن بشر قال الحسين المغازلى من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين فقام إليه بشر قال ومارأيته قام لأحد غيره قال ودفع إلىّ كفا من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ماتقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لى قط مثل ذلك قال فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه ومارأيته أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شئ كثير فأخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله معه وانصرف فعجبت من ذلك وكرهته له فقال لى بشر لعلك أنكرت فعله؟ قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن فقال ذاك أخونا فتح الموصلى زارنا اليوم من الموصل فانما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضرّ معه الادخار [الفن الثالث فى مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف] اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف فى نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأسا أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهى التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكى والرقية

يقال فى حق من دخل فى معلوم باختيار منه وإيثار لأنه ينحجب لموضع اختياره والذى أشرنا اليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه المعلوم وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى إذ لا غرض له فى تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ فى الخاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيد الخاطر الأول

(١) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ الطبرانى والحاكم من حديث أبى سعيد وهو ثقة . حديث الق الله فقيرا [١] قد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول مايدرينى لعلى لا أبلغه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث أحمد والطبرانى والبيهقى من حديث أم عمرو وقد تقدم (٤) حديث أبى أمامة توفى بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين فى داخلة إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

[١] قول العراقى حديث الق الله فقيرا الخ لم يكن هذا الحديث موجودا بالأصل فلعله بنسخته تأمل.

فان الكى والرقية قد يقدم بهما على المحذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور للازالة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكى والرقية والطيرة ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما فى معناها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر فى الشتاء تهيجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق فى الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكى بخلاف الجبة ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان فانه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى ـ فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون ـ وقال تعالى ـ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ـ وقال عز وجل ـ ودع أذاهم وتوكل على الله ـ وقال سبحانه وتعالى ـ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ـ وقال تعالى ـ نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ـ وهذا فى أذى الناس وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل فى شىء إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعانته على الدين وترتب الأسباب ههنا كترتبها فى الكسب وجلب النافع فلا نطول بالاعادة وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابى لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله «اعقلها وتوكل [1]» وقال تعالى ـ خذوا حذركم ـ وقال فى كيفية صلاة الخوف ـ وليأخذوا أسلحتهم ـ وقال سبحانه ـ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ـ وقال تعالى لموسى عليه السلام ـ فأسر بعبادى ليلا ـ والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب واختفاء رسول الله ﷺ فى الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر [2] وأخذ السلاح فى الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فانه دافع قطعا ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا أن المظنون كالمقطوع وإنما الموهوم هو الذى يقتضى التوكل تركه . فان قلت فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك . فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا ينبغى أن يغرك ذلك المقام فانه وإن كان صحيحا فى نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير بل ذلك مقام رفيع فى الكرامات وليس ذلك شرطا فى التوكل وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها . فان قلت وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها ؟ فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك فى إهابك يسمى الغضب فلا يزال يعضك ويعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا باشارتك وكان مسخرا لك فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذى هو ملك السباع وكلب دارك أولى بأن يكون مسخرا لك من كلب البوادى وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك فاذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع فى استسخار الكلب الظاهر . فان قلت فاذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق فبأى اعتبار يكون متوكلا . فأقول يكون متوكلا بالعلم والحال فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته فى إغلاق الباب بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه فكم من باب يغلق ولا ينفع وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت وكم من آخذ سلاحه يقتل

لأنه اذا بقى رجع صاحبه الى التأمل وهذا شرط العلم . وقال ابن عطاء الثانى أقوى لأنه ازداد قوة بالأول . وقال أبو عبد الله بن خفيف هما سواء لأنهما من الحق فلا مزية لأحدهما على الآخر قالوا الواردات أعم من الخواطر لأن الخواطر تختص بنوع خطاب او مطالبة والواردات تكون تارة خواطر وتارة تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط . وقيل بنور التوحيد يقبل الخاطر من الله تعالى وبنور المعرفة يقبل من الملك وبنور الايمان

(١) حديث اعقلها وتوكل الترمذى من حديث أنس قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة فى التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمرى باسناد جيد قيدها (٢) حديث اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم فى قصة اختفائه فى الغار عند إرادة الهجرة .

أو

أو يغلب فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل فى الوكيل فى الخصومة فانه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته. وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به فى بيته ونفسه ويقول اللهمّ إن سلطت على ما فى البيت من يأخذه فهو فى سبيلك وأنا راض بحكمك فانى لا أدرى أن ما أعطيتنى هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة فتستردها ولا أدرى أنه رزقى أو سبقت مشيئتك فى الأزل بأنه رزق غيرى وكيفما قضيت فأنا راض به وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له بل جريا على مقتضى سنتك فى ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فاذا كان هذا حاله وذلك الذى ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد فوجد متاعه فى البيت فينبغى أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وان لم يجده بل وجده مسروقا نظر إلى قلبه فان وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه فى الآخرة فقد صح مقامه فى التوكل وظهر له صدقه. وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقا فى دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتى بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل، نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه فى الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه فقد كانت السرقة مزيدا له فى ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه فى جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغى أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه فى دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها فانها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير. فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ. فأقول المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقد يدخل فى يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذى يشرب منه والجراب الذى فيه زاده وإنما ذلك فى المأكول وفى كل مال زاد على قدر الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين فى زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة فى كل يوم ولا فى كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا فى التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ فى السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين. فان قلت فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذى هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه فان كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه. فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له فى أن يكون له ذلك المتاع ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به إذ يحتمل أن تكون خيرته فى أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب فى تحصيل غرضه ويكون ثوابه فى النصب والتعب أكثر فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لأنه فى جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لى فى وجودها إلى الآن والخيرة لى الآن فى عدمها لما أخذها منى فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا وهو كالمريض بين يدى الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فان قدم إليه الغداء فرح وقال لولا أنه

ينهى النفس وبنور الاسلام يرد على العدو ومن قصر عن درك حقائق الزهد وتطلع إلى تمييز الخواطر زن الخاطر أولا بميزان الشرع فما كان من ذلك نفلا أو فرضا يمضيه وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه فان استوى الخاطران فى نظر العلم ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس فان النفس قد يكون لها هوى كامن فى أحدهما والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن أنه بنهوض القلب وقد يكون من القلب نفاق

يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه إليّ وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه وكل من لايعتقد في لطف الله تعالى مايعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلايصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فانه لايدرى أى الأسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه : لاأبالي أصبحت غنيا أوفقيرا فاني لاأدرى أيهما خير لي فكذلك ينبغي أن لايبالي المتوكل يسرق متاعه أولايسرق فانه لايدري أيهما خيرله في الدنيا أوفي الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنيّ يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا .

(بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم)

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه . الأول : أن يغلق الباب ولايستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق وكجمعه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لايغلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول لولاالكلاب ماشددته أيضا . الثاني : أن لايترك في البيت متاعا يحرص عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أوإمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال خذها لاحاجة لي إليها قال لم ؟ قال يوسوس إلى العدوأن اللص أخذها فكأنه احترز من أن يعصى السارق ؟ ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبوسليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها . الثالث : أن مايضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ماياخذه السارق فهو منه في حل أوهو في سبيل الله تعالى وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة وإن لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لوأخذه غني أوفقير : إحداهما أن يكون ماله مانعا له من المعصية فانه ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده وقدزال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل . والثانية أن لايظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما ينو حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينو دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أومظلوما (١) » ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لاتضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها مايسلط السارق ويغير القضاء الأزلي ولكن يتحقق بالزهدنيته فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له (٢) لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه فلو خلق لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينعدم فكذلك أمر السرقة . الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لايحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول لولاأن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلايبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ، وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فان

بسكونه إلى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ماسكن قلبي إلى نفسي ساعة فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشتبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم فلايدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون . وأكثر مادخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم . وينبغي أن يعلم العبد قطعا أنه مهما بقي عليه أثر

---

(١) حديث انصر أخاك ظالما أومظلوما متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام الحديث لم أجد له أصلا .

أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله فى سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو فى ملكه فى ظاهر العلم لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند المتوكلين . وقد روى أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ثم قال فى سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل ، فقال : ياأبا عبد الرحمن إن ناقتك فى مكان كذا فلبس نعله وقام ثم قال أستغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال إنى كنت قلت فى سبيل الله . وقال بعض الشيوخ رأيت بعض إخوانى فى النوم بعد موته فقلت مافعل الله بك قال غفر لى وأدخلنى الجنة وعرض علىّ منازلى فيها فرأيتها قال وهو مع ذلك كئيب حزين فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصعداء ثم قال نعم إنى لا أزال حزينا إلى يوم القيامة قلت ولم ؟ قال إنى لما رأيت منازلى فى الجنة رفعت لى مقامات فى عليين مارأيت مثلها فيا رأيت ففرحت بها فلما هممت بدخولها نادى منادمن فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنمـا هى لمن أمضى السبيل ، فقلت وما إمضاء السبيل؟فقيل لى كنت تقول للشئ إنه فى سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك . وحكى عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان فى هميانك فذكر له فحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه فجاء هو وأصحابه معه وردّوا الذهب فأبى وقال خذه حلالا طيبا فما كنت لأعود فى مال أخرجته فى سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فدعا ابنا له وجعل يصره صررا ويبعث بها إلى الفقراء حتى لم يبق منه شئ فهكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل فى الدراهم والدنانير وسائر الصدقات . الخامس : وهو أقلّ الدرجات أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على مافات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فيماأصيب به ففى الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر[1] » . وحكى أن الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائمـا يصلى فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه فجاءه قوم يعزونه ، فقال أما إنى قد كنت رأيته وهو يحله قيل وما منعك أن تزجره . قال كنت فيما هوأحب إلىّ من ذلك يعنى الصلاة فجعلوا يدعون عليه فقال لاتفعلوا وقولوا خيرا فإنى قد جعلتها صدقة عليه . وقيل لبعضهم فى شئ قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عونا للشيطان عليه قيل أرأيت لو رد عليك قال لا آخذه ولا أنظر إليه لأنى كنت قد أحللته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال ماظلمنى أحد ثم قال إنمـا ظلم نفسه ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرّا . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه ، فقال لاتغرق فى شتمه فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفى الخبر « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم[2] » . السادس أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالمـا وجعل ذلك نقصا فى دنياه لانقصا فى دينه فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله

من الهوى وإن دق وقل يبقى عليه بحسبه بقيـة من اشتباه الخواطر ثم قد يغلط فى تميز الخواطر من هو قليل العلم ولا يؤاخذ بذلك مالم يكن عليه من الشرع مطالبة وقد لا يسامح بذلك بعض العالمين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء فى التميز ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت . وذكر بعض العلماء أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح وأن النفس إذا تحركت اقتدح من جوهرها ظلمة تتكت فى القلب همـة سوء فينظر الشيطان إلى

---

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر تقدم (٢) حديث إن العبد ليظلم المظلمة فلايزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم .

فقال إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين. وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن فقال أعلى الدنانير تبكي؟ فقال لا والله ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل لبعضهم ادع على من ظلمك فقال إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين.

[الفن الرابع في السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب أعني معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب وإلى موهوم كالكي والرقية. أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها الكي ويليه الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على أن التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام [1] » يعني الموت وقال عليه السلام « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء [2] » . « وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: هي من قدر الله [3] » وفي الخبر المشهور « مامررت بملإ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة [4] » وفي الحديث أنه أمر بها وقال « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم [5] » فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل

---

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفه إلى آخره وإسناده حسن وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك إلا الهرم وللطبراني في الأوسط والبزار من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تداووا عباد الله الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك (٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذي وابن ماجة من حديث أبي خزامة وقيل عن أبي خزامة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح (٤) حديث مامررت بملإ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين الحديث البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذي بلفظ إن خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبيغ وقال حسن غريب وقال البزار إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر الحديث.

القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي أو دعوى حركة أو سكون وهي آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة بجهل أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة مايجب نفيه فانها ترد بخلاف مأمور أو على وفق منهي ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات. وذكر أن الروح إذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع يظهر من

هو

هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها فى البيت وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا وفى خبر مقطوع «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة [1]» وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالحمية [2] وقطع لسعد بن معاذ عرقا [3] أى فصده وكوى سعد بن زرارة [4] وقال لعلى رضى الله تعالى عنه وكان رمد العين «لاتأكل من هذا يعنى الرطب وكل من هذا فانه أوفق لك [5]» يعنى سلقا قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمرا وأنت أرمد فقال إنى آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم [6]» . وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى فى حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة [7] قيل السنا المكى . وتداوى ﷺ غير مرة من العقرب وغيرها [8] وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحى صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء [9] وفى خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا [10] وماروى فى تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف فى ذلك كتاب وسمى طب النبى صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء فى الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته

ذلك النور فى القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة إما بغرض أمر به أو بفضل ندب إليه وإما بمباح يعود صلاحه إليه وهذا الكلام يدل على أن حركتى الروح والنفس هما الوجبتان للمتين . وعندى والله أعلم أن اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس فحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح بيركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهى من شؤم لمة الشيطان فاذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان

---

(١) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبرانى من حديث معقل بن يسار وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على راويه فى الصحابى وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف (٢) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة الترمذى وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه تداووا الحديث وسيأتى فى قصة على وصهيب فى الحمية بعده (٣) حديث قطع عرقا لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال رمى سعد فى أكحله فحسمه النبى صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص الحديث (٤) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة الطبرانى من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبى أمامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (٥) حديث قال لعلى وكان رمدا لاتأكل من هذا ، الحديث أبوداود والترمذى وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم المنذر (٦) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرا وأنت رمد الحديث تقدم فى آفات اللسان (٧) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ابن عدى من حديث عائشة وقال إنه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين (٨) حديث أنه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها الطبرانى باسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس الحديث وله فى الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ولأبى يعلى والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم وفيه جابر الجعفى ضعفه الجمهور (٩) حديث كان إذا نزل عليه الوحى صدع رأسه فيغلفه بالحناء البزار وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة وقد اختلف فى إسناده على الأحوص بن حكيم كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذى وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذى غريب (١٠) حديث جعل على قرحة خرجت بيده ترابا البخارى ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الانسان الشىء منه أوكانت قرحة أوجرح قال النبى صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان بن عيينة الراوى سبابته بالأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا.

فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت فقال لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء. فطالت علته فقالوا له إن دواء هذه العلة معروف مجرب وإنا نتداوى به فنبرأ فقال لا أتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه وعزتي وجلالي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك فقال لهم داووني بما ذكرتم فداووه فبرأ فأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري. وروى في خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها فأوحى الله تعالى إليه كل البيض. وشكا نبي آخر الضعف فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فإن فيهما القوة قيل هو الضعف عن الجماع. وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع إذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والنفساء الرطب فهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهارا للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الاسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين: أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول: والثاني أن الدواء يسهل والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال. وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشيئين وإلا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء فقد روى عن موسى ﷺ أنه قال يارب ممن الداء والدواء؟ فقال تعالى مني قال فما يصنع الأطباء؟ قال يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قضائي فإذن معنى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التداوي رأسا فليس شرطا فيه. فإن قلت فالكي أيضا من الأسباب الظاهرة النفع. فأقول ليس كذلك إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقي المبردات للمحرور وأما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يعتاد الكي في أكثر البلاد وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فإنه ما من وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق فالاحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرهما ولذلك «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى [1]» وكل واحد منهما بعيد عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكي فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الأمير حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما اكتويت انقطع ذلك عني وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى

ويظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم وقد تكون هاتان الامتنان متداركتين وينمحي أثر إحداهما بالأخرى والتفطن للتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار في ذاته باب أنس ويبقى أبدا متفقدا حاله مطالعا آثار الامتين. وذكر خاطر خامس: وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة يكون مع النفس والعدو لوجود التميز وإثبات الحجة على العبد ليدخل العبد في الشيء بوجود عقل إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب وقد

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى البخاري من حديث ابن عباس وأنهى أمتي عن الكي، وفي الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل ذي حمة.

فرد الله تعالى عليه ماكان يجد من أمر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله ألم تر إلى الملائكة التى كان أكرمنى الله بها قد ردها الله تعالى على بعدأن كان أخبره بفقدها فاذن الكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالمتوكل لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير ثم هو مذموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم .

(بيان أن ترك التداوى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن الذين تداووا من السلف لاينحصرون ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر فربما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لايكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله ، وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قيل له لو دعونا لك طبيبا فقال الطبيب قد نظر إلى وقال إنى فعال لما أريد . وقيل لأبى الدرداء فى مرضه ماتشتكى قال ذنوبى قيل فما تشتهى قال مغفرة ربى قالوا ألاندعو لك طبيبا قال الطبيب أمرضنى . وقيل لأبى ذر وقد رمدت عيناه لوداويتهما قال إنى عنهما مشغول فقيل لوسألت الله تعالى أن يعافيك فقال أسأله فيما هو أهم على منهما . وكان الربيع ابن خيثم أصابه فالج فقيل له لو تداويت فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى ولم تغن الرقى شيئا . وكان أحمد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله . وقيل لسهل متى يصح للعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر فى جسمه والنقص فى ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه فاذا منهم من ترك التداوى ورآه ومنهم من كرهه ولايتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوى . فنقول إن لترك التداوى أسبابا . السبب الأول : أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب فانه كان من المكاشفين فانه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث إنما هن أختاك وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى فلايبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله وإلا فلايظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله ﷺ تداوى وأمر به . السبب الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله وعليه يدل كلام أبى ذر إذ قال إنى عنهما مشغول . وكلام أبى الدرداء إذ قال إنما أشتكى ذنوبى فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالخائف الذى يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له لاتأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طعنا فيمن أكل ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ماالقوت فقال هو ذكر الحى القيوم فقيل إنما سألناك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألناك عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر قيل سألناك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخرا إذا دخل عليه علة فرده إلى صانعه أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها . السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة إلى علته موهوم النفع جار مجرى الكى والرقية فيتركه التوكل وإليه يشير قول الربيع بن خيثم إذ قال ذكرت عادا

يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب . وذكر خاطر سادس وهو خاطر اليقين وهو روح الإيمان ومزيد العلم ولا يبعد أن يقال الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك وتارة من خاطر النفس وليس من العقل خاطر على الاستقلال لأن العقل كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم ويتهيأ بها الانجذاب إلى دواعى النفس تارة وإلى دواعى الملك تارة

وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك فى نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ولا شك فى أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا فى الأدوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لا أصل له وذلك صحيح فى بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح فى البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا فى الأسباب كالكى والرقى فيتركه توكلا . السبب الرابع . أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليجرب نفسه فى القدرة على الصبر فقد ورد فى ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فان كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء وإن كان فى إيمانه ضعف خفف عنه البلاء [1] » وفى الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز لا يربد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا [2] » وفى حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون [4] » وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن أصح شىء قلبا وأمرضه جسما وتجد المنافق أصح شىء جسما وأمرضه قلبا . فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه وإنما يمنع المرض جوارحه وعلموا أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففى الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمله فانه فى وثاقى إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتى [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس [6] » فقيل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب وإليه الاشارة بقوله تعالى - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - وكان سهل يقول ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها وكان إذا رأى العبد يصلى من قعود

وإلى دواعى الروح تارة وإلى دواعى الشيطان تارة فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر غير اللمتين وهاتان اللمتان هما الأصل والخاطران الآخران فرع عليهما لأن لمة الملك إذا حركت الروح واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظ القرب فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق وإذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما ذكرناه قبل الموضع قربه فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ولمة

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبى وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه الحديث الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده وللطبرانى من حديث أبى عنبة إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة والبيهقى فى الشعب من حديث أبى فاطمة وهو صدر حديث إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث إن الله يقول للملائكة اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمل فانه فى وثاقى الحديث الطبرانى من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس تقدم ولم أجده مرفوعا .

قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما. وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل فى شئ من الدواء فانما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف ومن لم يدخل فى شئ فهو أفضل لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة . السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال ﷺ «لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ماعليه ذنب ولا خطيئة [1]» وفى الخبر «حمى يوم كفارة سنة [2]» فقيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى فى جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم ، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموما فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزايلهم [3] ولما قال صلى الله عليه وسلم «من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة [4]» قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى وقال عيسى عليه السلام: لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه أى به أكفر ذنوبه وأزيد فى درجاته . السبب السادس أن يستشعر العبد فى نفسه مبادى البطر والطغيان تطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان أو طول الأمل والتسويف فى تدارك الفائت وتأخير الخيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصى وأقلها أن تدعو إلى التنعم فى المباحات ، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب ولذلك قيل لا يخلو

---

(١) حديث لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة أبو يعلى وابن عدى من حديث أبى هريرة والطبرانى من حديث أبى الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع فى صفائها ولونها وأسانيده ضعيفة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموما الحديث وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يارسول الله أرأيت هذه الأمراض تصيبنا مالنا فيها قال كفارات قال أبى وإن قلت قال فان شوكة فما فوقها قال فدعا أبى أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال يارسول الله ماجزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم إنى أسألك حمى لا تمنعنى خروجا فى سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا لمسجد نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله على بن المدينى (٤) حديث من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة تقدم المرفوع منه دون قوله فلقد كان فى الأنصار من يتمنى العمى.

الشيطان اذا حركت النفس هوت بجبلتها الى مركزها من الغريزة والطبع فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان فأصلها لمتان وينتجان أخريين وخاطر اليقين والعقل مندرج فيهما والله أعلم

[الباب الثامن والخمسون فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما]

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما

المؤمن من علة أوقلة أوزلة وقد روى «أن الله تعالى يقول الفقر سجنى والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى» فاذا كان فى المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية فى ترك المعاصى فقد قال بعض العارفين لإنسان كيف كنت بعدى ؟ قال فى عافية قال إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت فى عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية ماعوفى من عصى الله . وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد ماهذا الذى أظهروه ؟ قالوا ياأمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لايعصى الله عز وجل فيه فهولنا عيد . وقال تعالى ـ من بعد ماأراكم ماتحبون ـ قيل العوافى ـ إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى ـ وكذلك إذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى لطول العافية لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لعنه الله ولوأخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هاذم اللذات [١] » وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف ، وقال تعالى ـ أولايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أومرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون ـ قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ، ويقال إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت ياغافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجب ، وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص فى نفس أومال وقالوا لايخلو المؤمن فى كل أربعين يوما أن يروع روعة أويصاب ببلية حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها وأن النبى صلى الله عليه وسلم «عرض عليه امرأة فحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وانها مامرضت قط ، فقال لاحاجة لى فيها [٢] » . «وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ،فقال رجل وماالصداع ماأعرفه فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عنى من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا [٣] » لأنه ورد فى الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار [٤] » . وفى حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما «قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة [٥] » وفى لفظ آخر «الذى يذكر ذنوبه فتحزنه» ولاشك فى أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها إذ رأوا لأنفسهم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التداوى نقصانا وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم .

فى نفسهما وتداخلهما فتراءى للبعض الشىء حالا وتراءى للبعض مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولابد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سمى حالا لتحوله والمقام مقاما لثبوته واستقراره وقد يكون الشىء بعينه حالا ثم يصير مقاما مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلايزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس

---

(١) حديث أكثروا ذكر هاذم اللذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرضت قط فقال لاحاجة لى فيها أحمد من حديث أنس بنحوه باسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وماالصداع ماأعرفه فقال إليك عنى الحديث أبوداود من حديث عامر الرام أخى الخضر [١] بنحوه وفى إسناده من لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان (٥) حديث أنس وعائشة قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟

---

[١] الخضر : بطن من محارب بن خصفة .

(بيان الردّ على من قال ترك التداوي أفضل بكل حال)

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسنّ لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم . فإن قيل إن ذلك أيضا شرك فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فإن قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغى أن لايزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لاقائل به ، ولافرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ، ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ماروى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم لاندخل على الوباء فنلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ولانهرب من قدر الله تعالى ولانفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم ـ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ـ فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال نرجع ولاندخل على الوباء ، فقال له المخالفون فى رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرأيتم لوكان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن ابن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندى فيه ياأمير المؤمنين شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إذا سمعتم بالوباء فى أرض فلاتقدموا عليه وإذا وقع فى أرض وأنتم بها فلاتخرجوا فرارا منه [1]» ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس ، فاذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل . فإن قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء فى الطب الهواء وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر، والهواء هو المضر فلم لم يرخص فيه ؟ . فاعلم أنه لاخلاف فى أن الفرار عن المضر غير منهى عنه ، إذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل فى أمثال هذا مباح وهذا لايدل على المقصود ولكن الذى ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لايضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير فى الباطن فالخروج من البلد لايخلص غالبا من الأثر الذى استحكم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرها ، ولوتجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيا عنه ولكن صار منهيا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لورخص للأصحاء فى الخروج لما بقى فى البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ولم يبق فى البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيا فى إهلاكهم تحقيقا وخلاصهم منتظر

إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة وتستقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة ، ثم ينازله حال المراقبة ، فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال ، ثم يحوّل حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتداركه الله عبده بالمعونة فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ولا يستقر مقام المحاسبة

فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم أقف له على إسناد(١) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سمعتم بالوباء فى أرض فلاتقدموا عليه الحديث وفى أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلغهم أن بالشام وباء الحديث رواه البخارى .

كما أن خلاص الأصحاء منتظر فلو أقاموا لم تكن الاقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع فى إهلاك الباقين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه فهذا هو الذى ينقدح عندنا فى تعليل النهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فانه لم يؤثر الهواء فى باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم، نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين، وبهذا شبه الفرار من الطاعون فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف (١) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسعيا فى إهلاكهم فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه وغلط العباد والزهاد فى مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك .

فان قلت ففى ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ . فنقول فيه فضل بالاضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى فى الأدوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرقى أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع فإلى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى وكل ذلك كمالات بالاضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالاضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها فانه لم يكن له نظر فى الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة فى المال نقص والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالا فهى أيضا نقص بالاضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من إمساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (٢) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك يعظم ضرره، نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى وذلك منهى عنه والمؤمن فى غالب الأمر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا فحكم التداوى فى مقصوده كحكم الكسب فانه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعانى التى أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل فى بعض الأحوال، وأن التداوى قد يكون أفضل فى بعض، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال

---

(١) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة باسناد جيد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم (٢) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها تقدم ولفظه عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

قراره إلا بنازل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة فاذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاما وتتخلص نفسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال الى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء والترقى من عين اليقين الى حق اليقين وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع

والأشخاص والنيات وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا فى التوكل إلا ترك الموهومات كالكى والرقى فان ذلك تعمق فى التدبيرات لا يليق بالمتوكلين .

(بيان أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه)

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات ومع هذا فالاظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة : الأول أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المطبب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول إنما أصف قدرة الله تعالى فىّ . الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا فى المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى . الثالث أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلى فى مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ماعلم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبى صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية (١) » فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كما ذكرته فى تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه لأنه ربما يوهم الشكاية ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه للاظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الافشاء ، وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ، وقيل فى معنى قوله ـ فصبر جميل ـ لا شكوى فيه ، وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذى أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحزان فأوحى الله تعالى إليه : تفرغت لشكواى إلى عبادى فقال يارب أتوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالا يكتب على المريض أنينه فى مرضه وكانوا يكرهون أنين المريض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه فى مرضه فجعل الأنين حظه منه ، وفى الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى بخير دعوا له وإن شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون (٢) » وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة فى الكلام فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم منهم فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول أشتهى أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة إلا لأجل العواد رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

الشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى » قال سهل بن عبد الله للقلب تجويفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجويف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التى خرقت شغاف

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرنى على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية تقدم مع اختلاف (٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا مايقول لعواده الحديث تقدم .

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى الموفق .

﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

(وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته ، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته ، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت فى بيداء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر فى وجه العقل وبصيرته ، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى فى بحر معرفته ، ومحترقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيراً .

[أما بعد] فان المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الايمان بامكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها ، وقال لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى ، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ، ونحن نذكر فى هذا الكتاب بيان شواهد الشرع فى المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر فى الآخرة على المعرفة فى الدنيا ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب ثم بيان السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول فى علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط فى الأنس ثم القول فى معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصى لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصى ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

(بيان شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى)

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلابد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل ـ يحبهم ويحبونه ـ وقوله تعالى ـ والذين آمنوا أشد حباً لله ـ وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الايمان فى أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلى « يا رسول الله ما الايمان قال أن يكون

الله

القلب ووصلت إلى سويدائه وهى حق اليقين هى أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب إذ يكون تراباً ثم طيناً ثم لبناً ثم آجراً فالمشاهدة هى الأول والأصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهى آخر الفروع . ولما كان الأصل فى الأحوال هذه الحالة وهى أشرف الأحوال وهى محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا لأنها غير مقدورة

الله ورسوله أحب إليك مما سواهما [١]» وفى حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما [٢]» وفى حديث آخر « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين [٣]» وفى رواية «ومن نفسه» كيف وقد قال تعالى ـ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ـ الآية. وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والانكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله إياى [٤]» وروى «أن رجلا قال يارسول الله إنى أحبك فقال ﷺ : استعد للفقر فقال إنى أحب الله تعالى فقال استعد للبلاء [٥]» وعن عمر رضى الله عنه قال «نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى هذا الرجل الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ماترون [٦]» وفى الخبر المشهور «إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحى الله تعالى إليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال ياملك الموت الآن فاقبض [٧]» وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فاذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب مايقربنى إلى حبك واجعل حبك أحب إلىّ من الماء البارد [٨]» وجاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال «يارسول الله متى الساعة؟ قال ماأعددت لها فقال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب [٩]» قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشئ بعد الاسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الدارانى

للعبد بكسبه فأطلقوا القول وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب وعلى الترتيب الذى درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب فالأحوال مواجيد والمقامات طرق المواجيد ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب وفى الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالأحوال مواهب علوية سماوية والمقامات طرقها وقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه سلونى عن طرق

---

(١) حديث أبى رزين العقيلى أنه قال يا رسول الله ما الايمان ؟ قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة فى أوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفى رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخارى من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنت أحب إلىّ من كل شئ إلا نفسى فقال لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلىّ من نفسى فقال الآن ياعمر (٤) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه الحديث الترمذى من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث إن رجلا قال يا رسول الله إنى أحبك فقال استعد للفقر الحديث الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فأعد للفقر تجفافا دون آخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به الحديث أبو نعيم فى الحلية باسناد حسن (٧) حديث إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله الحديث لم أجد له أصلا (٨) حديث اللهم ارزقنى حبك وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال أعرابى يارسول الله متى الساعة قال ماأعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبى موسى وابن مسعود بنحوه .

إن من خلق الله خلقا مايشغلهم الجنان ومافيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا . ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفرقد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذى بلغ بكم ماأرى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الخائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذاهم أشد نحولا وتغيرا فقال ما الذى بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ماترجون ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذاهم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائى من النور فقال ماالذى بلغ بكم ماأرى قالوا نحب الله عزوجل فقال أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون . وقال عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم فى الثلج فقلت أماتجد البرد فقال من شغله حب الله لم يجد البرد . وعن سرى السقطى تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا . وقال هرم ابن حيان المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الاقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهى تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة. وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسى مادونه فكيف لطفه . وفى بعض الكتب عبدى أنا وحقك لك محب فبحق عليك كن لى محبا . وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلاحب . وقال يحيى بن معاذ إلهى إنى مقيم بفنائك مشغول بثنائك صغيرا أخذتنى إليك وسربلتنى بمعرفتك وأمكنتنى من لطفك ونقلتنى فى الأحوال وقلبتنى فى الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا تسقينى من حياضك وتهملنى فى رياضك ملازما لأمرك ومشغوفا بقولك ولما طر شاربى ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلى ما بقيت حولك دندنه وبالضراعة إليك همهمة لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل فى حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وإنما الغموض فى تحقيق معناه فلنشتغل به .

(بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لا يكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة فى نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها ثم النظر بعد ذلك فى تحقيق معناها فى حق الله تعالى : فأول ماينبغى أن يتحقق أنه لايتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك إذ لا يحب الانسان إلا مايعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحى المدرك ثم المدركات فى انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه وإلى ماينافيه وينافره ويؤلمه وإلى مالايؤثر فيه بإيلام وإلذاذ فكل مافى إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ومافى ادراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوبا ولامكروها فاذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا أن فى الطبع ميلا إليه ومعنى كونه مبغوضا أن فى الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشئ الملذ فان تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمى مقتا فهذا أصل فى حقيقة معنى الحب لابد من معرفته . الأصل الثانى : أن الحب لما كان تابعا للادراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذة العين فى الابصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الأذن فى النغمات الطيبة الموزونة ولذة الشم فى الروائح الطيبة ولذة الذوق فى الطعوم ولذة اللمس فى اللين والنعومة

السموات فانى أعرف بها من طرق الأرض إشارة إلى المقامات والأحوال فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات فان السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق السموات ومتنزل البركات وهذه الأحوال لايتحقق بها إلا ذو قلب سماوى . قال بعضهم الحال هو الذكر الخفى وهذا إشارة إلى شئ مما ذكرناه وسمعت المشايخ بالعراق يقولون الحال ما من الله فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون هذا مامن العبد فاذا لاح للمريد

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبب إلىّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرة عيني في الصلاة⁽¹⁾ » فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لايدركه إلا من كان له قلب ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الانسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لايدرك بالحواس ولا يتمثل فى الخيال فلا يحب فاذن قد بطلت خاصية الانسان وما تميز به من الحس السادس الذى يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلامشاحة فيه وهيهات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التى تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا الميل إلى مافى إدراكه لذة كما سيأتى تفصيله فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور فى درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا . الأصل الثالث : أن الانسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لايتصور أن يحب الانسان غيره لذاته مالم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلنبين أسباب المحبة وأقسامها وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حى نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن فى طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب وأى شىء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأى شىء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الانسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا لمجرد مايخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم فى الحياة ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء فان أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالاضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه والهلاك والعدم ممقوت فى الصفات وكمال الوجود كما أنه ممقوت فى أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة فى الطباع بحكم سنة الله تعالى ـ ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ فاذن المحبوب الأول للانسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لأنه أيضا آلة فى دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب . فالانسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها حتى إنه ليحب ولده وإن كان لاينال منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله لأنه يخلفه فى الوجود بعد عدمه فيكون فى بقاء نسله نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع فى بقاء نفسه أبدا ، نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده

شىء من المواهب والمواجيد قالوا هذا مامن الله وسموه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موهبة . وقال بعض مشايخ خراسان الأحوال مواريث الأعمال . وقال بعضهم الأحوال كالبروق فان بقى فحديث النفس وهذا لايكاد يستقيم على الاطلاق وإنما يكون ذلك فى بعض الأحوال فانها تسطرق ثم تستلبها النفس فأما على الاطلاق فلا والأحوال لاتمتزج بالنفس كالدهن لايمتزج بالماء . وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لاتكون

(1) حديث حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائى من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم .

لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم فان العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب الطبع لامحالة فاذن المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب. السبب الثاني: الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها وقال رسول الله ﷺ «اللهم لاتجعل لفاجر علىّ يدا فيحبه قلبي[1]» إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لايستطاع دفعه وهو جبلة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الأجنبي الذي لاقرابة بينه وبينه ولاعلاقة وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول فان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة الأعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لالذاته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فاذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة وإلافكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فما أحب ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لوزال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو نقص نقص الحب ولوزاد زاد ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه . السبب الثالث أن يحب الشيء لذاته لالحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لالغيرها ولاتظنن أن حب الصور الجميلة لايتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لاليشرب الماء وتؤكل الخضرة أوينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري [2] والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى إن الانسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لالطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب وكل حسن وجمال فلايخلو إدراكه عن لذة ولاأحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع فان ثبت أن الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال [3]» .

[الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال] اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات

---

(١) حديث اللهم لاتجعل لكافر علىّ يدا فيحبه قلبي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري وإسناده ضعيف (٣) حديث إن الله جميل يحب الجمال مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

إلا إذا دامت فأما إذا لم تدم فهي لوائح وطوالع وبوادر وهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال . واختلف الشايخ في أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذي هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم : لاينبغي أن ينتقل عن الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه . وقال بعضهم : لايكمل المقام الذي هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالي إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه. والأولى أن يقال والله أعلم :الشخص في مقامه يعطى حالا من

ربما

ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الانسان فان الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدر فلا يتصوّر حسنه وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء فلابد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فاذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرّ وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء. فان قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فانها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بادراك حسنها وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس. فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعي مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لافادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره أو يحب عليا رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا

مقامه الأعلى الذي سوف يرتقي إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقي أولا يرتقي فان العبد بالأحوال يرتقي إلى المقامات والأحوال مواهب ترقي إلى المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة

ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذى لايتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله، فاذن الجمال موجود فى السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهى الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى إن الصبي المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالاطناب فى وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك فى نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالاطناب فى وصف المحاسن والقبائح التى لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك فى بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأى الديار ، فاذن ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن إليه بل المحسن فى نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط إحسانه إلى المحب لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لايدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الخامس : المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم « فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف[1] » وقد حققنا ذلك فى كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب فى الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب ، فاذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب ، وهو حب الانسان وجود نفسه وكماله وبقائه وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من كان محسنا فى نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه وحبه لكل ماهو جميل فى ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن فلو اجتمعت هذه الأسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لامحالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبا لامحالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها ، فان كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات ، فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام وفى الزهد حال ومقام وفى التوكل حال ومقام وفى الرضا حال ومقام . قال أبو عثمان الحيرى منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالا ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا. قال بعضهم الزجر هيجان فى القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة فاذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ .

(١) حديث فما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى آداب الصحبة .

بيان

(بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده)

وأن من أحبّ غير الله لامن حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى وحبّ الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حبّ الله تعالى وكذلك حبّ العلماء والأتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلايتجاوزه إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التى ذكرناها ونبين أنها مجتمعة فى حق الله تعالى بجملتها ولايوجد فى غيره إلاآحادها وأنها حقيقة فى حق الله تعالى ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل ، وهومجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضدّ ماتخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقا وبان أن التحقيق يقتضى أن لاتحب أحدا غير الله تعالى . فأما السبب الأول وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حى ، ولايتصوّر أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لاوجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكماله وجوده من الله وإلى الله وبالله فهو المخترع الموجد له وهو المبقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب للوصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب وإلافالعبد من حيث ذاته لاوجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولافضل الله تعالى عليه بالايجاد وهو هالك عقيب وجوده لولافضل الله عليه بالابقاء ، وهوناقص بعد الوجود لولافضل الله عليه بالتكميل لخلقته . وبالجملة فليس فى الوجود شئ له بنفسه قوام إلاالقيوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ماسواه قائم به فان أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيومابنفسه ومقوما لغيره فان كان لايحبه فهو لجهله بنفسه وبربه والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيازهد فيها وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولايحب ربه الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل وكل مافى الوجود بالاضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة إلى الشجر والنور بالاضافة إلى الشمس فان الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالاضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلايطلب فيها الحقائق فاذن إن كان حب الانسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

وقال بعضهم : الزجر ضياء فى القلب يبصر به خطأ قصدموالزجر فى مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق العلم وزجر من طريق العقل وزجر من طريق الايمان فينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ولا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاماوهكذا فى الزهد لايزال يتزهد بنازلة حال تريه قمة ترك الاشتغال بالدنيا وتقبح له الإقبال عليها

وأما السبب الثانى وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته وانتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لامحالة عنده وهذا بعينه يقتضى أن لايحب إلا الله تعالى فانه لوعرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى ـ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ـ وقد أشرنا إلى طرف منه فى كتاب الشكر ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز وإنما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فانه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أودنياه فى الاحسان إليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله عليه الدواعى وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أودنياه فى أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لايستطيع مخالفته فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه فان اعتقدته محسنا أوشكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر فانه لايتصور الاحسان من الانسان إلا إلى نفسه أما الاحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنه لايبذل ماله إلا لغرض له فى البذل إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنة والاستسخار أوالثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أوجذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لايلقى ماله فى البحر إذ لاغرض له فيه فلايلقيه فى يد إنسان إلا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فلست مقصودا بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أوالشكر أوالثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرك فى القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا البتة فاذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين: أحدهما أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلاقدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الأمير فانه لايرى محسنا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولايقدر على مخالفته ولوخلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لوخلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك . والثانى أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما لايعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب أوالحمد والثناء أوعوضا آخر وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالاضافة إليها فالاحسان فى الجود والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين إحسانا إليهم ولأجلهم لالحظ وغرض يرجع إليه فانه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والاحسان فى حق غيره كذب أومجاز ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لايحب العارف إلا الله تعالى

فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها إلى الدنيا ورؤية العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم فيزهد ويستقر زهده ويصير الزهد مقامه ولاتزال نازلة حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على الرضا ويصير ذلك مقامه وههنا لطيفة وذلك أن مقام الرضا والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ولايحكم ببقاء حال الرضا مع وجود داعية الطبع وذلك مثل كراهة يجدها الراضى بحكم الطبع ولكن علمه بمقام الرضا يغمر حكم

تعالى إذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الانسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته . وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود فى الطباع فانه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد فى قلبك تفرقة بينهما إذ تجد فى القلب ميلا إلى الأوّل وهو الحب ونفرة عن الثانى وهو البغض مع أنك آيس من خير الأوّل وآمن من شر الثانى لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بإيجادهم وثانيا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هى من ضروراتهم وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التى هى فى مظان حاجاتهم وإن لم تكن فى مظان الضرورة ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هى فى مظنة زينتهم وهى خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضرورى من الأعضاء الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضرورى من النعم الخارجة عن بدن الانسان الماء والغذاء ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش فاذن هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى . وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم والثانى يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا فى المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعى رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التى هى مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التى يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجمل وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا وأجل المعلومات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى

الطبع وظهور حكم الطبع فى وجود الكراهية المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضا ولكن يفقد حال الرضا لأن الحال تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع فيقال كيف يكون صاحب مقام فى الرضا ولا يكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام أثبت تقول : لأن المقام لما كان مشوبا بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع فحال الرضا أصلف ومقام الرضا أمكن ولا بدّ للمقامات من زائد الأحوال فلا مقام إلا

وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع إلى ثلاثة أمور: أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه. والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة. والثالث تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر ويمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى. أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل - وما أوتيتم من العلم إلا قليلا - بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك - ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى - خلق الانسان علمه البيان - فان كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو في نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلوم العلماء جهل بالاضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية. وأما صفة القدرة: فهي أيضا كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه لذيذ حتى إن الانسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف به فانه نوع كمال فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكا وأقواهم بطشا وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج إلى عد ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال - إنا مكنا له في الأرض - فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدرة بالاضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار

بعد سابقة حال. ولا تفرد المقامات دون سابقة الأحوال. وأما الأحوال فمنها ما يصير مقاما ومنها ما لا يصير مقاما والسر فيه ما ذكرناه أن الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنت وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن فلما كان في الأحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصارت الأحوال إلى ما لا نهاية لها ولطف سني الأحوال أن يصير مقاما ومقدورات الحق غير متناهية ومواهبه غير متناهية ولهذا قال بعضهم لو أعطيت روحانية عيسى وكالمة موسى وخلة إبراهيم

القاهر والعليم القادر السموات مطويات بيمينه والأرض وملكها وماعليها فى قبضته وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ولا يمسه لغوب ولافتور فى اختراعها فلاقدرة ولاقادر إلاوهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فان كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلايستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا . وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلايتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ذى الجلال والاكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ماأعطاه الله وليس فى المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فان منتهى الكمال أقل درجاته أن لايكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال فى حق غيره فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلانطول بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كمالا وجمالا محبوبا فلاتتم حقيقته إلا له وكمال غيره وتنزهه لايكون مطلقا بل بالاضافة إلى ماهو أشد منه نقصانا كما أن للفرس كمالا بالاضافة إلى الحمار وللانسان كمالا بالاضافة إلى الفرس وأصل النقص شامل للكل وإنما يتفاوتون فى درجات النقصان ؛ فاذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذى لاند له الفرد الذى لاضد له الصمد الذى لامنازع له الغنى الذى لاحاجة له القادر الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لاراد لحكمه ولامعقب لقضائه العالم الذى لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض القاهر الذى لايخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولاينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأزلى الذى لاأول لوجوده الأبدى الذى لاآخر لبقائه الضرورى الوجود الذى لايحوم إمكان العدم حول حضرته القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجماد والحيوان والنبات المنفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول وتخرس فى وصفه الألسنة الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين « لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك [1] » وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك الادراك إدراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أوينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون . فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لأن الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها ، وفى الزبور : من أظلم ممن

عليه السلام لطلبت ماوراء ذلك لأن مواهب الله لاتنحصر وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بماهو فيه من أمر الحق تعالى لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام « كل يوم لم أزدد فيه علما فلابورك لى فى صبيحة ذلك اليوم » وفى دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف فيه

(١) حديث لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

عبدنى لجنة أونار لولم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع . ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم ، ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم إنى لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل ، وفى الخبر « لايكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل [1] » وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار كما استقصيناه فى باب الأخوة فى الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي فى معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع فى مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فالتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لاترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب وبعضها لايجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الإلهية من العلم والبرّ والاحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لابمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات ، وأما مالايجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الآدمى فهى التى يومئ إليها قوله تعالى ـ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ـ إذ بين أنه أمر ربانى خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى ـ فاذا سويته ونفخت فيه من روحى ـ ولذلك أسجد له ملائكته ويشير إليه قوله تعالى ـ إنا جعلناك خليفة فى الأرض ـ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته [2] » حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا وإليه الاشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام « مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتنى عنده [3] » وهذه المناسبة لاتظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى « لايزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به [4] » وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد

(١) حديث لايكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل لم أجد له أصلا (٢) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدنى فقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث قوله تعالى لايزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

عملى ولم تبلغه نيق وأمنيق من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه » فاعلم أن مواهب الحق لاتنحصر والأحوال مواهب وهى متصلة بكلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها والله المنعم المعطى .

[الباب التاسع والخمسون فى الاشارات إلى المقامات على الاختصار والايجاز]

أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا أبو منصور بن

تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون ، ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد فى قول القائل :

لازلت أنزل من ودادك منزلا　　تتحير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقى أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا ، فهذه هى المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفى أعلى الدرجات لا فى أدناها فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه فى السبب والشركة نقصان فى الحب وغض من كماله ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فان لم يوجد فيمكن أن يوجد إلا الله تعالى فانه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ولا شريك له فى ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا فلاجرم لا يكون فى حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذاً لأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا.

(بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة)

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له فان هذه الغرائز ما ركبت فى الانسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام فلاجرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلاجرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالاضافة إلى مدركاتها فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى ـ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ـ وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأسامى فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التى فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغى أن تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شىء خسيس يفرح به والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم به وحتى إن الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الأشياء الحقيرة فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره

خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن على بن محمد الجوهرى إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحى بن صاعد قال أنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا الهيثم بن جميل قال أنا كثير بن سليم المدائنى قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال «يا رسول الله إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فانى أستغفر الله

من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فان اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وماهو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس فان كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحبه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها وشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان فى المعلومات ماهو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لامحالة وأشرفها وأطيبها وليت شعرى هل فى الوجود شىء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لايحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لاتشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الالهية المحيطة بكل الوجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ماتستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر مايعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أن العلم لذيذ وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع أولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهى مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى مادونه فى الجمال وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فان المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره الرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة ، نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبى أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لايبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

أسرار

في اليوم والليلة مائة مرة » وروى أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر «فانى لأستغفر الله وأتوب إليه فى كل يوم مائة مرة» وروى أبو بردة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة» وقال الله تعالى ـ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ـ وقال الله عز وجل ـ إن الله يحب التوابين ـ وقال الله تعالى ـ ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ـ التوبة أصل كل مقام وقوام كل مقام ومفتاح كل

أسرار الأمور الالهية ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال ـ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ـ وأنه أعددتهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا فانه لامحالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس فى بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا بالموت الذى لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالاضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين فانها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض يرتع فى رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هى أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذى هو أمر ربانى سماوى وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمها فلا ـ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ـ الآية . ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة فان للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفى الخبر « إن الشهيد يتمنى فى الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء[1] » فاذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا إلا أنهم يتفاوتون فى سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهى باطنة أقوى فى ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبى ولا لمعتوه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه فقد الصفة التى بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمرى طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الامور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التى قوى حرصهم على طلبها فانها أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية فأما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشىء اليسير فانه يصادف فى قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا

حال وهى أول المقامات وهى بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وإنى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة ثم رأيتها فى إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التى جعلها الله تعالى باجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات

(١) حديث إن الشهيد يتمنى أن يرد فى الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وإن الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء الحديث .

القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء وأنه لالذة فوقها ولهذاقال أبو سليمان الداراني إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني ياأبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق فسكت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال مافعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان قلت فأنت قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه وعن علي بن الموفق قال رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لايطرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبدالله لاخوفا من ناره ولاشوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لرابعة ماحقيقة إيمانك قالت ماعبدته خوفا من ناره ولاحبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا إليه ، وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حبّ الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حبّ الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذاوذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (١) » وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ولذلك قال بعضهم إني أقول يارب ياألله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جليسه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون مايقوله جنونا أو كفرا فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهي قرة العين التي لاتعلم نفس ماأخفي لهم منها وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقي في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأي معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

ويكاشف بالقدر والآيات ويصح له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات ويحظى بجميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيأت وتأكدت فأحد الثلاث بعد الإيمان التوبة النصوح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي

كانت

كانت لقلبي أهواء مفرّقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يادينى ودنيائى

ولذلك قال بعضهم: وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذّة الأكل والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته فى لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق فى لذاتهم ماذكره وهو أن الصبي فى أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده ألذّ من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ماقبلها فى الوصول إليها ثم تظهر لذة الرياسة والعلوّ والتكاثر وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى ـ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر ـ الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ماقبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الأخير إذ يظهر حب اللعب فى سنّ التمييز وحب النساء والزينة فى سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الأربعين وهى الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون ـ إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون ـ .

(بيان السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا)

اعلم أن المدركات تنقسم إلى مايدخل فى الخيال كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات وإلى مالا يدخل فى الخيال كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ومن رأى إنسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر إليها ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئى صارت بالرؤية أتمّ انكشافا ووضوحا وهو كشخص يرى فى وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لاتفارق إحدى الحالتين الأخرى إلافى مزيد الانكشاف، فاذن الخيال أوّل الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه فى العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المكشوف فى الجبهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية وإذا فهمت هذا فى التخيلات فاعلم أن المعلومات التى لاتتشكل أيضا فى الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والايضاح مابين التخيل والمرئى فيسمى الثانى أيضا بالاضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئى ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ومالم ترتفع كان الادراك الحاصل بمجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات

قلة الكلام وقلة الطعام وقلة المنام والاعتزال عن الناس . واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال وبها صار الأبدال أبدالا بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه وتبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج فى صحة هذه ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها أولها بعد الإيمان التوبة وهى فى مبدإ صحتها تفتقر إلى أحوال وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ولابد فى ابتدائها من وجود زاجر

وما غلب عليها من الصفات البشرية فانها لاتنتهى إلى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول فى سبب كونها حجابا يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ـ لن ترانى ـ وقال تعالى ـ لاتدركه الأبصار ـ أى فى الدنيا ، والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج (١) . فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة فمنها متراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك . ومنها مالم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها فى حق المؤمنين كاوردت به الأخبار سبعة آلاف سنة (٢) ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى ـ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ـ فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ماوعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لايرهق وجهه غبرة ولا قترة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة إلى ماعلمه كانكشاف تجلى المرآة بالاضافة إلى ماتخيله ، وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق بشرط أن لايفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه فى الآخرة كذلك ، بل أقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هى التى تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة ، والمعلوم فى الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية ، فاذا لم يكن فى معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح إلى غاية

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة ففى الصحيحين أنها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب. ولمسلم من حديث أبى ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنى أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبى ذر قال فيه أحمد مازلت له منكرا . وقال ابن خزيمة فى القلب من صحة إسناده شىء مع أن فى رواية لأحمد فى حديث أبى ذر رأيته نورا إنى أراه ورجال إسنادهما رجال الصحيح

(٢) حديث إن أقصى المكث فى النار فى حق المؤمنين سبعة آلاف سنة الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى هريرة إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتى الحديث وفيه وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف .

ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ماتقرر أن الأحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها . قال رجل لبشر الحافى مالى أراك مهموما . قال لأنى ضال ومطلوب ظللت الطريق والقصد وأنا مطلوب به ، ولو تبينت كيف الطريق إلى القصد لطابت ولكن سنة الغفلة أدركتنى وليس لى منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر . وقال الأصمعى : رأيت أعرابيا بالبصرة يشتكى عينيه وهما يسيل منهما الماء فقلت له ألا

الكشف أيضاحجة وصورة لأنهاهى بعينها لاتفترق منها إلا فى زيادة الكشف كما أن الصورة المرئية هى المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف وإليه الاشارة بقوله تعالى ـ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ـ إذ تمام النور لايؤثر إلا فى زيادة الكشف ولهذا لايفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا لأن المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعا ومن لانواة فى أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلى بالاضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لامحالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة[1] » فلاينبغى أن يظن أن غير أبى بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة مايجده أبو بكر بل لايجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره ولما فضل الناس بسر وقر فى صدره فضل لامحالة بتجل انفرد به وكما أنك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ماوصفناه من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ماتقولين فى الجنة فقالت الجار ثم الدار فبينت أنه ليس فى قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلايراه فى الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلايجد لذة النظر فى الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ولايحصد أحد إلا مازرع ولايحشر المرء إلا على مامات عليه ولايموت إلا على ماعاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فان ذلك منتهى لذته وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها مايشتهى فمن لايشتهى إلا لقاء الله تعالى فلالذة له فى غيره بل ربما يتأذى به فاذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالايمان. فان قلت فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهى قليلة وإن كان أضعافها لأن لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لاينتهى فى القوة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها . فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة كما لانسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع وإظهار عظم التفاوت بينهما لايمكن إلا بضرب مثال فنقول

تمسح عينيك فقال لا لأن الطبيب زجرنى ولاخير فيمن لاينزجر فالزاجر فى الباطن حال يهبها الله تعالى ولابد من وجودها للتائب ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه. قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق انتبه. وقال أبويزيد : علامة الانتباه خمس إذا ذكر نفسه افتقر وإذا ذكر ذنبه استغفر وإذا ذكر الدنيا اعتبر وإذا ذكر الآخرة استبشر وإذا ذكر المولى اقشعر . وقال بعضهم :الانتباه أوائل دلالات الخير إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى

(١) حديث إن الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الاسناد وفى الميزان للذهبى أن الدار قطنى رواه عن المحاملى عن على بن عبدة وقال الدارقطنى إن على بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن الجوزى فى الموضوعات من حديث جابر وأبى بردة وعائشة .

لذة النظر إلى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المعشوق ونقصانه فان اللذة فى النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة . والثانى كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه . والثالث كمال الادراك فليس التذاذه برؤية المعشوق فى ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا إدراك اللذة الضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بمهم من المهمات فقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه فهو فى هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقى سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الانسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس فى الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبى عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور والعارف وإن قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة مايبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر مايشوشه وينغصه وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة ـ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ـ وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة فان المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له فالاحاطة بكنه جلال الله محال فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر النعيم فى الآخرة وعظم كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ولا حصاد إلا فى الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله (١) » لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ويستدعى ذلك زمانا لا محالة فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا فى المعرفة بالغا إلى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة . وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسعت

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله إبراهيم الحربى فى كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر فى طاعة الله ووالد المطلب عبدالله بن حوطب مختلف فى صحبته ولأحمد من حديث جابر إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الانابة والترمذى من حديث أبى بكرة أن رجلا قال يارسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

التيقظ فاذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلب وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ. قال فارس : أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار . وقيل : التيقظ تبيان خط السالك بعد مشاهدة سبيل النجاة . وقيل: إذا صحت اليقظة كان صاحبها فى أوائل طريق التوبة . وقيل: اليقظة خردة من جهة الولى لقلوب الخائفين تدلهم على طلب التوبة فاذا تمت

أحبوا

أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان. فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين فى الآخرة. فاعلم أن الناس قد اختلفوا فى ذلك وأرباب البصائر لايلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن البقلة ومن يشتهى رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق فى عينه أو فى جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لانظر إليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا فى حكم الجواز، فأما الواقع فى الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع[1] والحق ماظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق فى العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة فى الشرع مجرى على ظاهره إذ لايجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم.

(بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى)

اعلم أن أسعد الخلق حالا فى الآخرة أقواهم حبا لله تعالى فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى فى الدنيا وأصل الحب لاينفك عنه مؤمن لأنه لاينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى إلى الاستهتار الذى يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون وإنما يحصل ذلك بسببين: أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الإناء الذى لايتسع للخل مثلا مالم يخرج منه الماء ـ ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ـ وكمال الحب فى أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ومادام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر مايشغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر مايبقى من الماء فى الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الاشارة بقوله تعالى ـ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم ـ وبقوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ بل هو معنى قولك لا إله إلا الله أى لامعبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به وكل محب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى ـ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ـ وقال ﷺ « أبغض إله عبد فى الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة[2] » ومعنى الاخلاص أن يخلص قلبه لله فلايبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبد الآباد فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمتنزهات

يقظته تقل بذلك إلى مقام التوبة فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة ولا تستقيم التوبة إلا بالمحاسبة. نقل عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر على الله يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية ـ فالمحاسبة بحفظ الأنفاس وضبط الحواس ورعاية الأوقات وإيثار المهمات ويعلم العبد أن

---

(١) حديث رؤية الله فى الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث أبى هريرة أن الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة تقدم.

حتى إن المتفرج بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فبقدر ماأنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما أنه لايقرب الانسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امرأته إلا و يضيق به قلب ضرتها فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركنى المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركنى المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « الطهور شطر الإيمان (١) » كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة . السبب الثانى لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلاقتها يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثانى ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهى الكلمة الطيبة التى ضرب الله بها مثلا حيث قال ـ ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ـ وإليها الاشارة بقوله تعالى ـ إليه يصعد الكلم الطيب ـ أى المعرفة ـ والعمل الصالح يرفعه ـ فالعمل الصالح كالحمال لهذه المعرفة وكالخادم وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولا من الدنيا ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الأول وهو الآخر وإنما الأول علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافى والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى ـ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ـ وبقوله تعالى ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو ـ ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى وإلى الثانى الاشارة بقوله تعالى ـ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ الآية وبقوله عز وجل ـ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ـ وبقوله تعالى ـ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ـ وبقوله تعالى ـ الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير ـ وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر . فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما

الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم والليلة رحمة منه لعله سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه كى لايستعبده الهوى وتسترقه الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ويسد مدخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت في

---

(١) حديث الطهور شطر الإيمان مسلم من حديث أبى مالك الأشعرى وقد تقدم .

ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيراده في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى ـ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ـ فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الايجاز ليقع التنبيه لجنسه . فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها أعني بالاضافة إلى الملائكة وملكوت السموات فانك إن نظرت فيهما من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالاضافة إليها ثم انظر إلى صغر الشمس بالاضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه فانه لا نسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالاضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي في العرش كذلك فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير وما أحقر الأرض كلها بالاضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالاضافة إلى البحار فقد قال رسول الله ﷺ «الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض [1]» ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة إلى كل الأرض ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالاضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطوما مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم وكيف علمه المص والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ثم إذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب

القلب نكتة سوداء وتنعقد عليه عقدة والتفقد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح ويحقق مقام المحاسبة فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته ووقته منورا معمورا بنور صلاته . وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات في قرطاس ويدع بين كل صلاتين بياضا وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطا وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعنيه نقط نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما

(١) حديث الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض لم أجده أصلا .

فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه وأما الانسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه إليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها فاعلم أن جهل الانسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الاكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فانها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول « إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش [1]» فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس فلا تبني بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده

لا يعنيه لتضيق المحاسبة مجاري الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لموضع صدقه في حسن الاعتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة. قال الجنيد: من حسنت رعايته دامت ولايته . وسئل الواسطي: أي الأعمال أفضل قال مراعاة السر والمحاسبة في الظاهر والمراقبة في الباطن ويكمل أحدهما بالآخر وبهما تستقيم التوبة والمراقبة والرعاية حالان شريفان وصيران مقامين شريفين يصحان بصحة مقام التوبة وتستقيم التوبة

(١) حديث إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش متفق عليه من حديث أبي هريرة «مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدي .

لطفا به وعناية بوجوده وماهو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه فسبحانه ماأعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من عجائب الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات فانّ القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ولانسبة لما أحاط به علمنا إلى ماأحاط به العلماء والأنبياء ولانسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى مااستأثر الله تعالى بعلمه بل كل ماعرفه الخلق لايستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فان كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

(بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب)

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلاالصفات والأسماء التى قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولاتخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والمتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقرّبون وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى ـ فأما إن كان من المقرّبين فروح وريحان وجنة نعيم ـ الآية فان كنت لاتفهم الأمور إلابالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول أصحاب الشافعى مثلا يشتركون فى حب الشافعى رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامى يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقيه به أتمّ وإعجابه به وحبه له أشد فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لامحالة ومال إليه قلبه فان رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لامحالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامى قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لايدرى مافى التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على مافيها من العجائب تضاعف حبه لامحالة لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامى يعلم ذلك ويعتقده وأما البصير فانه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه مايبنهر به عقله ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد بمعرفته وله حبا وبحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لاساحل له فلاجرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لاحصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التى ذكرناها للحب فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته إذ تتغير بتغير الاحسان فلايكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء وأمامن يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فانه لايتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى ـ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ـ

على الكمال بهما صارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة . أخبرنا أبوزرعة إجازة عن ابن خلف أبى بكر الشيرازى قال سمعت أباعبدالرحمن السلمى يقول سمعت الحسن الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول أمرنا هذا مبنى على فصلين وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ويكون العلم على ظاهرك قائما. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق فى كل لحظة ولفظة قال الله تعالى ـ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ـ وهذا هو علم القيام

(بيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه)

اعلم أنّ أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول وترى الأمر بالضد من ذلك فلابد من بيان السبب فيه وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لاتفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فانه جلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فان هذه الصفات لاتحس بشىء من الحواس الخمس ثم لايمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كل ما فى العالم سواه لم نعرف به صفته فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل مانشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لاحصر لها فان كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لايظهر عندنا مالايتصور فى الوجود شىء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله إذ كل ذرة فانها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق فى الوجود شىء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه فان ماتقصر عن فهمه عقولنا فله سببان: أحدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لايخفى مثاله . والآخر مايتناهى وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لالخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة وفى غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الأشياء تستبان بأضدادها وماعم وجوده حتى إنه لاضد له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض فانا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ويزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لاغروب لها لكنا نظن أنه لاهيئة فى الأجسام إلا ألوانها وهى السواد والبياض وغيرها

وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والنقصان وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الخاطر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الأعمال لأن الخواطر تحقق إرادة القلب والقلب أمير الجوارح ولاتتحرك إلا بتحرك القلب بالارادة وبالمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التوبة لأن من حصر الخواطر كفى مؤنة الجوارح لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة المكاره من

فانا لانشاهد فى الأسود إلا السواد وفى الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر فى نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب فى قصور الأفهام وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فانه فى حال اعتدال أمره لايرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهى تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر فى شىء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلايكون نظره مجاوزا له إلى غيره كمن نظر فى شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لامن حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا فى الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له وكان هو الموحد الحق الذى لايرى إلا الله بل لاينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذى يقال فيه إنه فنى فى التوحيد وانه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لايعنيهم فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى وانضم إليه أن المدركات كلها التى هى شاهدة على الله إنما يدركها الانسان فى الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لايحس بشهادتها لطول الأنس بها ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

قد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لايعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

القلب وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة . أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمى قال سمعت أباعثمان المغربى يقول أفضل مايلزم الانسان فى هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم وإذا صحت التوبة صحت الانابة قال ابراهيم بن أدهم اذا صدق العبد فى توبته صار منيبا لأن الانابة ثانى درجة التوبة وقال أبو سعيد القرشى المنيب الراجع عن كل شىء يشغله عن الله الى الله وقال بعضهم الانابة الرجوع منه اليه لامن شىء

(بيان معنى الشوق إلى الله تعالى)

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أما الاعتبار فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب فكل محبوب يشتاق اليه في غيبته لا محالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه فان الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لا يطلب ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشتاق إليه فان من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق إليه وما أدرك بكماله لا يشتاق اليه وكمال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوما النظر اليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات . فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق اليه ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه . والثاني : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق الى أن ينكشف له ما لم يره قط والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فان ما اتضح للعارفين من الأمور الالهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات فان الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك ينضاف اليها شواغل الدنيا فانما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فانه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما الثاني أن الأمور الالهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقا الى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضر بي القلق قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمني ما أقول فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فان هذا الشوق يسكن في الآخرة وأما الشوق الثاني فيشبه أن لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لا نهاية له ولا يزال العبد عالما بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

غيره فمن رجع من غيره اليه ضيع أحد طرفي الانابة والمنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع اليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شبحا لا وصف له قائما بين يدي الحق مستغرقا في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة . قال أبو سليمان ما استحسنت من نفسي عملا فأحتسبه وقال أبو عبد الله السجزي من استحسن شيئا من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع

ألطاف

ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبد الآباد وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق إلى مالم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى ـ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ـ محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بتمامه وقوله تعالى ـ انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ـ يدل على أن الأنوار لابد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقا فاما أن يتجدد نور فلا والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه. وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك [1]» وقال أبو الدرداء لكعب أخبرني عن أخص آية يعني في التوراة فقال يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم لأشد شوقا قال ومكتوب إلى جانبها من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فقال أبو الدرداء أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا وفي أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال ياداود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبني ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا ياأهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي وائنسوا بي أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم فاني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجيي ومحمد صفيي وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي . وروي عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عبادا من عبادي يحبوني وأحبهم ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ويذكروني وأذكرهم وينظرون إلي وأنظر إليهم فان حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا الي أقدامهم وافترشوا الي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا الي بانعامي فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشتكون من حبي أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض ومافيها في موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة أقبل بوجهي عليهم فترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه .وفي أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه ياداود الى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق الي قال يارب من المشتاقون اليك قال ان المشتاقين الي الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الي خرقا ينظرون الي واني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي ثم أدعو نجباء ملائكتي فاذا اجتمعوا

---

(١) حديث أنه كان يقول في دعائه اللهم اني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت الحديث أحمد والحاكم وتقدم في الدعوات .

الى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الانابة وهو في تحقيق مقام التوبة ولا تستقيم التوبة الا بصدق المجاهدة ولا يصدق العبد في المجاهدة الا بوجود الصبر. وروى فضالة بن عبيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المجاهد من جاهد نفسه ولا يتم ذلك الا بالصبر وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه وصدق المراقبة له بالقلب وجسم مواد

سجدوا لى فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلىّ وأباهى بكم أهل الشوق إلىّ فان قلوبهم لتضىء فى سمائى للملائكة كما تضىء الشمس لأهل الأرض. ياداود إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محدثى ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلىّ يزدادون فى كل يوم شوقا . قال داود يارب أرنى أهل محبتك ، فقال ياداود ائت جبل لبنان فان فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فاذا أتيتهم فأقرئهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فانكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود إنى رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة . قال فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ماقطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا . وقال الآخر . سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لاحاجة لنا فى شىء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك وطلبتنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هى النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترىء العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات . وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لاحاجة لنا فى شىء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبى عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شىء دونك. فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ماأحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فانى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال داود يارب بم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بى ومناجاتهم لى وإن هذا منزل لاينالة إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشىء من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلىّ نظر الناظر بعينه إلى الشىء وأريه كرامتى فى كل ساعة وأقربه من نور وجهى ، إن

الخواطر والصبر ينقسم إلى فرض وفضل فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرمات ومن الصبر الذى هو فضل الصبر على الفقر والصبر عند الصدمة الأولى وكتمان المصائب والأوجاع وترك الشكوى والصبر على إخفاء الفقر ،والصبر على كتم المنح والكرامات ورؤية العبر والآيات ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية

مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فاذا فعلت ذلك به ياداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لايفتر عن الاشتغال بى . يستعجلنى القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقى لايرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأيته ياداود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفا وعبادة ، وعزتى وجلالى ياداود لأقعدنه فى الفردوس ولأشفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا . وفى أخبار داود أيضا : قل لعبادى المتوجهين إلى محبتى ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلىّ بعيون قلوبكم وما ضركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائى . وفى أخبار داود أيضا : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبنى ، فان كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك فان حبى وحبها لايجتمعان فى قلب . ياداود خالص حبيبى مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما مااستبان لك مما وافق محبتى فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقا على أنى أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعينك على الشدائد وإنى قد حلفت على نفسى أنى لاأثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدى وأنه لاغنى به عنى ، فاذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فانى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها أضف الأشياء الىّ لاتضاد عملك فتكون منعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتى حدا فليس لها غاية ، ومتى طلبت منى الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة منى حدا ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندى أبح لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضعنى بين عينيك وانظر الىّ ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنى فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابى عنها فانى حلفت بعزتى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويف تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين ، فلو علم اهل محبتى منزلة المريدين عندى لكانوا لهم أرضا يمشون عليها . ياداود لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندى جهيدا ، ومن كتبته عندى جهيدا لايكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين . ياداود : تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لاتؤتين منها فأحجب عنك محبتى لاتؤيس عبادى من رحمتى اقطع شهوتك لى فانما أبحت الشهوات لضعفة خلقى مابال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتى ، وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول أدنى مايصل اليهم أن أحجب عقولهم عنى فانى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهته عنها . ياداود : لاتجعل بينى وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتى . أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار فان محبتى الصوم إدمانه . ياداود تحبب الىّ بمعاداة نفسك امنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى اذا مننت عليك به وانى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتى . وأوحى الله تعالى الى داود ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الىّ وتقطعت أوصالهم من محبتى

ونفى الخواطر ، فاذن حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة والصبر من أعز مقامات الموقنين وهو داخل فى حقيقة التوبة . قال بعض العلماء : أى شىء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعا وما ذكر شيئا بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه . ومن الصبر الصبر على النعمة ، وهو أن لايصرفها فى معصية الله تعالى وهذا أيضا داخل فى صحة التوبة

ياداود هذه إرادتى فى المدبرين عنى فكيف إرادتى فى المقبلين علىّ ياداود أحوج مايكون العبد إلىّ إذا استغنى عنى وأرحم ماأكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل مايكون عندى إذا رجع إلىّ ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

(بيان محبة الله للعبد ومعناها)

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك. ولنقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى ـ يحبهم ويحبونه ـ وقال تعالى ـ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ـ وقال تعالى ـ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ـ ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال ـ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ـ وقد روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لاذنب له ثم تلا ـ إن الله يحب التوابين ـ [١] » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لايضر الكفر الماضى بعد الاسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال ـ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطى الإيمان إلا من يحب [٢] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله [٣] » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لايزال العبد يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به [٤] » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اعمل ماشئت فقد غفرت لك ، وماورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشىء الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الأسامى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى إن اسم الوجود الذى هو أعم الأسماء اشتراكا لايشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لايكون مساويا للوجود المتبوع ، وإنما الاستواء فى إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه ، وهذا التباعد فى سائر الأسامى

(١) حديث أنس إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لاذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثانى من حديث ابن مسعود وتقدم فى التوبة (٢) حديث إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب الحديث الحاكم وصحح اسناده والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ابن ماجه من حديث أبى سعيد باسناد حسن دون قوله ومن أكثر الى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة (٤) حديث قال الله تعالى لايزال العبد يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه الحديث البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

وكان سهل بن عبدالله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، وروى عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد فى الرضا والغضب والصبر عن محمدة الناس والصبر على الخمول والتواضع والذل داخل فى الزهد وان لم يكن داخلا فى التوبة وكل مافات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد فى الزهد وهو ثالث الأربعة التى ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تزكيتها وتزكيتها بالتوبة

أظهر كالعلم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لايشبه فيه الخالق الخلق وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامي أولا للخلق فان الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها مايوافقها فتستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ولايتصور تجدده ولازواله فلايكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط وليس في الوجود إلاذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى ـ يحبهم ويحبونه ـ فقال بحق يحبهم فانه ليس يحب إلانفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لايحب إلانفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلايجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو إذن لايحب إلانفسه ، وماورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الارادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف الى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى «لايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ، ولايفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له وقد يقرب عبدا ولايمنعه من الدخول عليه لاللانتفاع به ولاللاستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لاغرض له فيه أصلا فاذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه وإذا اكتسب من الخصال الحميدة مااقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبب نفسه إلى الملك فحب الله للعبد انما يكون بالمعنى الثاني لابالمعنى الأول وانما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لايسبق الى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الالهية فهو قرب بالصفة لابالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى اذ التغير عليه محال بل لايزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال ولاينكشف هذا الا بمثال في القرب بين الأشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول الى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى ارتفاع العلم فلايزال دائبا في التغير والترقي الى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن

فالنفس اذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية وقلة الصبر من وجود الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها الى اللين لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى وتبلغ بطمأنينتها محل الرضا ومقامه وتطمئن في مجاري الأقدار قال أبو عبد الله النباجي لله عباد يستحيون من الصبر ويتلقفون مواضع أقداره بالرضا تلقفا ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول

الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال فإنه لا نهاية لكماله وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا إلى حد محدود لا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لا نهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق إلى ما فاته وإذا أدرك منه شيئا يلتذ به والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى . فإن قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه ؟ قال لم يترك له أهلا ولا مالا [1]» فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشترى حمارا فتركبه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار ، وفي الخبر «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه [2]» وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد يصافيك ، وقال بعض المريدين لأستاذه قد طولعت بشيء من المحبة فقال يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه [3]» وقد قال «إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه [4]» فأخص علاماته حبه لله فإن ذلك يدل على حب الله . وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فإنها أيضا علامات حب الله للعبد .

(القول في علامات محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محبا للموت غير فار منه فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه

أصبحت وما لي سرور إلا مواقع القضاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حين وصاه «اعمل لله باليقين في الرضا فإن لم يكن فإن في الصبر خيرا كثيرا» وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من خير ما أعطى الرجل الرضا بما قسم الله تعالى له» فالأخبار والآثار والحكايات في فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى والرضا ثمرة التوبة النصوح وما تخلف عبد عن الرضا إلا بتخلفه عن التوبة النصوح فإذن تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر وحال الرضا ومقام

---

(١) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم .
(٢) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في مسنده (٣) حديث إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبد خيرا (٤) حديث إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف .

ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (١) » وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : مامن خصلة أحب إلى الله أن تكون فى العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق فى الحب القتل فى سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل فى سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال ـ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ـ وقال عز وجل ـ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ـ وفى وصية أبى بكر لعمر رضى الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء فان حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب اليك من الموت وهو مدركك وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه ، ويروى عن اسحق بن سعد بن أبى وقاص قال حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إنى أقسمت عليك اذا لقيت العدوّ غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى ويبقر بطنى فاذا لقيتك غدا قلت ياعبد الله من جدع أنفك وأذنك فأقول فيك يارب وفى رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وان أنفه وأذنه لمعلقتان فى خيط (٢) قال سعيد بن المسيب أرجو أن يبرّ الله آخر قسمه كما أبر أوله ، وقد كان الثورى وبشر الحافى يقولان لايكره الموت إلا مريب لأن الحبيب على كل حال لايكره لقاء حبيبه . وقال البويطى لبعض الزهاد أتحب الموت فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته وتلا قوله تعالى ـ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ـ فقال الرجل فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «لا يتمنين أحدكم الموت (٣) » فقال إنما قاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه . فان قلت ممن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا ينافى كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب ولكن لايبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون فى الحب ويدل على التفاوت ماروى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحته إياها وإنى لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهى أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم (٤) » فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه

الرضا والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح لأن خوفه حمله على التوبة ولولا خوفه ما تاب ولولا رجاؤه ماخاف فالرجاء والخوف يتلازمان فى قلب المؤمن ومتبدل الخوف والرجاء لاتائب المستقيم فى التوبة . دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى سياق الموت فقال « كيف تجدك قال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى فقال ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما

---

(١) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث أبى هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن أبى وقاص قال حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إنى أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ويجدع أنفى وأذنى الحديث الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية واسناده جيد (٣) حديث لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث أبى حذيفة بن عتبة أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفى رواية له إن سالما شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ما عصاه وفيه عبد الله بن لهيعة .

بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها . وأما السبب الثانى للكراهة : فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لايدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لاتنافى كمال الحب أصلا وعلامته الدءوب فى العمل واستغراق الهم فى الاستعداد . ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالايثار فقال ـ يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ـ ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه مايهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ماأريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل فاذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار وقالت يايوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها إن الله جل ذكره أمرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين فقالت أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى فعندها سكنت إليه ؟ فاذن من أحب الله لايعصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب إيثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا وإنما الحبيب من اجتنب المناهى وهو كما قال لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى ـ يحبهم ويحبونه ـ وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته ولذلك قال تعالى ـ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ـ فان قلت فالعصيان هل يضاد أصل المحبة فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل مايضره مع العلم بأنه يضره وذلك لايدل على عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ماروى « أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتكبها إلى أن أتى به يوما فحده فلعنه رجل وقال ما أكثر مايؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لاتلعنه فانه يحب الله ورسوله [1] » فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة، نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب

يخاف » وجاء فى تفسير قوله تعالى ـ ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ـ هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول قد هلكت لاينفعنى عمل فالتائب خاف فتاب ورجا المغفرة ولايكون التائب تائبا إلاوهو راج خائف ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله فقد شكر النعم لأن كل جارحة من الجوارح نعمة وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها فى الطاعة وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم فاذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها فقد جمع مقام

(١) حديث أتى بنعيمان يوما فحده فلعنه رجل قال ما أكثر مايؤتى به فقال لاتلعنه فانه يحب الله ورسوله البخارى وقد تقدم .

وقد

وقد قال بعض العارفين إذا كان الايمان فى ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا فاذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل إذا قيل لك أتحب الله تعالى فاسكت فانك إن قلت لا ، كفرت وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادّعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشىء من ذلك . ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفترّ عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذى هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه فان من يحب إنسانا يحب كلب محلته فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة فى الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب الأخوة والصحبة ولذلك قال تعالى ـ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبونى لله تعالى [1]» وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فانما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فانما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الارادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول فى المنام إن كنت تزعم أنك تحبنى فلم جفوت كتابى أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابى قال فانتبهت وقد أشرب فى قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالى . وقال ابن مسعود لا ينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة . ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لابراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وفى أخبار داود عليه السلام لا تستأنس إلى أحد من خلق فانى إنما أقطع عنى رجلين رجلا استبطأ ثوابى فانقطع ورجلا نسينى فرضى بحاله وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه فى الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته وفى قصة برخ وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إن برخا نعم العبد هو لى إلا أن فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء . وروى أن عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا فنظر إلى طائر وقد عشش فى شجرة يأوى إليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر

التوبة حال الزجر وحال الانتباه وحال التيقظ ومخالفة النفس والتقوى والمجاهدة ورؤية عيوب الأفعال والانابة والصبر والرضا والمحاسبة والمراقبة والرعاية والشكر والخوف والرجاء وإذا صحت التوبة النصوح وتزكت النفس انجلت مرآة القلب وبان قبح الدنيا فيها فيحصل الزهد والزهد يتحقق فيه التوكل لأنه لا زهد فى الموجود إلا لاعتماده على الموعود والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل وكلما بقى على العبد بقية فى تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه

---

(١) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه الحديث تقدم .

قال فضل فأوحى الله تعالى إلى نبيّ ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا ، فاذن علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة ، وكمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لايفهم أمور الدنيا مالم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الولهان فانه يكلم الناس بلسانه وأنسه فى الباطن بذكر حبيبه فالمحب من لايطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة فى قوله تعالى ـ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ـ قال هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضى الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبى بكر المحب لايسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتى إذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أناذا موجود لمن طلبنى . وقال موسى عليه السلام: يارب أين أنت فأقصدك فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ومنها أن لايتأسف على مايفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما وماشاء كان فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم وحق المحب إذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأىّ ذنب قطعت برّك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا مافيه خيرته ويذكر قوله ـ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ـ ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد علامة المحب دوام النشاط والدءوب بشهوة تفتر بدنه ولاتفتر قلبه . وقال بعضهم العمل على المحبة لايدخله الفتور . وقال بعض العلماء والله ماشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود فى المشاهدات فان العاشق لايستثقل السعى فى هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهر لامحالة ماهو دونه فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل فى خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال فى حبه ، وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ماكان سبب حالك هذه فى المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبى كله وأنت معرض عنى بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبنى فايش تنفق على قال ياسيدى أملكك ماأملك

زهده فى الدنيا وهو ثالث الأربعة . أخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ بفاطمة رضى الله عنها فرآها قد أحدثت فى البيت سترا وزوائد فى يديها فلما رأى

ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك فقات هذا خلق لخالق وعبد لعبد فكيف بعبد لمعبود فكل هذا بسببه . ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه كما قال الله تعالى ـ أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أولياءه إذ قال الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ، ويأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال فان الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه فان نام أخذه معه في ثيابه فاذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى في الأبرار ـ إن الأبرار لفي نعيم ـ ثم قال ـ يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون ـ فاذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال ـ إن كتاب الأبرار لفي عليين ـ ثم قال ـ يشهده المقربون ـ فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون وكما أن الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون حالهم في الآخرة ـ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ـ كما بدأنا أول خلق نعيده ـ وكما قال تعالى ـ جزاء وفاقا ـ أي وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب في حبه وأعماله ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ـ وـ إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ وـ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ـ . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ـ فمن كان حبه في الدنيا رجاء لنعيم الجنة والحور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهناك تنتهي لذته في الآخر لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ماتشتهيه نفسه وتلذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالاخلاص والصدق أنزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ فالأبرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالاضافة إلى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقوام آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب [1] » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال ـ وما أدراك ما عليون ـ كما قال تعالى ـ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ـ ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الإعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيب سيد

ذلك رجع ولم يدخل ثم جلس فجعل ينكت في الأرض ويقول مالي وللدنيا مالي وللدنيا فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل ذلك الستر فأخذت الستر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له اذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقل له قد تصدقت به فضعه حيث شئت فأتى بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت فقال النبي صلى الله عليه وسلم بأبي وأمي قد فعلت بأبي وأمي قد فعلت اذهب فبعه » وقيل في قوله تعالى ـ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصرا على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري ولعله أدرج فيه .

المبين (١) إذ سمع قوله تعالى ـ ألا بعدا لثمود ـ. ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ـ وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به لحديث البعد فى حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب فى القرب ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ولا يبكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب المزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد فى كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله ﷺ « من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون (٢) » وكذلك قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي فى اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة (٣) » وإنما كان استغفاره من القدم الأول فانه كان بعدا بالاضافة إلى القدم الثانى ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور فى الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روى أن الله تعالى يقول إن أدنى ماأصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى أن أسلبه لذيذ مناجاتى فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى ماظهر من مبادىء اللطف وذلك هو المكر الخفى الذى لايقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت مالا يدرك بعد فوته . سمع إبراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو فى سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفو ... ر سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك مافا ... ت فهب مافات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل ياإبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لايشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التى تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان وكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهى أوصاف اللطف والرحمة والحكمة فمن أوصافه مايلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت نعوذ بالله منه وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيئا خاف لامحالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ومكنه وعلمه فالمحب لايخلو عن خوف والخائف لايخلو عن محبة ولكن الذى غلبت عليه المحبة

أحسن عملا ـ قيل الزهد فى الدنيا . سئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الزهد فقال هو أن لاتبالى بمن أكل الدنيا مؤمن أو كافر . وسئل الشبلى عن الزهد فقال ويلكم أى مقـــدار لجناح بعوضة أن يزهد فيها . وقال أبو بكر الواسطى إلى متى تصول بترك كنيف وإلى متى تصول بإعراضك عما لايزن عند الله جناح بعوضة فاذا صح زهد العبد صح توكله أيضا لأن صدق توكله مكنه من زهده فى الوجود فمن استقام فى التوبة وزهد فى الدنيا وحقق

(١) حديث شيبتنى هود أخرجه الترمذى وقد تقدم غير مرة (٢) حديث من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون لا أعلم هذا إلا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يارسول الله أوصنى فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد (٣) حديث إنه ليغان على قلبي متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

حق

حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا اليسير يقال هو في مقام المحبة ويعدّ من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب فقد روى في بعض الأخبار أن بعض الصدّيقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك فهام في الجبال وحار عقله وولِه قلبه وبقى شاخصا سبعة أيام لاينتفع بشيء ولاينتفع به شيء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب انقصه من الذرة بعضها فأوحى الله تعالى اليه إنما أعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذى سألني هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ماأصابه من ذلك فقال سبحانك ياأحكم الحاكمين انقصه مما أعطيته فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقى معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد ... عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب ... كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت ... عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد في الأوقات تجرى ... له في كل يوم ألف عيد
وللأحباب أفراح بعيد ... ولايجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لايجوز إظهاره وهي هذه الأبيات :

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم ... فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله في ظل قدسه ... تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى ... ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته ... وفي حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ماتدق صفاته ... وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمى به مايصونه ... وأبذل منه ماأرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم ... وأمنع منه ماأرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه ... إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التى إليها الاشارة لايجوز أن يشترك الناس فيها ولايجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها وبطلت الأسواق والمعايش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخير أسرارا وحكما ولامنتهى لحكمته كما لاغاية لقدرته . ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره فان الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى مايتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبى وتتعجل عليه البلوى في الدنيا ، نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله

هذين المقامين استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط إحداهما بالأخرى أن يتوب العبد ثم يستقيم في التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصى إلى تطهير الجوارح عما لايعنى فلايسمع بكلمة فضول ولاحركة فضول ثم ينتقل بالرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن وتستولى المراقبة على الباطن وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه

فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور وربما تشتعل من الحب نيرانه فلايطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلايندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول:

وقالوا قريب قلت ماأنا صانع ... بقرب شعاع الشمس لو كان فى حجرى

فمالى منه غير ذكر بخاطر ... يهيج نار الحب والشوق فى صدرى

والعاجز عنه يقول :

يخفى فيبدى الدمع أسراره ... ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ... ومن سره فى جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به كأنه أراد من يكثر التعريض به فى كل شىء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاء فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل لكنى أقول لايحبه من لم يتنعم بضره فقال ذو النون ولكنى أقول لايحبه من شهر نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب إليه فان قلت المحبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار الخير فلماذا يستنكر . فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق المحب أن ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط فأما إرادته اطلاع غيره فشرك فى الحب وقادح فيه كما ورد فى الانجيل إذا تصدقت فتصدق بحيث لاتعلم شمالك ماصنعت يمينك فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلايعلم بذلك غير ربك فاظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلايلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين مااستجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال ياأخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيته من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان عارفا وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لايفترون ولايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المحبين فى مملكته وأن حبه أنقص من حب كل محب لله قال بعض الكاشفين من المحبين عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئا فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ماخلق الله من شىء فقلت من أنتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ماخطر على قلوبنا قط سواه ولاذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم فاذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى ، نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته كما حكى عن الجنيد أنه قال مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولاعرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى أراه بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ثم رجعت إلى السرى فأخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ماأبصره قلت ياأستاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السرى مرة

ثم خواطر الفضول فاذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم - فاستقم كما أمرت ومن تاب معك - أمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمرا له ولأتباعه وأمته وقيل لايكون المريد مريدا حتى لايكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة ولايلزم من هذا وجود العصمة ولكن الصادق التائب فى النادر إذا ابتلى بذنب ينمحى أثر الذنب من باطنه فى

لو شئت أقول ماأبيس جلدى على عظمى ولا سل جسمى إلا حبه ثم غشى عليه وتدل الغشية على أنه أصبح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته . ومنها الأنس والرضا كما سيأتى . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ومالا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق ، نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبون لايخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانهم وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والاحسان فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم ثم من الناس من يحب هواه وعدو الله إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله فى أرضه وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال يادوست أى ياحبيب فقيل له قد لايكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال فى أذن القائل سرا لايخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس وقد قال أبو تراب النخشبى فى علامات المحبة أبياتا :

لاتخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره فى كل ماهو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا ... متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا ... فى خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا ... بمليكه فى كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

(بيان معنى الأنس بالله تعالى)

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه فى وقته فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة

ألطف ساعة لوجود الندم فى باطنه على ذلك والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا فاذا تاب توبة نصوحا ثم زهد فى الدنيا حتى لايهتم فى غدائه لعشائه ولا فى عشائه لغدائه ولا يرى الادخار ولا يكون له تعلق هم بعد فقد جمع فى هذا الزهد والفقر والزهد أفضل من الفقر وهو فقر وزيادة لأن الفقير عادم الشىء اضطرارا والزاهد تارك الشىء اختيارا وزهده يحقق توكله وتوكله يحقق رضاه ورضاه يحقق الصبر وصبره

فى الانزعاج شوقا وهو بالاضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد استبشره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فاذا كان الغائب حاضرا فالى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى مابقى فى الامكان من مزايا الألطاف ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة كما حكى أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت؟ فقال من الأنس بالله وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحكماء فى دعائه يامن آنسنى بذكره وأوحشنى من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لى مشتاقا وبى مستأنسا ومن سواى مستوحشا وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركى مالا يعنينى وأنسى بمن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له ياراهب لقد أعجبتك الوحدة فقال ياهذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت ياراهب ما أقل ما تجده فى الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت ياراهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى قال إذا صفا الود وخلصت المعاملة قلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع الهم فصارها واحدا فى الطاعة . وقال بعض الحكماء عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك . فان قلت فما علامة الأنس فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة وغريب فى حضر وحاضر فى سفر وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال على كرم الله وجهه فى وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلانوا مااستوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهده وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبى الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا . وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فان المحسوسات وكل مايدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

تحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقق خوفه وخوفه يحقق رجاءه ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها وهو دوام العمل لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين فى التوبة تخلفوا عن كثير من سنى الأحوال لتخلفهم

الأنس بالله لايحويه بطال وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

(بيان معنى الانبساط والادلال الذى تثمره غلبة الأنس)

اعلم أن الأنس إذادام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فانه يثمر نوعا من الانبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم فى مقام الأنس ومن لم يقم فى ذلك المقام ويتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسق لبنى إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسق لهم فى سبعين ألفا فأوحى الله عز وجل إليه كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعوننى على غير يقين ويأمنون مكرى ارجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود فى شملة قد عقدها على عنقه فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما اسمك فقال اسمى برخ قال فأنت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا فخرج فقال فى كلامه ماهذا من فعالك ولاهذا من حلمك وماالذى بدالك أنقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ماعندك أم اشتد غضبك على المذنبين ألست كنت غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم ترينا أنك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن قال احترقت أخصاص بالبصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق وأبوموسى يومئذ أمير البصرة فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخص قال فأتى بشيخ فقال ياشيخ مابال خصك لم يحترق قال إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لايحرقه فقال أبوموسى رضى الله عنه إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يكون فى أمتى قوم شعثة رءوسهم دنسة ثيابهم لوأقسموا على الله لأبرهم[1]» قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبوعبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لاتحترق بالنار فقال إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لايحرقنى بالنار قال فاعزم على النار أن تطفأ قال فعزم عليها فطفئت وكان أبوحفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاقى مدهوش فقال له أبوحفص ماأصابك فقال ضل حمارى ولاأملك غيره قال فوقف أبوحفص وقال وعزتك لاأخطو خطوة مالم ترد عليه حماره قال فظهر حماره فى الوقت ومر أبوحفص رحمه الله . فهذا وأمثاله يجرى لذوى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله أهل الأنس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة. وقال مرة لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد فى أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له ياحسن رؤيتهم فى عز ما تاهوا

ولاتستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ففى القرآن تنبيهات على

عن هذا الرابع ولا يراد الزهد فى الدنيا إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى والعمل لله أن يكون العبد لايزال ذاكرا أو تاليا أو مصليا أو مراقبا لايشغله عن هذه إلا واجب شرعى أو مهم لابد منه طبيعى فاذا استولى العمل القلبى على القلب مع وجود الشغل الذى أداه إليه حكم الشرع لايفتر باطنه عن العمل فاذا كان مع الزهد والتقوى متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهدا فى العبودية

(١) حديث الحسن عن أبى موسى يكون فى أمتى قوم شعثة رءوسهم دنسة ثيابهم لوأقسموا على الله لأبرهم ، ابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

هذه المعانى لوفطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار فإنما هى عند ذوى الاعتبار من الأسمار . فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس أماتراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة . أماإبليس فأبلس عن رحمته . وقيل إنه من المبعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه ـ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ـ وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاعراض عن عبد والاقبال على عبد وهما فى العبودية سيان ولكن فى الحال مختلفان ، فقال ـ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ـ وقال فى الآخر ـ أما من استغنى فأنت له تصدى ـ وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل ـ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ـ وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال ـ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم ـ حتى قال ـ فلاتقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ـ وقال تعالى ـ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ـ فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام ـ إن هى إلافتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ـ وقوله فى التعليل والاعتذار لما قيل له ـ اذهب إلى فرعون ـ فقال ـ ولهم على ذنب ـ وقوله ـ إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولاينطلق لسانى ـ وقوله ـ إننا نخاف أن يفرط علينا أوأن يطغى ـ وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بالسجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة ـ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ـ . قال الحسن العراء هو القيامة ، ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له ـ فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ـ وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى ـ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ـ وقد قال ـ منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ـ فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولإدلاله سلم على نفسه ، فقال ـ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ـ وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه ، فقال ـ وسلام عليه ـ وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوه بيوسف . وقد قال بعض العلماء : قد عددت من أول قوله تعالى ـ إذقالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ـ إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر حتى قيل محى من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته فى الجوارح فعفا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام ياراس العابدين ويابن محجة الزاهدين إلى كم يعصينى ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزتى وجلالى لئن أخذته عصفة من عصفاتى عليه لأتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا

قال أبوبكر الوراق : من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق . وسئل سهل بن عبد الله التسترى : أى منزلة إذا قام العبد بهاقام مقام العبودية قال إذا ترك التدبير والاختيارفاذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار ثم يصل إلى أن يملك الاختيار ، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لزوال هواه ونفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه . قال يحيى ابن معاذ الرازى مادام

كثيبا من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهى وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تتب على وكيف أستعصم إن لم تعصمنى لأعودن فأوحى الله تعالى إليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد تبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه ، وفى الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى عبد تدارك بعد أن كان أشفى على الهلكة كم من ذنب واجهتنى به غفرته لك قد أهلكت فى دونه أمة من الأمم » فهذه سنة الله تعالى فى عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ماسبقت به المشيئة الأزلية وهذه القصص وردت فى القرآن لتعرف بها سنة الله فى عباده الذين خلوا من قبل فما فى القرآن شىء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول ـ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ـ وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول ـ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ـ وتارة يتعرف إليهم فى أفعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته فى أعدائه وفى أنبيائه فيقول ـ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ـ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ـ ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهى الارشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه أو معرفة صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده ، ولما اشتملت سورة الاخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال « من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن[1] » لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا فى ثلاثة أمور : لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله ـ لم يلد ـ ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله ـ ولم يولد ـ ولا يكون فى درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل عليه قوله ـ ولم يكن له كفوا أحد ـ ويجمع جميع ذلك قوله تعالى ـ قل هو الله أحد ـ وجملته تفصيل قول لا إله إلا الله فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار فى القرآن ـ ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ـ ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه نوروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه إلا من طال فى آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن معبأة فى طى القصص والأخبار فكن حريصا على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذى هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

العبد يتعرف يقال له لاتختر ولاتسكن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لاتختر لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار فانك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار والعبد لايتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز الذى هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها لأن ترك التدبير فناء وتمليك التدبير

(القول فى معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد فى فضيلته)

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه والايهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه فى الدين فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شىء لأنه فعل الله فينبغى أن يرضى بالكفر والمعاصى وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ، ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل[2] »

(١) حديث من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن أحمد من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح ورواه البخارى من حديث أبى سعيد ومسلم من حديث أبى الدرداء نحوه (٢) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم فى العلم .

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر مايظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

(بيان فضيلة الرضا)

أما من الآيات فقوله تعالى ـ رضى الله عنهم ورضوا عنه ـ وقد قال تعالى ـ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ـ ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى ـ ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ـ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ـ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ـ فكما أن مشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان ، وفى الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك »[1] فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى ـ ولدينا مزيد ـ قال بعض المفسرين فيه يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين: إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها فذلك قوله تعالى ـ فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين ـ والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى ـ سلام قولا من رب رحيم ـ والثالثة يقول الله تعالى : إنى عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ـ ورضوان من الله أكبر ـ أى من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد . وأما من الأخبار فقد روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ماأنتم فقالوا مؤمنون فقال ماعلامة إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة[2] » وفى خبر آخر أنه قال « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء[3] » وفى الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به[4] » وقال ﷺ « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل[5] » وقال أيضا « إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه » وقال أيضا « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم

والاختيار من الله تعالى لعبده ورده إلى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق وهذا العبد مابقى عليه من الاعوجاج ذرة واستقام ظاهره وباطنه فى العبودية وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدى الله عز وجل متمسكة بالاستكانة والافتقار متحققة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع اكلأنى كلاءة

---

(١) حديث إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك البزار والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس فى حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل إكرامى فسلونى فيسألونه الرضا الحديث ورواه أبو يعلى بلفظ ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك الحديث ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ماأنتم فقالوا مؤمنون فقال ماعلامة إيمانكم الحديث تقدم (٣) حديث أنه قال فى حديث آخر حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء تقدم أيضا (٤) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظ وقنع وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل رويناه فى أمالى المحاملى باسناد ضعيف من حديث على بن أبى طالب ومن طريق المحاملى رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس .

الملائكة

الملائكة هل رأيتم الحساب فيقولون مارأينا حسابا فتقول لهم هل جزتم الصراط فيقولون مارأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون مارأينا شيئا فتقول الملائكة من أمة من أنتم ؟ فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول ناشدناكم الله حدثونا ماكانت أعمالكم فى الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله فيقولون وماهما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول الملائكة يحق لكم هذا [1]» وقال صلى الله عليه وسلم «يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا [2]» .
وفى أخبار موسى عليه السلام إن بنى إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام : إلهى قدسمعت ماقالوا فقال ياموسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم ، ويشهد لهذا ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر مالله عز وجل عنده فان الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه [3]» وفى أخبار داود عليه السلام مالأوليائى والهم بالدنيا إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم . ياداود إن محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لايغتمون . وروى أن موسى عليه السلام قال يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه : إن رضاى فى كرهك وأنت لاتصبر على ماتكره . قال يارب دلنى عليه ، قال فان رضاى فى رضاك بقضائى . وفى مناجاة موسى عليه السلام أى رب أى خلقك أحب إليك ؟ قال من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى قال فأى خلقك أنت عليه ساخط . قال من يستخيرنى فى الأمر فاذا قضيت له سخط قضائى . وقدروى ماهو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال «أنا الله لاإله إلاأنا من لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سواى [4]» ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى [5]» وفى الخبر المشهور « يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف [6]» وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ماأراد ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكوا هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض

---

(١) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان فى الضعفاء وأبوعبدالرحمن السلمى من حديث أنس مع اختلاف ، وفيه حميد بن على القيسى ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن ، وللأحاديث الصحيحة فى الورود وغيره (٢) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا تقدم (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده الحديث الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ منزلته ومنزلة الله (٤) حديث قال الله أنا الله لاإله إلاأنا من لم يصبر على بلائى الحديث الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سواى وإسناده ضعيف (٥) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين الحديث وإسناده ضعيف (٦) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين فى شرح

الوليد ولاتغل عنى» .
[الباب الستون : فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب]
قولهم فى التوبة قال رويم معنى التوبة أن يتوب من التوبة قيل معناه قول رابعة أستغفر الله العظيم من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله . وسئل الحسن المغازلى عن التوبة ، فقال تسألنى عن توبة الانابة أو عن توبة الاستجابة فقال السائل ماتوبة الانابة ؟ فقال : أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك . قال فما توبة الاستجابة .

وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ماقدرته عليك فيكون ماتحب فوق ماأحب ويكون ماتريد فوق ماأريد وعزتى وجلالى لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لاينطق ولايرفع رأسه ، فقال له بعض ولده ياأبت : أماترى مايصنع هذا بك لونهيته عن هذا فقال يابنى : إنى رأيت مالم تروا ، وعلمت مالم تعلموا إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبنى مالاأعلم. وقال أنس بن مالك رضى الله عنه «خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لشئ فعلته لم فعلته ولالشئ لم أفعله لم لافعلته ولاقال فى شئ كان ليته لم يكن ولافى شئ لم يكن ليته كان وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول دعوه لوقضى شئ لكان [1]» . ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود إنك تريد وأريد وإنما يكون ماأريد فان سلمت لما أريد كفيتك ماتريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لايكون إلاماأريد .

[وأما الآثار] فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز مابقى لى سرور إلافى مواقع القدر . وقيل له ماتشتهى ، فقال مايقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز ابن أبى رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ولافى لبس الصوف والشعر ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل . وقال عبدالله بن مسعود : لأن ألحس جمرة أحرقت ماأحرقت وأبقت ماأبقت أحب إلى من أن أقول لشئ كان ليته لم يكن أولشئ لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع ، فقال إنى لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إنى لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عينى . وروى فى الاسرائيليات أن عابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى النام فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة ، فقال أمالك عمل غير مارأيت ، فقالت ماهو والله إلامارأيت لاأعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خصيلة واحدة هى فى إن كنت فى شدة لم أتمن أن أكون فى رخاء وإن كنت فى مرض لم أتمن أن أكون فى صحة وإن كنت فى الشمس لم أتمن أن أكون فى الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خصيلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبوالدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه ماأبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أورخاء. وقال الثورى يوما عند رابعة: اللهم ارض عنى فقالت أماتستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض فقال أستغفر الله فقال جعفر ابن سليمان الضبعى فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت إذاكان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى. وقال أحمد بن أبى الحوارى قال أبوسليمان الدارانى إن الله عزوجل من كرمه قد رضى من عبيده بمارضى العبيد من مواليهم

قال أن تستحى من الله لقربه منك وهذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لايقاس به ذنب .قال ذوالنون توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ مانالهُ غيرهم . سئل أبو محمد سهل عن الرجل

السنة عن أبى أمامة باسناد ضعيف (١) حديث أنس خدمت النبى صلى الله عليه وسلم فما قال لى لشئ فعلته لم فعلته الحديث متفق عليه وقد تقدم .

قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فان محبة لله من عبيده أن يرضوا عنه . وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط [1] » .

(بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى)

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فانما أتى من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يبطل الاحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فانه فى حال غضبه أو فى حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة بل الذى يغدو فى شغل قريب قد تصيبه شوكة فى قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذى يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به فان كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ماعداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هـذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الألم العظيم بالحب العظيم فان الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شىء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه ، وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له فى ذلك فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثانى فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعنى بعقله وإن كان كارها بطبعه كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فانه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق مافاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والاحسان الذى يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا وكل ذلك موجود فى المشاهدات فى حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون فى نظمهم ونثرهم ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فان نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرك

يتوب من الشىء ويتركه ثم يخطر ذلك الشىء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته فقال الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته قال وإن غفل عن الانكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار ويحزن فانه لا يضره . وهنا

(١) حديث إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا الحديث الطبرانى من حديث ابن مسعود إلا أنه قال بقسطه وقد تقدم .

للجمال فهي العين الحسية التي تغلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها . وقال الجنيد سألت سريا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة . وقال بعضهم أحببت كل شيء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لأني عاشق فقلت له ولم سكت ؟ قال لأن معشوقي كان بحذائي ينظر إلي فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال فزعق زعقة خر ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جماله تاهت . وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني إربا إربا ما ازددت له إلا حبا . قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . قال أبو عمرو محمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابا وفي يده مدية وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول:

يوم الفراق من القيامة أطول والموت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل لكن مهجتي التي تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لي أنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلني على أعبد أهل الأرض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول : إلهي متعتني بهما ماشئت أنت وسلبتني ماشئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر ياوصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا أبدا منه فقيل له في ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به. وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى أن يكون خيرا ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وبقوا هم قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب

الذي قاله سهل كاف بالعلم لكل طالب صادق يريد صحة توبته . والعارف القوي الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين فأي حلاوة تبقى في قلبه وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله . وسئل السوسي عن التوبة فقال التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم لأنه لا بقاء

والحمير والديكة فكانت الخيرة لهؤلاء فى هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذن من عرف خفىّ لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه فقال له عيسى ياهذا أى شئ من البلاء أراه مصروفا عنك فقال ياروح الله أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ماجعل فى قلبى من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ماكان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وايمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقر والغنى مطيتان ماأبالى أيهما ركبت إن كان الفقر فان فيه الصبر وإن كان الغنى فان فيه البذل . وقال أبو سليمان الدارانى قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالى منه إلا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار كنت بذلك راضيا ، وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لو جعلنى جسرا على جهنم يعبر الخلائق علىّ إلى الجنة ثم ملأ بى جهنم تحلة لقسمه وبدلا من خليقته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا الكلام من علم أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الاحساس بألم النار فان بقى إحساس فيغمره مايحصل من لذته فى استشعاره حصول رضا محبوبه بالقائه إياه فى النار واستيلاء هذه الحالة غير محال فى نفسه وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ولكن لاينبغى أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أن ماهو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذبارى قلت لأبى عبد الله بن الجلاء الدمشقى قول فلان وددت أن جسدى قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامعناه فقال ياهذا إن كان هذا من طريق التعظيم والاجلال فلاأعرف وإن كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فأعرف قال ثم غشى عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لايقوم ولايقعد قد نقب له فى سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكى لمايراه من حاله فقال لم تبكى ؟ قال لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة قال لاتبك فان أحبه إلى الله تعالى أحبه إلىّ ثم قال أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به واكتم علىّ حتى أموت إن الملائكة تزورنى فآنس بها وتسلم علىّ فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا فى بلائه كيف لايكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقالت له امرأته أهلى فداؤك مانطعمك مانسقيك فقال طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لاأطعم طعاما ولاأسيغ شرابا منذ كذا فذكر أياما ومايسرنى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبى وقاص إلى مكة وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفنى وقال أنت قارئ أهل مكة؟ قلت نعم فذكر قصة قال فى آخرها فقلت له ياعم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال يابنى قضاء الله سبحانه عندى أحسن من بصرى . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضى عليه فيما قضى أشد علىّ من ذهاب ولدى ، وعن بعض العباد أنه قال إنى أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وماهو ؟ قال قلت مرة لشئ كان ليته

الجهل مع العلم كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أوصافها . وقال أبو الحسن النورى التوبة أن تتوب عن كل شئ سوى الله تعالى . قولهم فى الورع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملاك دينكم الورع » أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف عن أبى عبد الرحمن السلمى إجازة قال أنا أبو سعيد الخلال قال حدثنى

لم يكن . وقال بعض السلف لوقرض جسمى بالمقاريض لكان أحب إلىّ من أن أقول لشىء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه ، وقيل لعبد الواحد بن زيد ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال له يا حبيبى أخبرنى عنك هل قنعت به ؟ قال لا، قال أنست به ؟ قال لا، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا، قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم، قال لولا أنى أستحيى منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما أنت تعد فى طبقات أصحاب اليمين لأن مزيدك منه فى أعمال الجوارح التى هى مزيد أهل العموم. ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى فى مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال من أنتم ؟ فقالوا محبوك فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال مابالكم ادعيتم محبتى إن صدقتم فاصبروا على بلائى، وللشبلى رحمه الله تعالى :

إن المحبة للرحمن أسكرنى ... وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يواريها يعنى بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه. وقيل إنه وقع الحريق فى السوق. فقيل للسرى احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله ، فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا فى حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا فى حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين :أحدهما الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموعود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . والثانى الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب فى مراد المحبوب فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو فى هلاك روحه كما قيل * فما لجرح إذا أرضاكم ألم * وهذا ممكن مع الاحساس بالألم وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغى أن ينكره من فقده من نفسه لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه . وقد روى عن عمرو بن الحرث الرافعى قال : كنت فى مجلس بالرقة عند صديق لى وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا فى المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى ... على العاشقين البكا

ولاسيما عاشق ... إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى أحسنت والله ياسيدتى أفتأذنين لى أن أموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبى وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة فالتفت إليه الصبى وقال له إلى متى ذا النفاق الذى تظهر لى فقال قد علم الله أنى صادق فيما أورده حتى لو قلت لى مت لمت فقال إن كنت صادقا فمت قال فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال سمنون المحب كان فى جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فبينا هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك ما فى القدر بيده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا مكان قولك آه. وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادى قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول:

ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن حبيب بن عبيد عن أبى الدرداء رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله فى النهر وقال يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم. قال عمر بن الخطاب لا ينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف الكرخى احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم . نقل عن الحرث بن أسد المحاسبى أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مد يده إلى

من

من مات عشقا فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض فحملوه ميتا فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال، نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

(بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا)

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع، فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على مانقلناه في كتاب الدعوات تدل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى المقامات من الرضا وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله ـ ويدعوننا رغبا ورهبا ـ وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال ـ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ـ وقال تعالى ـ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم ـ وفي الخبر المشهور « من شهد منكرا فرضي به فكأنه قد فعله » وفي الحديث « الدال على الشر كفاعله [1] » وعن ابن مسعود: إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك؟ قال يبلغه فيرضى به وفي الخبر « لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكا في قتله [2] » وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى ـ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ـ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها في الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق [3] » وفي لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل مايفعل » . وأما بغض الكفار والفجار والانكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لايحصى مثل قوله تعالى ـ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ـ وقال تعالى ـ ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ـ وقال تعالى ـ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا ـ وفي الخبر « إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن [4] » وقال عليه السلام « المرء مع من أحب [5] » وقال « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة [6] » وقال عليه السلام « أوثق

طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق. سئل الشبلي عن الورع فقال الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين. وقال أبو سليمان الداراني الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا. وقال يحيى بن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل. سئل الخواص عن الورع فقال أن لايتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضي وأن يكون اهتمامه بما يرضي الله تعالى. أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمي قال سمعت الحسن بن أحمد

---

(١) حديث الدال على الشر كفاعله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس باسناد ضعيف جدا (٢) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر في المغرب كان شريكا في قتله لم أجد له أصلا بهذا اللفظ ولابن عدي من حديث أبي هريرة من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف (٣) حديث لاحسد إلا في اثنتين الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٤) حديث إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث المرء مع من أحب تقدم (٦) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم الطبراني من حديث أبي قرصافة وابن عدي من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر في زمرتهم زاد ابن عدي يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف .

عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله [1] » وشواهد هذا قد ذكرناها فى بيان الحب والبغض فى الله تعالى من كتاب آداب الصحبة وفى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا نعيده. فان قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى [2] فان كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح فى التوحيد وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة فى شىء واحد. فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شىء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد فى شىء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه إذ قد يموت عدوك الذى هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع فى إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك وكذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدى محبيه إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أنى أقصد إلى فلان فأوذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لى حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدوا لى فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوى وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبى ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض وحصل البغض الذى هو سبب العداوة فحق على كل من هو صادق فى محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول أما تدبيرك فى إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة فأنا محب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فانه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فأنا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تدبيرك وتعويقا فى مرادك وأنا كاره لفوات مرادك ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا وأما بغضه لك فانى أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعى البغض ولكنى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك فهو ممقوت عندى لمقته إياك وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى وإنما التناقض أن

ابن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينورى يقول سمعت ابن الجلاء يقول أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا . وقال الخواص: الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة قولهم فى الزهد: قال الجنيد: الزهد خلو الأيدى من الأملاك والقلوب من التتبع. وسئل الشبلى عن الزهد فقال لا زهد فى الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد أو يزهد فيما هو له

(١) حديث أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله رواه أحمد وتقدم فى آداب الصحبة
(٢) الأخبار الواردة فى الرضا بقضاء الله الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث إن الله بقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا وتقدم فى حديث الاستخارة واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من

يقول هو من حيث إنه مرادك مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه وأما إذا كان مكروها لامن حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ويشهد لذلك كل مايكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لاتحصى فاذن تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب المعصية ويجره الحب إلى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب الشخص الذي ضربناه مثلا ليجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده أعني تسليط دواعي المعصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبعده الله عن حضرته وان اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتا بغيضا إلى جميع المحبين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عزوجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لارخصة في إفشائه وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والارادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه فالاولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلاتفشوه [1]» وذلك يتعلق بعلم المكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء القلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لايناقض التوكل واستقصيناه في كتاب التوكل فهو أيضا لايناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لايناقض . وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لايقول هذا يوم حار أي في معرض الشكاية وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قادح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ويقول ماقاله عمر رضي الله عنه . لاأبالي أصبحت غنيا أوفقيرا فاني لاأدري أيهما خير لي .

فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده فليس إلا ظلف النفس وبذل مواساة ، يشير إلى الأقسام التي سبقت بها الأقلام وهذا لواطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب ولكن مقصود الشبلي أن ينال الزهد في عين الفقد بالزهد لئلا يغتر به . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدا في الدنيا ومنطقا فاقربوا منه فانه يلقى الحكمة» وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء في قصة قارون فقال تعالى ـ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ـ قيل

العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلاتفشوه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

(بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لايقدح في الرضا)

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون (١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لامتعهد لهم فيهلكون هزالا وضرا ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لابد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة فمازال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد قيل وكيف قال هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال مارأيت بها إلا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه ببغداد يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فما تصنع به بلغني أنه مامن أحد يسكن العراق إلا قيض الله له قرينا من البلاء وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء العضال وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال بغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أحدهم في زي الرهبان فاذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلمة وكان بشر بن الحرث يقول مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش وكان يقول لاتقتدوا بي في المقام بها من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي قيل وأين تختار السكنى قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير فهذا يدل على أن من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى ـ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ـ فان منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ـ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ـ وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى ـ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ـ فاذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى

هم الزاهدون . وقال سهل بن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا ، وقيل في قوله تعالى ـ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ـ قيل عن الدنيا . وفي الخبر «العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا فاذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم» وجاء في الأثر لاتزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله مالم يبالوا مانقص من دنياهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

(١) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف تقدم فيه .

عما اختاره الله تعالى ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال الثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم ؟ قال لما أتخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم ؟ قال لعلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فقيل لوهيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى فقبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة .

(بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم)

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أنا محبوب والمحب متعوب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من السبعة فقال أنا كل السبعة وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا قيل وكيف وأنت شخص واحد قال لأني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال ماحدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فجمحت علي فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم التفت فرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مذ متى أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في الملكوت السفلي وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبدي حقا تعبدني لأجلي صدقا لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء ، قال يحيى فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لا سألته المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه . وحكي أن أبا تراب النخشبي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال إني عنه مشغول فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد فقال ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمي بألف اسم محمود ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم. وقال السري الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية وحب المنزلة عند الناس وحب المحمدة والثناء وسئل الشبلي عن الزهد فقال الزهد غفلة لأن الدنيا لاشيء والزهد في لاشيء غفلة وقال بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في

عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ماقلت فقال احملني إليه فذكر قصة قال في آخرها فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع قال فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر إليه فنظر إليه الفتى فصعق فحركناه فاذا هو ميت فتعاونا على دفنه فقلت لأبي يزيد ياسيدي نظره إليك قتله قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك. ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى دفعهم فسكت ثم قال إن لله عبادا في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلامات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم ؟ قال لأنهم لايحبون ما لايحب ثم ذكر من إجابة الله أشياء لايستطاع ذكرها حتى قال ولوسألوه أن لايقيم الساعة لم يقمها وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلاينبغي أن يخلو عن التصديق والايمان بامكانها فان القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لانهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لاغاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ماوراء ذلك فان عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فان سكنت إلى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل. وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لي انظر إليهن قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن وقلت أعوذ بك مما سواك لاحاجة لي بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني. فأمثال هذه المكاشفات لاينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها فلولم يؤمن كل واحد إلابما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الايمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادي الحق وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة فنظر المنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لايحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لامستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادي الطريق كما قيل لبشر بأي شيء بلغت هذه المنزلة قال كنت أكاتم الله تعالى حالي معناه أسأله أن يكتم علي ويخفي أمري. وروي أنه رأى الخضر عليه السلام، فقال له ادع الله تعالى لي، فقال يسر الله عليك طاعته. قلت: زدني قال وسترها عليك، فقيل معناه سترها عن الخلق، وقيل معناه سترها عنك حتى لاتلتفت أنت إليها. وعن بعضهم أنه قال أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئا كان أهم الأشياء علي. قال فرأيته فما غلب علي همي ولا همتي إلا أن قلت له يا أبا العباس علمني شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة، فقال قل: اللهم أسبل علي كثيف

زهدهم في الدنيا لهوانها عندهم وعندي أن الزهد في الزهد غير هذا وإنما الزهد في الزهد بالخروج من الاختيار في الزهد لأن الزاهد اختار الزهد وأراده وإرادته تستند إلى علمه وعلمه قاصر فاذا أقيم في مقام ترك الارادة وانسلخ من اختياره. كاشفه الله تعالى بمراده فيترك الدنيا بمراد الحق لابمراد نفسه فيكون زهده بالله تعالى حينئذ أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشيء من الدنيا فما يدخل بالله في شيء من الدنيا لاينقص عليه زهده فيكون دخوله في

سترك وحط على سرادقات حجبك واجعلني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك فمازلت أقول هذه الكلمات في كل يوم فحكي أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذله وخموله فهكذا حال أولياء الله تعالى ففي أمثالهؤلاء ينبغي أن يطلبوا والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم كما قال تعالى: أوليائي تحت قبابي لايعرفهم غيري، وقال صلى الله عليه وسلم «رب أشعث أغبر ذي طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره (١)» وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لايحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه فاذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادى هذه الروائح فان فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلاينبغي أن يطرح الايمان بامكان ذلك لأهله فمن لايقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فعسى أن يحشر مع من أحب ويشهد لهذا ماروى أن عيسى عليه السلام قال لبني إسرائيل أين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لاتنبت الحكمة إلا في قلب مثل التراب ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها باذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ولورددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح فتشتت على قلبي فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت وجعلت أمشي قليلا قليلا فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس فان الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أوبنفسها وأعظم الحجب شغل النفس، ولذلك حكي أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لايفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لاأفطر وأقوم الليل لاأنام ولاأجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه، فقال أبو يزيد ولوصمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ماوجدت من هذا ذرة. قال ولم؟ قال لأنك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء؟ قال نعم قال قل لي حتى أعمله قال لاتقبله، قال فاذكره لي حتى أعمل قال اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

الشيء من الدنيا بالله وباذن منه زهدا في الزهد والزاهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها إن تركها تركها بالله وإن أخذها أخذها بالله وهذا هو الزهد في الزهد وقد رأينا من العارفين من أقيم في هذا المقام. وفوق هذا مقام آخر في الزهد وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه في مقام البقاء فيزهد زهدا ثالثا ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة ويكون تركه الدنيا في هذا المقام باختياره واختياره

وما سبحت ربك فقال هذا لاأفعله ولكن دلني على غيره فقال ابتدىء بهذا قبل كل شيء فقال لاأطيقه قال قد قلت لك إنك لاتقبل فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لايطيق الدواء فلاينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أولم يمرض بمثل هذا المرض أصلا فأقل درجات الصحة الايمان بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا وهذه أمور جلية في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال ﷺ « لايستكمل العبد الايمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لايعرف أحب من أن يعرف[1] » وقد قال عليه السلام « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لايخاف في الله لومة لائم ولا يرائي بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا [2] » وقال عليه السلام « لايكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل وإذا قدر لم يتناول ماليس له [3] » وفي حديث آخر « ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخشية الله في السر والعلانية [4] » فهذه شروط ذكرها رسول الله ﷺ لأولي الايمان فالعجب ممن يدعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد مالايكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الايمان ، وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إنما أتخذ لخلتي من لايفتر عن ذكري ولا يكون له هم غيري ولا يؤثر علي شيئا من خلقي وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ماوراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لاحصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضي الله عنه « إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم [5] » وفي حديث آخر « إن لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يارسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك ياأبا بكر وأحبها إلى الله السخاء [6] » وقال عليه السلام

من اختيار الحق فقد يختار تركها حينا تأسيا بالأنبياء والصالحين ويرى أن أخذها في مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء والصديقين فيترك الرفق من الحق بالحق للحق وقد يتناوله باختياره رفقا بالنفس بتدبير يسومه فيه صريح العلم وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين زهدوا ثالثا بالله كما رغبوا ثانيا بالله كما زهدوا أولا لله .

[قولهم في الصبر]

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلاها وقال بعضهم : الصبر

(١) حديث لايستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لايعرف أحب إليه من أن يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلي ابن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلا (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لايخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادي ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد (٣) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق الحديث الطبراني في الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث إنه قال للصديق إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف (٦) حديث إن لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعا عن الله خلقت بضعة عشر وثلثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الإسلام ثلثمائة شريعة وثلاث عشرة شريعة

« ورأيت

«رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمتي فوضعت في كفة فرجح بهم [1]» ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال «لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى [2]» يعني نفسه.

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها)

قال سفيان: المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الذكر وقال غيره إيثار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها، وقال بعضهم المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته، وقال الجنيد حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكت هلك وقال الشبلي رحمه الله:

يا أيها السيد الكريم ... حبك بين الحشا مقيم
يارافع النوم عن جفوني ... أنت بما مر بي عليم

ولغيره:

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي ... وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقا ... فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس ... فما نفد الشراب وما رويت
فليت خياله نصب لعيني ... فإن قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إني إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم سمنون يوما في المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات وقال إبراهيم بن أدهم إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك. وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طاش والأحمق يغدو ويروح في لاش والعاقل عن عيوبه فتاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله إني لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاه مولاه وقال الشبلي الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم وقيل المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن المحبة فقال

أن تصبر في الصبر أي لا تطالع فيه الفرج. قال الله تعالى والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون. وقيل: لكل شيء جوهر وجوهر الانسان العقل وجوهر العقل الصبر فالصبر عرك النفس وبالعرك تلين والصبر جار في الصابر مجرى الأنفاس لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهي ومكروه ومذموم ظاهرا وباطنا والعلم يدل والصبر يقبل ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر ومن كان العلم سائسه في الظاهر والباطن لا يتم

وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الايمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة (١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم الحديث أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف
(٢) حديث لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا الحديث متفق عليه وقد تقدم.

عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة المحب على أربع منازل على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه وإذا أحبه أقبل عليه وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه قال فقلت لها فعلى ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلىّ وتقطعت أوصالهم من محبتي ياداود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين علىّ ياداود أحوج مايكون العبد إلىّ إذا استغنى عني وأرحم ماأكون بعبدي إذا أدبر عني وأجل مايكون عندي إذا رجع إلىّ وقال أبو خالد الصفار لقي نبي من الأنبياء عابدا فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلي رحمه الله أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداود ذكري للذاكرين وجنتي للمطيعين وزيارتي للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق إليه جد في مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمي وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقا مني إليك وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال «سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر الله أنيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي والصدق شفيعي والطاعة حبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة [1] » وقال ذو النون سبحان من جعل الأرواح جنودا مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ رأيت في جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر كاف في شرح المحبة والأنس والشوق والرضا فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

(وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به إيمان الموقنين ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله

(١) حديث علي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني الحديث ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجد له إسنادا .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرهما الغريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتحامل على النفس وبالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما في مستقره وفي ذلك صريح العدل ومحض الاعتدال وبانفصال أحدهما عن الآخر أعني العلم والصبر يميل أحدهما على الآخر أعني النفس والروح وبيان ذلك يدق وناهيك بشرف

إلا الله رب العالمين وخالق السموات والأرضين ومكلف الجن والأنس والملائكة القربين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى ـ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ـ فالله الا الدين الخالص المتين . فانه أغنى الأغنياء عن شركة الشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكى إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير إخلاص رياء وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا ـ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ـ وليت شعرى كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الاخلاص أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص ونحن نذكر معانى الصدق والاخلاص فى ثلاثة أبواب : الباب الأول فى حقيقة النية ومعناها . الباب الثانى : فى الإخلاص وحقائقه . الباب الثالث : فى الصدق وحقيقته.

[الباب الأول فى النية] وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيرا من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار .

(بيان فضيلة النية)

قال الله تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ـ والمراد بتلك الإرادة هى النية وقال ﷺ «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه[1]» وقال صلى الله عليه وسلم «أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته[2]» وقال تعالى ـ إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ـ فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[3]» وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد الملائكة فى صحف مختمة فتلقى بين يدى الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهى ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه[4]» وقال صلى الله عليه وسلم «الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما فى الوزر سواء[5]» ألا ترى كيف شركه بالنية فى محاسن عمله

---

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة (٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٤) حديث إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة الحديث الدارقطنى من حديث أنس باسناد حسن (٥) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا الحديث ابن ماجه

الصبر قوله تعالى ـ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ـ كل أجير أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب. وقال الله تعالى لنبيه : ـ واصبر وماصبرك إلا بالله ـ أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به . قيل وقف رجل على الشبلى فقال أى صبر أشد على الصابرين فقال الصبر فى الله فقال لا، فقال الصبر لله فقال لا، فقال الصبر مع الله فقال لا، فغضب الشبلى وقال ويحك أى شىء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تتلف روحه. وعندى

ومساويه وكذلك فى حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال «إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا ولاوطئنا موطئا يغيظ الكفار ولاأنفقنا نفقة ولاأصابتنا مخمصة إلا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركوا بحسن النية [(١)]» وفى حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغى شيئا فهو له فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس [(٢)]» وكذلك جاء فى الخبر «إن رجلا قتل فى سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار [(٣)]» لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته وفى حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لاينوى إلا عقالا فله مانوى [(٤)]» وقال أبى «استعنت رجلا يغزو معى فقال لاحتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ماجعلت له [(٥)]» وروى فى الاسرائيليات أن رجلا مر بكثبان من رمل فى مجاعة فقال فى نفسه لوكان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب مالوكان طعاما فتصدقت به ، وقد ورد فى أخبار كثيرة «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة [(٦)]» وفى حديث عبدالله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب مايكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه فى قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد مايكون فيها [(٧)]» وفى حديث أم سلمة «أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت يارسول الله يكون فيهم المكره والأجير فقال يحشرون على نياتهم [(٨)]» وقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما يقتتل المقتتلون على النيات [(٩)]» وقال عليه السلام «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله

من حديث أبى كبشة الأنمارى بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذى بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (١) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا الحديث البخارى مختصرا وأبوداود (٢) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس الطبرانى باسناد جيد (٣) حديث إن رجلا قتل فى سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار لأجله أصلا فى الموصولات واتمار واه أبو اسحق الفزارى فى السنن من وجه مرسل (٤) حديث من غزا وهو لاينوى إلا عقالا فله مانوى النسائى من حديث عبادة ابن الصامت وتقدم غير مرة (٥) حديث أبى استعنت رجلا يغزو معى فقال لاحتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ماجعلت له الطبرانى فى مسند الشاميين ولأبى داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبى صلى الله عليه وسلم ماأجد له فى غزوته هذه فى الدنيا والآخرة إلا دنانيره التى سمى (٦) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٧) حديث عبدالله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت باسناد جيد دون قوله وفارقها أرغب مايكون فيها ودون قوله وفارقها أزهد مايكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث أم سلمة فى الجيش الذى يخسف بهم يحشرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٩) حديث إنما يقتتل المقتتلون على النيات ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر باسناد ضعيف بلفظ إنما يبعث ورويناه فى فوائد تمام بلفظ إنما يبعث المسلمون على النيات ولابن ماجه من حديث أبى هريرة إنما يبعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه .

فى معنى الصبر عن الله وجه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه وذلك أن الصبر عن الله يكون فى أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا ويتغيب فى مفاوز استكانته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر التجلى وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستطلاع نور الجمال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح فى هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر

هي العليا فهو في سبيل الله [١] » وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على ما مات عليه [٢] » وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه [٣] » وفي حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوي أداءه فهو زان ومن ادّان دينا وهو لاينوي قضاءه فهو سارق [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة [٥] » .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ماافترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف . رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل . وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير ، وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى فاني لا أحب أن يأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير مااستطعت فاذا فترت أو تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كعامله ، وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » يبكي ويرددها ويقول : إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فان تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فان صلحت نيته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك ، فإذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق .

(بيان حقيقة النية)

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها

عن الله تعالى لذلك . وقال أبو الحسن بن سالم هم ثلاثة متصبر وصابر وصبار فالمتصبر من صبر في الله فمرة يصبر ومرة يجزع والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع ولكن تتوقع منه الشكوى وقد يمكن منه الجزع وأما الصبار فذاك الذي صبره في الله ولله وبالله فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لايجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة لامن جهة الرسم والخلقة وإشارته في هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة . وكان الشبلي يتمثل بهذين البيتين :

---

(١) حديث إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٢) حديث جابر يبعث كل عبد على ما مات عليه رواه مسلم (٣) حديث الأحنف عن أبي بكرة إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوي أداءه فهو زان أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة الدين دون ذكر الصداق (٥) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسلا .

أمران : علم وعمل العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة لأنه لا يريد الانسان ما لا يعلمه فلا بد وأن يعلم ولا يعمل مالم يرد فلابد من إرادة ومعنى الارادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض إما في الحال أو في المآل فقد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار المنافي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة إليه فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة وأعني به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولابد وأن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للارادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو القصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا واسما . أما الأول . فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الانسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالاضافة إلى الغرض الباعث ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته . وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسم هذا مرافقة البواعث : والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد

ولكن

إن صوت المحب من ألم الشو
ق وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الصب
ر فصاح المحب للصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر وجعل الحظ الأعلى للرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل صبره بالله لا بنفسه فقال ـ وما صبرك إلا بالله ـ وسئل السري عن الصبر فتكلم فيه فدب على رجله عقرب فجعل يضربه بإبرته فقيل له لم لا تدفعه ؟ قال أستحي من الله تعالى أن أتكلم

ولكن قوى مجموعهما على إنهاض القدرة ومثاله فى المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به ومثاله فى غرضنا أن يقصده قريبه الغنى فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الأجنبى الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدى الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب فى التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة . والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثانى لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل . ومثاله فى المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر فى تخفيفه . ومثاله فى غرضنا أن يكون للانسان ورد فى الصلاة وعادة فى الصدقات فاتفق أن حضر فى وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثانى إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها فى باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لا حكم لها فى نفسها وإنما الحكم للمتبوع .

في حال ثم أخالف ما أتكلم فيه . أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن أبى عبد الرحمن قال سمعت محمد بن خالد يقول سمعت الفرغانى يقول سمعت الجنيد رحمه الله يقول إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالايمان وأكرم الايمان بالعقل وأكرم العقل بالصبر فالايمان زين المؤمن والعقل زين الايمان والصبر زين العقل وأنشد عن ابراهيم الخواص رحمه الله :

صبرت على بعض الأذى خوف كله
ودافعت عن نفسى لنفسى فعزت

(بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله [1] »)

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر فى مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا فى لحظات معدودة والأعمال تدوم والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال إن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا والنية بمجردها خير وظاهر الترجيح للمشتركين فى أصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل أى لكل واحد منهما أثر فى المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا فى النية وفى العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق فى الايصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود فمن قال الخبز خير من الفاكهة فانما يعنى به أنه خير بالاضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبرانى من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس ابن سمعان وكلاهما ضعيف .

فالطاعات غذاء القلوب ، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها فى الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى . فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ولن يتنعم بلقاء الله إلامن مات محبا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه إلامن عرفه ولن يأنس بربه إلامن طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر ؛ والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلاإذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشرّ مبغضا له وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته فى الآخرة منوطة بها كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما ، وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أوطلب الرّياسة لايكون ميله فى الابتداء إلاضعيفا ، فان اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرّياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق بل الذى ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلايقدر على النزوع عنه ، ولوفطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ويكون ذلك زبرا ودفعا فى وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحى وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هى التى تراد بها الآخرة والشرور كلها هى التى تراد بها الدنيا لاالآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك إلابالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصى بالجوارح لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أوبهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعى والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن فى الجسد مضغة إذاصلحت صلح لها سائر الجسد [(١)]» وقال عليه الصلاة والسلام «اللهم أصلح الراعى والرعية [(٢)]» وأراد بالراعى القلب . وقال الله تعالى ـ لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم ـ وهى صفة القلب ، فمن هذا الوجه يجب لامحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ،ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكبّ على الذكر والفكر فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود ،وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر

وجرعتها للمكروه حتى تدربت
ولولم أجرعها إذن لاشمأزت
ألارب ذل ساق للنفس عزة
ويارب نفس بالتذلل عزت
إذا مامددت الكف ألتمس الغنى
إلى غير من قال اسألونى فشلت
سأصبر جهدى إن فى الصبر عزة
وأرضى بدنياى وإن هى قلت

قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله : ماأنعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منه الصبر إلا كان ماعاضه خيرا

(١) حديث إن فى الجسد مضغة إذاصلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقدتقدم (٢) حديث اللهم أصلح الراعى والرعية تقدم ولم أجده .

إلى المعدة ، فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظنن أن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب فان من يجد فى نفسه تواضعا ، فاذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة فى قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوبا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فاذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا فانه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهى صفة الرياء التى هى من الميل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل ، وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات وإنما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى ههنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن قوما بالمدينة قد شركونا فى جهادنا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم فى صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة فى طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعانى تفهم جميع الأحاديث التى أوردناها فى فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة.

(بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية)

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات. القسم الأول: المعاصى وهى لا تتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبنى مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر فى إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فان عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيهات بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى فان القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل

مما انتزعه منه وأنشد لسمنون :

تجرعت من حاليه نعمى وأبؤسا
زمانا إذا أجرى عزاليه احتسى
فكم غمرة قد جرعتنى كؤوسها
فجرعتها من بحر صبرى أكؤسا
تدرعت صبرى والتحفت صروفه
وقلت لنفسى الصبر أو فاهلكى أسى
خطوب لوان الشم زاحمن خطبها
لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

[قولهم فى الفقر] قال ابن الجلاء : الفقر أن لا يكون لك فاذا كان لك لا يكون لك حتى

فإن من لا يعلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم، وقد قال الله سبحانه - فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه [١] » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألفي سنة وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء [٢] » فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيرا في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل. حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو

نؤثر. وقال الكتاني إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر. وقال النوري: نعت الفقراء السكون عند العدم والبذل عند الوجود. وقال غيره: والاضطراب عند الوجود. وقال الدراج فتشت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فتحيرت، فلما جاء قلت له: إني وجدت في كنفك هذه القطعة. قال قد رأيتها ردها ثم قال خذها واشتر بها شيئا فقلت: ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال ما رزقني

(١) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم (٢) حديث إن لله ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء تقدم في كتاب المحبة والشوق.

لا يذكره

لايذكره حتى قال بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقدأخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلاتصلح لنقل العلم فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعني الفضل من العلوم التي لاتشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق وتتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» مختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي إذالطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلاتنقلب طاعة بالقصد أصلا ، نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذاانضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة. القسم الثاني الطاعات وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أماالأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لاغير فان نوى الرياء صارت معصية وأماتضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذكل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها [1] كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين أولها أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره [2]» وثانيها أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى ـ ورابطوا ـ . وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات فان الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمتي القعود في المساجد [3]» ورابعها عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد وخامسها التجرد لذكر الله أولاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أويذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى [4]» وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر إذالمسجد لايخلو عمن يسيء في صلاته أويتعاطى ما لايحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته . وسابعها أن يستفيد أخا في الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله. وثامنها أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله مايقتضي هتك الحرمة ، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال أخا مستفادا في الله أورحمة مستنزلة أوعلما مستطرفا أوكلمة تدل على هدى أوتصرفه

الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها فأردت أن أوصي أن تشد في كفني فأردها الى الله وقال ابراهيم الخواص الفقر رداء الشرف ولباس المرسلين وجلباب الصالحين . وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق فقال لايسأل ولايرد ولا يحبس . وقال أبو علي الروذباري رحمه الله سألني الزقاق فقال ياأبا علي لم ترك الفقراء أخذ البلغة في وقت الحاجة قال قلت لأنهم مستغنون بالمعطي عن العطايا قال نعم ولكن وقع لي شيء آخر فقلت هات أفدني ماوقع لك

---

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشر أمثالها تقدم (٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا باسناد صحيح وقد تقدما في الصلاة (٣) حديث رهبانية أمتي القعود في المساجد لم أجد له أصلا (٤) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله ويذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة من غدا إلى المسجد لايريد إلا أن يتعلم خيرا أويعلمه كان له كأجر حج تاما حجة وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أوراح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أوراح

عن ردىء أو يترك الذنوب خشية أو حياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة وإنما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات [القسم الثالث المباحات] وما من شىء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغى أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصد به هذا فى مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عقاب[1]» وفى حديث معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شىء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه[2]» وفى خبر آخر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة» فاستعمال الطيب مباح ولكن لابد فيه من نية . فان قلت فما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله . فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفى سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن ولأمور أخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة فى القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة[3] وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا طيب الرائحة وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى إلى إيذاء مخالطيه وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى ــ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ــ أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات

قال لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود إذ لله فاقتهم ولا تضرهم الفاقة إذ لله وجودهم قال بعضهم الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب وقال المسوحى الفقير الذى لا تغنيه النعم ولا تفقره المحن . وقال يحيى بن معاذ حقيقة الفقر أن لا يستغنى إلا بالله ورسمه عدم الأسباب كلها وقال أبو بكر الطوسى بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى حتى سألت نصر بن الحمامى فقال لى لأنه أول منزل من منازل

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب تقدم (٢) حديث معاذ إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شىء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه لم أجد له إسنادا (٣) حديث إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته وفى إسناده اختلاف وفى الصحيحين أن عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة الحديث .

وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية فى شىء والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شىء نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى إلى الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ماهو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا بأكله ونكاحه وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغى أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن الجواب ففى الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الصالحة مايستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ماعملتها قط فيقال هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك [1] » وفى الخبر « إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لايبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيآتهم ثم صكوا له صكا إلى النار [2] » وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد ـ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ـ وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جارى فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب فتربته فهتف بى هاتف سيعلم من استخف بتراب مايلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثورى فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال إنى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله وقد قال الحسن إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بينى وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطى وأخذت خيطا من ثوبى فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذى تنال به من الدنيا وما الذى يفوتك من الآخرة وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة فاذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة فلا ينبغى أن يكون الداعى هوى خفى لا يطلع عليه ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل فى حائط بالطين وكان أجيرا لقوم فقدموا له رغيفا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم

التوحيد قنعت بذلك وسئل ابن الجلاء عن الفقر فسكت حتى صلى ثم ذهب ورجع ثم قال انى لم أسكت إلا لدرهم كان عندى فذهبت فأخرجته واستحييت من الله تعالى أن أتكلم فى الفقر وعندى ذلك ثم جلس وتكلم. قال أبو بكر بن طاهر عن حكم الفقير أن لايكون له رغبة فان كان ولا بد لا تجاوز رغبته كفايته. قال فارس قلت لبعض الفقراء مرة وعليه أثر الجوع والضر لم لا تسأل فيطعموك؟ فقال إنى أخاف أن أسألهم فيمنعونى فلا يفلحون وأنشد لبعضهم :

---

(١) حديث إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم من حديث شبث بن سعد البلوى مختصرا إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لاتشعر وفيه ابن لهيعة (٢) حديث إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف.

فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما عدوا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال إني أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إليّ الرغيف لأتقوى به على عملهم فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ولاحكم للفضائل مع الفرائض . وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لاتدخل تحت الاختيار .

(بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار)

اعلم أن الجاهل يسمع ماذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أوتجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو آكل لله ويظن ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر والنية بمعزل من جميع ذلك وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ماظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا والميل إذا لم يكن لايمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقول الشبعان نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه أو كقول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي فذلك محال بل لاطريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لايقدر عليه وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الانسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لايقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد فانما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لايمكن في كل وقت والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لايمكنه أن يواقع على نية الولد بل لايمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولاباعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح [1] اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لايمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوي أولا إيمانه بالشرع ويقوي إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره فاذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد فاذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذلم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى فقالت أجيء بالمرآة فسكت ساعة ثم قال نعم فقيل له في ذلك فقال كان لي في المدرى نية

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم في آداب النكاح .

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه
فقلت خلعة ساق عبده الجرعا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما
قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به
يوم التزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مأتم إن غبت ياأملي
والعيد مادمت لي مرأى ومستمعا .

[قولهم في الشكر]
قال بعضهم الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم . وقال يحيى بن معاذ الرازي لست بشاكر مادمت تشكر وغاية الشكر

ولم تحضرنى فى المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة فقيل للثورى ألا تشهد جنازته فقال لو كان لى نية لفعلت وكان أحدهم إذا سئل عملا من أعمال البر يقول إن رزقنى الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث إلا بنية وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ولا يسئل فيبتدىء فقيل له فى ذلك قال أفتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرتنى نية فعلت. وحكى أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الأسانيد فانظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال أحمد فرده على حتى أنظر فيه بالعين التى نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية. وقال بعضهم أنا فى طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لى بعد . وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتى وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هى قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى فقد تتيسر فى بعض الأوقات وقد تتعذر فى بعضها ، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب فى الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ونيات الناس فى الطاعات أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة فى الجنة وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة وإن كان من جنس المألوفات فى الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم فى الجنة فإنهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين مما يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهى استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهى عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهن -ولا يزالون مختلفين- كل حزب بما لديهم فرحون -ولذلك خلقهم-

التحبير وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها وفى أخبار داود عليه السلام إلهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك فأوحى الله إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى ومعنى الشكر فى اللغة هو الكشف والإظهار يقال شكر وكشر إذا كشف عن ثغر وأظهره فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر وباطن الشكر أن تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية فهو شكر

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل فى المنام فقال له كل الناس يطلبون منى الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبنى ورأى أبو يزيد ربه فى النام فقال يارب كيف الطريق إليك فقال اترك نفسك وتعال إلىّ . ورؤى الشبلى بعد موته فى النام فقيل له مافعل الله بك فقال لم يطالبنى على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أى خسارة أعظم من خسران لقائى والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لايتيسر له العدول إلى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لايستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانا نقول من حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار فى الظلم وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية فى الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات فى المستقبل وليس تنبعث نيته فى الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء إنى لأستجم نفسى بشىء من اللهو فيكون ذلك عونا لى على الحق وقال علىّ كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها إذا أكرهت عميت وهذه دقائق لايدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر فى الطلب وإنما يبتغى به أن يعيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق فى لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدى قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء فلاينبغى للمريد أن يضمر إنكارا على مايراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغى أن يقف عند حد بصيرته ومالايفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

(الباب الثانى فى الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)

(فضيلة الاخلاص)

قال الله تعالى ـ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ـ وقال ـ ألا لله الدين الخالص ـ وقال تعالى ـ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ـ وقال تعالى ـ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ـ نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه وقال النبى صلى الله عليه وسلم « ثلاث لايغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله[1] » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال « ظن أبى أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم[2] » وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من

النعمة . وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم :

أوليتنى نعما أبوح بشكرها
وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ماحييت وإن أمت
فلتشكرنك أعظمى فى قبرها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ابتلى فصبر وأعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر » قيل فما باله قال « أولئك

(الباب الثانى فى الاخلاص)

(١) حديث ثلاث لايغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله الترمذى وصححه من حديث النعمان بن بشير (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم .

أحببت

أحببت من عبادي [1]» وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل «أخلص العمل يجزك منه القليل [2]» وقال عليه السلام «مامن عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه [3]» وقال عليه السلام «أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ماصنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خبط رسول الله ﷺ على فخذي وقال ياأباهريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة [4]» فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله إذ قال ـ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ـ الآية وفي الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحمك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فاني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال إبليس ياهذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وماتعبدها أنت وماعليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لابد لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع قال وماهو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لاشيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولايضرهم قطعها شيئا ولاينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها

لهم الأمن وهم مهتدون» . وقال الجنيد فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان . وفي الحديث «أفضل الذكر لاإله إلاالله وأفضل الدعاء الحمدلله» . وقال بعضهم في قوله تعالى ـ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ـ قال الظاهرة المعافى والغنى والباطنة البلاوى والفقر فان هذه نعم أخروية لمايستوجب بها من الجزاء . وحقيقة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعما غير مايضره في دينه لأن الله تعالى لايقضي للعبد المؤمن شيئا إلاوهو نعمة في حقه فإماعاجلة

---

(١) حديث الحسن مرسلا يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواته سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف (٢) حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل يجزك منه القليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم (٤) حديث أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم .

وماذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد إلى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث ومابعده فلم يرشيئا فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ماأنت بقادر على ذلك ولاسبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه إبليس وصرعه فاذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك فنظر العابد فاذا لاطاقة له به قال ياهذا غلبتنى فخل عنى وأخبرنى كيف غلبتك أولا وغلبتنى الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرنى الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى ـ إلاعبادك منهم المخلصين ـ إذ لايتخلص العبد من الشيطان إلابالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخى رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يانفس أخلصى تتخلصى . وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لايريد بها إلاالله تعالى ، وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى : من خلصت نيته كفاه الله تعالى مابينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له أخلص النية فى أعمالك يكفك القليل من العمل . وقال أيوب السختيانى : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكان مطرف يقول من صفا صفى له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم فى المنام فقيل له كيف وجدت أعمالك ؟ فقال كل شئ عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها فى كفة الحسنات وكان فى قلنسوتى خيط من حرير فرأيته فى كفة السيئات وكان قد نفق حمار لى قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور فى كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها فقيل لى إنه قد وجه حيث بعثت به فانه لما قيل لك قد مات قلت فى لعنة الله فبطل أجرك فيه ولو قلت فى سبيل الله لوجدته فى حسناتك . وفى رواية قال وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبنى نظرهم إلى فوجدت ذلك لاعلى ولالى . قال سفيان لما سمع هذا ماأحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه. وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم ، وقيل كان رجل يخرج فى زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال إن نجوت من هذه الفضيحة لاأعود إلى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة . وقال بعض الصوفية : كنت قاعدا مع أبى عبيد التسترى وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدال فساره بشئ فقال أبو عبيد لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عينى فقلت لأبى عبيد ماقال لك ؟ فقال سألنى أن أحج معه فقلت لا قلت فهلا فعلت ؟ قال ليس لى فى الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى لأنى أدخل فى عمل الله شيئا غيره فيكون ماأنافيه أعظم عندى من سبعين حجة . وروى عن بعضهم قال : غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة فقلت أشتريها فأنتفع بها فى غزوى فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الغزاة فأملى عليه خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان فى سبيل الله ثم نظر إلى وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت

الله

يعرفها ويفهمها وإما آجلة بما يقضى له من المكاره فاما أن تكون درجة له أو تمحيصا أو تكفيرا فاذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل مامنه نعم فقد شكر .

[قولهم فى الخوف]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأس الحكمة مخافة الله» وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «كان داود النبى عليه السلام يعوده الناس يظنون أن به مرضا ومابه مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه» قال أبو عمر الدمشقى الخائف من يخاف من

الله الله فى أمرى ماخرجت أتجر وما معى تجارة أتجر فيها ماخرجت إلا للغزو فقال ياشيخ قد اشتريت أمس علاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت لاتكتبونى تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ماترى فقال اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى فى طريقه علاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى. وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين فى خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو . وقال بعضهم فى إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص . وقال بعضهم إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط . وقال الجنيد : إن لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد المروزى : الأمر كله يرجع إلى أصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى مافعل وتخلص فيما تعمل فاذن أنت قد سعدت بهذين وفزت فى الدارين .

(بيان حقيقة الاخلاص)

اعلم أن كل شىء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل الصفى الخالص إخلاصا قال الله تعالى ـ من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ـ فانما خلوص اللبن أن لايكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل مايمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات فالاخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية والشرك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالاضافة إلى المنوى فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الالحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا مايتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقل أموره ماورد فى الخبر من « إن المرائى يدعى يوم القيامة بأربع أسام يامرائى ياخادع يامشرك ياكافر [1] » وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له فى بلده أو ليهرب عن عدو له فى منزله أو يتبرم بأهله وولده أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها أو يصلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشيرة أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث أو تكفل بخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقا فى الدنيا

(١) حديث إن المرائى يدعى يوم القيامة يامرائى ياخادع الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب السنة والاخلاص وقد تقدم .

نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان . وقال بعضهم ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه . وقيل الخائف الذى لا يخاف غير الله قيل أى لايخاف لنفسه إنما يخاف إجلالا له والخوف للنفس خوف العقوبة . وقال سهل الخوف ذكر والرجاء أنثى أى منهما تتولد حقائق الإيمان . قال الله تعالى ـ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ـ قيل هذه الآية قطب القرآن لأن مدار

أو كتب مصحفا ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو توضأ ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلوّ الاسناد أو اعتكف فى المسجد ليخف كراء المسكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه فى السؤال عن نفسه أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشركة» وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ إن كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلى هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب إما أن تكون فى رتبة الموافقة أو فى رتبة المشاركة أو فى رتبة المعاونة كما سبق فى النية ، وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص فى الأعمال مسدود عليه إلا على الندور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإذن علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الأول لأنى تأخرت يوما لعذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى فعرفت أن نظر الناس إلىّ فى الصف الأول كان مسرتى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقلّ من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى ـ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ـ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ـ

الأمر كله على هذا . وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان فقال تعالى ـ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ـ وقال ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ وقال ـ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ـ . وقال سهل: كمال الإيمان بالعلم وكمال العلم بالخوف . وقال أيضا: العلم كسب الإيمان والخوف كسب المعرفة . وقال ذو النون: لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه. وقال فضيل بن عياض

وبقوله

وبقوله تعالى ـ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ـ وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث الأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظ يمنّ على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعى أنه يفرح بما يسرله من نصرة الدين ولوظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولوكان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لواتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده ، وليت شعرى لواغتمّ عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للامامة أكان غمه محمودا أومذموما ولا يستريب ذودين أن لوكان ذلك لكان مذموما لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع مافيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لوظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها ، فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى ـ إلا عبادك منهم المخلصين ـ فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر .

(بيان أقاويل الشيوخ فى الإخلاص)

قال السوسى : الاخلاص فقد رؤية الاخلاص ، فان من شاهد فى إخلاصه الاخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وماذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات إلى الاخلاص والنظر إليه عجب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ماصفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفى معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل أى شئ أشد على النفس ، فقال : الاخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الاخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة وإلا فهو فى طلب حظ البطن والفرج وانما المطلوب الحقّ لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ، ومن ادّعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضى أبوبكر الباقلانى بتكفير من يدّعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات

اذا قيل لك تخاف الله اسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت فليس وصفك وصف من يخاف . [قولهم فى الرجاء] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله عزوجلّ أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ثم يقول وعزتى وجلالى لا أجعل من آمن بى من ساعة من ليل أونهار كمن لا يؤمن بى» . قيل «جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يلى حساب الخلق ؟ فقال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه ؟ قال نعم

الإلهية وماذكره حقّ ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عمايسميه الناس حظوظا ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى . فهذا حظّ هؤلاء وهذا لايعده الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لوعوضوا عماهم فيه من لذّة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الالهية سرّا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبوعثمان : الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص في العمل : أن لايطلع عليه شيطان فيفسده ولاملك فيكتبه فانه إشارة إلى مجرد الاخفاء . وقد قيل الاخلاص : مااستتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الاخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ماالخالص من الأعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لايحب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص . وقال الجنيد : الاخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقاويل في هذا كثيرة. ولافائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم «إذ سئل عن الاخلاص فقال : أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت [1]» أي لاتعبد هواك ونفسك ولاتعبد إلاربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا .

قتبسم الأعرابي فقال النبي صلى الله عليه وسلم م ضحكت ياأعرابي ؟ فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح» . وقال شاه الكرماني : علامة الرجاء حسن الطاعة. وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال . وقيل : قرب القلب من ملاطفة الرب . قال أبوعلي الروذباري : الخوف والرجاء كجناحي الطائر اذا استويا استوى الطائر وتمّ في طيرانه . قال أبوعبدالله بن خفيف: الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو . قال مطرف : لو

(بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص)

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء ولايفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلابمثال . وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا . فنقول : الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصا في صلاته ثم نظر إليه جماعة أودخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولايزدريك ولايغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولايخفى ذلك على المبتدئين من المريدين . الدرجة الثانية يكون المريد قدفهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لايطيع الشيطان فيها ولايلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وماتفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لاينخدع بالأول وهو أيضا

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول : ربي الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي قلت يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال قل ربي الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ : قل لي في الاسلام قولا لاأسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به أثيب عليه . وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ماليس متصفا به . الدرجة الثالثة وهى أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه فى ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص فى أن تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملأ ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه فى الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملأ ويصلى فى الملأ أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته فى الخلوة لتحسن فى الملأ فلا يكون قد فرق بينهما فالتفاته فى الخلوة والملأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح باساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون فى صورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته فى الخلا والملا وهيهات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات فى الخلا والملا جميعا وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملا والخلا جميعا وهذا من المكايد الخفية للشيطان . الدرجة الرابعة هى أدق وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فانه قد عرف أنه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه فى الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة كما يألفه فى الملا ولا يكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فما دام يفرق فى أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفى من الرياء ، وهذا الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء [1] كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات حتى فى كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن فى أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفى لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغى أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف فى مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفى فى سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك فى ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات

وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين ولا يكون خائفا إلا وهو راج ولا راجيا إلا وهو خائف لأن موجب الخوف الإيمان وبالإيمان رجاء وموجب الرجاء الإيمان ومن الايمان خوف ولهذا المعنى روى عن لقمان أنه قال لابنه خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره وارجه أشد من خوفك ، قال فكيف أستطيع ذلك وإنما لى قلب واحد ؟ قال أما علمت أن المؤمن لذو قلبين يخاف بأحدهما ويرجو

(١) حديث الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الظلمة الظلماء على الصخرة تقدم فى العلم وفى ذم الجاه والرياء .

النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمرى الغش الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها مايغلب ومنها مايقل لكن يسهل دركه ومنها مايدق بحيث لايدركه إلا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادى إلى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف فى نفسه وقيراط من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر الغبى فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لايمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لايغنيه التطويل أيضا فلا فائدة فى التفصيل .

(بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به)

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس فى أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لايقتضى شيئا أصلا فلايكون له ولا عليه وأما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر فى المشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لاثواب له[1] وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه والذى ينقدح لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالاضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر مافضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ـ ولقوله تعالى ـ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ـ فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شىء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها فاذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان فاذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول مايضره ثم تناول من المبردات مايقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكما لايضيع مثقال ذرة

بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان .

[قولهم فى التوكل]

قال السرى : التوكل الانخلاع من الحول والقوة . وقال الجنيد التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل . وقال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فانه وجه بلاقفا قال بعضهم يريد توكل العناية لاتوكل الكفاية والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال ـ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ـ وقال ـ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ـ وقال لنبيه ـ وتوكل على الحى الذى لايموت ـ وقال

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الأخبار عن تعارض أبو داود من حديث أبى هريرة أن رجلا قال يارسول الله رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاأجر له الحديث والنسائى من حديث أبى أمامة باسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله فقال لاشىء له فأعادها ثلاث مرات يقول لاشىء له ثم قال إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه وللترمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبى هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه قال له أجران أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم فى ذم الجاه والرياء .

من الطعام والشراب والأدوية ولاينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لايضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولاينفك عن تأثير في إنارة القلب أوتسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده فإذا جاء بمايقربه شبرا مع مايبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولاعليه وإن كان الفعل ممايقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لامحالة شبر وقد قال النبي ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها[1]» فإذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيبه فإذا اجتمعا جميعا فلابد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ولاثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلاينفك نفس السفر عن ثواب . وماعندي أن الغزاة لايدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لاغنيمة فيها ويبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلايحبط به الثواب نعم لايساوي ثوابه ثواب من لايلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فإن هذا الالتفات نقصان لامحالة . فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين «أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر مايقول له حتى نزلت ـ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاصالحاولايشرك بعبادة ربه أحدا ـ [2]» وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك [3]» وقال أبوهريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن شرك في عمله خذأجرك ممن عملت له [4]» وروي عن عبادة «أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل لي عملا فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي» وروى أبوموسى «أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[5]» وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قدملأ دفتي راحلته ورقا وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له[6]» فنقول هذه الأحاديث لاتناقض ماذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لالأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعدة من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت ـ فمن كان يرجوا لقاء ربه ـ ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث معاذ أدنى الرياء شرك الطبراني والحاكم وتقدم فيه (٤) حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله (٥) حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله.

ذوالنون: التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة . وقال أبوبكر الرقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد . وقال أبوبكر الواسطي: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لايفارق التوكل في أمانيه ولايلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره . وقال بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه وينس الدنيا وأهلها لأن حقيقة التوكل لايقوم لها أحد من الخلق على كماله . وقال سهل أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى

حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ثم إن الانسان عند الشركة أبدا فى خطر فانه لايدرى أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى ـ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ـ أى لايرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لاينال إلابالاخلاص فى الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة لاثواب له على غزوه ألبتة ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فان هذا حرج فى الدين ومدخل لليأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لاينفك الانسان عنها إلاعلى الندور فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب فأما أن يكون فى إحباطه فلا، نعم الانسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلايحصل الأجر إلابالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ فى الاحتياط فلذلك ينبغى أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغى أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لاأعتد بما ظهر من عملى وقال عبدالعزيز بن أبى روّاد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فمادخلت فى شىء من أعمال الله تعالى إلاوحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالى ولاعلىّ ومع هذا فلاينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لايفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أباسعيد الخراز ويخف فى أعماله فتكلم أبو سعيد فى الاخلاص يوما يريد إخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالاخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فيتركها فقال أبوسعيد لاتفعل إذ الاخلاص لايقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الاخلاص فماقلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

(الباب الثالث فى الصدق وفضيلته وحقيقته)

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى ـ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ـ وقال النبى صلى الله عليه وسلم «إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عندالله صدّيقا وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عندالله كذابا [1]» ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال ـ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقا نبيا ـ وقال ـ واذكر فى الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ـ وقال تعالى ـ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ـ وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحرث من عامل الله بالصدق

(الباب الثالث فى الصدق)

(١) حديث إن الصدق يهدى إلى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدّم .

استوحش

كليت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير وقال حمدون القصار : التوكل هو الاعتصام بالله . وقال سهل أيضا: العلم كله باب من التعبد والتعبد كله باب من الورع والورع كله باب من الزهد والزهد كله باب من التوكل . وقال : التقوى واليقين مثل كفتى الميزان والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان ويقع لى أن التوكل على قدر العلم بالوكيل فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا ومن كمل توكله غاب فى رؤية الوكيل عن رؤية توكله ثم إن

استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصورا الدينوري في المنام فقلت له مافعل الله بك قال غفرلي ورحمني وأعطاني مالم أؤمل فقلت له أحسن ماتوجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال الصدق وأقبح ماتوجه به الكذب . وقال أبو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم مارأيت صادقا فقال له لوكنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن على الكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثورى في قوله تعالى ـ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ـ قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداود من صدقنى في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولايتم بعضها إلا بعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم . وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها . لا كنز أنفع من العلم ولامال أربح من الحلم ولاحسب أوضع من الغضب ولاقرين أزين من العمل ولارفيق أشين من الجهل ولاشرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولاعمل أفضل من الفكر ولاحسنة أعلى من الصبر ولاسيئة أخزى من الكبر ولادواء ألين من الرفق ولاداء أوجع من الخرق ولارسول أعدل من الحق ولادليل أنصح من الصدق ولافقر أذل من الطمع ولاغنى أشقى من الجمع ولاحياة أطيب من الصحة ولامعيشة أهنأ من العفة ولاعبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولاحارس أحفظ من الصمت ولاغائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد المروزى إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شئ من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لذى النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ماإليه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل ماأصل هذا الأمر الذى نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة فقيل زدنا فقال التقى والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق [1]» وعن الجنيد في قوله تعالى ـ ليسأل الصادقين عن صدقهم ـ قال يسأل الصادقين عن أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر .

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والارادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شئ من الجملة فهو صادق بالاضافة إلى مافيه صدقه . الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لايكون إلا في الإخبار أوفيما يتضمن الإخبار وينبه عليه والخبر إما أن يتعلق بالماضى أوبالمستقبل

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ .

قوة للمعرفة تفيد صرف العلم بالعدل في القسمة وإن الأقسام نصبت بازاء للقسوم لهم عدلا وموازنة فان النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس وكل ماأحس بشئ يقدح في توكله يراه من منبع النفس فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس وكماله يثبت بغيبة النفس وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وإنما شغلهم في تغييب النفس بتقوية مواد القلب فاذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر إليه وكلما تحرك من

وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ماهى عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما الاحتراز عن المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشئ على خلاف ماهو عليه فى نفسه إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر إلى شئ من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ماهو عليه لأن الصدق ماأريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل إلى المعاريض ماوجد إليه سبيلا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره[1] وذلك كى لاينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب فى شئ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا[2]» ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان فى مصالح الحرب، والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ماحكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته خطى بأصبعك دائرة وضعى الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس فى الدار فالكمال الأول فى اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة والكمال الثانى أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه كقوله ـ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ـ فان قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب وكقوله ـ إياك نعبد ـ وقوله أنا عبد الله فانه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه إن كان عبدا لنفسه أو عبد الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا فى قوله وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام ياعبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة[3]» فسمى كل من تقيد قلبه بشئ عبدا له وإنما العبد الحق لله عزّ وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بمايريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته فى إرادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية

النفس بقية يرد على ضميرهم سرّ قوله تعالى ـ إن الله يعلم مايدعون من دونه من شئ ـ فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان ويرى السكون بالله من غير استقلال السكون فى نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولايقدح فى توكل مثل هذا المتوكل مايقدح فى توكل الضعفاء فى التوكل من وجود الأسباب والوسائط لأنه يرى الأسباب مواتا لاحياة لها إلا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة. [قولهم فى الرضا] قال الحرث الرضا سكون

---

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورّى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وقد تقدّم (٣) حديث تعس عبد الدينار الحديث البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا صديقاً فهذا هو معنى الصدق فى القول . الصدق الثانى: فى النية والإرادة ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً كما روينا فى فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ماعملت فيما علمت ؟ فقال فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (١) فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه فى إرادته ونيته، وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد فى القصد وكذلك قول الله تعالى ـ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ـ وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر وهذا القول يتضمن إخباراً بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أنه يعتقد ما يقول فكذب فى دلالته بقرينة الحال على ما فى قلبه فإنه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصاً. الصدق الثالث: صدق العزم فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول فى نفسه إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره أو إن لقيت عدواً فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت وإن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل. ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبى بكر الصديق. الصدق الرابع: فى الوفاء بالعزم فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى ـ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ـ فقد روى عن أنس «أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال فشهد أحداً فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو إلى أين فقال واها لريح الجنة إنى أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى إلا ببنانه ، فنزلت هذه الآية ـ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ـ (٢)» ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب

القلب تحت جريان الحكم وقال ذو النون الرضا سرور القلب بمر القضاء . وقال سفيان عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت له أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض فسألها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى فقالت إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة . وقال سهل إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ـ فطوبى لهم وحسن مآب ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً» وقال عليه السلام « إن الله

(١) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت الحديث تقدم (٢) حديث أنس أن عمه أنس بن

ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ـ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ـ [١]» وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدوّ فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوى : فلاأدرى قلنسوة عمر أوقلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل جيد الايمان إذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدوّ فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة [٢]» وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالالنصدقن فبخلوا به فنزلت ـ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ـ وقال بعضهم إنما هو شئ نووه فى أنفسهم لم يتكلموا به فقال ـ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون ـ فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب ، ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلاأن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لاأجده الآن لأنى لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها ، أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم وقال أبوسعيد الخراز رأيت فى النام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى ماالصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لى صدقت وعرجا إلى السماء . الصدق الخامس فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لايتصف هو به لابأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا مخالف ماذكرناه من ترك الرياء لأن المرائى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولامرائيا إياهم ولاينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أوخيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الاخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت

تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط» وقال الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فانهما حالان لايفارقان العبد فى الدنيا والآخرة لأنه فى الجنة لايستغنى عن الرضا والمحبة . وقال ابن عطاء الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط. وقال أبو تراب ليس ينال الرضا من الله من

النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول ـ رجال صدقوا ـ الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (١) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا (٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الايمان الحديث الترمذى وقال حسن .

بها الصدق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي واجعل علانيتي صالحة [١] » وقال يزيد بن الحرث إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور وأنشدوا:

إذ السر والإعلان في المؤمن استوى ... فقد عز في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سرا فما له ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار في السوق نافق ... ومغشوشه المردود لايقتضى الثنا

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقا . وقال معاوية بن قرة من يدلني على بكاء بالليل بسام بالنهار ، وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويبكي ، وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية فاذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق . الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى ـ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ـ إلى قوله ـ أولئك هم الصادقون ـ وقال تعالى ـ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ـ إلى قوله ـ أولئك الذين صدقوا ـ وسئل أبو ذر عن الايمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألناك عن الايمان فقال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ هذه الآية [٢] » ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لاينتفع به أهله وولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفا من درك المحذور ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها [٣] » فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي فاذا قوي سمي صادقا فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لاتطيق ذلك قال بل أرني فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوقع النبي ﷺ مغشيا عليه فأفاق وقد عاد

للدنيا في قلبه مقدار. وقال السري : خمس من أخلاق المقربين الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره والحب له بالتحبب إليه والحياء من الله والأنس به والوحشة مما سواه. وقال الفضيل الراضي لايتمنى فوق منزلته شيئا وقال ابن شمعون الرضا بالحق والرضا له والرضا عنه فالرضا به مدبرا ومختارا والرضا عنه قاسما ومعطيا والرضا له إلها وربا . سئل أبو سعيد هل يجوز أن يكون العبد راضيا ساخطا قال نعم يجوز أن يكون راضيا عن ربه ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع

---

(١) حديث اللهم اجعل سريرتي خير من علانيتي الحديث تقدم ولم أجده (٢) حديث أبي ذر سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ـ ولكن البر من آمن بالله اليوم الآخر ـ إلى قوله ـ أولئك الذين صدقوا ـ رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له إسنادا .
(٣) حديث لم أر مثل النار نام هاربها الحديث تقدم .

جبريل لصورته الأولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ماظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعلى كاهله وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع (١) » يعنى كالعصفور الصغير، فانظر ما الذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم فى المعرفة فهذا هو الصدق فى التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى (٢) يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما لن تبلغ حقيقة الايمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى فى دين الله . وقال مطرف مامن الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحمق أهون من بعض وقال النبى صلى الله عليه وسلم « لايبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير (٣) » فالصادق إذن فى جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض فان كان صادقا فى الجميع فهو الصدّيق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ماهى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق فقال ابن المسيب ماظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا فى النبى عليه السلام فهذا صدق فى هذه الأمور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هى درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الأغلب لاتتعرض إلا لآحاد هذه المعانى نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى ـ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ـ وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ماذكرناه فى الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام. وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لاتختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى ـ هو اجتباكم ـ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لاتقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى فاذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها .

تم كتاب الصدق والاخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله .

يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة قال رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختار الله له وقال على رضى الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله فى كل حال . وقال يحيى يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين فعل منه بك وفعل

---

(١) حديث قال لجبريل أحب أن أراك فى صورتك التى هى صورتك فقال لاتطيق ذلك الحديث تقدم فى كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذى ثبت فى الصحيح أنه رأى جبريل فى صورته مرتين (٢) حديث مررت ليلة أسرى بى وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله الحديث محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادى ضعفه الجمهور وقال البيهقى ورواه حماد بن سلمة عن أبى عمران الجونى عن محمد بن عمير بن عطارد وهذا مرسل (٣) حديث لايبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع .

{ كتاب المراقبة والمحاسبة }

(وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجترحت المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته ترجح كفة الحسنات إذا ثقلت وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والابعاد والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

[أما بعد] فقد قال الله تعالى ــ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ــ وقال تعالى ــ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ــ وقال تعالى ــ يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد ــ وقال تعالى ــ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ــ وقال تعالى ــ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ــ وقال تعالى ــ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه ــ وقال تعالى ــ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ــ فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل ــ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ــ فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولابد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

(المقام الأول من المرابطة المشارطة)

اعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر

منك له فترضى بما عمل وتخلص فيما تعمل وقال بعضهم الراضى من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها . وقيل ليحيى ابن معاذ متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا قال إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به يقول إن أعطيتنى قبلت وإن منعتنى رضيت وإن تركتنى عبدت وإن دعوتنى أجبت وقال الشبلى رحمه الله بين يدى الجنيد لا حول ولا قوة إلا بالله . قال الجنيد قولك ذا ضيق صدر فقال صدقت قال فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء وهذا إنما قاله الجنيد رحمه

يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى ـ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ـ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يعاتبه رابعا فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل :

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه[1]» وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسناته الحديث بطوله لم أجد له أصلا .

الله تنبيها منه على أصل الرضا وذلك أن الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه وانشراح القلب من نور اليقين قال الله تعالى ـ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ـ فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والضجر لأن اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن المحب الصادق لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب

درجات عليين مايدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لاتفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لايطاق وإن كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن المسيء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ـ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ـ فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة وهى العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فانها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فان الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ماخلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو لاسيما اللسان والبطن أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة فى الكلام وغير ذلك مما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لايحرك اللسان طول النهار إلا فى الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة و ـ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ـ وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشرط عليها فى جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصى الأعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تتكرر عليه فى اليوم والليلة ثم فى النوافل التى يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفتقر إليها فى كل يوم ولكن إذا تعود الانسان شرط ذلك على نفسه أياما وطاوعته نفسه فى الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وإن أطاع فى بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقى ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه فى ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ـ وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ـ فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى ـ واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ـ وهذا للمستقبل وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدى العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى ـ ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ـ وقال تعالى ـ ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ـ وقال تعالى

عن اختيار نفسه كما قيل :

وكل مايفعل المحبوب محبوب .

[الباب الحادى والستون فى ذكر الأحوال وشرحها]

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا أبو طالب الزينبى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهنى قال أنا أبو عبد الله الفربرى قال أنا أبو عبد الله البخارى قال ثنا سليمان بن حرب قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث من

ـ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ـ ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه فى المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فانته عنه [1]» . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلاتعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فان مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة. وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله [2]» دان نفسه أى حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله ـ أئنا لمدينون ـ أى لمحاسبون . وقال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب كيف تجدها فى كتاب الله قال ويل لديان الأرض من ديان السماء فعلاه بالدرة وقال إلا من حاسب نفسه فقال كعب يأمير المؤمنين إنها إلى جنبها فى التوراة مابينهما حرف إلا من حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها.

[المرابطة الثانية المراقبة] إذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ماذكرناه فلايبقى إلا المراقبة لها عند الخوض فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فانها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها . أماالفضيلة : فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال «أن تعبد الله كأنك تراه [3]» وقال عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك [4]» وقد قال تعالى ـ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ـ وقال تعالى ـ ألم يعلم بأن الله يرى ـ وقال الله تعالى ـ إن الله كان عليكم رقيبا ـ وقال تعالى ـ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ـ . وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبا على فلا أبالى بغيره . وقال أبوعثمان المغربى : أفضل مايلزم الانسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريرى : أمرنا هذا مبنى على أصلين أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائما . وقال أبوعثمان : قال لى أبوحفص إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولايغرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لايراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لايرانى فيه أحد إذ الله مطلع على فى كل مكان فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا حق لك أن تكرم .

---

(١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم (٣) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٤) حديث اعبد الله كأنك تراه الحديث تقدم .

كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبدا لايحبه إلا لله ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار» . وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل قال أنا أبوبكر بن خلف قال أنا أبوعبد الرحمن قال أنا أبوعمر بن حيوة قال حدثنى أبوعبيد بن مؤمل عن أبيه قال حدثنى بشر بن محمد قال حدثنا عبد الملك ابن وهب عن إبراهيم ابن أبى عبلة عن العرباض بن سارية قال «كان رسول الله

وحكى

وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار . وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحي فقال ممن أستحي ؟ وما يرانا إلا الكواكب قالت فأين مكوكبها . وقال رجل للجنيد بم أستعين على غض البصر فقال بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها ؟ قال يقول الله عز وجل إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني والذين انثنت أصلابهم من خشيتي وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فاذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة . ويروى أن الله تعالى قال لملائكته أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن. وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى ـ رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ـ فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وسئل ذوالنون بم ينال العبد الجنة؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظني فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة. وقال فرقد السنجي : إن المنافق ينظر فاذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبدالله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له ياراعي بعني شاة من هذه الغنم فقال إني مملوك فقال قل لسيدك أكلها الذئب قال فأين الله قال فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعي جانبه ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينا

صلى الله عليه وسلم يدعو « اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد» فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب خالص الحب وخالص الحب هو أن يحب الله تعالى بكليته وذلك أن العبد قد يكون في حال قائما بشروط حاله بحكم العلم والجبلة تتقاضاه بضد العلم مثل أن يكون راضيا والجبلة قد تكره ويكون النظر إلى الانقياد بالعلم لا إلى الاستعصاء بالجبلة فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان

أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لاشك فيه لايغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين . الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهى مراقبة التعظيم والاجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلايبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا وهذه مراقبة لانطول النظر فى تفصيل أعمالها فانها مقصورة على القلب . أما الجوارح فانها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلاتحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فاذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لايبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولايسمع مايقال له مع أنه لاصمم به وقد يمر على ابنه مثلا فلايكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه إذا مررت بى فحركنى ولاتستبعد هذا فانك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى إن خدم الملك قد لايحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لعبد الواحد بن زيد هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ، فقال ماأعرف إلارجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان إلاسريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت ياعتبة ، فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من لقيت فى الطريق فقال مارأيت أحدا. ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا ؟ فقال ماظننتها إلاجدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى فقلت أنت وحدك فقال معى ربى وملكاى فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومشى ، وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لايتكلم إلامنه ولايسمع إلافيه فهذا لايحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لاتتحرك إلابما هو فيه . ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لايتحرك من ظاهره شىء فقال له من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال من سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لاتتحرك لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شىء فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلارددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال ياابن خفيف الدنيا قليل ومابقى من القليل إلاالقليل فخذ من القليل الكثير . ياابن خفيف : ماأقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر

فذهب

ويحب الأهل والولد بحكم الطبع . والمحبة وجوه وبواعث المحبة فى الانسان متنوعة فمنها محبة الروح ومحبة القلب ومحبة النفس ومحبة العقل فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى حتى يكون حب الله تعالى غالبا فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته حتى يكون حب الله تعالى أغلب فى الطبع أيضا والجبلة من حب الماء البارد وهذا يكون حبا صافيا لخواص تنغمر

فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه إلىّ وقال : ياابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولاأشرب ولا أنام ولارأيتهما أكلا شيئا ولاشربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشابّ رأسه وقال لى ياابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولايعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك . الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال إلاأنها مع ممارسة الأعمال لاتخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلايقدمون ولا يحجمون إلابعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل مايفتضحون به فى القيامة فانهم يرون الله فى الدنيا مطلعا عليهم فلايحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبى أوامرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لاعن إجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وإن كانت لاتدهشك ولاتستغرقك فانها تهيج الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أوكبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ماأنت فيه شغلا به لاحياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أماقبل العمل فلينظر أن ماظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أوهو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فان كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكفّ عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لامحيص لأحد عنه فان فى الخبر «إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأوّل لم . والثانى كيف . والثالث لمن[1]» ومعنى لم أى لم فعلت هذا أ كان عليك أن تفعله لمولاك أوملت إليه بشهوتك وهواك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا فان لله فى كل عمل شرطا وحكما لايدرك قدره ووقته وصفته إلابعلم فيقال له كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت ألوجه الله خالصا فوفاء بقولك لاإله إلاالله فيكون أجرك على الله أولمرآة خلق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى أماسمعتنى أقول ـ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ـ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ـ ويحك أماسمعتنى أقول ـ ألالله الدين الخالص ـ فاذاعرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليكن الجواب صوابا فلايبدىء ولايعيد إلا بعد التثبت

به وبنوره نار الطبع والجبلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب . قال الواسطى فى قوله تعالى ـ يحبهم ويحبونه ـ كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته فالهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات. وقال بعضهم المحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة فاذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فإذن الحب حبان حب عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامتثال الأمر ورعا كان حبا من معدن العلم بالآلاء

(١) حديث ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن. لم أقف له على أصل .

ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ «إن الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فتة الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه [1]» وقال الحسن كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فان كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه فان كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان «اتق الله عند همك إذا هممت [2]» وقال محمد بن على إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقى ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الأولى فى الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث الفعل والفعل يورث البوار والمقت فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فان جميع ما وراءه يتبعه ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضىء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهى شهوات الدنيا فلتكن همة المريد أولا فى أحكام العلم أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات [3]» جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات ولذلك قال عليه السلام «من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا [4]» فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا

---

(١) حديث قال لمعاذ إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه الحديث تقدم فى الذى قبله (٢) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عند همك إذا هممت أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدنى ضعفه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا تقدم ولم أجده .

والنعماء وهذا الحب يخرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب فى المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون لكسب العبد فيه مدخل . وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذى فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه وهذا الحب يكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم «وأحب إلى من الماء البارد» لأنه

بالتوسط

بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الناشئة فى اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذى ماقصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب لتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفى الخبر «أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه التثبت [١]» ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه معجبا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك [٢]» وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ـ ولا تقف ماليس لك به علم ـ وقوله عليه السلام «إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث [٣]» وأراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أرنى الحق حقا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابها علىّ فأتبع الهوى . وقال عيسى عليه السلام «الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه [٤]» وقد كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم «اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم [٥]» فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده ـ وكان فضل الله عليك عظيما ـ وأراد به العلم وقال تعالى ـ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ـ وقال تعالى ـ إن علينا للهدى ـ وقال ـ ثم إن علينا بيانه ـ وقال ـ وعلى الله قصد السبيل ـ وقال على كرم الله وجهه: الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العرا التقوى وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أتاك وإن كنت جازعا على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك واستدل على مالم يكن بما كان فانما الأمور أشباه والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ماخلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فاذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لايخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من عمله وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا [٦]» وأكثر ماينكشف له فى حركاته أن يكون مباحا ولكن

كلام عن وجدان روح تلتذ بحب الذات وهذا الحب روح والحب الذى يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله ـ أذلة على المؤمنين ـ لأن المحب يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه وينشد :

لعين تفدى ألف عين وتتقى
ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها وهو فى الأحوال كالتوبة فى المقامات فمن صحت

---

(١) حديث أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه التثبت لم أجده (٢) حديث فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا الحديث تقدم (٣) حديث إياكم والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة الحديث الطبرانى من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٥) حديث اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم لم أجده (٦) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لايخاف فى الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

لايعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه[١]». النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل مايمكنه وهذا ملازم له فى جميع أحواله فانه لايخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فاذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعدا مثلا فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس مااستقبل به القبلة[٢]» ولا يجلس متربعا إذ لايجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس الملوك فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فاذن لايخلو العبد إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح فمراقبته فى الطاعة بالاخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لابد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لاينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ـ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ـ فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فاذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ـ ولاتنس نصيبك من الدنيا ـ وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فان الساعات ثلاث ساعة مضت لاتعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلة لم تأت بعد لايدرى العبد أيعيش إليها أم لا ولايدرى مايقضى الله فيها وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فان لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لايدرى وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لايكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على مارواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه من قوله عليه السلام «لايكون المؤمن ظاعنا إلا فى ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة فى غير محرم[٣]» وما روى عنه أيضا فى معناه «وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب[٤]»

---

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه تقدم (٢) حديث خير المجالس ما استقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم (٣) حديث أبى ذر لايكون المؤمن ظاعنا إلا فى ثلاث تزود لمعاد الحديث أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال إنه فى صحف موسى وقد تقدم (٤) حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجى فيها ربه الحديث وهى بقية حديث أبى ذر الذى قبله .

نوبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ماشرحناه أولا ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك والتوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجسمان لأنها مشتملة على الحب العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ومن أخذ فى طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة

فإن في هذه الساعة عونا له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لاينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله مثلا فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوي الألباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل مايتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على مافاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذمون منه مالايوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولايعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر [1]» فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول .

(المرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل . ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها)

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى ـ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد ـ وهذه إشارة إلى المحاسبة على مامضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر «أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يارسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فانته عنه» وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى ـ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ـ والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة [2]» وقال الله تعالى ـ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ـ وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران أنه قال لايكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل ، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبابكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ماأحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ماقال فقال لاأحد أعز علي من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها «وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض مما فاته [3]»

النصوح وعند ذلك لايتقلب في أطوار المقامات لأن التقلب في أطوار المقامات والترقي من شيء منها إلى شيء طريق المحبين ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ ومن قوله تعالى ـ ويهدي إليه من ينيب ـ أثبت كون الانابة سببا للهداية في حق المحب وفي حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب فقال الله تعالى ـ يجتبي إليه من يشاء ـ فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه

(١) حديث لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة تقدم غير مرة (٣) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة تقدم غير مرة .

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان فى بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرّب نفسى هل تنكره . وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشئ يعجبه فيقول والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ولكن هيهات حيل بينى وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشئ فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبينى وبينه جدار وهو فى الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك . وقال الحسن فى قوله تعالى ـ ولا أقسم بالنفس اللوّامة ـ قال لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتى ماذا أردت بأكلتى ماذا أردت بشربتى والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها فقلت لنفسى يا نفس أى شئ تريدين فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت فأنت فى الأمنية فاعملى ، وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر فى مكياله رحم الله امرأ نظر فى ميزانه فما زال يقول حتى أبكانى ، وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصى وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن فى شئ منها فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه

صفوها وخالصها بأتم وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية فالزهد يصفيه عن الرغبة والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء جمود فى النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة فيبقى ظلمتها

من الحساب ماسيتولاه غيره فى صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن ؟ فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدّى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقى على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شىء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه ، فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فاذا هى وأحد عشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال : ياويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجرا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه.

(المرابطة الرابعة فى معاقبة النفس على تقصيرها)

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى فلا ينبغى أن يهملها فانه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغى أن يعاقبها فاذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست . وروى أنه كان فى بنى إسرائيل رجل يتعبد فى صومعته فمكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فاذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال ماهذا الذى أريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال هيهات هيهات رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى لايكون والله ذلك أبدا فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأنزل فى بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكريبى يقول أصابتنى ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت فى نفسى تأخرا وتقصيرا فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعنى على نفسى فقلت واعجباه أنا أعامل الله فى طول عمرى فيجب له عليّ حق فلا أجد حق المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها فى الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا فى بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال إنك للحاظة إلى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبى سنان مر بغرفة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيغم جاء رباح القيسى يسأل عن

وجودها لمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جودها فاذا ينزع الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحرقت رغبته وماذا يصفى منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته وماذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة ممن لم تسلم كليته . قال الروذبارى مالم تخرج من كليتك لاتدخل فى حد المحبة وقال أبو يزيد من قتلته محبته فديته رؤيته ومن قتله عشقه فديته منادمته . أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال سمعت أحمد بن على بن جعفر

أبي بعد العصر فقلنا إنه نائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ثم ولى منصرفا فأتبعناه رسولا وقلنا له ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عنى شيئا أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أفكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء ومايدريك أن هذا ليس وقت نوم تتكلمين بمالا تعلمين أما إن لله علىّ عهدا لا أنقضه أبدا لا أوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سوأة لك أما تستحيين كم توبخين و عن غيك لاتنتهين قال وجعل يبكى وهو لايشعر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال «انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حرا أجيفة بالليل بطالة بالنهار فبينما هو كذلك إذ أبصر النبى صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة فأتاه فقال غلبتنى نفسى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيكم فجعل الرجل يقول له يافلان ادع لى يافلان ادع لى فقال النبى صلى الله عليه وسلم عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم[1]» . وقال حذيفة بن قتادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها فقال مافى وجه الأرض نفس أبغض إلىّ منها فكيف أعطيها شهواتها . ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات وهو فى بيته على التراب فقال ياداود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه أن رجلا تعبد زمانا ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يأكل فى كل سبت إحدى عشرة تمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فنزل إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس كنا فى غزاة لنا فحضر العدو فصيح فى الناس فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ألم أشهد مشهد كذ وكذا فقلت لى أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت لأرمقنه اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله مازال ذاك دأبه حتى رأيته صريعا فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ماحملك على أن صنعت يوم كذا كذا . وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد ابن بشر داود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحا مادام فى الدنيا فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك

يقول سمعت الحسين ابن علويه يقول قال أبو يزيد ذلك فاذا التقلب فى أطوار المقامات لعوام المحبين وطى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن هممهم المقامات وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات وهى مواطن من يتعثر فى أذيال بقاياه . قال بعض الكبار لابراهيم الخواص إلى ماذا أدى بك التصوف فقال إلى التوكل فقال تسعى فى عمران باطنك أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل فالنفس إذا تحركت

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حرا الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدرى من طلحة هذا .

أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على مايصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر وتخاف أنك لوتجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدولك وأشد طغيانا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فان غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولوعقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها .

[المرابطة الخامسة المجاهدة]

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل أوورد من الأوراد فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أوالتصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها . فان قلت إن كانت نفسى لاتطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها . فأقول سبيلك فى ذلك أن تسمعها ماورد فى الأخبار من فضل المجتهدين (١) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا إلاأن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلاشىء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لاينقطع فما أعظم ملكهم وماأشد حسرة من لايقتدى بهم فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل مايشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم مايحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وماهم بمرضى (٢)» قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى ــ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ــ قال الحسن يعملون ماعملوا من أعمال البر ويخافون أن لاينجيهم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله (٣)» ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته مابال عبادى مجتهدين

بصفتها متفلتة من دائرة الزهد يردها الزاهد إلى الدائرة بزهده والمتوكل إذا تحركت نفسه يردها بتوكله والراضى يردها برضاه وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة العلم وفى ذلك تنسم روح القرب من بعيد وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم وبحسبه الاجتهاد والكسب ومن أخذ فى طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة المكوف محمية عن

(١) الأخبار الواردة فى حق المجتهدين أبوداود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة باسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته وللترمذى من حديث بلال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولايصح وقد تقدم فى الأوراد مع غيره من الأخبار فى ذلك (٢) حديث رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وماهم بمرضى لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع ولكن رواه أحمد فى الزهد موقوفا على على فى كلام له قال فيه ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى ومابالقوم من مرض (٣) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبرانى من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذى من حديث أبى بكرة خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم .

فيقولون إلهنا خوفتهم شيئا فخافوه وشوّقتهم إلى شئ فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشدّ اجتهادا . وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شئ منها أدبر ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم والله مازالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحكى أنّ قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر له يافتى ماالذى بلغ بك ماأرى فقال ياأمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله إلا صدقتنى فقال ياأمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر إلى عرش ربى والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له فى ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال إن فى سقف بيتك جذعا مكسورا فقال ياابن أخى إن لى فى البيت منذ عشرين سنة مانظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة فقيل له فى ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله ان كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له . وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ماأحببت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود لله فى جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر، وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحرّ حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا فقال إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به ، وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالسا ألف ركعة فإذا صلى العصر احتبى ثم قال عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك عجبت للخليقة كيف أنست بسواك بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ، وكان ثابت البنانى قد حببت إليه الصلاة فكان يقول اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى. وقال الجنيد : مارأيت أعبد من السرى أتت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤى مضطجعا إلا فى علة الموت . وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه فى ذلك فقال وماهذا عند مايراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم فبكى القوم عن آخرهم ، وعن أبى محمد المغازلى قال جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجليه فعبر عليه أبو بكر الكتانى فسلم عليه وقال له ياأبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطنى

فأعانني

الطوارق والصروف لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلب فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه وهو غير كائن فيها على معنى أنه كيف تقلب كان زاهدا وإن رغب لأنه بالحق لا بنفسه وإن رؤى منه الالتفات إلى الأسباب فهو متوكل وإن وجد منه الكراهة فهو راض لأن كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محولة ملطوف بها صار عين الداء دواءه وصار الاعلال شفاءه وناب طلب الله له مناب كل

فأعانني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا ، وعن بعضهم قال دخلت على فتح الموصلي فرأيته قد مد كفيه يبكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت ولم بالله يافتح بكيت الدم فقال لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما فقلت له على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لي الدموع قال فرأيته بعد موته في المنام فقلت ماصنع الله بك ؟ قال غفر لي فقلت له فماذا صنع في دموعك ؟ فقال قربني ربي عز وجل وقال لي يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على تخلفي عن واجب حقك فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لاتصح لي فقال لي يافتح ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة ، وقيل إن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته فقالوا ياراهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعلم القوم ما أراد فقالوا ياراهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإن النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث فعجب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته ياراهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف علي وقال ياهذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت ياراهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال ياأخي لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصي والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على مايقربه من ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن لفارغ ، وكان أويس القرني يقول هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة ، وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لايتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك قال الرفق أطلب دعيني أتعب قليلا وأتنعم طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا. وقال سفيان الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى . وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لاينام طول الليل ، وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يامأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ؟ فيقول يابنتاه إن أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع مايلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يابني لعلك قتلت قتيلا قال نعم يا أماه قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول يا أماه هي نفسي ، وعن عمر ابن أخت بشر بن الحرث قال سمعت خالي بشر بن الحرث يقول لأمي يا أختي جوفي وخواصري تضرب علي فقالت له أمي يا أخي أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك فقال لها ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري إيش أقول له فبكت أمي وبكى معها

طالب من زهد وتوكل ورضا أو صار مطلوبه من الله ينوب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا . قالت رابعة: محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه . وقال أبو عبد الله القرشي حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك ولا يبقى لك منك شيء. وقال أبو الحسين الوراق : السرور بالله من شدة المحبة له والمحبة في القلب نار تحرق كل دنس . وقال يحيى بن معاذ صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين واعجبا كيف يصبر الانسان عن حبيبه . وقال بعضهم من ادعى

وبكيت معهم . قال عمر ورأت أمى ما بشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمى يا أخى ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك فسمعته يقول لها وأنا فليت أمى لم تلدنى وإذ ولدتنى لم يدر ثديها على . قال عمر وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار . وقال الربيع: أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبى هذا منه ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالى أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا فحاك ذلك فى صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة أحيانا وفى أودية النار أحيانا فهل فى ذلك نوم . وقال ثابت البنانى : أدركت رجالا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء فى إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون فى كل يوم خمسمائة ركعة ، وعن أبى بكر المطوعى قال كان وردى فى شبيبتى كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوى، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ماهذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لا تسكت لعلك يا بنى أصبت نفسا لعلك قتلت قتيلا ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول مارأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار . ويروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومى فو الله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلل منك لا منى فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتى وكان يقول أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد

محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقراء فهو كذاب وكانت رابعة تنشد :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة للمقامات فمن ادعى حالا يعتبر حبه ومن ادعى محبة تختبر توبته

مالوقيل له القيامة غدا ماوجد متزايدا ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذاكان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحرّ فلاينام وأنه مات وهو ساجد وأنه كان يقول : اللهم إنى أحبّ لقاءك فأحبّ لقائى . وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت إذاغدوت بدأت بعائشة رضى الله عنها أسلم عليها فغدوت يوما إليها فاذا هى تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ ـ فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ـ وتبكى وتدعو وتردّد الآية فقمت حتى مللت وهى كاهى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكى وتدعو . وقال محمد بن إسحاق لما ورد علينا عبدالرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ماأخاف من الموت إلامن حيث يحول بينى وبين قيام الليل . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين . وقيل للحسن : مابال المتهجدين أحسن الناس وجوهافقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره ، وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى وتميتنى ولاتعلمنى وخلقت معى عدوا وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولاأراه ثم قلت لى استمسك إلهى كيف أستمسك إن لم تمسكنى إلهى فى الدنيا الهموم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح ، وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد فحدثت به بعض البصريين فقال لاتنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ماكان فيه بين الصيحتين حتى صاح . وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب . وكان له أهل وبنات ، وكان يقول فيصلى ليلا طويلا فاذاكان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلاتقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ ، فاذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوب ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ومالايمكن واصفا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا ، وهذه طريقة لايبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك فاذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فاذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ـ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ـ إلى قوله ـ ويحذركم الله نفسه ـ قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيا عليه فقلت واأسفاه هذا لشقائى ، ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال مالى وللدنيا

فان التوبة قالب روح الحب وهذا الروح قيامه بهذا القالب والأحوال أعراض قوامها بجوهر الروح. وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال «المرء مع من أحب » فهم مع الله تعالى وقال أبو يعقوب السوسى لاتصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هذا بالمحبة فاذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة

ومالدنيا ولى عليك يادنيا بأبناء جنسك وألاف نعيمك إلى محبيك فاذهبي وإياهم فاخدعي ثم قال أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فناديته ياعبدالله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ثم لها عنى ساعة وقرأ ـ وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ـ ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخرّ مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدنوت منه فاذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول من أنا ما خاطرى هب لى إساءتى من فضلك وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت له بالذى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه إنى لفى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى فلم يجد عونا علىّ ليخرجنى مما أنا فيه غيرك فاليك عنى يامخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى وأنا أعوذ بالله من شرك ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ويتفضل علىّ برحمته . قال فقلت هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين بينا أنا أسير فى مسيرلى إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فاذا أنا بشيخ قد أشرف علىّ فقال لى ياهذا قم فان الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول ـ كل نفس ذائقة الموت ـ اللهم بارك لى فى الموت فقلت وفيما بعد الموت فقال من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقرّ ثم قال يامن لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر إليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذل التوبيخ غدا عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن الاعراض عنك ، ثم قال لولا حلمك لم يسعنى أجلى ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ثم مضى وتركنى ، وقد أنشدوا فى هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات ... يكدّر ثقلها صفو الرّقاد
فان هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته أغثنى ياعمادى
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضا :

ألذ من التلذذ بالغوانى ... إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فردا ... ويظفر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ولى ... وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير ... يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ماأراد وماتمنى ... من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة فقيل خمسون ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لاغاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع

سئل الجنيد عن المحبة قال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب . قيل هذا على معنى قوله تعالى «فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا» وذلك أن المحبة إذا صفت وكملت لاتزال تجذب بوصفها إلى محبوبها ، فاذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة وكمال وصف المحبة أزال الموانع من المحب وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفا على المحب الخالص من موانع قادحة فى صدق الحب ونظرا إلى قصوره بعد استنفاد

فى القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تسكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والسكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر فى الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترضى لها أن تنخرط فى سلك الحمق وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة فأخس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها ، ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت إلهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم تقبل على صلاتها فاذا طلع الفجر قالت إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم رددتها علىّ فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع فى نفسى من جودك وكرمك . وروى عن عجرة أنها كانت تحيى الليل وكانت مكفوفة البصر فاذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهى أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين وأن ترفعنى لديك فى عليين فى درجة المقربين وأن تلحقنى بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لى لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذاك قال فأتيناها فقلت لها لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريدين قال فبكت ثم قالت والله لوددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دما حتى لا تبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى وأنى لى بالبكاء وأنى لى بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت رأيت فى منامى كأنى أدخلت الجنة فاذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لى قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة فقيل أمة سوداء من أهل الأيلة يقال لها شعوانة قالت فقلت أختى والله قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختى أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقنى بك قالت فتبسمت إلى وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين ألزمى الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت. وقال عبد الله بن الحسن كانت لى جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فاذا هى ساجدة وهى تقول بحبك لى إلا ما غفرت لى ذنوبى فقلت لها لا تقولى بحبك لى ولكن قولى بحبى لك فقالت يا مولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الاسلام وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشى قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت فى بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لخادم لى أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شىء قدير . وقال ذو النون المصرى خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول

جهده فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، فيقول عند ذلك :
أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتنى أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا
وهذا الذى عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الله » لأنه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية ولكن سنة الله جارية أن يزكى نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأييده وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها

ـ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ـ ويبكى فلما قرب منى السواد إذا هى امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة فقالت لى من أنت غير فزعة منى فقلت رجل غريب فقالت ياهذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لى ما الذى أبكاك فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لايبكى قالت لا قلت ولم ذاك قالت لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها . وقال أحمد بن على استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعنا وهى تقول اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعى لنا فقالت جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لاينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فأصابه فتق فى بطنه فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ويالتيها إذا عصت لم تعد. وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت لاتبرحى حتى أنصرف اليك قال فانصرفت فلم أجدها فى الموضع فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت يامولاى لاتعجل على إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكر الله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها أنت حرة . فقالت ساء ماصنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما. وقال ابن العلاء السعدى كانت لى ابنة عم يقال لها بريدة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يابريرة كيف أصبحت قالت أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرها ماذهب منهما فى الدنيا وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير مانحن فيه. وكانت معاذة العدوية إذ جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح . وقال أبو سليمان الدارانى بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ماجزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن تصوم له غدا وكانت شعوانة تقول فى دعائها إلهى ماأشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لايخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى فان عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها إلهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى باحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه إلهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجميل فى حياتى إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فان محبتى لك قد أجارتنى فتول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله إلهى لوأردت إهانتى لما هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فمتعنى بما له هديتنى وأدم لى مابه سترتنى إلهى ماأظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى إلهى لولا ما قارفت من الذنوب ماخفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك مارجوت ثوابك . وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئا من العفو ليهون عليها الأمر قال فشهقت

جلب روحه بجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق ويكون ذلك عنده رتبة فى الوصول فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ماوراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذى يسكن نيران شوقه وباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب ولولا باعث الشوق رجع القهقرى وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه ومن ظن من الوصول غير ماذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر فهو

ثم قالت على بنفسى فرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم آك شيئا مذكورا ثم أقبلت على صلاتها . فعليك إن كنت من الرابطين الراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك وإياك ان تنظر إلى أهل عصرك فانك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فان حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فان خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا مايجرى عليهم والمصيبة إذا عمت طابت فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها أرأيت لوهجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخذين حذرك عما دهاك فاذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وعذاب الغرق لايتمادى إلا ساعة فكيف لاتهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا — إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون — فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لاتترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها .

(الرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها)

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلاتغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولاتشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ياابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى وقال تعالى — وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين — وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها يانفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أوغدا فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا أما تعلمين أن كل ماهو آت قريب وأن البعيد ماليس بآت أماتعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لايأتى فى شىء دون شىء ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فان لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضى إلى الموت فمالك لاتستعدين للموت

متعرض للمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت. وإشارات الشيوخ فى الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا وأمنت اللوث الوجودى من بقاء صفات النفس وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها. سئل الشبلى عن المحبة فقال كأس لها وهج إذا استقر فى الحواس وسكن فى النفوس تلاشت .وقيل المحبة ظاهر وباطن ظاهرها اتباع رضا المحبوب

وهو أقرب إليك من كل قريب أماتتدبرين قوله تعالى ـ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ـ ويحك يانفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لايراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . ويحك يانفس لوواجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات هيهات جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس أوفى بيت الحمام أوقربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لاتعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فإذا قصدك عدوّ فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ولاتكلينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لاينقضى إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولاطلب أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لاتبديل لها وأن ربّ الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان إلا ماسعى . ويحك يانفس ماأعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك ـ ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ـ وقال فى أمر الآخرة ـ وأن ليس للانسان إلا ماسعى ـ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ماهذا من علامات الايمان لوكان الايمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار . ويحك يانفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات أتحسبين أنك تتركين سدى ألم تكونى نطفة من منىّ يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى فان كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك أماتتفكرين أنه مماذا خلقك من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه فى قوله ثم إذا شاء أنشرك فان لم تكونى مكذبة فمالك لاتأخذين حذرك ولوأن يهوديا أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة أقلّ عندك تأثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم والعجب أنه لوأخبرك طفل بأن فى ثوبك عقربا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبى من جملة الأغبياء أم صار حرجهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لاتحسين بألمها إلا يوما أوأقل منه ماهذه أفعال العقلاء بل لوانكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان كنت يانفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فبم إذا أمنت استعجال الأجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لوسافر رجل ليتفقه فى الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى

وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شئ ولايبقى فيه بقية لغيره ولالنفسه فمن الأحوال السنية فى المحبة الشوق ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا لأن أمر الحق تعالى لانهاية له فما من حال ينالها المحب إلا ويعلم أن ماوراء ذلك أوفى منها وأتم : حزنى عليك لاالذا أمد ينتهى إليه ولاالذا أمد ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين . قال أحمد ابن أبى الحوارى دخلت على أبى سليمان

ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك فان أوحي إليك بالامهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفتنتظرين يوما يأتيك لا عسر فيه بمخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الأمس لا بل تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فاذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فاذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة فان كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشرب به طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالاضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالاضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي . أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة فاذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة

الداراني فرأيته يبكي فقلت ما يبكيك رحمك الله قال ويحك يا أحمد إذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وأشرف الجليل جل جلاله عليهم يقول « بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى مناجاتي وإني مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذي أراه فيكم هل خبركم مخبر أن حبيبا يعذب أحبابه بالنار كيف يجمل بي أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل تملقوا إلى فيهم

فى الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هى طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين . ويحك يا نفس انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فى نفسك مودتها فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمق . أما تعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك مجزى به وعش ما شئت فانك ميت [١] » . ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فانما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون يبنى كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا ، أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك ، عجبا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف وقد أبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها أم ما لك لا تزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها وما لك

(١) حديث إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه الحديث تقدم فى العلم وغيره.

حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسمر لهم عن وجهى وأبيحهم رياض قدسى » وهذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق والشوق من المحبة كالزهد من التوبة إذا استقرت التوبة ظهر الزهد وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق . قال الواسطى فى قوله تعالى ـ وعجلت إليك رب لترضى ـ قال شوقا واستهانة بمن وراءه ـ قال هم أولاء على أثرى ـ من شوقه إلى مكالمة الله ورمى بالألواح لما فاته من وقته . قال أبو عثمان الشوق ثمرة المحبة فمن أحب الله اشتاق إلى

تفرحين بالدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك. أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك ، أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ، أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك . ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح في يديك وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلاح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقه وجليله سره وعلانيته

لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى — فإن أجل الله لآت — تقربة للمشتاقين معناه أني أعلم أن شوقكم إلي غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات إذا بلغها الانسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء للقائه والنظر إليه . وعندي أن الشوق الكائن في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها

فانظرى يانفس بأىّ بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دارزوال لدار مقامة وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملى قبل أن لاتعملى اخرجى من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ولاتفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لايشعر فويل لمن له الويل ثم لايشعر يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار فليكن نظرك يانفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولاتكونى ممن يعجز عن شكر ماأوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولاينتهى واعلمى يانفس أنه ليس للدين عوض ولاللايمان بدل ولاللجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وإن لم يسر فاتعظى يانفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وماأراك بها راضية ولالهذه الموعظة واعية فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم تزل فبقلة المخالطة والكلام فان لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام فان لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطنى نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك فلاسبيل لك إلى القنوط ولاسبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء واستعينى بأرحم الراحمين واشتكى إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولاتملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك فان مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل فلامذهب ولامطلب ولامستغاث ولامهرب ولاملجأ ولامنجا إلا إلى مولاك فافزعى إليه بالتضرع واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرّع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطرّ وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسئول جواد والمستغاث به برّ رءوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولى ياأرحم الراحمين يارحمن يارحيم ياحليم ياعظيم ياكريم أنا المذنب المصرّ أنا الجرىء الذى لاأقلع أنا المتمادى الذى لاأستحى هذا مقام المتضرّع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل إغاثتى وفرجى وأرنى آثار رحمتك وأذقنى برد عفوك ومغفرتك وارزقنى قوة عظمتك ياأرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لاترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه فى اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ماهذا الجهد الذى أرى بك قال يارب عظمت مصيبتى وأحاطت بى خطيئتى وأخرجت من ملكوت ربى فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة وفى دار البلاء بعد العافية وفى دار الزوال بعد القرار وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لاأبكى على خطيئتى فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك سخطى ألم أخلقك بيدى ونفخت فيك

علما ويطلبونها ذوقا فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت ورعا الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى كما قال الجليل لرسوله عليه الصلاة والسلام - قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين - فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة فتسلى عنه من الفقد ثم يكاشفه من المنح والعطايا فى الدنيا مايتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى مابعد الموت وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال إنما يكون الشوق

من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عتبة الغلام كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله: إلهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى واعبيداه إن كانت النار لك مقيلا ومأوى واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدا يناجي ربه وهو يقول يارب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخى عليّ فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصيّ فإلى متى أتوب وإلى متى أعود أما آن لي أن أستحي من ربي فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام . تم كتاب المحاسبة والمراقبة . ويتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

﴿ كتاب التفكر ﴾

(وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرامي سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ثم قيل لها أجيلي في ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدرا وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرا فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى وجددي لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وإيمانا وكفرا وعرفانا ونكرا فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرا إمرا وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا فقد انبهرت العقول دون مبادي إشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته فخرا صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة [1] » وكثر الحث في كتاب

لغائب ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ولهذا سئل الأنطاكي عن الشوق فقال إنما يشتاق إلى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته وإنكار الشوق على الاطلاق لا أرى له وجها لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ولكن يكون مشتاقا إلى ما لم يجد من أنصبة القرب فكيف يمنع حال الشوق والأمر هكذا. ووجه آخر أن الانسان لا بد له من أمور يردها

﴿ كتاب التفكر ﴾

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة

الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه فان كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

(فضيلة التفكر)

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لاتحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى ـ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا ـ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن قوما تفكروا فى الله عزوجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره[1] » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لاتتكلمون؟ فقالوا نتفكر فى خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فيه فان بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يارسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال مايدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم؟ قال لايدرون خلق آدم أم لا[2] » وعن عطاء قال « انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت ياعبيد مايمنعك من زيارتنا؟ قال قول رسول صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا قال ابن عمير فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجبا أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال ذرينى أتعبد لربى عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ويحك يابلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى علىّ فى هذه الليلة ـ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ـ ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها[3] » فقيل

حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم وقوفه على حد العلم الذى يقتضيه حكم الحال ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق ولا نعنى بالشوق إلا بطالبة تنبعث من الباطن إلى الأولى والأعلى من أنصبة القرب وهذه الطالبة كائنة فى المحبين فالشوق إذن كائن لاوجه لانكاره وقد قال قوم شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة فيكون فى حال الغيبوبة مشتاقا إلى اللقاء ويكون فى حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا إلى زوائد ومبار من الحبيب

بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة (١) حديث ابن عباس إن قوما تفكروا فى الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لاتتكلمون فقالوا نتفكر فى خلق الله الحديث رويناه فى جزء من حديث عبد الله بن سلام (٣) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث قال ابن عمير فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى نزول ـ إن فى خلق السموات والأرض ـ وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم فى الصبر والشكر وأنه فى صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء .

للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن؟ قال يقرؤهن ويعقلهن. وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر. وعن الحسن قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وعن الفضيل قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك، وقيل لابراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال نعم من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي. وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى ـ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ـ قال أمنع قلوبهم التفكر في أمري. وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة؟ قال النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه[1]»، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت. لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين. وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يالقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة. وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرىء قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة. وقال عبد الله ابن المبارك يوما لسهل بن علي ورآه ساكتا متفكرا أين بلغت؟ قال الصراط. وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ماعصوا الله عز وجل. وعن ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وبينا أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له يبكيك؟ قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي. وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر. وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب. وقال حاتم من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف. وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه. وروي أن الله تعالى قال في بعض كتبه إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فاذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم. وقال الحسن إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة. وقال اسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن أنه لص فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ماشعرت بذلك. وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال ياهامن مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه

وإفضاله وهذا هو الذي أراه وأختاره. وقال فارس: قلوب المشتاقين منورة بنور الله فاذا تحركت اشتياقا أضاء النور مابين المشرق والمغرب فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أني إليهم أشوق. وقال أبو يزيد: لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار. سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب. سئل بعضهم هل الشوق

(١) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة باسناد ضعيف.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضاً صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضاً الفضائل أربع: إحداها الحكمة وقوامها الفكرة. والثانية العفة وقوامها في الشهوة . والثالثة القوة وقوامها في الغضب . والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

(بيان حقيقة الفكر وثمرته)

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان: أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرد قوله وهذا يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة. والطريق الثاني أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً . أما التدبر والتأمل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحداً كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار. وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكراً، وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب ، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فاذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق . هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكر . وأما أكثر الناس فانما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كالذي لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جداً وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الايراد فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين وهو أن الأبقى أولى بالإيثار

أعلى أم المحبة ؟ فقال المحبة لأن الشوق يتولد منها فلا مشتاق إلا من غلبه الحب فالحب أصل والشوق فرع وقال النصراباذي : الخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار . ومنها الأنس وقد سئل الجنيد عن الأنس فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة . وسئل ذو النون عن الأنس فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب قيل معناه قول الخليل ـ أرني كيف تحيي الموتى ـ وقول موسى ـ أرني

بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالايثار فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة . وأما ثمرة الفكر فهى العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير ، نعم إذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر ، فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فاذن التفكر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، فقيل هو الذى ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى ـ لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ـ وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ماذكرناه من أمر الآخرة فان الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالايثار فاذا رسخت هذه المعرفة يقينا فى قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته ثم أثمر تغير الارادة أعمال الجوارح فى طراح الدنيا والاقبال على أعمال الآخرة فههنا خمس درجات : أولاها التذكر وهو إحضار المعرفتين فى القلب. وثانيتها التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما . والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها. والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضىء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره ، فاذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لا نهاية لها والأحوال التى تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية ، نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالاضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالاضافة إلى الأحوال التى هى مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فانها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

(بيان مجارى الفكر)

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر فى غير هذين القسمين ، وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى وإما أن يكون فى أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما فى السموات والأرض وما بينهما وينكشف

أنظر إليك وأنشد لرويم :
شغلت قلبى بما لديك فلا ينفك طول الحياة عن فكر
آنستنى منك بالوداد فقد أوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنس يعارضنى يوعدنى عنك منك بالظفر
وحيثما كنت يامدى هممى فأنت منى بموضع النظر
وروى أن مطرف ابن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه فان لله عبادا استأنسوا بالله وكانوا فى وحدتهم

لك انحصار الفكر فى هذه الأقسام بمثال وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يضاهى حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا ، فنقول : العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه فان تفكر فى معشوقه فاما أن يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته وإن تفكر فى نفسه فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها أو فى الصفات التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها فان تفكر فى شىء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره فمحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدأ بالقسم الأول وهو تفكره فى صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب وذكرنا تفصيلها فى ربع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصى تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون فى المسكن الحرام ويجب فى كل واحد من المكاره التفكر فى ثلاثة أمور : الأول التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا فرب شىء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر . والثانى التفكر فى أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه . والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به فى الحال فيتركه أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فاذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر فى هذه الأقسام على مائة والعبد مدفوع إلى الفكر إما فى جميعها أو فى أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ولكن انحصر هذا القسم فى أربعة أنواع الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات المنجيات فلنذكر فى كل نوع مثالا ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه [النوع الأول المعاصى] ينبغى أن يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر فى اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعنى إلى غير ذلك من المكاره فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر فى أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد أو بأن لا يجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله وإلا فيضع حجرا فى فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فهكذا يكون الفكر فى حيلة الاحتراز ويتفكر فى سمعه أنه يصغى به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهى عن المنكر فمهما كان ذلك فيتفكر فى بطنه أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التى هى سلاح الشيطان عدو الله وإما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ويتفكر فى طريق الحلال ومداخله ثم

يتفكر

أشد استئناسا من الناس فى كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون . قال الواسطى : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها . وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى فانك لا تتزايد به أنسا إلا ازددت منه هيبة وتعظيما . قالت رابعة : كل مطيع مستأنس وأنشدت :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى

يتفكر فى طريق الحيلة فى الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد فى ثمن ثوبه درهم حرام (١) كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر فى أعضائه ففى هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها [وأما النوع الثانى وهو الطاعات] فينظر أولا فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلا إن العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل فى طاعة الله تعالى وتنظر فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله وكذلك يقول فى سمعه إنى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر فمالى أعطله وقد أنعم الله على به وأودعنيه لأشكره فما لى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول إنى قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر فى ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فانى مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقنى الله تعالى مثله وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الايثار أحوج منى إلى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلمانه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه فى البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر فى إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات [وأما النوع الثالث فهى الصفات المهلكة التى محلها القلب] فيعرفها مما ذكرناه فى ربع المهلكات وهى استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات فان ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر فى كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فان النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف فاذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى أن تجرب بحمل حزمة حطب فى السوق كما كان الأولون يجربون به أنفسهم وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها فى كظم الغيظ وكذلك فى سائر الصفات وهذا تفكر فى إنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ولذلك علامات ذكرناها فى ربع المهلكات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر فى الأسباب التى تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة كما لو رأى فى نفسه عجبا بالعمل فيتفكر ويقول إنما عملى ببدنى وجارحتى وبقدرتى وإرادتى وكل ذلك ليس منى ولا إلىّ وإنما هو من خلق الله وفضله علىّ فهو الذى خلقنى وخلق جارحتى وخلق قدرتى وإرادتى وهو الذى حرك أعضائى بقدرته وكذلك قدرتى وإرادتى فكيف أعجب بعملى أو بنفسى ولا أقوم لنفسى بنفسى فاذا أحس فى نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت وكم من كافر فى الحال يموت مقربا إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقيا

وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره. قيل لبعضهم من معك فى الدار قال الله تعالى معى ولا يستوحش من أنس بربه. وقال الخراز: الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب فى مجالس القرب. ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال: جدد لهم الود فى كل طرفة

---

(١) حديث إن الله لا يقبل صلاة عبد فى ثمن ثوبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم .

بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فاذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر فى علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين وإذا وجد فى نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر فى أن هذه صفة البهائم ولو كان فى شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد وكذلك يقرر على نفسه فى الغضب ثم يتفكر فى طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه فى هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما فى هذه الكتب [وأما النوع الرابع وهو المنجيات] فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد فى الدنيا والإخلاص والصدق فى الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه فى هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم فى قلبه ما الذى يعوزه من هذه الصفات التى هى القربة إلى الله تعالى فاذا افتقر إلى شىء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها فى قلبه ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى إحسان الله إليه وأياديه عليه وفى إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه فى كتاب الشكر فليطالع ذلك وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه فى القسم الثانى من الفكر وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر فى الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ثم فى هول النداء عند نفخة الصور ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم فى المناقشة فى الحساب والمضايقة فى النقير والقطمير ثم فى الصراط ودقته وحدته ثم فى خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار ثم ليحضر بعد أهوال القيامة فى قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا إلى جميع ما ورد فى القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا فى كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فانه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغى أن يقرأه العبد ويردد الآية التى هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها أسرارا لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتى جوامع الكلم (١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها

بدوام الاتصال وآوام فى كنفه بحقائق السكون إليه حتى أنت قلوبهم وحنت أرواحهم شوقا وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله فذهبت منامهم وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه وكان نصيبهم معرفتهم به وفراغ همهم عليه واجتماع أهوائهم فيه فصار بحمدهم من عبيده العموم أن

---

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم تقدم.

العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به [(١)] » فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهى كافية للمتأملين فيها طول العمر إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر فى علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هى محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة والمبتدىء ينبغى أن يكون مستغرق الوقت فى هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية للطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر فى جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر فى أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق . فأما ما ذكرناه فهو تفكر فى عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فإذا ضيع جميع عمره فى إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور فى البوادى فلقيه الحسين بن منصور وقال فيم أنت؟ قال أدور فى البوادى أصلح حالى فى التوكل فقال الحسين أفنيت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد فالفناء فى الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين. وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجرى مجرى الخروج عن العدة فى النكاح. وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرى مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فإن استغرقت جميع عمرها فى تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب ، فهكذا ينبغى أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا فى الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة فإن بينك وبين القلب حجابا كثيفا فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون وإذا عرفت مجال الفكر فى علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى بل كل مريد فينبغى أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ، ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة فإنه إن سلم منها سلم من غيرها وهى البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد فى الدنيا ، والاخلاص فى الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها فى جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على التسعة الباقية وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقى ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر .

رفع عن قلوبهم جميع الهموم . وأنشد فى معناه :

كانت لقلبى أهواء مفرقة
فاستجمعت إذ رأتك النفس أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده
وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم
شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

وقد يكون من الأنس الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منه ولكن

(١) حديث إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه الحديث تقدم غير مرة

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والافراط فى معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فان أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغى أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا فى معاص هم بمعزل عنها. مثاله العالم الورع فانه لا يخلو فى غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون فانه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع فى القلوب لم ينفك عن الاعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره فان وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والايراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه فى القلب إعلاء لدين الله فان كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو فى موالاة غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه فى دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة فى سر القلب التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك ولا مطمع له فى سلامة العوام فمن أحس فى نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الانس إذا قالوا لا تفعل هذا فان هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق وليقل لهم إن دين الاسلام مستغن عنى فانه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ولو مت لم تنهدم أركان الاسلام فان الدين مستغن عنى وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبى ، واما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فان الناس لو حبسوا فى السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم فى الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم [1]» و «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر [2]» فلا ينبغى أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى فى قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فان ذلك بذر النفاق

ليس هو حال الأنس الذى يكون للمحبين والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس وحقيقته عندى كنس الوجود بثقل لاعج العظمة وانتشار الروح فى ميادين الفتوح وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهيبة وفى الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس وهذا الذى وصفناه من أنس الذات وهيبة الذات يكون فى مقام البقاء بعد العبور على

---

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر تقدم أيضا فى العلم .

قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والمال ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل[(١)] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر إفسادا فيها من حب الجاه والمال فى دين المرء المسلم[(٢)] » ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل مايزيد جاهه فى قلوبهم فليكن العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفى استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم التقى فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصى ونحن منهمكون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون فى الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا فى الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين فى علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر فى جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات وإن ظهر شىء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ولا طريق له فى كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهى مؤذيات ومشوشات وفى القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف فى التنبيه على مجارى فكر العبد فى صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى . القسم الثانى الفكر فى جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان المقام الأعلى الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تفكروا فى ذات الله وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالاضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يختفى نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر فى بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الانسان فى النظر إلى الشمس فانه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه وصفاته فان أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح فى عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام إن هذا وصف بطيخ هندى لا وصف الإله لظن المسكين أن الجلالة

ثمر الفناء وهما غير الأنس والهيبة اللذين يذهبان بوجود الفناء لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام التلوين وماذكرناه بعد الفناء فى مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات ومن الأنس خضوع النفس المطمئنة ومن الهيبة خشوعها والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح. ومنها القرب قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ـ واسجد واقترب ـ وقد ورد « أقرب مايكون العبد

(١) حديث حب المال والجاه ينبت النفاق فى القلب الحديث تقدم (٢) حديث ماذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم الحديث تقدم .

والعظمة فى هذه الأعضاء. وهذا لأن الانسان لايعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل مالا يساويه فى صفاته فلا يفهم العظمة فيه، نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك فى حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال كيف يكون خالقى أنقص منى أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لايقدر على الطيران أو يكون لى آلة وقدرة لايكون له مثلها وهو خالقى ومصورى وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل وإن الانسان لجهول ظلوم كفار. ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لاتخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون. ولما كان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته مخطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لايتعرض لمجارى الفكر فيه لكنا نعدل إلى المقام الثانى وهو النظر فى أفعاله ومجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره فى خلقه فانها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإنا لانطيق النظر إلى صفاته كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالاضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر فى الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وان كان لايقوم مقام النظر فى نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لاظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله ﷺ «تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى ذات الله تعالى».

(بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى)

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه. فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة إلى مالا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التى لانعلمها كما قال الله تعالى ـ ويخلق مالا تعلمون. سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ـ وقال ـ وننشئكم فيما لاتعلمون ـ وإلى مايعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر فى تفصيلها وهى منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر وإلى مالا ندركه بالبصر أما الذى لاندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى وغير ذلك ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق ويغمض فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهى المدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها فهذه هى الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع وكل نوع ينقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم

من ربه فى سجوده» فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب. قال بعضهم إنى لأجد الحضور فأقول يا الله أو يارب فأجد ذلك على أثقل من الجبال قيل ولم قال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادى جليسه وإنما هى إشارات وملاحظات ومناغاة وملاطفات وهذا الذى وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب ولكنه مشعر بنحو ومؤذن بسكر

إلى أصناف ولانهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال الفكر فلاتتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد ولانبات ولاحيوان ولا فلك ولا كوكب إلاوالله تعالى هو محركها وفى حركتها حكمة أوحكمتان أوعشر أوألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهى الآيات الدالة عليه ، وقدورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال الله تعالى - إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب - وكما قال تعالى - ومن آياته - من أول القرآن إلى آخره، فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات ، فمن آياته الانسان المخلوق من النطفة وأقرب شىء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ماتنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه، فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال - وفى أنفسكم أفلاتبصرون - وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال - قتل الانسان ماأكفره من أىّ شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره، ثم إذاشاء أنشره - وقال تعالى - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون - وقال تعالى - ألم يك نطفة من منىّ يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى - وقال تعالى - ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم - وقال - أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذاهو خصيم مبين - وقال - إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج - ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما فقال تعالى - ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة - الآية ، فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر فى معناه فانظر الآن إلى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة لوتركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها ربّ الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم، ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لوفقدت طبقة منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلوذهبنا إلى أن نصف مافى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار فانظر الآن إلى العظام وهى أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الانسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه مفتقرا للتردد فى حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفى العظم وألصقه بالعظم

يكون ذلك لمن غابت نفسه فى نور روحه لغلبة سكر وقوة محو فاذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس والنفس من الروح ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه فيقول يا ألله ويارب بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال وهذا أتم وأقرب من الأول لأنه وفى حقّ القرب باستقلال الروح بالفتوح وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار وحظ القرب لايزال

الآخر كالرباط له ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منه وفى الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف وأربعة عشر للحى الأعلى واثنان للحى الأسفل والبقية هى الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهى الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام فى بدن الانسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة ، وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون وإنما الغرض أن ينظر منها فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها خصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فشتان بين النظرين ، ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهى العضلات فخلق فى بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ، وهى مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هى لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فللفكر مجال فى آحاد هذه الأجزاء ثم فى آحاد هذه الأعضاء ثم فى جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعانى والصفات التى لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الانسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته فى أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هى أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ـ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ـ فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبا أو جلدا أو شعرا هل يقدرون على ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة

يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس . وقال الجنيد إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه فانظر ماذا يقرب من قلبك . وقال أبو يعقوب السوسى مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فاذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب وقد قال قائلهم: قد تحققتك فى السـ ر فناجاك لسانى فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان

إنسان

إنسان مصور على حائط تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم فى قلبك محله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط وبالقدرة وبالعلم وبالارادة وشىء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكثر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة فى حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها والكلية تخدمها بجذب المائية عنها والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ثم تخرجه فى طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد فى إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الأصابع سوى ماوضعت عليه من بعد الابهام عن الأربع وتفاوت الأربع فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء فان بسطها كانت له طبقا يضع عليها مايريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب وإن ضمها

إن يكن غيك التعظيم عن لحظ عيانى فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى قال ذو النون ماازداد أحد من الله قربة إلا ازداد هيبة . وقال سهل أدنى مقام من مقامات القرب الحياء وقال النصراباذى باتباع السنة تنال المعرفة وبأداء الفرائض تنال القربة وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة . ومنها الحياء والحياء على الوصف العام والوصف الخاص فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله «استحيوا من الله حق الحياء قالوا

ضما غير تام كانت مغرفة له وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تتقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لو عدمه الانسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ولا يرى المصور ولا آلته فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ، ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبى لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدى ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبى ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه فى الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا إما كفورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى ـ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ـ فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية والعجب كل العجب ممن يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكر فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك وإنما خاصية الانسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لانسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة

إنا نستحيى يارسول الله قال ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وماوعى والبطن وماحوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » وهذا الحياء من المقامات وأما الحياء الخاص فمن الأحوال وهو ما نقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأنطوى حياء من الله . أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادى يقول سمعت أحمد السقطى

للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لاتتحرك وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم فقال تعالى ـ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ـ وقال تعالى ـ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها ـ وقال تعالى ـ الذي جعل لكم الأرض فراشا ـ وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى ـ ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا ـ فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها فتفجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حي فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح يفضل بعضها على بعض في الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فإن قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفى الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لايقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات [ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض] ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لاينطبع كالفيروزج واللعل وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لايمكن تناول مثقال منه

ابن صالح يقول سمعت محمد بن عبدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول قال لي سري : احفظ عني ماأقول لك إن الحياء والأنس يطوفان بالقلب فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطا وإلا رحلا والحياء إطراق الروح إجلالا لعظيم الجلال والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال فإذا اجتمعا فهو الغاية في المنى والنهاية في العطاء وأنشد شيخ الاسلام :

أشتاقه فإذا بدا
أطرقت من إجلاله
لاخيفة بل هيبة
وصيانة لجماله
الموت في إدباره
والعيش في إقباله

ليكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فبهما عيشك ومامن جماد ولاحيوان ولا نبات إلاوفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ماخلق شئ منها عبثا ولالعبا ولاهزلا بل خلق الكل بالحق كما ينبغى وعلى الوجه الذى ينبغى وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى - وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما إلابالحق . ومن آياته أصناف الحيوانات: وانقسامها إلى مايطير وإلى مايمشى وانقسام مايمشى إلى مايمشى على رجلين وإلى مايمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها فى المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب مالاتشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى إلفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدئ ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد مابينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفى الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله ومامن حيوان صغير ولا كبير إلاوفيه من العجائب مالا يحصى أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أولا هادى له ولا معلم أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ماتتحير فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضا لاحصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة ، نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التى ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه وأكنانا لهم فى ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فإنه ماخلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن

وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف خياله
قال بعض الحكماء من تكلم فى الحياء ولايستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج.
وقال ذوالنون: الحياء وجود الهيبة فى القلب مع حشمة ماسبق منك إلى ربك . وقال ابن عطاء . العلم الأكبر الهيبة والحياء فإذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلاخير فيه .
وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال

معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته عنه ورأفته . ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض التى هى قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادى والجبال من الماء بالاضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء . قال النبى صلى الله عليه وسلم « الأرض فى البحر كالإصطبل فى الأرض (١) » فانسب إصطبلا إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالاضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفى البحر أمثاله وأضعافه وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر وقد ذكرت أوصافها فى مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شىء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى إخراجها فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل فى عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذى لب أما ترانى وترى صورتى وتركيبى وصفاتى ومنافعى واختلاف حالاتى وكثرة فوائدى أتظن أنى كونت نفسى أو خلقنى أحد من جنسى أو ما تستحيى أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمى عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى بالقلم الإلهى الذى لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهمنى فى ظلمة الأحشاء مغموسة فى دم الحيض فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى فينقش النقاش حدقتى وأجفانى وجبهتى وخدى وشفتى فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجه ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم أفما هذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير

استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيآتهم . وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين الاجلال والتعظيم دائما عند نظر الله إليهم . ومنها الاتصال . قال النورى : الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار . وقال بعضهم الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول وقال بعضهم الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه . وقال . سهل بن عبد الله حركوا بالبلاء فتحركوا ولو سكنوا اتصلوا . وقال يحيى بن معاذ

(١) حديث الأرض فى البحر كالإصطبل فى الأرض تقدم ولم أجده .

اتصال بها لامن داخل ولا من خارج فان كنت لاتتعجب من هذه العجائب ولاتفهم بها أن الذى صور ونقش وقدر لانظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لايساويه نقش وصنع فبين الفاعلين من المباينة والتباعد مابين الفعلين فان كنت لاتتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه أعجب من كل عجب فان الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لاراد لحكمه ولامعقب لقضائه [ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض] لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولايرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة فى جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر فاذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فان شاء جعله نشرا بين يدى رحمته كما قال سبحانه ـ وأرسلنا الرياح لواقح ـ فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء وإن شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى ـ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ـ ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوى ليغمسه فى الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لايغوص فى الماء لأن الهواء ينقبض عن الغوص فى الماء فلاينفصل عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف كالذى يقع فى بئر فيتعلق بذيل رجل قوى ممتنع عن الهوى فى البئر فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والغوص فى الماء فسبحان من علق المركب الثقيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر إلى عجائب الجو ومايظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهى عجائب مابين السماء والأرض وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك فى قوله تعالى ـ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ـ وهذا هو الذى بينهما وأشار إلى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى ـ والسحاب المسخر بين السماء والأرض ـ وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه إذلا مطمع فى استقصائه فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جو السماء إلا أن يأذن الله فى إرسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى وعلى الشكل الذى شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لاتدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لاتعدل عنه فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها فى بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها ثم كل قطرة منها عينت

الرازى : العمال أربعة تائب وزاهد ومشتاق وواصل فالتائب محجوب بتوبته والزاهد محجوب بزهده والمشتاق محجوب بحاله والواصل لايحجبه عن الحق شىء . وقال أبو سعيد القرشى : الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدا والمتصل الذى بجهده يتصل وكلما دنا انقطع وكأن هذا الذى ذكره حال المريد والمراد لكون أحدهما مبادأ بالكشوف وكون الآخر مردودا إلى الاجتهاد . وقال أبو يزيد : الواصلون فى ثلاثة أحرف همهم

لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط إلهى لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التى فى ناحية الجبل الفلانى تصل إليها عند عطشها فى الوقت الفلانى هذا مع ما فى انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له ما معنى الطبع وما الذى خلقه ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل وما الذى رقى الماء المصبوب فى أسافل الشجر إلى أعالى الأغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق فى داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر فى جميع أطراف الأوراق فيغذى كل جزء من كل ورقة ويجرى إليها فى تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة فيصل الماء فى أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل [ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب] وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة فى بحر وأصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع وكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى ــ والسماء ذات البروج ، والسماء والطارق ، والسماء ذات الحبك ، والسماء وما بناها ــ وكقوله تعالى ــ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ــ وكقوله تعالى ــ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ــ وقوله تعالى ــ والنجم إذا هوى ، فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ــ فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى ــ وفى السماء رزقكم وما توعدون ــ وأثنى على المتفكرين فيه فقال ــ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ــ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته [1]» أى تجاوزها من غير فكر وذم المعرضين عنها فقال ــ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ــ فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهى متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال ــ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ــ وقال سبحانه ــ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ــ وقال ــ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ــ فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم

(١) حديث ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى قوله تعالى ــ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ــ تقدم .

لله وشغلهم فى الله ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبدا أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد . وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال رويم أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى ممنوعون من الخلق أبدا . وقال ذو النون ما رجع من رجع إلا من الطريق وما وصل إليه أحد فرجع عنه . واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ وكل من

تشاركك فى هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله ـ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ـ لا بل كل مايدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وماغاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : رأى قلبى ربى . وهذا لأن بلوغ الأقصى لايكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شىء إليك نفسك ثم الأرض التى هى مقرك ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحيوان وماعلى وجه الأرض ثم عجائب الجو وهو مابين السماء والأرض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسى ثم العرش ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسى والسموات والأرض ومابينهما فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهى معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيما ذا أتفكر وإلى ماذا أتطلع فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لايزيد ولاينقص إلى أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان ومامن صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لايتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر إلى إيلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السموات لامطمع فى إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على طريق الجملة أنه مامن كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ثم فى مقداره ثم فى شكله ثم فى لونه ثم فى وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التى بجنبه وبعده وقس على ذلك ماذكرناه من أعضاء بدنك إذ مامن جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لافى كبر جسم ولافى كثرة معانيه وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بما بينهما من التفاوت فى كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لايقدر آدمى على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة وفى الأخبار مايدل على عظمها[1] ثم الكواكب

وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة فى التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة فى الوصول ومنهم من توقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلى طريق الصفات وهو رتبة فى الوصول ومنهم من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيبا فى

(١) الحديث الدال على عظم الشمس أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال « فى نار الله الحامية لولا مايزعها من أمر الله لأهلكت

التى تراها أصغرها مثل الأرض ثمانى مرات وأكبرها ينتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها إذ للبعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال ـ رفع سمكها فسواها ـ وفى الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام(١) فاذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافا فانظر إلى كثرة الكواكب ثم انظر إلى السماء التى الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لاتحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لاتشك أنها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة فقد دار الفلك فى هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم « هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام(٢) » فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل عالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لاتتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التى هى أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك وما مثالك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجوارى والغلمان وأنواع الذخائر

شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهذا المقام رتبة فى الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك فى الدنيا الخواص لمح وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى رتب الوصول فاذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد فى أول المنزل فأين الوصول هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى فكيف فى العمر القصير الدنيوى. ومنها

ما على الأرض والطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شىء إلا أحرقته (١) حديث بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام الترمذى من رواية الحسن عن أبى هريرة وقال غريب قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى ابن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبى هريرة ورواه أبو الشيخ فى العظمة من رواية أبى نضرة عن أبى ذر ورجاله ثقات إلا أنه لايعرف لأبى نضرة سماع من أبى ذر (٢) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانعم فقال كيف تقول لانعم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام لم أجد له أصلا .

والنفائس فانها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وعدائها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء إلا ماتعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات إلاماتعرفه النملة منك ومن سكان بيتك ، نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فانه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ماتفضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ماعرفناه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وماعرفوه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ماعرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ماعرفوه قليل بالاضافة إلى ما عرفه محمد نبيا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالاضافة إلى ماعرفته الملائكة المقربون كاسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ماعرف ثم خاطب جميعهم فقال ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ـ فهذا بيان معاقد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لامحالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل مافى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لايتناهى أبدا وإنما لكل عبد منهما بقدر مارزق ، فلنقتصر على ماذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصلناه فى كتاب الشكر فانا نظرنا فى ذلك الكتاب فى فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفى هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط وكل مانظرنا فيه فان الطبيعى ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة فى السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدى بها من يشاء ، فمن نظر فى هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض لامن حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقى وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

(تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه)
يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

القبض والبسط وهما حالان شريفان قال الله تعالى ـ والله يقبض ويبسط ـ وقد تكلم بهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هى علامات القبض والبسط ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لأنهم اكتفوا بالاشارة والاشارة تقنع الأهل وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله يتشوق إلى ذلك طالب ومحب بسط القول فيه والله أعلم . واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم لايكونان قبله ولا يكونان بعده ووقتهما وموسمهما فى أوائل حال المحبة الخاصة لافى نهايتها

(كتاب ذكر الموت ومابعده)

(وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر ـ هل تحس منهم من أحد أوتسمع لهم ركزا ـ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء وموعدا فى حقهم للقاء وجعل القبر سجنا للأشقياء وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم التظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السموات والأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

[أمابعد] فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أوالنار مورده ، أن لايكون له فكر إلا فى الموت ولاذكر إلاله ، ولااستعداد إلالأجله ، ولاتدبير إلافيه ، ولاتطلع إلاإليه ، ولاتعريج إلاعليه ، ولا اهتمام إلابه ، ولاحول إلاحوله ، ولاانتظار وتربص إلاله ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها فى أصحاب القبور ، فان كل ماهو آت قريب والبعيد ماليس بآت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت (١)» ولن يتيسر الاستعداد للشئ إلاعند تجدد ذكره على القلب ولايتجدد ذكره إلاعند التذكر بالاصغاء إلى المذكرات له والنظر فى المنبهات عليه ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لابد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فمابقى من العمر إلاالقليل والخلق عنه غافلون ـ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ـ ونحن نذكر مايتعلق بالموت فى شطرين :

(الشطر الأول فى مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب :)

الباب الأول فى فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثانى فى ذكر طول الأمل وقصره . الباب الثالث فى سكرات الموت وشدته ومايستحب من الأحوال عند الموت . الباب الرابع فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور . الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام .

ولاقبل حال المحبة الخاصة فمن هو فى مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الايمان لايكون له قبض ولا بسط وإنما يكون له خوف ورجاء ، وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن ذلك قبضا وبسطا وليس هو ذاك وإنما هو هم يعتريه فيظنه قبضا واهتزاز نفسانى ونشاط طبيعى يظنه بسطا والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها ومادامت صفة الأمارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط والهم وهيج ساجور النفس

﴿ كتاب ذكر الموت ومابعده ﴾

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة .

(الباب الأول فى ذكر الموت والترغيب فى الإكثار من ذكره)

اعلم أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلايذكره وإذاذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ــ قل إن الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ــ ثم الناس إمامنهمك وإماتائب مبتدىء أوعارف منته أماالمنهمك فلايذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا ، وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور فى كراهة الموت ولايدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم «من كره لقاءالله كره الله لقاءه[1]» فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلايعد كارها للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعد للقائه لحبيبه والمحب لاينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لاأفلح من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك ، فاذن التائب معذور فى كراهة الموت وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لايختار لنفسه موتا ولاحياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى ، وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل فان المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته وكل مايكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

(بيان فضل ذكر الموت كيفما كان)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هاذم اللذات[2]» معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «لو تعلم البهائم من الموت مايعلم ابن آدم ماأكلتم منها سمينا[3]» وقالت عائشة رضى الله عنها «يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة[4]» وانماسبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن الموت[5]» وانماقال هذا

والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فاذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاحال وذا قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الايقان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطى يقبضك عمالك ويبسطك فيما له وقال النورى يقبضك باياك ويبسطك لإياه واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته

(الباب الأول فى ذكر الموت والترغيب فيه)

(١) حديث من كره لقاء الله كره الله لقاءه متفق عليه من حديث أبى هريرة (٢) حديث أكثروا من ذكر هاذم اللذات الترمذى وقال حسن والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٣) حديث لو تعلم البهائم من الموت مايعلم ابن آدم ماأكلتم منها سمينا البيهقى فى الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى والحاكم من حديث عبدالله بن عمر مرسلا باسناد حسن .

لأن

لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها فى عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه فالموت إطلاق له من هذا العذاب والاطلاق تحفة فى حقه وقال صلى الله عليه وسلم «الموت كفارة لكل مسلم [(١)] » وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصى إلا باللمم والصغائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراسانى « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت [(٢)] » وقال أنس رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا [(٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم « كفى بالموت مفرقا [(٤)] » وقال عليه السلام « كفى بالموت واعظا [(٥)] » . « وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال : اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا [(٦)] » . « وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال : كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك [(٧)] » وقال ابن عمر رضى الله عنهما « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة [(٨)] » وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا . وقال الربيع ابن خيثم ما غائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بى أحدا وسلونى إلى ربى سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمى شيئان قطعا عنى لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدى الله عز وجل . وقال كعب

---

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب والخطيب فى التاريخ من حديث أنس قال ابن العربى فى سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزى وقد جمعت طرقه فى جزء (٢) حديث عطاء الخراسانى مر النبى صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا مرسلا ورويناه فى أمالى الخلال من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث أنس أكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف جدا (٤) حديث كفى بالموت مفرقا الحرث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى البر والصلة من رواية أبى عبد الرحمن الحبلى مرسلا (٥) حديث كفى بالموت واعظا الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد (٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك فى الزهد قال أنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه (٨) حديث ابن عمر أتيت النبى صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن أبى الدنيا بكماله باسناد جيد .

والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة والقبض والبسط باعتبار ذلك منها وصاحب القلب تحت حجاب نورانى لوجود قلبه كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلمانى لوجود نفسه فاذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ فلا يقبض ولا يبسط ما دام متخلصا من الوجود النورانى الذى هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب فاذا عاد إلى

من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقال مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول فى وسط مسجد البصرة : قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ماتراهم إلا والهين. وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت. وقالت صفية رضى الله تعالى عنها إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها فقالت أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن . مارأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظنى فقال ألست أول خليفة تموت قال زدنى قال ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك . وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبرا فى داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لوفارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الدارانى قلت لأم هرون : أتحبين الموت ؟ قالت لا، قلت لم ؟ قالت لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته

(بيان الطريق فى تحقيق ذكر الموت فى القلب)

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت فى قلبه فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شىء إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لايتفكر إلا فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجل رجلا وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب وركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لايحتاج إليه إلى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضى الله عنه السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل تضعونه فى صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان

الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النورانى الذى هو القلب فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس أولا القبض ثم البسط ثم لاقبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقع فى الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم إن القبض قد يكون عقوبة الافراط فى البسط وذلك أن الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلىء القلب منه روحا وفرحا واستبشارا فتسترق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها فإذا وصل أثر الوارد

قليل الجدوى فى التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشىء من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لا بد له من مفارقته ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته.

(الباب الثانى فى طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته)

(فضيلة قصر الأمل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك ياعبد الله لاتدرى ما اسمك غدا [١]» وروى على كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال «إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فانه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ألا وإنكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل [٢]» وقالت أم المنذر «اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أما تستحيون من الله قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون [٣]» وقال أبو سعيد الخدرى «اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة المشترى إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذى نفسى بيده ماطرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يابنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده – إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين – [٤]» وعن ابن عباس رضى الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول له يارسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا أبلغه [٥]» وروى «أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا

إلى النفس طغت بطبعها وأفرطت فى البسط حتى تشاكل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض إذا فتش لايكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض ومادام روحه وأنسه ورعاية الاعتدال الذى يسد باب القبض متلقى من قوله تعالى – لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم – فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لايكتنف

(الباب الثانى فى طول الأمل)

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر فى آخر حديث كن فى الدنيا كأنك غريب (٢) حديث على إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف (٣) حديث أم المنذر أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى قالوا وما ذاك يارسول الله قال تجمعون مالا تأكلون الحديث ابن الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث أبى سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف (٥) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا أبلغه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والبزار بسند ضعيف .

بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبعده فقال هل تدرون ماهذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان وهذا الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل (١)» وقال عليه السلام «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع في الهرم (٢)» قال ابن مسعود هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه والهرم وراء الحتوف والأمل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه فان أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل قال عبدالله «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا إلى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ماهذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان للخط الذي في الوسط وهذا الأجل محيط به وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا وذاك الأمل يعني الخط الخارج (٣)» وقال أنس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل (٤)» وفي رواية وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله ﷺ «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل (٥)» وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض فقال عيسى اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لابد لك من عيش ما بقيت فقمت إلى مسحاتي، وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يارسول الله قال قصروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء (٦)» «وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل (٧)» الآثار: قال مطرف بن عبدالله لوعلمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ماتهنئوا بعيش ولاقامت بينهم الأسواق. وقال الحسن السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري بلغني أن الانسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش. وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن إنما

ولايستوجب صاحبه القبض سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالايواء إلى الله وإذا لم يلتجئ بالايواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أتى المنوع منه فمن ذلك القبض في بعض الأحايين وهذا من ألطف الذنوب الموجبة للقبض وفي النفس من حركاتها وصفاتها أوثبات متعددة موجبة للقبض ثم الخوف والرجاء لايعدمهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة لأنهما من ضرورة الايمان فلا ينعدمان وأما القبض والبسط

---

(١) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه الحديث أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له الرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسلا (٢) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية الحديث الترمذي من حديث عبدالله بن الشخير وقال حسن (٣) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا الحديث رواه البخاري (٤) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان الحرص والأمل وفي رواية ويشب معه اثنان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول باسناد صحيح (٥) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٦) حديث الحسن أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يارسول الله قال قصروا من الأمل الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا (٧) حديث كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب.

عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت أي الأعمال أبلغ عندكم قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت عظيما وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار . وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شيء مصرور فقال له أستاذه إيش هذا معك فقال لوزات دفعها إلي أخ لي وقال أحب أن تفطر عليها فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبدا قال فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر ابن عبد العزيز في خطبته إن لكل سفر زادا لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوي كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الأرض لتشققت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وأنكم صائرون إلى إحداهما وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام وكتب آخر إلى أخ له إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الانسان قريب وللنقص في كل يوم منه نصيب وللبلاء في جسمه دبيب فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطىء أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميط سمعت أبي يقول أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبو زكريا التيمي بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتي بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتي بوهب بن منبه فإذا فيه ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد فاعمل

فينعدمان عند صاحب الإيمان لنقصان الحظ من القلب وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب . وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف سببهما ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذي لم يحكم علم الحال ولا علم المقام . ومن أحكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما

ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فبكى سلمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فانى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو أما بعد فانى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة وإن يكن غير ذلك فأعاذنى الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبليغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فياليت شعرى ما حالى وحالك يومئذ ففى هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فانما نحن به وله والسلام. وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فخاب وشقى غدا عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شىء وجنته التى عرضها السموات والأرض وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بباق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب وايم الله إنى لأقول مقالتى هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته وأستغفر الله ووضع كمه على وجهه وجعل يبكى حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات وقال القعقاع بن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتانى ما أحببت تأخير شىء عن شىء. وقال الثورى رأيت شيخا فى مسجد الكوفة يقول أنا فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بى ولو أتانى ما أمرته بشىء ولا نهيته عن شىء ولا لى على أحد شىء ولا لأحد عندى شىء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار، وقال أبو محمد بن على الزاهد خرجنا فى جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائى فانتبذ فقعد ناحية وهى تدفن فجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب. واعلم يا أخى أن كل شىء يشغلك عن ربك فهو عليك مشئوم واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون. وروى أن معروفا الكرخى رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبى توبة فقال لى تقدم فقلت إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فانه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته إن الدنيا ليست بدار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظعن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد التقوى إنما الدنيا كفىء ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم فى الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه يوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنها تسر قليلا وتحزن طويلا. وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

نفسه مطمئنة لا تقدح من جوهرها نار توجب القبض ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط وربما صار لمثل هذا القبض والبسط فى نفسه لا من نفسه فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط فى نفسه المطمئنة وما لقلبه قبض ولا بسط لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح مستقر فى دعة القرب فلا قبض ولا بسط (ومنها الفناء والبقاء) قد قيل الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظ بل يفنى

أنه كان يقول فى خطبته أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب قدتضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا .

(بيان السبب فى طول الأمل وعلاجه)

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا فلايزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء ومايحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت فلايقدر قربه فان خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخا فاذا صار شيخا قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك فلايزال يسوف ويؤخر ولايخوض فى شغل إلا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية فى وقت لايحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف والمسوّف المسكين لايدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا وإنما يزداد بطول المدة قوّة ورسوخا ويظن أنه يتصوّر أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات فما يفرغ منها إلا من اطرحها :

فما قضى أحد منها لبانته ... وماانتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله ﷺ «أحبب من أحببت فانك مفارقه [1]» . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدرى أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فانما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولايقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولايقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ولعل اللبن الذى يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لايدرى فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة

عن الأشياء كلها شغلا بمن فنى فيه وقد قال عامر بن عبد الله لاأبالى امرأة رأيت أم حائطا ويكون محفوظا فيها لله عليه مصروفا عن جميع المخالفات والبقاء يعقبه وهو أن يفنى عماله ويبقى بما لله تعالى . وقيل الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته فكان فانيا عن المخالفات باقيا فى الموافقات . وعندى أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو

(١) حديث أحبب من أحببت فانك مفارقه الحديث تقدم غير مرة .

البالغة من القلوب الطاهرة وأصحاب الدنيا فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذى أعيا الأولين والآخرين علاجه ولاعلاج له إلا الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا إلاقدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها أويترسخ فى القلب حبها مع الايمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولاعلاج فى تقدير الموت فى القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا أمامن كان مستعدافقدفاز فوزا عظيما وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا فلينظر الانسان كل ساعة فى أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لامحالة وكيف تتفتت عظامها وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولاأواليسرى فما على بدنه شىء إلاوهو طعمة الدود وماله من نفسه إلاالعلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأفكار هى التى تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

(بيان مراتب الناس فى طول الأمل وقصره)

اعلم أن الناس فى ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهى ذلك أبدا قال الله تعالى ـ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ـ ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه وهو الذى يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ماهم [(١)]» ومنهم من يأمل إلى سنة فلايشتغل بتدبير ماوراءها فلايقدر لنفسه وجودا فى عام قابل ولكن هذا يستعد فى الصيف للشتاء وفى الشتاء للصيف فاذا جمع مايكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أوالشتاء فلايدخر فى الصيف ثياب الشتاء ولافى الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلايستعد إلالنهاره وأماللغد فلا. قال عيسى عليه السلام : لاتهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فستأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لايجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ «ياعبد الله إذا أصبحت فلاتحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلاتحدث نفسك بالصباح» ومنهم من لايقدر البقاء أيضا ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول لعلى لاأبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الانسان هو الذى يصلى صلاة مودع وفيه ورد مانقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ماخطوت خطوة إلاظننت أنى لاأتبعها أخرى [(٢)] وكما نقل عن الأسود وهو حبشى أنه كان يصلى ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ماهذا قال أنظر ملك الموت من أى جهة يأتينى فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من

مقام صحة التوبة النصوح وليس من الفناء والبقاء فى شىء ومن الاشارة إلى الفناء ماروى عن عبد الله ابن عمر أنه سلم عليه إنسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه فشكاه إلى بعض أصحابه فقالا له كنا نتراءى الله فى ذلك المكان . وقيل : الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل . وقال الخراز: الفناء هو التلاشى بالحق والبقاء هو الحضور مع الحق . وقال الجنيد : الفناء استعجام الكل عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته

(١) حديث الشيخ شاب فى حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ماهم لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ماخطوت خطوة إلاظننت أنى لاأتبعها أخرى أبونعيم فى الحلية من حديث أنس وهو ضعيف .

أمله

أمله مقصور على شهر لكن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ـ ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ـ ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يا مسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه.

(بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير)

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا فإنه أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال ﷺ « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر [(١)] » وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك [(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ [(٣)] » أي أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة [(٤)] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه [(٥)] » « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة [(٦)] » وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد [(٧)] »

وقال إبراهيم بن شيبان علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة. وسئل الخراز ما علامة الفاني؟ قال علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى. وقال أبو سعيد الخراز: أهل الفناء في الفناء صحتهم أن يصحبهم علم البقاء وأهل البقاء في البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء.
واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء

---

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا غناء الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلا (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب (٦) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسلا (٧) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين.

وقال ابن عمر « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع [2] » وقال جابر « كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحتكم ومسيتكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه [3] » وقال ابن مسعود رضي الله عنه « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ـ فقال إن النور إذا دخل الصدر انفسح فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله [4] » وقال السدي ـ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ـ أي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى ـ إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ـ في الموت وقال سحيم مولى بني تميم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل علي فقال أرحني بحاجتك فإني أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقمت عنه وقام إلى صلاته ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعني إنما أبادر خروج نفسي قال عمر رضي الله عنه التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة ، وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني. وكان الحسن يقول في موعظته المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية ـ إنما نعد لهم عدا ـ يعني الأنفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهادا شديدا فقيل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق فقال إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلي أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات، وكان يقول لامرأته شدي رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جد بكم وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وإن غائبا يجد به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيالها حسرة على ذي غفلة

والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون

(١) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن وللترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٢) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره الحديث ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له (٤) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ـ فقال إن النور إذا دخل القلب انفسح الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك وقد تقدم .

أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فعال لما يشاء وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ـ فتنتم أنفسكم ـ قال بالشهوات واللذات ـ وتربصتم ـ قال بالتوبة ـ وارتبتم ـ قال شككتم ـ حتى جاء أمر الله ـ قال الموت ـ وغركم بالله الغرور ـ قال الشيطان . وقال الحسن تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم وأهلا حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن فان من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فأكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[1]. وقال عاصم الأحول قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فان الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار في لا شيء فان الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئا قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم .

(الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده)

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك . وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك والعجب أن الانسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور . واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذقها فانما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم فاذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فان كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده . والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا

الحق سبحانه وتعالى على كون العبد وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن فأما الفناء الظاهر فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق ثم يأخذ في المعاملة مع الله تعالى بحسبه حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياما لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقيض الله تعالى له من

---

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

وباطنا إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فانما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة . أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربدّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما وتخضر أنامله فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تقبل توبة العبد ما لم يغرغر [1] » وقال مجاهد فى قوله تعالى ـ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ـ قال إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم هوّن على محمد سكرات الموت [2] » والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوّة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن علىّ هذه السكرة يعنى الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفى من الموت على الموت . وروى أن نفرا من بنى إسرائيل مرّوا بمقبرة فقال بعضهم لبعض لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبى وقالت عائشة رضى الله عنها لا أغبط أحدا يهوّن عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل اللهم فأعنى على الموت وهوّنه علىّ [3] » وعن الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

---

(١) حديث إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر
(٢) حديث كان يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث صعصعة ابن غيلان الجهنى وهو معضل سقط منه الصحابى والتابعى .

يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمرى فناء لأنه فنى عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكاشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الاطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى

هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف[١] ». « وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة فى صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف[٢] ». « ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال إنى أعلم مايلقى مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته[٣] » وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول إن لم تقتلوا تموتوا والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الأوزاعى بلغنا أن الميت يجد ألم الموت مالم يبعث من قبره وقال شداد بن أوس الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى فى القدور ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال إذا بقى على المؤمن من درجاته شىء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة وإذا كان الكافر معروف لم يجزبه هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة وقال صلى الله عليه وسلم « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر[٤] » وروى عن مكحول عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا باذن الله تعالى لأن فى كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشىء إلا مات[٥] » وروى « لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت[٦] » وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت ياخليلى قال كسفود جعل فى صوف رطب ثم جذب فقال أما إنا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه ياموسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى لايموت فيستريح ولا ينجو فيطير . وروى عنه أنه قال وجدت نفسى كشاة حية تسلخ بيد القصاب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت[٧] »

وقلت له هل يكون بقاء التخيلات فى السر ووجود الوسواس من الشرك الخفى وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفى فقال لى هذا يكون فى مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفى أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة فوقعت أسطوانة فى الجامع فانزعج لهدتها أهل السوق فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقوعها فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا ثم قد يتسع وعاؤه حتى لعله يكون

---

(١) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف ابن أبى الدنيا فيه هكذا مرسلا ورجاله ثقات (٢) حديث سئل عن الموت وشدته فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة الحديث ابن أبى الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا (٣) حديث دخل على مريض فقال إنى لأعلم مايلقى مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته ابن أبى الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه فى المرض والكفارات من رواية عبيد ابن عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات (٤) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولأبى داود من حديث خالد السلمى موت الفجأة أخذة أسف (٥) حديث مكحول لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية أبى ميسرة رفعه وفيه لو أن ألم شعرة ، وزاد وإن فى يوم القيامة لتسعين هولا أدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد (٦) حديث لو أن قطرة من الموت لو وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت لم أجد له أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فانه قال وروى (٧) حديث إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت متفق عليه من حديث عائشة .

وفاطمة رضى الله عنها تقول وا كرباه لكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أبيك بعد اليوم[1] » وقال عمر رضى الله عنه لكعب الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم ياأمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل فى جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة[2] » فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهى فان دواهى الموت ثلاث . الأولى : شدة النزع كما ذكرناه. الداهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن ترينى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال لا تطيق ذلك. قال بلى . قال فأعرض عنى فأعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فغشى على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه ، وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هى برجل فى الدار فقالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذى لا أهاب الملوك ولا يمنع منى الحجاب فقال فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه[3] » وروى أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال تكلمى باذن الله فقالت ياروح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرير ملكى إذ بدا لى ملك الموت فزال منى كل عضو على حياله ثم خرجت نفسى إليه فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة وياليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال . وأما المطيع فانه يراه فى أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل فى جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربها فقال أنا ربها فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عنى فأعرض ثم التفت فاذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال ياملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه، ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه مامن ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه

متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون فى كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الاذن فى كليات أموره ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لإذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله بباطنه فى جزئياتها فان ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن هو باق والباقى فى مقام

(١) حديث إن فاطمة قالت وا كرباه لكربك يا أبت الحديث البخارى من حديث أنس بلفظ وا كرب أبتاه وفى رواية لابن خزيمة وا كرباه (٢) حديث إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رويناه فى الأربعين لأبى هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك (٣) حديث أبى هريرة إن داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد باسناد جيد نحوه وابن أبى الدنيا فى كتاب الموت بلفظه .

السكاتبان عمله فان كان مطيعا قالا له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا ، وإن كان فاجرا قالاله لاجزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلاجزاك الله عنا خيرا فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا. الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين إما أبشر ياعدو الله بالنار أو أبشر ياولى الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار [1]» وقال صلى الله عليه وسلم «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذاك بذاك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه [2]» وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظر أى ساعة هى فقام ابن مسعود ثم جاء فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبى هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشدد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ماأبكى حزنا على الدنيا ولاجزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربى بجنة أم بنار ، وروى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله إذا رضى عن عبد قال ياملك الموت اذهب إلى فلان فأتنى بروحه لأريحه حسبى من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فاذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك ياسيدنا فيقول أماترون ماأعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان معصوما [3]» وقال الحسن لاراحة للمؤمن إلا فى لقاء الله ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه ، وقيل لجابر بن زيد عند الموت ماتشتهى قال نظرة إلى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال ياإخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة ، وقال محمد بن واسع عند الموت ياإخواناه عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله وتمنى بعضهم أن يبقى فى النزع أبدا ولايبعث لثواب ولاعقاب . لخوف سوء الخاتمة قطع

لايحجبه الحق عن الخلق ولاالخلق عن الحق والفانى محجوب بالحق عن الخلق والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال وصار بالله لا بالأحوال وخرج من القلب فصار مع مقلبه لامع قلبه .

[الباب الثانى والستون فى شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال فى اصطلاح الصوفية]

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى بن سليمان إجازة قال أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم

---

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية رجل لم يسم عن على موقوفا لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفى رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى أم من أهل النار وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ماشهد لذلك إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته الحديث (٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه الحديث متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث إن الله إذا رضى على عبده قال ياملك الموت اذهب إلى فلان فأتنى بروحه لأريحه الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث تميم الدارى باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح فى أول الحديث برفعه وفى آخره مادل على أنه مرفوع وللنسائى من حديث أبى هريرة باسناد صحيح إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجى راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان الحديث .

قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع ، ولكنا لانطول بذكره وإعادته.

(بيان مايستحب من أحوال المحتضر عند الموت)

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به وإذا غط غطيط المخنوق واحمر لونه واربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به [١]» وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقنوا موتاكم لاإله إلاالله [٢]» وفي رواية حذيفة «فانها تهدم ماقبلها من الخطايا [٣]» وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من مات وهو يعلم أن لاإله إلاالله دخل الجنة [٤]» وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان إذا احتضر الميت فلقنوه لاإله إلاالله فانه مامن عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضي الله عنه: احضروا موتاكم وذكروهم فانهم يرون مالاترون ولقنوهم لاإله إلاالله . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لاإله إلاالله فغفر له بكلمة الاخلاص [٥]» وينبغي للملقن أن لايلح في التلقين ولكن يتلطف فربما لاينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة ، وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله فاذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وإن كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيئة فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله قال أغرقتني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكني أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء [٦]» ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال: كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ماإجتمعا في قلب عبد في مثل هذا

الأصفهاني قال ثنا محمد ابن إبراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من معادن التقوى تعلمك إلى ماقد علمت علم مالم تعلم والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه وإنما زهد الرجل في علم مالم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم» فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا لموضع تقواهم فعلمهم الله تعالى مالم

---

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه الحديث الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولايصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لاإله إلاالله تقدم (٣) حديث حذيفة فانها تهدم ماقبلها تقدم (٤) حديث من مات وهو يعلم أن لاإله إلا الله دخل الجنة تقدم . (٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين وللطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلاأن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمي في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف (٦) حديث دخل واثلة ابن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا .

للوطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف[1] » وقال ثابت البناني كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له يابني إن لك يوما فاذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له يابني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما فقال يا أمه إن لي ربا كثير المعروف وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة كان شاب به رهق فاحتضر فقالت له أمه يابني توصي بشيء قال نعم خاتمي لا تسلبينيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن رؤي في المنام فقال أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني وأن الله قد غفر لي . ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت فقال أين يذهب بي قالوا إلى الله قال فما كراهتي أن أذهب إلى من لا ترى الخير إلا منه . وقال أبو المعتمر بن سليمان قال أبي لما حضرته الوفاة يامعتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

(بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها)

قال أشعث بن أسلم سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال ياملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إلي فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه حتى أتي بدواب فركب أحسنها فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن فقهره على لجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا فقبض روحه فخر كأنه خشبة ثم مضى فلقي عبدا مؤمنا في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته علي فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم إني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد فقبض روحه وهو ساجد . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه . وروي أن رجلا جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذه وابتنى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسا من غلمانه ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون

(١) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي الحديث تقدم .

يطلعوا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار وترسخ قدمهم في العلم قال أبو سعيد الخراز أول الفهم لكلام الله العمل به لأن فيه العلم والفهم والاستنباط وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى ـ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ـ وقال أبو بكر الواسطي الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب وفي سر السر فعرفهم ماعرفهم وأراد منهم من مقتضى الآيات

فلما فرغوا ، قال يانفس انعمى لسنين فقد جمعت لك مايكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه فوثب إليه الغلمان وقالوا ماشأنك فقال ادعوا إلى مولاكم فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم فقرع الباب قرعة أشد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أنى ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع فقال قولوا له قولا لينا وقولوا هل تأخذ به أحدا فدخل عليه وقال اصنع فى مالك ما أنت صانع فانى لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتنى عن عبادة ربى ومنعتنى أن أتخلى لربى فأنطق الله المال فقال لم تسبنى وقد كنت تدخل على السلاطين بى ويرد المتقى عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بى وتجلس مجالس الملوك بى وتنفقنى فى سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتنى فى سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فسقط. وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة مافى الأرض مثله ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لامتعهد له بها فقالت الملائكة الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة قال فان العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبنى البنيان وإن اسمه فى تلك الصحيفة وهو لايدرى . وقال الحسن مامن يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه فاذاقبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بعضادتى الباب فيقول والله ماأ كلت له رزقا ولاأفنيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا وإن لى فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشى بينا جبار من الجبابرة من بنى اسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعا مغضبا فقال له من أنت ومن أدخلك على دارى فقال أما الذى أدخلنى الدار فربها وأما أنا فالذى لايمنع منى الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فسقط فى يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذن ملك الموت قال أناهو قال فهل أنت ممهلى حتى أحدث عهدا قال هيهات انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بى قال إلى عملك الذى قدمته وإلى بيتك الذى مهدته قال فانى لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فالى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارخ وباك قال يزيد الرقاشى لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدنى قال فماذا تريد قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى . قال نعم كنت أتعجب منه لأنى كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك.

مالم يرد من غيرهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة . وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة أنه قال إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا العلماء بالله فاذانطقوا به لاينكره إلا أهل الغرة بالله . أخبرنا أبو زرعة قال

(الباب الرابع فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده)

(وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفعلا وقولا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته لا، بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا وهل سامحه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيهات بل امتثل ما كان به مأمورا واتبع ما وجده فى اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصى والسيئآت فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين لعلنا نظن أننا مخلدون أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيهات هيهات بل نتيقن أنا جميعا على النار واردون ثم لا ينجو منها إلا المتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا ، بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين فما نحن والله من المتقين وقد قال الله رب العالمين ـ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ـ فلينظر كل عبد إلى نفسه انه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين ثم انظر إلى سيد المرسلين فانه كان من أمره على يقين إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى قال ابن مسعود رضى الله عنه «دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله إنى لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى فاقرءوا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله [(١)]» . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته «من لأمتى بعدى

أنا أبو بكر بن خلف قال ثنا أبو عبد الرحمن قال سمعت النصراباذى يقول سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشى يقول هى أسرار الله تعالى يبديها إلى أمنائه أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهى من الأسرار التى لم يطلع عليها إلا الخواص . وقال أبو سعيد الخراز العارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارة الأزلية وهى من العلم المجهول فقوله بلسان الأبدية وعبارة الأزلية إشارة إلى أنهم بالله

(الباب الرابع فى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم)

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصبهانى لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ورويناه فى مشيخة القاضى أبى بكر الأنصارى من رواية الحسن العرنى عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان والحسن العرنى إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط .

فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته فقال الآن قرت عيني (١) » وقالت عائشة رضي الله عنها «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يامعشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم يعني محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال إن عبدا خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم امرأ أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر (٢)» قالت عائشة رضي الله عنها « قبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت فدخل علي أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأومأ برأسه أن نعم فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت ألينه لك فأومأ برأسه أن نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا يختارنا (٣)» وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فأعلمه بمثله فمد يده وقال ها فتناولوه فقال ما تقولون ؟ قالوا نقول نخشى أن تموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئا على علي والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون علي الموت كأنه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فأخلد فيكم ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال ـ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا ـ إلى آخرها وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ـ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ـ وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتي بعدي فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته الحديث الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمتي المصطفاة من بعدي قال أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسي وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد الحديث الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد ابن إسحق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة (٣) حديث عائشة قبض في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت الحديث متفق عليه .

ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم « بي ينطق » وهو العلم اللدني الذي قال الله تعالى فيه في حق الخضر ـ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ـ فما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيما من بعضهم للبعض وإشارة منهم إلى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والتفرقة قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو ـ فهذا جمع ثم فرق فقال والملائكة وأولوا العلم ـ وقوله تعالى ـ آمنا بالله ـ جمع ثم فرق بقوله ـ وما أنزل إلينا ـ والجمع أصل والتفرقة

أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم فى الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ألا وإن موعدكم الحوض حوضى أعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد بياضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد من شرب منه لم يظمأ أبدا حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك من حرمه فى الموقف غدا حرم الخير كله ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه ويده إلا مما ينبغى فقال العباس يانبى الله أوص بقريش فقال إنما أوصى بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فاذا بر الناس برهم أئمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى ـ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ـ [(١)] » وروى ابن مسعود رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر رضى الله عنه سل ياأبا بكر فقال يارسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل وتدلى فقال ليهنك يانبى الله ماعند الله فليت شعرى عن منقلبنا فقال إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا فقال يانبى الله من يلى غسلك؟ قال رجال من أهل بيتى الأدنى فالأدنى قال ففيم نكفنك ؟ فقال فى ثيابى هذه وفى حلة يمانية وفى بياض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا إذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة فان أول من يصلى على الله عز وجل هو الذى يصلى عليكم وملائكته ـ ثم يأذن للملائكة فى الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الامام وأهل بيتى الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان قال فمن يدخلك القبر ؟ قال زمر من أهل بيتى الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عنى إلى من بعدى [(٢)] » وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلى بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت قم ياعمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون قالها ثلاث مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك غلبه البكاء فقال إنكن صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس

فزع فكل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل . وقال الجنيد القرب بالوجد جمع وغيبته فى البشرية تفرقة وقيل جمعهم فى المعرفة وفرقهم فى الأحوال والجمع اتصال لايشاهد صاحبه إلا الحق فمتى شاهد غيره فما جمع والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة وعباراتهم فى ذلك كثيرة والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب فعلى هذا لاجمع إلا بتفرقة ويقولون فلان فى عين الجمع يعنون استيلاء

---

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر الحديث فى خروجه متوكئا معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعى. روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفى أبيه سعيد ليس بالقوى (٢) حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر سل يا أبا بكر فقال يارسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل الحديث فى سؤالهم له من يلى غسلك وفيم نكفنك وكيفية الصلاة عليه رواه ابن سعد فى الطبقات عن محمد ابن عمر وهو الواقدى باسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بي والله لولا أني ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك مافعلت فيقول عبد الله إني لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فاذن الأمر أمر الله والقضاء قضاؤه وعصمه الله من كل ماتخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١) » وقالت عائشة رضي الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اخرجن عني هذا الملك يستأذن علي » فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري » فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلا ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة ادخلن فقلت ماهذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا باذن فان لم تأذن لي أرجع وإن أذنت لي دخلت وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فماذا أمرك فقلت اكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل فقالت عائشة رضي الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة مانحير إليه شيئا ومايتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه خرج أهل البيت فدخل فقال إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمتك فقال أجدني وجعا فقال أبشر فان الله تعالى أراد أن يبلغك ماأعدلك فقال ياجبريل إن ملك الموت استأذن علي وأخبره الخبر فقال جبريل يامحمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق قال فلا تبرح إذن حتى يجيء وأذن للنساء فقال يافاطمة ادني فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدني مني رأسك فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام فكان الذي رأينا منها عجبا فسألتها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال إني ميت اليوم فبكيت ثم قال إني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهلي وأن يجعلك معي فضحكت وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك ماتأمرنا يامحمد قال ألحقني بربي الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك

مراقبة الحق على باطنه فاذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة فصحة الجمع بالتفرقة وصحة التفرقة بالجمع فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله والتفرقة من العلم بأمر الله ولابد منهما جميعا . قال المزين الجمع عين الفناء بالله والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض وقد غلط قوم وادعوا أنهم في عين الجمع وأشاروا إلى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب فتزندقوا وإنما الجمع حكم الروح والتفرقة حكم القالب وما دام هذا التركيب باقيا فلابد من الجمع

---

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر الحديث أبو داود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق إلى آخره ولم يقل في أول ربيع الأول وقال مروا من يصلي بالناس وقال يأبى الله ذلك والمؤمنون مرتين وفي رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن أبي قحافة يقول ذلك مغضبا وأما ما في آخره من قول عائشة ففي الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال إنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

ولم يَنْهَ عن الدخول على أحد إلا باذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يارسول الله هذا آخر ماأنزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمدا بالحق مافي البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولايبعث إلى أحد من رجاله لعظم مايسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا قالت فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا مارأيته من إنسان قط فجعلت أسلت ذلك العرق وماوجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ماتلقى جبهتك من الرشح فقال ياعائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إليّ أبي فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل وجعل إذا أغمي عليه قال بل الرفيق الأعلى كأن الخيرة تعاد عليه فاذا أطاق الكلام قال «الصلاة الصلاة إنكم لاتزالون متماسكين ماصليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة[(١)]» قالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين [(٢)] قالت فاطمة رضي الله عنها مالقيت من يوم الاثنين والله لاتزال الأمة تصاب فيه بعظيمة

والتفرقة . وقال الواسطي إذا نظرت إلى نفسك فرقت وإذا نظرت إلى ربك جمعت ، وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولاتفرقة . وقيل جمعهم بذاته وفرقهم في صفاته وقد يريدون بالجمع والتفرقة أنه اذا أثبت لنفسه كسبا ونظرا الى أعماله فهو في التفرقة واذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع ومجموع الاشارات ينبيء أن الكون يفرق والمكون يجمع فمن أفرد المكون جمع ومن نظر الى الكون فرق فالتفرقة عبودية والجمع توحيد فاذا

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء فبينا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عني ، هذا الملك يستأذن عليّ الحديث بطوله في مجيء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال ياملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته في سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن ياملك الموت فانته إلى ماأمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد المنعم بن إدريس ابن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدار قطني ورواه الطبراني أيضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في مجيء ملك الموت أولا واستئذانه قوله إن ربك يقرئك السلام فقال أين جبريل فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث.

(٢) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر .

وقالت أم كلثوم يوم أصيب عليّ كرم الله وجهه بالكوفة مثلها مالقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل عليّ وفيه قتل أبي فمالقيت من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكلم إلا بعدالبعد وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعليّ فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت وليرجعنه الله عزوجل وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم[1]» وفي رواية أنه قال: ياأيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يمت والله لاأسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفي هذا. وأما عليّ فانه أقعد فلم يبرح في البيت وأما عثمان فجعل لايكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فان الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد وإن كان الناس لم يرعووا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لاإله إلاهو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم ـ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ـ وبلغ أبابكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال بأبي أنت وأمي يارسول الله ماكان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فانه حيّ لايموت قال الله تعالى ـ وما محمد إلارسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم ـ[2]» الآية فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلايومئذ وفي رواية: أن أبابكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته وعليّ فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت الحديث إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجد له أصلا وهو منكر (٢) حديث بلغ أبابكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ماكان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث الى آخر قوله وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلايومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبابكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبي وأمي أنت والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها ولهما من حديث ابن عباس أن أبابكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله نزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيهما.

أثبت طاعته نظرا الى كسبه فرق واذا أثبتها بالله جمع واذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ويمكن أن يقال رؤية الأفعال تفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع. سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال: أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كلم فكان المكلم والمكلم هو وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا بإياه سمع ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك

حيا وميتا انقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء العيون فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار محالفان لايبرحان اللهم فأبلغه عنا اذكرنا يامحمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا [١] . وعن ابن عمر أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى كلما ذكر شيئا ازدادوا فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال السلام عليكم يا أهل البيت - كل نفس ذائقة الموت - الآية إن فى الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لايعرفون صوته يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم [٢] واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبى بكر رضى الله عنه فقال قام أبو بكر فى الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه

القوة صح ولولا تلك القوة ما قدر على السمع ثم أنشد القائل متمثلا :

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى
برق تألق موهنا لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه
صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق
نظرا إليه وردة أشجانه
فالنار مااشتملت عليه ضلوعه
والماء ما سحت به أجفانه

ومنها قولهم التجلى والاستتار . قال الجنيد

(١) حديث إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى قوله واحفظه فينا ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى آخره (٢) حديث ابن عمر فى سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم إن فى الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا ثم سمعوا آخر بعده إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الخضر فى التعزية فأنكر النووى وجوده فى كتب الحديث وقال إنما ذكره الأصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم فى المستدرك فى حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين فى إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بعضادتى باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فالى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم فى البلاء فانظروا فان المصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا ورواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبى الدنيا أيضا من حديث على بن أبى طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن فى الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا وإياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال على تدرون من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين على بن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافعى فى الأم وليس فيه ذكر الخضر.

على كل حال وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ماصليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لم يمت وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا فان الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ماعندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ـ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ـ ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم . وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال ياعمر أنت الذى بلغنى أنك تقول مامات نبى الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا: كذا وكذا ويوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى فى كتابه ـ إنك ميت وإنهم ميتون ـ فقال والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حى لا يموت ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى أبى بكر . وقالت عائشة رضى الله عنها لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ماندرى كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله فى ثيابه قالت فأرسل الله عليهم النوم حتى مابقى منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل لايدرى من هو غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه حتى إذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه أردنا خلع قميصه فنودينا لاتخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ماتشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه وإن معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله ﷺ فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ثم وضع عليها فى أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة (١) ففى وفاته عبرة تامة وللمسلمين به أسوة حسنة .

إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلى والتذويب للأولياء وهو المشاهدة. وحاصل الاشارات فى الاستتار والتجلى راجع إلى ظهور صفات النفس. (ومنها الاستتار) وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب (ومنها التجلى) ثم التجلى قد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه

(وفاة أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه)

لما احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

(١) حديث أبى جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه مابنى فى حياته فتقدم أيضا .

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولي ـ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ـ انظروا ثوبيّ هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحيّ إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعولك طبيبا ينظر إليك؟ قال قد نظر إليّ طبيبي وقال إني فعال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده فقال يا أبا بكر أوصنا فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذنّ منها إلا بلاغك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرنّ الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك، ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف فاستخلف عمر رضي الله عنه فقال الناس له استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك فقال أقول استخلفت على خلقك خير خلقك ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه فجاء فقال إني موصيك بوصية . اعلم أن لله حقا في النهار لا يقبله في الليل وأن لله حقا في الليل لا يقبله في النهار وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق فان حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدلك منه وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بدلك منه ولست بمعجزه ، وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فانا نراك لما بك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين قالوا وما الأفق المبين ؟ قال قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقني بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا باذنك فاجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلني من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحد منهما أهلا فاجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح صدري للايمان وزينه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقربني إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل .

لهم ولغيرهم فأما لهم فلأنهم به يرجعون إلى مصالح النفوس وأما لغيرهم فلأنه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقهم في جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار . قال بعضهم علامة تجلي الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر اجلال . وقال بعضهم التجلي رفع حجبة البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل والاستتار أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب . (ومنها التجريد والتفريد)

(وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه)

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر مابينى وبينه إلاعبدالله بن عباس وكان إذامرّ بين الصفين قام بينهما فاذا رأى خللا قال استووا حتى إذا لم يرفيهم خللا تقدّم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أوالنحل أونحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فماهو إلاأن كبر فسمعته يقول قتلنى أوأكلنى الكلب حين طعنه أبولؤلؤة وطار العلج بسكين ذات طرفين لايمر على أحد يمينا أوشمالا إلاطعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة وفى رواية سبعة فلمارأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضى الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلى عمر فقد رأى مارأيت وأمانواحى المسجد مايدرون ماالأمر غيرأنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال ياابن العباس انظر من قتلنى قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة فقال عمر رضى الله عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ، ثم قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال ابن عباس إن شئت فعلت : أى إن شئت قتلناهم قال بعد ماتكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال فقائل يقول أخاف عليه وقائل يقول لابأس فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فعرفوا أنه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبشر ياأمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الاسلام ماقد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لاعلى ولالى فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال ياابن أخى ارفع ثوبك فانه أنقى لثوبك وأتقى لربك ثم قال ياعبد الله انظر ماعلى من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أونحوه فقال إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم وإلافسل فى بنى عدى بن كعب فان لم تف أموالهم فسل فى قريش ولاتعدهم إلى غيرهم وأد عنى هذا المال انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولاتقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبدالله بن عمر قد جاء فقال ارفعونى فأسنده رجل إليه فقال مالديك قال الذى تحب ياأمير المؤمنين قد أذنت قال الحمدلله ماكان شئ أهم إلى من ذلك فاذا أناقبضت فاحملونى ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا أوص ياأمير المؤمنين واستخلف فقال ماأرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبدالرحمن وقال يشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الأمر شئ كهيئة التعزية له فان أصابت الامارة سعدا فذاك وإلافليستعن به أيكم أمرفانى لم أعزله من عجز ولاخيانة وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فانهم ردء الاسلام

وجباة

الاشارة منهم فى التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لاياتى بمايأتى به نظرا إلى الأغراض فى الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا والتفريد أن لايرى نفسه فيما يأتى به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنفى الأغيار والتفريد بنفى نفسه واستغراقه فى رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه (ومنها الوجد والتواجد والوجود) فالوجد مايرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أوحزنا ويغيره عن هيئته

وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الاسلام وأن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من ورائهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فأدخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لى جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر [١] » وعن ابن عباس قال : وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فاذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فترحم على عمر وقال ماخلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر [٢] » فانى كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما .

(وفاة عثمان رضى الله عنه)

الحديث فى قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة وهى خوخة فى البيت فقال ياعثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد برده بين ثديى وبين كتفى وقال لى إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشحط عثمان فى الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيرى قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال ائتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم على قال فجىء بهما كأنهما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن ثبير فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد [٣] . وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين

وبتطلع إلى الله تعالى وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل :

قد كان يطربنى وجدى فأقعدنى
عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود
والوجد يطرب من فى الوجد راحته
والوجد عند حضور الحق مفقود

(١) حديث قال لى جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر أبو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة من حديث أبى بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون فذكر قول على بن أبى طالب كنت كثيرا أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وأبو بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة ابن حزن القشيرى شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان الحديث الترمذى وقال حسن والنسائى.

ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين اللهم إنى أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتنى .

(وفاة على كرم الله وجهه)

قال الأصبغ الحنظلى لما كانت الليلة التى أصيب فيها على كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبى صلاة الغداة وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن على أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض ولما ثقل الحسن بن على رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا أخى لأى شىء تجزع تقدم على رسول الله ﷺ وعلى على بن أبى طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك وعلى حمزة وجعفر وهما عماك فقال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام فى أصحابه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الأمر ما ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء ألا خسيس من عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى وإنى لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا اجراما.

(الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين)

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال أتعدونى فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان وبكى حتى علا بكاؤه وقال يارب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأوا فى جلده غضونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار ثم أف لها من دار . وروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى كما كان من قبلى خيرا منى ويا يزيد إذا وفى أجلى فول غسلى رجلا لبيبا فان اللبيب من الله بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين فاذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين . وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وإنى لم أل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم

(ومنها الغلبة) الغلبة وجد متلاحق فالوجد كالبرق يبدو والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز فالوجد ينطفىء سريعا والغلبة تبقى للأسرار حرزا منيعا. (ومنها المسامرة) وهى تفرد الأرواح بخفى مناجاتهما ولطيف مناغاتها فى سر السر بلطيف إدراكها القلب لتفرد الروح بها فلتذ بها دون القلب (ومنها السكر والصحو) فالسكر استيلاء سلطان الحال والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال قال محمد بن خفيف

ولم

ولم آل من أمر الدنيا شيئا فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه وإذا حضرنا للموت لم نتمن ماهم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه كيف تجدك ياأمير المؤمنين ؟ قال أجدني كما قال الله تعالى ـ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ـ الآية ، ومات . وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعته يقول ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ـ ثم هدأ فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له انظر أنائم هو فلما دخل صاح فوثبت فاذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت اعهد ياأمير المؤمنين قال أحذركم مثل مصرعي هذا فانه لابد لكم منه وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك ياأمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فتعالج ياأمير المؤمنين فاني أخاف أن تذهب نفسك قال ربي خير مذهوب إليه والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني مارفعت يدي إلى أذني فتناولته اللهم خر لعمر في لقائك فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ياأمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلسوني فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقيل له في ذلك فقال إني لأرى خضرة ماهم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله . وحكى عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول ماأغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان المعتصم يقول عند موته لو علمت أن عمري هكذا قصير مافعلت وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له لا بأس عليك ياأمير المؤمنين فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة . وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبنيه من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا . وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لي فان الناس يقولون إنك لا تغفر لي فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أقالها ؟ قيل نعم قال عسى .

(بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم)

(من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين)

لما حضرت معاذا رضي الله عنه الوفاة قال اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ولما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أخنقني خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له مايبكيك قال ما أبكي جزعا على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله

السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب وقال الواسطي مقامات الوجد أربعة الذهول ثم الحيرة ثم السكر ثم الصحو كمن سمع بالبحر ثم دنا منه ثم دخل فيه ثم أخذته الأمواج فعلى هذا من بقي عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح فالسكر لأرباب القلوب والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب . (ومنها المحو والإثبات) المحو بإزالة أوصاف النفوس والاثبات بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس أو المحو

صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب[1]» فلما مات سلمان نظر في جميع ماترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناه فقال بل واطرباه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه وقيل فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال لمثل هذا فليعمل العاملون ـ ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له مايبكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أوبالنار ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له مايبكيك فقال والله ماأبكي لذنب أعلم أني أتيته ولكن أخاف أني أتيت شيئا حسبته هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له مايبكيك قال ماأبكي جزعا من الموت ولاحرصا على الدنيا ولكن أبكي على مايفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وابعد سفراه واقلة زاداه ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له مايبكيك قال ذكرت ماكنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ثم قال له لقني ولاتعد على مالم أتكلم بكلام ثان . وقال عطاء بن يسار تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له نجوت فقال ماآمنك بعد وبكى بعضهم عند الموت فقيل له مايبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل ـ إنما يتقبل الله من المتقين ـ ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال إن أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله. وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن فختم فقلت له في هذه الحالة ياأبا القاسم فقال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي . وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول:

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤوس للمنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي الشكر
همومهمو جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم ... وماعرّجوا من مس بؤس ولاضر

وقيل للجنيد إن أباسعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا وقيل لذي النون عند موته ماتشتهي قال أن أعرفه قبل موتي بلحظة وقيل لبعضهم وهو في النزع قل الله فقال إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الانسان أن يموت فيه قال فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى إلى ذلك المكان ومد رجليه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت قد مت ووقعت ميتة . ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجري فتح عينيه وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول ياأبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها ثم أنشأ يقول:

وحقك لانظرت إلى سواكا ... بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ ... وبالخد المورد من حياكا

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم .

هو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه ومامنه والاثبات إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به فهو بالحق لابنفسه باثبات الحق إياه مستأنفا بعد أن محاه عن أوصافه . قال ابن عطاء يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم (ومنها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين) فعلم اليقين ماكان من طريق النظر والاستدلال وعين اليقين ماكان من طريق الكشوف والنوال وحق اليقين ماكان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال

وقيل

وقيل للجنيد قل لا إله إلا الله فقال ما نسيته فأذكره وسأل جعفر بن نصير بكران الدينورى خادم الشبلى ما الذى رأيت منه فقال قال علىّ درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبى شغل أعظم منه ثم قال وضئنى للصلاة ففعلت فنسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدى وأدخلها فى لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال ماتقولون فى رجل لم يفته فى آخر عمره أدب من آداب الشريعة وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة فقال القدوم على الله شديد وقيل لصالح بن مسمار ألا توصى بابنك وعيالك فقال إنى لأستحي من الله أن أوصى بهم إلى غيره ولما احتضر أبو سليمان الدارانى أتاه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ولما احتضر أبو بكر الواسطى قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم احتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك فقالت عليك أبكى فقال إن كنت باكية فابكى على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيد دخلت على سرى السقطى أعوده فى مرض موته فقلت كيف تجدك فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبى مابى ... والذى بى أصابنى من طبيبى

فأخذت المروحة لأروحه فقال كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق ثم أنشأ يقول :

القلب محترق والدمع مستبق ... والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له ... مما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب إن يك شىء فيه لى فرج ... فامنن علىّ به مادام بى رمق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلى دخلوا عليه وهو فى الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله فأنشأ يقول:

إن بيتا أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتى الناس بالحجج
لا أتاح الله لى فرجا ... يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد فى وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرنى فانى كنت فى وردى ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات وقيل للكتانى لما حضرته الوفاة ما كان عملك فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبرتكم به وقفت على باب قلبى أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه وحكى عن المعتمر قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال من المتكلم؟ فقلت أنا فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لى إنى بكل سخى رفيق ثم طفىء ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقا فقال يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإنى لا أعلم أنى صدقت الله فى شىء من عملى فقال حذيفة واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله فى شىء من عمله . وعن المغازلى قال دخلت على شيخ لى من أصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بى . ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينورى فى وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى . وقيل لرويم عند الموت قل لا إله إلا الله فقال لا أحسن غيره ولما حضرت الثورى الوفاة قيل له قل لا إله إلا الله فقال أليس ثم أمر . ودخل المزنى على الشافعى رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ولسوء عملى ملاقيا ولكأس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ثم أنشأ يقول :

بورود رائد الوصال قال فارس : علم اليقين لا اضطراب فيه وعين اليقين هو العلم الذى أودعه الله الأسرار والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علما بشبهة فاذا انضم إليه اليقين كان علما بلا شبهة وحق اليقين هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين وعين اليقين . وقال الجنيد حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال لما

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم يغوى بإبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال يابني باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لاأدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة فأن لي أوان الجواب فهذه أقاويلهم وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالاضافة إلى أحوالهم.

(الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة فانها لاتزيدهم مشاهدتها إلاقساوة لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لامحالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لايقدرون ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولعله فى غد أو بعد غد. وروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فانا على الأثر. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال اغدوا فإنا رائحون موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير ماشهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ماهو مفعول به وما هو صائر إليه ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك فى جنازته يبكي ويقول والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولاأعلم مادمت حيا وقال الأعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلانرى إلا متقنعا باكيا فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لاتنظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا فى ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا فى الحيلة التى بها يتناول بعض ماخلفه ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله فى جنازة نفسه وفى حاله إذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التى بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لايعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فان أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ولو عقلوا البكوا على أنفسهم لا على الميت نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم إنه نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد أمن. وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جرير وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال شيبتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول :

تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه فى فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة خطرة لاتدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماذا أبقيت لعيالك قال الله ورسوله » وقال بعضهم : علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجمع وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق فالاسم والرسم للعوام وعلم اليقين للأولياء وعين اليقين لخواص الأولياء وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحقيقة اليقين اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. (ومنه الوقت) والمراد بالوقت ما هو غالب على العبد وأغلب

واحد

واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى فى قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله ياأبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا . ويحكى أن رجلا من المنهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحى البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذلم يدرها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فماصلى عليه أحد فحملتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لى فى النام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح فى جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق ، والثانى أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم ، والثالث أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل فيبكى ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث يعنى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

(بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور)

قال الضحاك قال رجل «يارسول الله من أزهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر مايبقى على مايفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور [(١)]» . وقيل لعلى كرم الله وجهه ماشأنك جاورت المقبرة قال إنى أجدهم خير جيران إنى أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة وقال رسول الله ﷺ «مارأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه [(٢)]» وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه فبكى وبكيت وبكوا فقال مايبكيكم قلنا بكينا لبكائك قال هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على فأدركنى مايدرك الولد من الرقة [(٣)]»

---

(١) حديث الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس؟ قال من لم ينس القبور والبلى الحديث تقدم (٢) حديث : مارأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة (٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم الحديث وفيه هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى الحديث وتقدم فى آداب الصحبة أيضا ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هانئ ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

ماطلى العبد وقته فانه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع وقد يراد بالوقت مايهجم على العبد لابكسبه فيتصرف فيه فيكون بحكمه يقال فلان بحكم الوقت يعنى مأخوذا عما منه بما للحق. (ومنها الغيبة والشهود) فالشهود هو الحضور وقتا بنعت المراقبة ووقتا بوصف المشاهدة فمادام العبد موصوفا بالشهود والرعاية فهو حاضر فاذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب وقد يعنون بالغيبة

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلاتبكى وتبكى إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن القبر أوّل منازل الآخرة فان نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد (١)» وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقيل له هذا شئ لم تكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وماحيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما وقال مجاهد أوّل مايكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لى . وقال أبو ذر ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع فى قبرى وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له فى ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قمت لم يغتابونى وكان جعفر ابن محمد يأتى القبور ليلا ويقول ياأهل القبور مالى إذا دعوتكم لاتجيبونى ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يافلان لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشى يقول أيها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت وبأى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور وقال حاتم الأصم من مرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول ياأماه ليتك كنت بى عقيما إن لابنك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا وقال يحيى بن معاذ ياابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول ماأحسن ظواهرك إنما الدواهى فى بواطنك وكان عطاء السلمى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول ياأهل القبور متم فواموتاه وعاينتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر فى داره قبرا فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيا تركت يرددها ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم فتقول ياابن آدم لم لاتذكر طول بلاك ومابينى وبينك شئ وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل علىّ فقال ياميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم أماتراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام مقيلا فى أبدانهم ثم بكى وقال والله ماأعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البنانى دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فاذا بصوت قائل يقول ياثابت لايغرنك صموت أهلها فكم

(١) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه إن القبر أول منازل الآخرة الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة .

الغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء (ومنها الذوق والشرب والرى) فالذوق إيمان والشرب علم والرى حال فالذوق لأرباب البواده والشرب لأرباب الطوالع واللوائح والاوامع والرى لأرباب الأحوال وذلك أن الأحوال هى التى تستقر فما لم يستقر فليس بحال وإنما هى لوامع وطوالع وقيل الحال لاتستقر لأنها تحول فاذا استقرت تكون مقاما (ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة) فالمحاضرة لأرباب التلوين والمشاهدة

من نفس مغمومة فيها ، ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن نغطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا مافقدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يئسوا فانقلبوا . وقال أبو موسى التميمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا أبافراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني ... أشد من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد ... عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها ... من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكرم منكم في قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد ... لايستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن ... تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة ... يفضي إلى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلب ... في حفرة يأوى إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ... في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها ... إذا كنت في القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى ... وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناه بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه ... وأين الزكي إذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فياسائلي عن أناس مضوا ... أما لك فيما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك .

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تناجيك أجداث وهن صموت ... وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه ... لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

لأرباب التمكين والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم والمكاشفة لأهل العين والمشاهدة لأهل الحق أى حق اليقين (ومنها الطوارق والبوادى والباده والواقع والقادح والطوالع واللوامع واللوائح) وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى ويمكن بسط القول فيها ويكون حاصل ذلك راجعا إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه والمقصود أن هذه الأسماء كلها مبادى الحال ومقدماته وإذا صح الحال استوعب

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك مررت على المقابر فاذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربى جنبات قبرى كأن أقاربى لم يعرفونى
ذوو الميراث يقتسمون مالى وما يألون أن جحدوا ديونى
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيالله أسرع ما نسونى

ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لايمنع الموت بوّاب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذّتها يامن يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت ياغافلا فى النقص منغمسا وأنت دهرك فى اللذّات منغمس
لايرحم الموت ذا جهل لغرته ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به عن الجواب لسانا مابه خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعى رأت عيناى بينهم مكانى

ووجد على قبر طبيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل صار لقمان إلى رمسه
فأين ما يوصف من طبه وحذقه فى الماء مع جسه
هيهات لايدفع عن غيره من كان لايدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أمكنه فى حياته العمل
ما أنا وحدى نقلت حيث ترى كلّ إلى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لايبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور فانما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب فانهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة وأملك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين رأيت أخا لى فى الله فيما يرى النائم فقلت يافلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أقولها يعنى الحمد لله رب العالمين أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنوننى فإن فلانا

هذه الأسماء كلها ومعانيها .

(ومنها التلوين والتمكين)

فالتلوين لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب والقلوب تخلص إلى الصفات والصفات تعدد بتعدد جهاتها فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات وأما أرباب التمكين خرجوا عن مشائم الأحوال وخرقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم

قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلىّ من الدنيا ومافيها .

(بيان أقاويلهم عند موت الولد)

حق على من مات ولده أوقريب من أقاربه أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالوكانا فى سفر فسبقه الولد إلى البلد الذى هو مستقره ووطنه فانه لايعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلاتقدم وتأخر وهكذا الموت فان معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم سقطا أحب إلىّ من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله (١)» وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفى ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فقيل له ماكان عدله عندك قال ملء الأرض ذهبا قيل له فان لك من الأجر فى الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله ﷺ «لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلاكانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أواثنان قال أواثنان (٢)» وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه أرجى دعاء وأقربه إلى الاجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم إنى أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائى وآمن خوفى ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد غفرت له ماوجب لى عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فانك أجود وأكرم ، ووقف أعرابى على قبر ابنه فقال اللهم إنى قد وهبت له ماقصر فيه من برى فهب له ماقصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر بعد ماوضعه فى لحده فقال ياذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم إن هذا ذر متعتنى به مامتعتنى ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتى اللهم وماوعدتنى عليه من الأجر فى مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب لى عذابه ولاتعذبه فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه ماعلينا بعدك من خصاصة ياذر ومابنا إلى إنسان مع الله حاجة فلقد مضينا وتركناك ولوأقمنا مانفعناك . ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال مارأيت مثل هذه النضارة وماذاك إلامن قلة الحزن فقالت ياعبدالله إنى لفى حزن مايشركنى فيه أحد قال فكيف قالت إن زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الأضحى وكان لى صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر أتريد أن أريك كيف ذبح أبى الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وماشعرنا به إلامتشحطا فى دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأفردنى الدهر كما ترى فأمثال هذه المصائب ينبغى أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فمامن مصيبة إلاويتصور ماهو أعظم منها ومايدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر .

(بيان زيارة القبور والدعاء للميت ومايتعلق به)

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد (٣) .

التغير فى الذات إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين فالتلوين حينئذ يكون فى نفوسهم لأنها فى محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين الواقع فى النفوس لايخرج صاحبه عن حال التمكين لأن جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الانسانية وثبوت القدم فى التمكين كشف حق الحقيقة وليس المعنىّ بالتمكين أن لايكون للعبد تغير فانه بشر وإنما المعنىّ

---

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبى هريرة لسقط أقدمه بين يدى أحب إلى من فارس أخلفه خلفى (٢) حديث لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم فى النكاح (٣) حديث نهيه عن زيارة القبور ثم إذنه فى ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

روى عن علىّ رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لاتقولوا هجرا (١) » وزار رسول الله ﷺ قبر أمه فى ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ (٢) وفى هذا اليوم قال أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار (٣) كما أوردنا من قبل وقال ابن أبى مليكة أقبلت عائشة رضى الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخى عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها (٤) ولا ينبغى أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء فى الخروج إلى المقابر فإنهن يكثرن الهجر على رءوس المقابر فلا يفى خير زيارتهن بشرها ولا يخلون فى الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها ، نعم لابأس بخروج المرأة فى ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين فى ظل الله (٥) » وقال ابن أبى مليكة قال رسول الله ﷺ « زوروا موتاكم وسلموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة (٦) » وعن نافع أن ابن عمر كان لايمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة فى الأيام فتصلى وتبكى عنده وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من زار قبر أبويه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب برا (٧) » وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين (٨) » وقال النبى صلى الله عليه وسلم

(١) حديث على كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لاتقولوا هجرا رواه أحمد وأبو يعلى فى مسنده وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى غير أن لاتقولوا هجرا وفيه على بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخارى لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان فى الثقات (٢) حديث زار رسول الله ﷺ قبر أمه فى ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له فى الاستغفار لها (٣) حديث وقال فى هذا اليوم أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار تقدم فى الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له فى الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبى هريرة استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى (٤) حديث ابن أبى مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخى عبد الرحمن قلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها ابن أبى الدنيا فى القبور باسناد جيد (٥) حديث أبى ذر زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة الحديث ابن أبى الدنيا فى القبور والحاكم باسناد جيد (٦) حديث ابن أبى مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن أبى الدنيا فيه هكذا مرسلا وإسناده حسن (٧) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب برا الطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث أبى هريرة وابن أبى الدنيا فى القبور من رواية محمد بن النعمان رفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبرانى يحيى بن العلاء البجلى متروك (٨) حديث ابن سيرين ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن أبى الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الاسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عقبة بن أبى العيزار عن محمد بن جحادة

أن ما كوشف له من الحقيقة لايتوارى عنه أبدا ولايتناقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشىء فى حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الأحوال ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلوينه فى زوائد الأحوال (ومنها النفس) ويقال النفس للمنتهى والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدىء يطرقه من الله تعالى طارق لايستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمنتهى صاحب نفس

« من

« من زار قبرى فقد وجبت له شفاعتى (١) » وقال صلى الله عليه وسلم «من زارنى بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة (٢) » وقال كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه. والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجىء إلى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبى بكر السلام على أبى وينصرف. وعن أبى أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف. وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٣) وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدرى رأيت عاصما فى منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت قال بلى فقلت أين أنت فقال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى فنتلاقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده. وقال الضحاك: من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته قيل وكيف ذاك قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فاذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات. قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك قلت وما هى قالوا الدعوات التى كنت تدعو لنا بها قلت فانى أعود لذلك فما تركتها بعد ذلك. وقال بشار بن غالب النجرانى رأيت رابعة العدوية العابدة فى منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لى يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الميت فى قبره إلا كالغريق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف (١) حديث من زار قبرى فقد وجبت له شفاعتى تقدم فى أسرار الحج (٢) حديث من زارنى بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه (٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ابن أبى الدنيا فى القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الاشبيلى.

متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه مقيمة لا تتناوب عليه وهذه كلها أحوال لأربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع ببركتهم آمين

[الباب الثالث والستون فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها]

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزينى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى

أوأخيه أوصديق له فاذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا ومافيها وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار (١) ». وقال بعضهم مات أخ لى فرأيته فى النام فقلت ما كان حالك حيث وضعت فى قبرك قال أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعالى لرأيت أنه سيضربنى به ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبدالله الأزدى «شهدت أباأمامة الباهلى وهو فى النزع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذامات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة فانه يسمع ولايجيب ثم ليقل يافلان ابن فلانة الثانية فانه يستوى قاعدا ثم ليقل يافلان ابن فلانة الثالثة فانه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لاتسمعون فيقول له اذكر ماخرجت عليه من الدنيا شهادة أن لاإله إلاالله وأن محمدا رسول الله وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن إماما فان منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بناما يقعدنا عندهذاوقدلقن حجته ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما فقال رجل يارسول الله فان لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى حواء (٢) » ولابأس بقراءة القرآن على القبور روى عن على بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حنبل فى جنازة ومحمد بن قدامة الجوهرى معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد ياأباعبدالله ماتقول فى مبشر بن اسمعيل الحلبى قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال أخبرنى مبشر بن اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد ابن أحمد المروزى سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فانه يصل إليهم وقال أبوقلابة أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم تنبهت فاذا صاحب القبر يشتكينى يقول لقد آذيتنى منذ الليلة ثم قال إنكم لاتعلمون ونحن نعلم ولانقدر على العمل ثم قال الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا ومافيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا أقرئهم السلام فانه قديدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه فلاينبغى أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولاعن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور فى قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة اتيانها المقابر

---

(١) حديث ماالميت فى قبره إلا كالغريق المغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أومن أخيه أوصديق له الحديث أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن على بن عبد الواحد قال الذهبى حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبدالله الأزدى قال شهدت أباأمامة الباهلى وهو فى النزع فقال ياسعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذ مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة الحديث فى تلقين الميت فى قبره الطبرانى هكذا باسناد ضعيف .

الكشميهنى قال أنا أبوعبدالله محمد بن يوسف الفربرى قال حدثنا أبوعبدالله محمد ابن اسمعيل بن ابراهيم البخارى قال حدثنا الحميدى قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى قال أخبرنى محمد بن ابراهيم التيمى أنه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن

فقالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى وإنى لآتى القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ماأنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان بل ينبغى أن يحضر من صورة الميت ماذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يافلان لو رأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات صاحبكم فدعوه ولاتقعوا فيه [(١)]» وقال صلى الله عليه وسلم «لاتسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا [(٢)]» وقال صلى الله عليه وسلم «لاتذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ماهم فيه [(٣)]» وقال أنس بن مالك «مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال إن هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء الله فى الأرض [(٤)]» وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى لملائكته أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن علمى فى عبدى [(٥)]»

(الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن الناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظنّ بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لاحشر ولانشر ولاعاقبة للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى الملحدين وكل من لايؤمن بالله واليوم الآخر وظنّ قوم أنه ينعدم بالموت ولايتألم بعقاب ولايتنعم بثواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون إن الروح باقية لاتنعدم بالموت وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لاتبعث ولاتحشر أصلا

(١) حديث إذا مات صاحبكم فدعوه ولاتقعوا فيه أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد (٢) حديث لاتسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا البخارى من حديث عائشة أيضا (٣) حديث لاتذكروا موتاكم إلا بخير الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصرا على ماذكر منه هنا بلفظ هلكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٣) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٤) حديث أبى هريرة إن العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك الحديث أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عزّ وجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير إلاقال الله عزوجل قد قبلت شهادة عبادى على ماعلموا وغفرت له ماأعلم.

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه» النية أول العمل وبحسبها يكون العمل وأهم مالمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزيهم ويجالس طائفتهم لله تعالى فان دخوله فى طريقهم هجرة حاله ووقته .وقد ورد «المهاجر من هجر مانهاه الله عنه» وقد قال الله تعالى ــ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ــ فالمريد ينبغى أن

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرّفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فان الأعضاء آلات الروح تستعملها حتى انها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هى المستعملة لها وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الانسان العلوم وآلام الغموم ولذات الأفراح ومهما بطل تصرّفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ولا بطل منها الأفراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت أى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرّفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقا فى الأعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهى باقية . نعم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الانسان وبين أن يسلب الانسان من هذه الأشياء فان المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والألم واحد فى الحالتين ، وإنما معنى الموت سلب الانسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له فى الدنيا شىء يأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه فى مفارقته بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله ، فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثانى أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفا له فى الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا له فى النوم والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وأوّل ما ينكشف له ما يضرّه وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سرّ قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له ــ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ــ وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح

يخرج إلى طريق القوم لله تعالى فانه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم . أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن عن أبى العباس البغدادى عن جعفر الخلدى قال سمعت الجنيد يقول أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء فالمريد فى أول سلوك هذا الطريق يحتاج

بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره وملكه وحريمه اعتمادا على أن الملك يتساهل فى أمره أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه فى العصاة عليه فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فإن الخزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها وإدراك ماهية ذاتها « ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربى[1] » فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة : أما الآيات فما ورد فى الشهداء إذ قال تعالى ـ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ـ ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يافلان يافلان قد وجدت ماوعدنى ربى حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا فقيل يارسول الله أتناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب[2] » فهذا نص فى بقاء روح الشقى وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص فى أرواح الشهداء ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة[3] » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط وأن ماسيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله . وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة[5] » وليس يخفى مافى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال

إلى إحكام النية وإحكام النيـة تنزيهها من دواعى الهـوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجـل حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى . وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز اعلم ياعمر أن عون الله للعبد بقدر النية فمن تمت نيته تم عون الله ومن قصرت عنه نيته قصر عنـه عون الله بقـدر ذلك . وكتب بعض الصالحين إلى أخيه أخلص النية فى أعمالك يكفك قليل من العمل ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية. قال سهل بن عبد الله التسترى أول مايؤمر به

---

(١) حديث إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فى الروح متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى ـ ويسئلونك عن الروح ـ وقد تقدم (٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يافلان قد وجدت ماوعدنى ربى حقا الحديث مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وتقدم فى الرجاء والخوف (٤) حديث أنس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

وعن أبي قيس قال كنا مع علقمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته . وقال علي كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقي فتانات القبر وغدي وريح عليه برزقه من الجنة [1] » وقال مسروق ماغبطت أحدا ماغبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ماتحب لمن تحب قال الموت قلت فان لم يمت قال يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا والأنس بمن لابد من فراقه غاية الشقاء فكل ماسوى الله وذكره والانس به فلابد من فراقه عند الموت لامحالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم إذ معنى النعيم أن ينال الانسان ما يريده قال الله تعالى ـ ولهم ما يشتهون ـ فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الانسان عن مراده كما قال الله تعالى ـ وحيل بينهم وبين مايشتهون ـ فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما انقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك ياجابر وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى بشرك الله بالخير فقال إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال تمن على عبدي ماشئت أعطيكه فقال يارب ماعبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع [2] » وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتهي أن أرد فأقتل فيه قتلات . واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ماتكون الدنيا بالاضافة إليه كالسجن والضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم ففتح له باب

المريد المبتدىء التبرى من الحركات المذمومة ثم النقل إلى الحركات المحمودة ثم التفرد لأمر الله تعالى ثم التوقف في الرشاد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ويكون الرضا والتسليم مراده والتفويض والتوكل حاله ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام هذا من كلام سهل جمع فيه ما في البداية والنهاية ومتى تمسك المريد بالصدق

(١) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقي فتاني القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا فتان (٢) حديث عائشة ألا أبشرك ياجابر الحديث وفيه إن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه الحديث ابن أبي الدنيا في الموت باسناد فيه ضعف وللترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قال بلى يارسول الله الحديث وفيه فقال ياعبدي تمن على أعطك قال يارب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون .

إلى بستان واسع الأكناف لايبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه (١)» فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه (٢)» وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه (٣)» أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقيا مربنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلا فواراها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا وإنما الأرواح التى تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة، وعن عمرو بن دينار قال مامن ميت يموت إلا وهو يعلم مايكون فى أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم وقال مالك بن أنس بلغنى أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت وقال النعمان بن بشير «سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم (٤)» وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم «لاتفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور (٥)» ولذلك قال أبو الدرداء اللهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملا أخزى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هى ؟ قال فى حواصل طير بيض فى ظل العرش وأرواح الكافرين فى الأرض السابعة . وقال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله

والاخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شىء مثل متابعة أمر الشرع وقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التى دخلت على أهل البدايات لوضع نظرهم إلى الخلق وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغر» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بعاداتهم . قال أحمد بن خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم

---

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ابن أبى الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات (٢) حديث إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ابن أبى الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفى عن سليم بن عامر الجنائزى مرسلا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه متفق عليه من حديث أبى قتادة بلفظ مر عليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبى الدنيا فى الموت باللفظ الذى أورده المصنف (٤) حديث النعمان بن بشير ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم ابن أبى الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكماله الأزدى فى الضعفاء وقال لايصح إسناده وذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل بكماله فى ترجمة أبى اسميل السكونى رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول قال الأزدى لايصح إسناده وذكر ابن حبان فى الثقات مالك بن أدى (٥) حديث أبى هريرة لاتفضحوا موتاكم بسيآت أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ابن أبى الدنيا والمحاملى باسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنسانا عن أنس أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات الحديث .

صلى الله عليه وسلم يقول «إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره[1]». وقال صالح المرى بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج إليهم كيف كان مأواك وفى أى الجسدين كنت فى طيب أوخبيث . وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الأخبار فاذا أتاهم الميت قالوا ما فعل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أوماقدم عليكم فيقولون إنالله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب. وقال مجاهد: إن الرجل ليبشر بصلاح ولده فى قبره وروى أبو أيوب الأنصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عندالله كما يتلقى البشير فى الدنيا يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح فانه كان فى كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فاذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبلى قالوا إنالله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية[2]».

(بيان كلام القبر للميت)

وكلام الموتى إما بلسان المقال أوبلسان الحال التى هى أفصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ماغرك بى ألم تعلم أنى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ماغرك بى إذ كنت تمر بى فذاذا فان كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إنى إذا أتحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه إلى الله تعالى[3]» والفذاذ هو الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوى . وقال عبيد بن عمير الليثى ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التى يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت فى حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا . وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع فى قبره فعذب أوأصابه بعض مايكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف فى الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك فى متقدمنا إياك فكرة أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت فى المهلة فهلا استدركت مافات إخوانك وتناديه بقاع الأرض أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته إلى المنزل الذى لابدله منه. وقال يزيد الرقاشى بلغنى أن الميت إذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله ؟ فقالت أيها العبد المنفرد فى حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا. وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بى القيام لله

(١) حديث أبى سعيد الخدرى إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أوابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن (٢) حديث أبى أيوب إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عندالله كما يتلقى البشير يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى فى مسند الشاميين باسناد ضعيف ورواه ابن المبارك فى الزهد موقوفا على أبى أيوب باسناد جيد ورفعه ابن صاعد فى زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائى وابن حبان نحوه من حديث أبى هريرة باسناد جيد (٣) حديث يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ماغرك بى ألم تعلم أنى بيت الفتنة الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم فى الكنى من حديث أبى الحجاج الثمالى باسناد ضعيف.

الصدق فان الله تعالى مع الصادقين وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصدق يهدى إلى البر» ولابد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وأنفع شىء للمريد معرفة النفس ولايقوم بواجب حق معرفة النفس من له فى الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أوعليه من الهوى بقية . قال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك تصبح

عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلاسبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضىء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيق ونتني وهولي ودودي فماذا أعددت لي [1] » .

(بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير)

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فاذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته ـ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ـ الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال ياهذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد ﷺ قال فينتهرانه انتهارا شديدا وهي آخر فتنة تعرض على الميت فاذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهي معنى قوله تعالى ـ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ـ الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فيبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح والله ماعلمت إن كنت لسريعا إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال وأما الكافر فانه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فاذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه نبذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إني وعدته ـ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ـ الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له ياهذا من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لا أدري فيقال لادريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عملك الخبيث والله إن كنت لسريعا في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا

لأنهم لله بمعصية ونسي ولا تهم لله بمعصية فاذا أحكم الزهد والتقوى انكشفت له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها وخفيّ شهواتها ودسائسها وتلبيساتها ومن تمسك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى . قال ذوالنون لله تعالى في أرضه سيف ماوضع على شيء إلا قطع وهو الصدق ونقل في معنى الصدق أن عابدا من بني إسرائيل راودته ملكة عن نفسه ، فقال اجعلوا لي ماء في الخلاء أتنظف به ثم صعد على موضع في القصر فرمى بنفسه

---

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه .

فيقول وأنت فجزاك الله شرا ثم يقيض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار [(١)] » وقال محمد بن على ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية ومرضيا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطا عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وإن لها نشيشا ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين [(٢)] » وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى ـ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ـ قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتشقق الأنهار قال لا لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال فيقول الجبار ـ كلا إنها كلمة هو قائلها ـ أي ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا أنزلت ـ فإن له معيشة ضنكا ـ قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رءوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون » ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات فإن لها أصولا معدودة ثم تتشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها إلى أقسام وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذى إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة [(٣)] فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم. فإن قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا [أحدها] وهو الأظهر والأصح والأسلم

فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدي قال فلزمه ووضعه على الأرض وضعا رفيقا فقيل لإبليس ألا أغويته فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى وينبغي للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لا تستعصى النفس وتجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص وإذا

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا (٢) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان الحديث ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف (٣) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث ورواه ابن حبان

والأسلم أن تصدّق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لاتشاهد ذلك فان هذه العين لاتصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية وكل مايتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت أماترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وماكانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده فان كنت لاتؤمن بهذا فتصحيح أصل الايمان بالملائكة والوحي أهم عليك وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي مالاتشاهده الأمة فكيف لاتجوّز هذا في الميت وكما أن الملك لايشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى [المقام الثاني] أن تتذكر أمر النائم وأنه قديرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولاترى حواليه حية والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلافرق بين حية تتخيل أو تشاهد [المقام الثالث] أنك تعلم أن الحية بنفسها لاتؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم فلوحصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لايمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة فانه لو خلق في الانسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالاضافة إليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لالذاته وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق فانه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب مايتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولوأخذ جميع ذلك في حياته من لايرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشتدّ عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولاجاه قط فكنت لاأتأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة:

ماحال من كان له واحد　　غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لايفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على مافاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته على مافاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الردّ والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يعذب به إذ لايتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى ـ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ـ وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لوخير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب ، فاذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه فليستعد لهذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك إليه فاذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه

دخل في شيء من رفق النفس لالله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه وقد ورد في الخبر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر ومن تطيب لغير الله عزوجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة» . وقيل كان أنس يقول طيبوا كفي بمسك فان ثابتا يصافحني ويقبل يدي وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتهم فالمريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ولايسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى

من العقارب والحيات وكما لوأخذ ذلك منه وهو حيّ فيعظم عقابه فكذلك إذا مات لأنا قد بينا أن للمعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولاسلوة بعد الموت إذ قد انسدّ عليه طرق التسلى وحصل اليأس ، فاذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشقّ عليه لوأخذ منه فانه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به فان كان مخفا فى الدنيا سلم وهو المعنيّ بقولهم نجا المخفون وإن كان مثقلا عظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنيّ بقوله صلى الله عليه وسلم «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين [1]» ومامن شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلاوهو حسرة عليك بعد الموت فان شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل فان استكثرت فلست بمستكثر إلامن الحسرة وان استقللت فلست تخفف إلاعن ظهرك وإنما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها فهذه مقامات الإيمان فى حيات القبر وعقاربه وفى سائر أنواع عذابه . رأى أبو سعيد الخدريّ ابنا له قد مات فى النام فقال له يابنى عظنى قال لاتخالف الله تعالى فيما يريد قال يابنى زدنى قال ياأبت لاتطيق قال قل قال لاتجعل بينك وبين الله قميصا فمالبس قميصا ثلاثين سنة . فان قلت فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث . فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلاالأول وأنكر مابعده ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثانى ومنهم من لم يثبت إلاالثالث وإنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الامكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره ، هذا هو الحق فصدق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا والذى أوصيك به أن لاتكثر نظرك فى تفصيل ذلك ولاتشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان فان أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه فأخذ طول الليل يتفكر فى أنه هل يقطعه بسكين أوبسيف أوبموسى وأهمل طريق الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن العبد لايخلو بعد الموت من عذاب عظيم أونعيم مقيم فينبغى أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

(بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر)

قال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول فى النبى فان كان مؤمنا قال هو عبدالله ورسوله أشهد أن لا إله إلاالله وأن محمدا رسول الله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ذراعا وينور له فى قبره ثم يقال له نم فيقول دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذى لايوقظه إلاأحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وإن كان منافقا قال لاأدرى كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله فيقولان إن كنا لنعلم

وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوى عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا آكل هذه اللقمة لله تعالى ولاينفع القول إذا لم تكن النية فى القلب لأن النية عمل القلب وإنما اللسان ترجمان فما لم تشتمل عليها عزيمة القلب لله لاتكون نية. ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال هات المدرى أراد الميل ليفرق شعره فقالت له امرأته أجيء بالمدرى والمرآة فسكت ثم قال نعم فقال له من سمعه سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم فقال إنى

(١) حديث . صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين لم أجد له أصلا .

أنك

أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك [١] وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه « ياعمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وبصائرهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك كيف بك عند ذلك ياعمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الآن ؟ قال نعم قال إذن أكفيكهما [٢] » وهذا نص صريح في أن العقل لايتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلا مدركا عالما بالآلام واللذات كما كان لايتغير من عقله شيء وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لاينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لايتجزأ ولا ينقسم لكان الانسان العاقل بكماله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت فإن ذلك الجزء لايحله الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن المنكدر بلغني أن الكافر يسلط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة لاتراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه . وقال أبو هريرة إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خللا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان تحاجش عنه أعماله الصالحة كما يحاجش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك في مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله [٣] » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ [٤] » وعن أنس قال « توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يارسول الله رأينا منك شأنا فمم ذلك ؟ قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأتيت فأخبرت أن الله

قلت لها هات المدري بنية فلما قالت والمرآة لم يكن لي في المرآة نية فتوقفت حتى هيأ الله تعالى لي نيــة فقلت نعم وكل مبتــدىء لايحكم أساس بدايته بمهاجـرة الألاّف والأصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لانستقر بدايته ، وقد قيل من قلة الصدق كثرة الخلطاء وأنفع ماله لزوم الصمت وأن لا يطرق سمعه كلام الناس فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة وكل من لايعلم كمال زهده في الدنيا وتمسكه بحقائق التقـــوى لايعرفه أبدا فان عدم

(١) حديث أبي هريرة إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ياعمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلا . قلت ووصله ابن بطة في الابانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الاسناد تفرد به مفضل . ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أترد إلينا عقولنا فقال نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر بفيه الحجر (٣) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ، الحديث رواه أحمد بسند ضعيف (٤) حديث عائشة إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ رواه أحمد بإسناد جيد .

قد حفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين (١) » .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام)

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلا فانا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى ـ إنما يتقبل الله من المتقين ـ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة مايجرى عليه وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين فى قلب كل إنسان ولكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيئا من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه، ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه والموتى فى عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته (٢) وكذلك حال أبى جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر ، ومثل هذه المشاهدة لامطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضا مشاهدة نبوية وأعنى بها المشاهدة فى المنام وهى من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة (٣) » وهو أيضا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان مايراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا (٤) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضا فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ماسيكون فى المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم حتى نزل قوله تعالى ـ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ـ (٥) وقلما يخلو الانسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمى وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره

---

(١) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة الحديث وفيه لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة)

(٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته وكذلك حال أبى جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث فى الباب الذى قبله (٣) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة تقدم (٤) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث (٥) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ابن أبى حاتم فى تفسيره من رواية مجاهد مرسلا .

معرفته لايفتح عليه خيرا وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش وربما استضر المبتدىء بمجرد النظر إلى الناس ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشى فيقف من الأشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذى يسلكه لايلتفت يمينه ويساره ثم يتق موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحتراز فان علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله ولا يستحقر فضول

علاوة على علم المعاملة ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب المبين وتارة بإمام مبين كما ورد فى القرآن فجميع ماجرى فى العالم وماسيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لايشاهد بهذه العين ولاتظنن أن ذلك اللوح من خشب أوحديد أوعظم وأن الكتاب من كاغد أورق بل ينبغى أن تفهم قطعا أن لوح الله لايشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لاتشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كنت تطلب له مثالا يقرّبه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ولو فتشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ماقدّره الله تعالى وقضاه واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلووضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه إلاأن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلألأ فى مرآة القلب شىء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد يثبت ويدوم وقدلايدوم وهو الغالب ومادام متيقظا فهو مشغول بما توررده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ، ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلاتورده على القلب فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا فى جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع فى قلبه شىء مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلاأن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون التخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعانى فيرجع إلى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير ويكفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كأن بيدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا الناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولايبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية ، فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لاتنحصر عجائبه وكيف لاوهو أخو الموت وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أترى كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ماسيكون فى المستقبل فماذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية حتى يرى الانسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازى والفضائح نعوذ بالله من ذلك وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء ــ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ــ ويقال ــ أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون اصلوها فاصبروا أولاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ــ وإليهم الاشارة بقوله تعالى ــ وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ــ

الشىء فإن كل شىء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول ثم يجر إلى تضييع الأصول . قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول فكل من لايتمسك بالضرورة فى القول والفعل لايقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وأغلت شيئا بعد شىء قال سهل بن عبد الله من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخلق اضطرارا وينفتح على العبد أبواب الرخص

والاتساع ويهلك مع الهالكين ولا ينبغى للمبتدئ أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا فان معرفته لهم سم قاتل . وقد ورد «الدنيا مبغوضة الله فمن تمسك بحبل منها قادته إلى النار» وما حبل من حبالها إلا كأبنائها والطالبين لها والمحبين فمن عرفهم انجذب إليها شاء أو أبى ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لايقولون بقيام الليل وصيام النهار فانه يدخل عليه منهم أشر مايدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات مالم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة فى خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذى ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافيا فى استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينفث روح القدس فى روعه فيقول ماقال لسيد النبيين «أحبب من أحببت فانك مفارقه وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به [(١)]» فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة [(٢)] ولم يخلف دينارا ولا درهما [(٣)] ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن [(٤)]» فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب وقد قال لأمته ـ إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ـ فانما أمته من اتبعه وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه مادعا إلا إلى الله واليوم الآخر وماصرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذى سلكه وبقدر ماسلكت سبيله فقد اتبعته وبقدر مااتبعته فقد صرت من أمته وبقدر ماأقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم ـ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ـ فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسى لاتسعى إلا فى الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن إلا للعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ما أبعد ظنك وما أبرد طمعك ـ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ـ ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى مايعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات.

(بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة)

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام «من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فان الشيطان لايتمثل بى [(٥)]» وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فرأيته لاينظر إلى فقلت يارسول الله ماشأنى فالتفت إلى وقال ألست القبل وأنت صائم قال والذى نفسى بيده لاأقبل امرأة وأنا صائم أبدا . وقال العباس رضى الله عنه كنت ودا لعمر فاشتهيت أن أراه فى المنام فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهد لولا أنى لقيته رءوفا رحيما . وقال الحسن بن على قال لى على رضى الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى منامى فقلت يارسول الله مالقيت من أمتك قال ادع عليهم فقلت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج فضربه ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله استغفر لى فأعرض عنى فقلت يارسول الله إن سفيان

---

(١) حديث إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه الحديث تقدم .
(٢) حديث لم يضع لبنة على لبنة ولاقصبة على قصبة تقدم أيضا (٣) حديث لم يخلف دينارا ولا درهما تقدم أيضا (٤) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن تقدم أيضا (٥) حديث من رآنى فى المنام فقد رآنى فان الشيطان لايتخيل بى متفق عليه من حديث أبى هريرة .

سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله إنك لم تسأل شيئا قط فقلت لا فأقبل علىّ فقال غفر الله لك (١) وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لأبى لهب مصاحبا له فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمنى أمره فسألت الله تعالى حولا أن يرينى إياه فى المنام قال فرأيته يلتهب نارا فسألته عن حاله فقال صرت إلى النار فى العذاب لا يخفف عنى ولا يروح إلا ليلة الاثنين فى كل الأيام والليالى قلت وكيف ذلك قال ولد فى تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتنى أميمة فبشرتنى بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لى فرحا به فأثابنى الله بذلك أن رفع عنى العذاب فى كل ليلة اثنين . وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجا فصحبنى رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبى ﷺ فسألته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبى فلما انصرفنا نمت فى بعض المنازل فبينا أنا نائم إذ أتانى آت فقال لى قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه فداخلنى من ذلك رعب فبينا أنا فى ذلك الغم إذ غلبتنى عينى فنمت فإذا على رأس أبى أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه بيده ثم أتانى فقال قم فقد بيض الله وجه أبيك فقلت له من أنت بأبى أنت وأمى فقال أنا محمد قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبى فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما جالسان عنده فسلمت وجلست فبينما أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج على رضى الله عنه وهو يقول قضى لى ورب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لى ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضى الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ماصنعت أمتى بعدى قتلوا ابنى الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله فى اليوم الذى رآه ورؤى الصديق رضى الله عنه فقيل له إنك كنت تقول أبدا فى لسانك هذا أوردنى الموارد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا إله إلا الله فأوردنى الجنة.

(بيان مناقات للمشايخ رحمة الله عليهم أجمعين)

قال بعض المشايخ رأيت متمما الدورقى فى المنام فقلت ياسيدى ما فعل الله بك فقال دير بى فى الجنان فقيل لى يامتمم هل استحسنت فيها شيئا قلت لا ياسيدى فقال لو استحسنت منها شيئا لوكلتك إليه ولم أوصلك إلى ورؤى يوسف بن الحسين فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى قيل بماذا قال ما خلطت جدا بهزل وعن منصور بن إسمعيل قال رأيت عبد الله البزار فى النوم فقلت ما فعل الله بك قال أوقفنى بين يديه فغفر لى كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا فانى استحييت أن أقربه فأوقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى فقلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره وقال أبو جعفر الصيدلانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينا نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما بيده طشت وبيد الآخر إبريق فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ثم وضع الطشت بين يدى

التعبدين وأن أرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك . وينبغى للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب ولا ينبغى أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسا فانا اختبرنا ومارسنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء فى أحوالهم فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة فبذلك يثبت قدمه فى بدايته ويراعى يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصا لا يمزجه بشىء

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر ما سئل النبى صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا ، رواه مسلم وقد تقدم .

فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فانه ليس منهم فقلت يارسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت « المرء مع من أحب » قال بلى قلت يارسول الله فانى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فانه منهم وقال الجنيد رأيت فى المنام كأنى أتكلم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ماتقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا فقلت عمل خفى بميزان وفى فولى الملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤى مجمع فى النوم فقيل له كيف رأيت الأمر فقال رأيت الزاهدين فى الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد رأيتك فى النوم كأنك فى الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه فأشخص رجلا يقتلنى . وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره وقال صالح بن بشير رأيت عطاء السلمى فى النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا قال أما والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائما فقلت فى أى الدرجات أنت ـ فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ـ الآية. وسئل زرارة بن أبى أوفى للنام أى الأعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذعور رأيت الأوزاعى فى المنام فقلت ياأبا عمرو دلنى على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال مارأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى فى المنام فقلت ياأخى مافعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لى وما لم أستغفر منه لم يغفر لى وقال على الطلحى رأيت فى النام امرأة لاتشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجينى نفسك قالت اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى قلت وما مهرك قالت حبس نفسك عن آفاتها وقال ابراهيم بن اسحق الحربى رأيت زبيدة فى المنام فقلت مافعل الله بك قالت غفر لى فقلت لها بما أنفقت فى طريق مكة قالت أما النفقات التى أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفر لى بنيتى ولما مات سفيان الثورى رؤى فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال وضعت أول قدمى على الصراط والثانى فى الجنة وقال أحمد بن أبى الحوارى رأيت فيما يرى النائم جارية مارأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا فقلت لها مماذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فمسحت به وجهى فمن ثم ضوء وجهى كما ترى وقال الكتانى رأيت الجنيد فى المنام فقلت له مافعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما فى الليل ورؤيت زبيدة فى المنام فقيل لها مافعل الله بك قالت غفر لى بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمرى لا إله إلا الله أدخل بها قبرى لا إله إلا الله أخلو بها وحدى لا إله إلا الله ألقى بها ربى ورؤى بشر فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال رحمنى ربى عز وجل وقال يابشر أما استحييت منى كنت تخافنى كل ذلك الخوف ورؤى أبو سليمان فى النوم فقيل له مافعل الله بك قال رحمنى وما كان شىء أضر على من إشارات القوم إلى وقال أبو بكر الكتانى رأيت فى النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له من أنت قال التقوى قلت فأين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فاذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة وقال أبو سعيد الخراز رأيت فى المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها فهتف بى هاتف إن هذا لايخاف من هذه وإنما يخاف من نور يكون فى القلب وقال المسوحى رأيت ابليس فى النوم يمشى عريانا فقلت ألا تستحيى من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمى وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخراز كنت فى دمشق فرأيت فى المنام كأن النبى

من أحوال نفسه ومآربها ويبكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك فحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياأبا هريرة اغتسل للجمعة ولو اشتريت الماء بعشائك وما من نبى إلا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة فان غسل الجمعة كفارة للذنوب مابين الجمعتين » ويشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلى الجمعة ويجلس معتكفا فى

صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق فى صدرى فقال شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثورى فى النوم كأنه فى الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول لمثل هذا فليعمل العاملون فقلت له أوصنى قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثورى فقلت ما فعل الله بك فقال:

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى   هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد

قد كنت قواما إذا أظلم الدجى   بعبرة مشتاق وقلب عميد

فدونك فاختر أى قصر أردته   وزرنى فإنى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام فقيل له ما فعل الله بك قال ناقشنى حتى أيست فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته فى النام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى وجعلنى حجة على المحبين ورؤى الثورى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال رحمنى فقيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال: حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا ورؤى مالك بن أنس فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحى الذى لا يموت ورؤى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة وكأن مناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض ورؤى الجاحظ فقيل له ما فعل الله بك فقال:

ولا تكتب بخطك غير شئ   يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى النام عريانا فقال ألا تستحى من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رءوسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأونى قالوا لا يغرنك حديث الخبيث ورؤى النصراباذى بمكة بعد وفاته فى النوم فقيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال فقلت لا يا ذا الجلال فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربى ورأى عتبة الغلام حوراء فى النام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بينى وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى عليها حتى ألقاك وقيل رأى أيوب السختيانى جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى الميت بعضهم فى النام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى وقال قل لأيوب ـ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الانفاق ـ وقال بعضهم رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى نورا وملائكة نزولا وملائكة صعودا فقلت أى ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلا الصعلوكى فى النام فقلت أيها الشيخ قال دع التشييخ قلت تلك الأحوال التى شاهدتها فقال لم تغن عنا فقلت ما فعل الله بك قال غفر لى بمسائل كان يسأل عنها العجز وقال أبو بكر الرشيدى رأيت محمدا الطوسى المعلم فى النوم فقال لى قل لأبى سعيد الصفار المؤدب:

وكنا على أن لا نحول عن الهوى   فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال فانتبهت فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته فقلت أليس قد مت قال بلى قلت فما صنع الله بك قال غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثورى قال بخ بخ ذاك ـ من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ـ الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك

الجامع إلى أن يصلى فرض العصر وبقية النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فانه يرى بركة ذلك فى جميع الأسبوع حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم المزيد لكل صادق ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارا يعتبر به سائر الأسبوع الذى مضى فانه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأنوار والبركات وما يجد فى يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة

قال أجلسني على كرسي من ذهب ونثر علي اللؤلؤ الرطب ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادي ـ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ـ واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي رأيت في منامي رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا أويس القرني فأتيته فقلت أوصني رحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله فأقبل علي وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ثم ولى وتركني وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمي فقلت مافعلت ياورقاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فأي الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعامة هلكت جارية في الطاعون الجارف فرآها أبوها في المنام فقال لها يابنية أخبريني عن الآخرة قالت ياأبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إلي من الدنيا ومافيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة في المنام فقلت ماصنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت ياهادي المضلين ويا راحم المذنبين ويامقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت ياأباعبدالله بم نلت هذا فقال بالورع قلت فما بال علي بن عاصم قال ذاك لايكاد يرى إلا كما يرى الكوكب ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يارسول الله عظني قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له . وقال الشافعي رحمة الله عليه دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يامحمد بن إدريس قل اللهم إني لاأملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه الدعوات لاتغفلوا عنها فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقربة إلى الله زلفى ،فلنذكر بعدها مابين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أو في النار والحمد لله حمد الشاكرين .

[الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل مابين يديه من الأهوال والأخطار] وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الخصماء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

(صفة نفخة الصور)

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر

(الشطر الثاني من وقت نفخة الصور)

الانشراح فلما ضيع في الأسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقي جدا أن يلبس للناس اما المرتفع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد ففي لبس المرتفع للناس هوى وفي لبس الخشن رياء فلا يلبس إلا لله . بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية لله فلا أغيره فألبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولا بد للمبتدي أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ

وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاسعاد وإما بالاشقاء فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثر الناس لم يدخل الايمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مد يده لتناوله كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي ﷺ « قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه اياي فيقول إن لي ولدا وأما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني(١) » وإنما قصور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى ـ أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ـ وقال تعالى أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ـ ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته فان كان في إيمانك ضعف فقو الايمان بالنظر في النشأة الأولى فان الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قوي الايمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور فانها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى ـ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ـ وقال تعالى ـ فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ـ وقال تعالى ـ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ـ فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بأن يتقى فانها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة

من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصغى إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فانه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أو في ما يفيده الذكر الواحد فاذا سئم في بعض الأحايين يصانع النفس على الذكر مصانعة وينزل من التلاوة

(١) حديث قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ [1] » قال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فاذا نفخ صعق من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ـ ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ـ على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم « حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة [2] » فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذر وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رءوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى ـ وإذا الوحوش حشرت ـ ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى ـ فو ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ـ فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك .

(صفة أرض المحشر وأهله)

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لاترى فيها عوجا ولا أمتا ولا ترى عليها ربوة يختفي الانسان وراءها ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لاتفاوت فيه يساقون إليه زمرا فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد [3] »

إلى الذكر فانه أخف على النفس وينبغي أن يعلم أن الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لايجمع فيه بين القلب واللسان لايعتد به كل الاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فانه مضر وداء عضال فيطالب نفسه أن تصير في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لايمزجه بحديث النفس وإن كان أعجميا لايعلم

---

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه (٢) حديث حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى الحديث لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ ماطرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد اليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان وإسنادها جيد (٣) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد

قال

قال الراوى : والعفرة بياض ليس بالناصع والنقى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر ، ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا فى الاسم قال تعالى ـ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ـ . قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها ومافيها وتمد مد الأديم العكاظى أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدته فانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض لخمود سراجها فبيناهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رءوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فياهول صوت انشقاقها فى سمعك وياهيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان . قالت سودة زوج النبى صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم ـ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ـ [1] » فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلاقدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم [2] » فى طبع الآدمى إنكار كل مالم يأنس به ولو لم يشاهد الانسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فاياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس مافى الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوفا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة .

(صفة العرق)

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رءوس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع

معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس فان بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة. قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة فليتمسك المريد بهذه الأصول وليستعن بدوام الافتقار إلى الله فبذلك ثبات قدمه . قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير

متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه (١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة راوية الحديث واسوأتاه الحديث الثعلبى والبغوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأتاه ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأتاه (٢) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة وعلى وجوههم الحديث رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يانبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .

بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحرّ الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كلّ شعرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه [١]» وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ آذانهم [٢]» كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح وفى حديث آخر «قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب [٣]» وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه، وأشار بيده فألجمها فاه ، ومنهم من يغطيه العرق ، وضرب بيده على رأسه هكذا [٤]» فتأمل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق . واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة فانه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

(صفة طول يوم القيامة)

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة ـ يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ قال يقومون مقدار ثلثمائة عام بل قال عبدالله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم [٥]» وقال الحسن ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة

ومفتاح كل علم دقيق فى طريق القوم وهذا الافتقار مع كل الأنفاس لا يتشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا علمنا ذلك وتحققناه . وقال سهل من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأدنى مايدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه . وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه الدار ثم رجع إلى

---

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه متفق عليه (٢) حديث أبى هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا الحديث أخرجاه فى الصحيحين كما ذكره المصنف (٣) حديث قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى ابن سليمان الجرجانى ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا أظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه (٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبدالله بن عمرو رواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبى حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبدالرحمن بن ميسرة الحضرمى أربعة هذا أحدهم مصرى والثلاثة الآخرون شاميون .

لايأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم فلم يتعلقوا بنبى إلا دفعهم وقال دعونى نفسى نفسى شغلنى أمرى عن أمر غيرى واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه - لايملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا - فتأمل فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر. واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فانه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا[1]» فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحا لامنتهى لسروره واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا.

(صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه)

فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سيرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجرت والنفوس إلى الأبدان قد زوجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدت، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية، والملك على أرجائها، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فتترك قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يمنع فيه العاصى من الكلام ولا يسئل فيه عن الإجرام بل يؤخذ بالنواصى والأقدام، يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ماقدمت وأخرت، يوم تخرس فيه الألسن

نفسه وقال مالى وهذا السؤال وهل هذه إلا كلمة لاتعنينى وهل هذا إلا لاستيلاء نفسى وقلة أدبها وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا مانالوا وبقوة العزائم عزائم الرجال بلغوا ما بلغوا. أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول سمعت الجنيد يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته من الله أكثر مما ناله وهذه

---

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا أبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبى هريرة باسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب ورواه البيهقى فى الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة.

وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أراك قد شبت يارسول الله قال «شيبتنى هود وأخواتها(١)» وهى الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت؟ فيا أيها القارىء العاجز إنما حظك من قراءتك أن تجمجم القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ماذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الأسامى تكرير الأسامى والألقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفى كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميها . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لاريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لاتجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ويوم لاتملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لايجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لامرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لاينفع مال ولا بنون يوم لاتنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم تردفيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار يوم تخشع فيه الأبصار وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ويشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلى الحميم وزفرت النار ويئس الكفار وسعرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الانسان فيا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول ــ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ــ ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة

(١) حديث شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

الجملة يحتاج المبتدىء أن يحكمها والمنتهى عالم بها عامل بحقائقها فالمبتدىء صادق والمنتهى صدّيق قال أبو سعيد القرشى الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس وعلامته أن يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض وإذا اشتغل بالذكر نور الروح وإذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الأذكار والصديق الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلوين الأحوال لايحجبه عن الله وعن الأذكار أكل

وانشق القمر ـ إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ـ ومايدريك لعل الساعة تكون قريبا ـ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هـذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يدارکنا الله بواسع رحمته.

(صفة المساءلة)

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينا أنت فى كرب القيامة وعرقها وشـدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شـداد أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة مائة عام[1] » فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لايبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذين فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفيكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشـدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا سبحان ربنا ماهو فينا ولـكنه آت من بعد وعنـد ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم وعنـد ذلك يصدق الله تعالى قوله ـ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ـ وقوله ـ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ـ فيبدأ سبحانه بالأنبياء ـ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب ـ فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحى علومهم من شـدة الهيبة إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم فى ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى فيدعى نوح عليـه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحـدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ـ وأشرقت الأرض بنور ربها ـ وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد أنه مايراه أحد سواه وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عنـد ذلك ياجبريل ائتنى بالنار فيجىء لها جبريل ويقول ياجهنم أجيبى خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب

ولا نوم ولا شرب ولا طعام والصديق يريد نفسه لله وأقرب الأحوال إلى النبوة الصديقية . وقال أبو يزيد : آخر نهايات الصديقين أول درجة الأنبياء . واعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظـواهرهم لله وأرواحهـم خلصت عن ظلمات النفوس ووطئت بساط القرب ونفـوسهم منقادة مطواعة صالحة مع القلوب مجيبة إلى كل ما تجيب إليه القلوب أرواحهـم متعلقة بالمقام الأعلى انطفأت فيهم نيران الهوى وتخمر فى بواطنهم

(١) حديث إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ .

وولوا مدبرين ـ يوم ترى كل أمة جاثية ـ وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور وينادى الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم فاذا رأوا ماقد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته وبقى كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة « قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا ، قال فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا ، قال فوالذى نفسى بيده لاتضارون فى رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملاقىّ فيقول لا ، فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى [(١)] » فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب ففيما ذا أبليته ألم أمهل لك فى العمر ففيماذا أفنيته ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيما ذا أنفقته ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك . قال أنس رضى الله عنه « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال أتدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فانى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعدا لكنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل [(٢)] » فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى فقال قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إنى سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم [(٣)] » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة [(٤)] » فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم فقدر

صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق أبى بكر رضى الله عنه « من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر » إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ماكوشف به من صريح العلم الذى لايصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال ـ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ـ فأرباب النهايات ماتت أهويتهم وخلصت أرواحهم . قال يحيى بن معاذ وقد سئل عن وصف العارف فقال رجل

---

(١) حديث أبى هريرة هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارن فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد بها مسلم (٢) حديث أنس أتدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٣) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى الحديث رواه مسلم (٤) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم .

نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوهم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن منى فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وعجز فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تجيب وبأى قلب تعقل ماتقول ثم تفكر فى عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذ يقول ياعبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجميل أكنت أهون عليك من سائر عبادى استخففت بنظرى إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى ألم أنعم عليك فماذا غرك بى أظننت أنى لا أراك وأنك لاتلاقنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان[1]» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليقفن أحدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فان لم يجد فبكلمة طيبة[2]» وقال ابن مسعود مامنكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ماغرك بى يا ابن آدم ماعملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ألم أكن رقيبا على أذنيك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن علمه ماعمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك فانك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأولون والآخرون وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على مافرطت فيه من طاعة الله وعلى مابعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك.

(صفة الميزان)

ثم لاتغفل عن الفكر فى الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها وقسم آخر لاسيئة لهم فينادى مناد ليقم الحامدون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات

(١) حديث مامنكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين الحديث متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبى حاتم بلفظ إلا سيكلمه الحديث (٢) حديث ليقفن أحدكم بين يدى الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان الحديث البخارى من حديث عدى بن حاتم .

منهم بأنه منهم وقال مرة عبد كان فيان فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم موقنين بتوقيت الأجل جعلهم الله تعالى من جنوده فى خلقه بهم يهدى وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الارادة كلامهم دواء ونظرهم دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالعلم . قال ذو النون علامة العارف ثلاثة لايطفىء نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله فأرباب النهايات

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها فنعس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال مايبكيك ياعائشة ؟ قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذى نفسى بيده فى ثلاثة مواطن فان أحدا لايذكر إلا نفسه: إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله ، وعند الصراط [(١)] » . وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لايشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ماأوضحوا بضاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فو الذى نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بنى آدم وبنى إبليس قالوا وما هما يارسول الله ؟ قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فو الذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس يوم القيامة إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة [(٢)] »

كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة ـ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ـ وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرا صافيا يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشىء ويهدى له شىء لأنه مقهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية قال

(صفة الخصماء وردّ المظالم)

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ـ فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية ـ واعلم أنه لاينجو من خطر الميزان إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك مافرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلببه هذا يقول ظلمتنى وهذا يقول شتمتنى وهذا يقول استهزأت بى وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى وهذا يقول عاملتنى فغششتنى وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك وهذا يقول كذبت فى سعر

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت الحديث وفيه فقال مايبكيك ياعائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة الحديث أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم فى حجرها وأنه نعس وإسناده جيد
(٢) حديث يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون الحديث متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى ورواه البخارى من حديث أبى هريرة نحوه وقد تقدم .

متاعك

متاعك وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى ، فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ـ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ـ فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ـ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواءوأنذر الناس ـ الآية فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لاتقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من المفلس قلنا المفلس فينا يارسول الله من لادرهم له ولا دينار ولا متاع قال المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار (١) » ، فانظر إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فان سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لاينقضى عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين مايستوفى جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرناء ، فقد روى أبو ذر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال ياأبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة (٢) » . وقال أبو هريرة فى قوله عز وجل ـ ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ـ إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شىء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فذلك حين يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا فكنت أنت يامسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتى فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ماقارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة .

يحيى بن معاذ الدنيا عروس تطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف بالله مشتغل بسيده ولا يلتفت إليها . واعلم أن المنتهى مع كمال حاله لايستغنى أيضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر وقد غلط فى هذا خلق وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال فى تناول الملاذ والشهوات وهذا خطأ لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته ولكن

(١) حديث أبى هريرة : هل تدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس يارسول الله من لادرهم له ولا متاع الحديث تقدم (٢) حديث : ياأبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما أحمد من رواية أشياخ لم يسمعوا عن أبى ذر .

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه فما يزال عبد يجيء فيقول رب إن فلانا ظلمني بمظلمة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا (١) » وكذلك الذنوب « ولما نزل قوله تعالى ـ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ـ قال الزبير : يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذي حق حقه (٢) » قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غبرا بهما قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه حتى اللطمة قلنا وكيف وإنما نأتي الله عز وجل عراة غبرا بهما فقال بالحسنات والسيئات (٣) » فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روي عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يارسول الله بأبي أنت وأمي قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يارب خذ لي مظلمتي من أخي فقال الله تعالى أعط أخاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتي شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يارب يتحمل عني من أوزاري قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة

يوقف عن مقام الزهد وقوم لما رأوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا إليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء الفرائض واتسعوا في المأكل والمشرب وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال وتقيد بنور الحال وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق ومن تخلص من نور

---

(١) حديث ابن مسعود إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما دون ذلك المحقرات وهي الموبقات الحديث وفي آخره وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصرا على آخره إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى ـ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر العباد عراة غبرا بهما قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء الحديث قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله ابن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غرلا مكان غبرا .

مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا؟ أو لأى صديق هذا أو لأى شهيد هذا؟ قال لمن أعطانى الثمن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إنى قد عفوت عنه قال الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين (١) » وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفاعنك وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لايدور بحواشيه الفناء وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك وخلق الأولين والآخرين ينظرون اليك وإلى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رءوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لايشقى بعدها أبدا أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالاخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال عليك لعنتى ياعبد السوء لاأتقبل منك عبادتك فلاتسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تتناول اليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك وأنت تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لاتدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى الملائكة ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لايسعد بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أوطلبا للمكانة فى قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ثم لاتخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

(صفة الصراط)

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قول الله تعالى ــ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ــ وفى قوله تعالى ــ فاهدوهم إلى صراط الجحيم. وقفوهم إنهم مسئولون ــ فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها

(١) حديث أنس بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ماأضحكك يارسول الله بأبى وأمى قال رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العالمين الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله والحاكم فى المستدرك وقد تقدم .

الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر ويوقف نفسه مقام العبيد كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى بإماطة الأذى عن الطريق ولا يستكبر ولا يستنكف أن يسود فى صور عوام المؤمنين من إظهار الارادة بكل بر وصلة فيتناول الشهوات وقتا رفقا

وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رءوسهم وتعلو أرجلهم فياله من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون في النار والرسول عليه السلام يقول «يارب سلم سلم» والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت لحياتي ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ياليتني كنت ترابا ياليتني كنت نسيا منسيا ياليت أمي لم تلدني ، وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله وينادي المنادي اخسئوا فيها ولا تكلمون فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالاستعداد له متهاونا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت فناهيك به هولا وفزعا ورعبا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجيز بأمته من الرسل ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم يارسول الله قال فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو[1]» وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يحبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحما ثم يؤذن في الشفاعة[2]» وذكر إلى آخر الحديث . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضيء مرة ويخبو مرة فإذا أضاء قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من

بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة الطواعة لأنها أسيرته وغنمها الشهوات وقتا لأن في ذلك صلاحها واعتبر هذا سواء بحال الصبي فإنه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء المراد وقتا ومنعه وقتا انفسد طبعه لأن الجبلة لابد من قمعها بسياسة العلم ومادامت الجبلة باقية لابد من

(١) حديث يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل (٢) حديث أبي سعيد يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف الحديث متفق عليه مع اختلاف ألفاظ .

يمر

يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى يمر الذي أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فاذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطانى الله مالم يعط أحدا إذ نجانى منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل [1] » وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتى وإنى لأقول يارب سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير [2] » فهذه أهوال الصراط وعظائمه فطول فيه فكرك فان أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره فى الدنيا فان الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال فى الدنيا أمنها فى الآخرة ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك فما ذا من الخوف فى شىء بل من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ويحثك على طاعته وأبعد من رقة النساء خوف الحمق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هى سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار فى صحراء ووراءه حصن فاذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد فى مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق فى توحيده وأمره مخطر فى نفسه فان عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

(صفة الشفاعة)

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا فان الله تعالى خبأ ولايته فى عباده فلعل الذى تزدريه عينك هو ولى الله ولا تستصغر معصية أصلا فان الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجرى مجراه وشواهد الشفاعة فى القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى ـ ولسوف يعطيك ربك فترضى ـ

(١) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا (٢) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة الحديث البيهقى فى الشعب وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميرى عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهى رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

سياسة العلم وهذا باب غامض دخل فى النهايات على المنتهى من ذلك دواخل ووقع الركون وانسد به باب المزيد فالمنتهى ملك ناصية الاختيار فى الأخذ والترك ولا بد له من أخذ وترك فى الأعمال والحظوظ ففى الأعمال لا بد له من أخذ وترك فتارة يأتى بالأعمال كآحاد الصادقين وتارة يترك

روى عمرو بن العاص «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام ـ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ـ وقول عيسى عليه السلام ـ إن تعذبهم فإنهم عبادك ـ ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك فأتاه جبريل فسأله فأخبره والله أعلم به فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[1]» وقال صلى الله عليه وسلم «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة[2]» وقال صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر» وقال صلى الله عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه[3]» وقال صلى الله عليه وسلم «لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة[4]» وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ «ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي فأقول يارب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول يا محمد ماتركت النار لغضب ربك في أمتك من بقية[5]» وقال صلى الله عليه وسلم «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر[6]» وقال أبو هريرة «أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس

زيادة الأعمال رفقا بالنفس وتارة بأخذ الحظوظ والشهوات رفقا بالنفس وتارة بتركها انقيادا للنفس بحسن السياسة فيكون في ذلك كله مختارا فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية فهو زاهد تارك بالكلية ومن استرسل في أخذها فهو راغب بالكلية والمنتهى شمل الطرفين فإنه على غاية الاعتدال

---

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم ـ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ـ وقول عيسى صلى الله عليه وسلم ـ إن تعذبهم فإنهم عبادك ـ ثم رفع يديه . ثم قال أمتي أمتي ثم بكى الحديث وفيه يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك ولا نسوءك في أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ (٢) حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي الحديث وفيه وأعطيت الشفاعة متفق عليه من حديث جابر إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا فخر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا الحديث الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٦) حديث إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر أحمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن .

بعضهم

بعضهم لبعض ألا ترون ماقد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيته نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يانوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول لهم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون ياموسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون ياعيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول عيسى عليه السلام إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتونى فيقولون يامحمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال يامحمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول أمتى أمتى يارب فيقال يامحمد أدخل من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال والذى نفسى بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى (١) وفى حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم وهو قوله فى الكوكب هذا ربى وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا وقوله إنى سقيم فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة

واقف على الصراط بين الافراط والتفريط فمن ردت إليه الأقسام فى النهاية فأخذها زاهدا فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار وتارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار فكذلك الزاهد فى الزهد الآخذ من الدنيا ماسيق إليه

---

(١) حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس الحديث بطوله فى الشفاعة قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم (٢) حديث يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر رويناه فى جزء أبى عمرو بن السماك من حديث أبى أمامة إلا أنه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبى الجدعاء يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من بنى تميم قالوا سواك قال سواى قال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (١) » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يافلان هل تعرفنى ؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت ،فيقول أنا الذى مررت بى فى الدنيا فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لى بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إنى أشرفت على أهل النار فنادانى رجل من أهلها فقال هل تعرفنى ؟ فقلت لا من أنت ؟ فقال أنا الذى استسقيتنى فى الدنيا فسقيتك فاشفع لى عند ربك فشفعنى فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار (٢) » وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يئسوا لواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر (٣) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى أقوم بين يدى ربى عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى (٤) » وقال ابن عباس رضى الله عنهما « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ، وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما، وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجى الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (٥) »

(صفة الحوض)

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا . قال أنس « أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت ؟ فقال آية أنزلت على آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ـ إنا أعطيناك الكوثر ـ حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال إنه نهر وعدنيه

لرؤيته فعل الله مقيدا بالأخذ وإذا استقرت النهاية لايتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتا واختيار من اختيار الله ويأخذ وقتا واختياره من اختيار الله وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة يأتى بها وقتا ويسمح للنفس وقتا لأنه مختار صحيح فى الاختيار فى الحالين وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية وكل حال يستقر

(١) حديث يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله الترمذى من حديث أبى سعيد إن من أمتى من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة الحديث وقال حسن وللبزار من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (٢) حديث أنس إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يافلان هل تعرفنى فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذى مررت بى فى الدنيا يوما فاستسقيتنى شربة فسقيتك الحديث فى شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف (٣) حديث أنس أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا الحديث الترمذى وقال حسن غريب (٤) حديث فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش الحديث الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن غريب صحيح (٥) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا الحديث رواه الترمذى وقال غريب .

ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء (١)» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بينا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف قلت ماهذا ياجبريل ؟ قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك يده فاذا طينه مسك أذفر (٢)» وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مابين لابتي حوضي مثل مابين المدينة وصنعاء أومثل مابين المدينة وعمان (٣)» وروى ابن عمر «أنه لما نزل قوله تعالى ـ إنا أعطيناك الكوثر ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرابه أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل اللؤلؤ والمرجان (٤)» وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حوضي مابين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أوّل الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن هم يارسول الله ؟ قال هم الشعث رءوسا الدنس ثيابا الذين لاينكحون المتنعمات ولاتفتح لهم أبواب السدد (٥)» فقال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله لاجرم لاأدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ وعن أبي ذر قال «قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية من شرب منه لم يظمأ آخر ماعليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله مابين عمان وأيلة ماؤه أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل (٦)» وعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٧)» فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظنّ أنه راج فان الراجي للحصاد من بثّ البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد فأما من ترك الحراثة أوالزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل إنني عزمت أن لا آكل اللحم قال فإني آكل اللحم وأحبه ولو سألت

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت فقال آية نزلت علي آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ـ إنا أعطيناك الكوثر ـ رواه مسلم (٢) حديث أنس بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف الحديث الترمذي وقال حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء الحديث وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث أنس مابين لابتي حوضي مثل مابين المدينة وصنعاء أومثل مابين المدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى ـ إنا أعطيناك الكوثر ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب الحديث الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف (٥) حديث ثوبان إن حوضي مابين عدن إلى عمان البلقاء الحديث الترمذي وقال غريب وابن ماجه (٦) حديث أبي ذر قلت يارسول الله ما آنية الحوض قال والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء الحديث رواه مسلم (٧) حديث سمرة إن لكل نبي حوضا وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة الحديث الترمذي وقال غريب قال وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح

فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين فى شئ وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور والغفلة فان الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى ـ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ـ

(القول فى صفة جهنم وأهوالها وأنكالها)

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل ـ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ـ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ما قاسوا فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان ابن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الأمل المضيع عمره فى سوء العمل فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه فى قعر الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم ـ فأسكنوا دارا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم أمانيهم فيها الهلاك ومالهم منها فكاك قد شدت أقدامهم إلى النواصى واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى ينادون من أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها : يامالك قد حق علينا الوعيد يامالك قد أثقلنا الحديد يامالك قد نضجت منا الجلود يامالك أخرجنا منها فانا لا نعود فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا فى جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكبون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى فى النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ويضطربون بين غواشيها تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتتقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهى تنش فى لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطئون حسك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار فى بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض

ـ ى أن يطعمنى كل يوم لأطعمنى وذلك يدلك على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختارا فى ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل وكان يترك الأكل اختيارا وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعا وهذا إذا

جملة أحوالهم وانظر الآن فى تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا فى أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعون ألف شعب فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لاينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله[1] » وقال على كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادى الحزن قيل يارسول الله وما وادى أو جب الحزن قال واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء المرائين[2] » فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهى بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التى بها يعصى العبد بعضها فوق بعض الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن فى عمق الهاوية فانه لاحد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ماهذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها[3] » ثم انظر إلى تفاوت الدركات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لايظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ماهو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه[4] » فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت فى شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت فى القياس فان نار الدنيا لاتناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه وعن هذا عبر فى بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا[5] » بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة[6] » وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فأذن لها فى نفسين

قالوه على معنى أنه لايلزمهم التأسى به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة التأسى بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم ثم إن المنتهى يحاكى حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام فى دعاء الخلق إلى الحق فكل

---

(١) حديث إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعون ألف شعب فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لاينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله لم أجده هكذا بجملته وسيأتى بعده ماورد فى ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث على تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادى الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادى الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهانى بسند ضعيف ورواه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم فى ذم الجاه والرياء (٣) حديث أبى هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة الحديث وفيه هذا حجر أرسل فى جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير (٥) حديث إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ماانتفع بها أحد وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليكم حتى أحسبه قال نضحت بالماء فتضيء عليكم (٦) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت الحديث تقدم

نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف فأشد ماتجدونه فى الصيف من حرها وأشد ماتجدونه فى الشتاء من زمهريرها [١] » وقال أنس بن مالك يؤتى بأنعم الناس فى الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه فى النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس ضرا فى الدنيا فيقال اغمسوه فى الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان فى المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا وقد قال بعض العلماء فى قوله ـ تلفح وجوههم النار ـ إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق ، قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ « لو أن دلوا من غساق جهنم ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض [٢] » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى ـ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ـ وقال تعالى ـ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ـ وقال تعالى ـ تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ـ وقال تعالى ـ إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ـ وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك [٣] » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ماخوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبثتها عليكم [٤] » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لايسمن ولا يغنى من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخل الشراب بطونهم قطع مافى بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال قال فيقولون ادعوا مالكا فيدعون فيقولون يامالك ليقض علينا ربك قال فيجيبهم إنكم ماكثون [٥] » قال الأعمش أنبئت أن

(١) حديث اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فأذن لها بنفسين الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٢) حديث أبى سعيد الخدرى لو أن دلوا من غساق ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض الترمذى وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٣) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معايشهم الحديث الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤) حديث أنس ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم الحديث لم أجد له إسنادا (٥) حديث أبى الدرداء يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذى من رواية سمرة ابن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال الدارمى والناس لايعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قوله.

ما كان يعتمده رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغى أن يعتمده فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لايخلو إما أنه كان ليقتدى به وإما أنه كان لمزيد كان يجده بذلك فان كان ليقتدى به فالمنتهى أيضا مقتدى به ينبغى أن يأتى بمثل ذلك والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله

بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخسئوا فيها ولا تكلمون قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك أخذوا فى الزفير والحسرة والويل، قال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ـ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ـ قال «يقرّب إليه فيتكرهه فاذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى ـ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ـ وقال تعالى ـ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ـ فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم (١)» فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم فهى لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه يعنى أشداقه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى ـ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله الآية ـ (٢)» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له (٣)» ثم تفكر بعد هذا كله فى تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد فى أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالى قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «ضرس الكافر فى النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (٤)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه (٥)» وقال عليه السلام «إن الكافر ليجر لسانه فى سجين يوم القيامة يتواطؤه الناس (٦)» ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن فى قوله تعالى ـ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ـ قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا. ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم فى أول إلقائهم فى النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (٧)» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى فى وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم فى البكاء

عليه وسلم لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلة. قال الله تعالى خطابا له ـ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ـ لأنه بذلك ازداد استمدادا من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم والنبى عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن

(١) حديث أبى أمامة فى قوله تعالى ـ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ـ قال يقرب إليه الحديث الترمذى وقال غريب (٢) حديث أبى هريرة من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع الحديث البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه (٣) حديث إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة الحديث أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٤) حديث أبى هريرة ضرس الكافر فى النار مثل أحد الحديث رواه مسلم (٥) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس الترمذى من رواية أبى المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لا يعرف (٧) حديث يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك [1]» قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ـ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ـ فيقول الله تعالى مجيبا لهم ـ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ـ ثم يقولون ـ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا ـ فيجيبهم الله تعالى ـ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ـ فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ـ فيجيبهم الله تعالى ـ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ـ ثم يقولون ـ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ـ فيجيبهم الله تعالى ـ اخسئوا فيها ولا تكلمون ـ فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى ـ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ـ قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا ـ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ـ وقال صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت [2]» وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل ورؤي الحسن رضي الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي فقيل له لم تبكي؟ فقال أخشى أن يطرحني في النار ولا يبالي فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منغصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ «يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني وتركتم للناس ولم تتركوا لي فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم [3]» وقال أحمد بن حرب إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود إلهي لا صبر لي على حر شمسك فكيف صبري

عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورابطة التأليف أن النفوس

---

(١) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف (٢) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا روائحها الحديث رويناه في الأربعين لأبي هدبة عن أنس وأبو هدبة إبراهيم بن هدبة هالك .

على

على حر نارك ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يامسكين فى هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى ـ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ـ ولعمرى الاشارة به إلى يوم القيامة بل فى أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ماسبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك ؟ فان قلت فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حقى فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فانك مبعد عن النار وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى ـ إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ـ فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .

(القول فى صفة الجنة وأصناف نعيمها)

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الأخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقرى الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان يمشين فى درجات الجنان إذا اختالت إحداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتحير فيه الأبصار مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون فى مقام أمين فى جنات وعيون فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب المنون آمنون فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا فى أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته لم يصنعه آدمى فيقصر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه

ألفت آخرا كما أن الأرواح ألفت أولا ولكل روح مع نفسه تأليف خاص والسكون والتأليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم العمل لتصفية نفسه ونفوس الأتباع لما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس

وملاحة أحداقه فياعجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل - ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون -(١)» ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرإ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان واقرأ من قوله تعالى - ولمن خاف مقام ربه جنتان - إلى آخر سورة الرحمن واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أولا عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ولمن خاف مقام ربه جنتان - قال «جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن (٢)» ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعي أحد منها كلها ؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم (٣)» وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرا لا أحفظه ثم قال - وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا - حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا فتقول أنت رأيته فيقول أنا رأيته وهو بأثري فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا

(١) حديث أبي هريرة ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٢) حديث جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث أبي هريرة من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة الحديث متفق عليه .

الأمة وهكذا المنتهى مع الأصحاب والأتباع على هذا المعنى فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل ولا يسترسل في الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس ولا يعطي الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة وكل من يحتاج إلى صحبة الجلوة النصير لا بد له من خلوة صحيحة بالحق حتى تكون

مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدّره لألم أن يذهب بصره ثم يطأطئ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ـ ثم اتكأ فقال ـ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ـ ثم ينادي مناد تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك [1] » ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى ـ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ـ وقال تعالى ـ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ـ والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها فقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغابر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين [2] » وقال أيضا « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما [3] » وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أحدثكم بغرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمنا قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف قال لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك قال أمتي تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام [4] » يعني اليهود والنصارى والمجوس . « وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ـ ومساكن طيبة في جنات عدن ـ قال : قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن في كل غداة يعني من القوة ما يأتي على ذلك أجمع [5] ».

جلوته في حماية خلوته ومن يتراءى له أن أوقاته كلها خلوة وأنه لا يحجبه شيء وأن أوقاته بالله ولله ولا يرى نقصانا لأن الله ما فطنه لحقيقة المزيد فهو صحيح في حاله غير أنه تحت قصور لأنه ما نبه لسياسة الجبلة وما عرف سر تمليك الاختيار وما وقف بين البيان على البيضاء النقية وقد نقلت عن الشايخ كلمات

---

(١) حديث آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد الحديث مسلم من حديث أنس (٢) حديث أبي سعيد إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد (٤) حديث جابر ألا أحدثكم بغرف الجنة قلت يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر الحديث أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث سئل عن قوله تعالى ـ ومساكن طيبة في جنات عدن ـ قال قصور من لؤلؤ الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة

(صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها)

تأمل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك [(١)]» . «وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص [(٢)]» وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فى الآخرة فليتركه فى الدنيا [(٣)]» «وأنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك [(٤)]» «ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليها الله عز وجل به فى الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها [(٥)]» وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها اقرءوا إن شئتم ـ وظل ممدود ـ [(٦)]» وقال أبو أمامة : «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم أقبل أعرابى فقال يارسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماهى قال السدر فإن لها شوكا فقال قد قال الله تعالى ـ فى سدر مخضود ـ يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تتفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر [(٧)]» وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فاذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فاذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال ياجرير تواضع لله فان من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة قلت لا أدرى قال ظلم الناس بعضهم بعضا ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من

فيها موضع اشتباه فقد يسمعها الانسان ويبنى عليها والأولى أن يفتقر إلى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها حتى يسمعها الله من ذلك الصواب . نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت المتفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز ومثل هذا القول يوهم أن

من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين فى هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبى حاتم والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة على قول الجمهور (١) حديث أبى هريرة : إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذى بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندى بمتصل ورواه البزار من حديث أبى سعيد باسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه باسناد صحيح (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل النبى ﷺ عن ذلك فذكره (٣) حديث أبى هريرة : من سره أن يسقيه الله الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه فى الدنيا الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن وللنسائى باسناد صحيح : من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة (٤) حديث : أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك العقيلى فى الضعفاء من حديث أبى هريرة (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به فى الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة باسناد حسن (٦) حديث : إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٧) حديث أبى أمامة أقبل أعرابى فقال يارسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية قال ماهى قال السدر الحديث ابن المبارك فى الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبى أمامة .

صغره فقال ياجرير لوطلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده قلت يأبا عبدالله فأين النخل والشجر قال أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر .

(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم)

قال الله تعالى ـ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ـ والآيات فى ذلك كثيرة وإنما تفصيله فى الأخبار فقد روى أبوهريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال «من يدخل الجنة ينعم لايبأس لاتبلى ثيابه ولايفنى شبابه فى الجنة ما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر [1]» . «وقال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق تخلق أم تنسج نسجا فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مم تضحكون من جاهل سأل عالما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين [2]» وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لايبصقون فيها ولايمتخطون ولايتغوطون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لااختلاف بينهم ولاتباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية (وفى رواية) على كل زوجة سبعون حلة [3]» وقال صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ـ يحلون فيها من أساور من ذهب ـ قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب [4]» وقال ﷺ «الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لايراهم الآخرون [5]» رواه البخارى فى الصحيح قال ابن عباس الخيمة درة مجوفة فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدرى « قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : وفرش مرفوعة قال مابين الفراشين كما بين السماء والأرض [6]»

(صفة طعام أهل الجنة)

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لاتحصى قال الله تعالى ـ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ـ ، وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة فى مواضع كثيرة ،

لايبقى تمييز بين الخلوة والجلوة و بين القيام بصور الأعمال و بين تركها ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا يعنى أن حظ المعرفة لايتغير بحال من الأحوال وهذا صحيح لأن حظ المعرفة لايتغير ولايفتقر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ولكن حظ المريد يتغير ويحتاج إلى

(١) حديث أبى هريرة : من يدخل الجنة ينعم ولايبأس لاتبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله : فى الجنة مالاعين رأت الخ فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبى هريرة :قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت الحديث (٢) حديث : قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقا أم تنسج نسجا الحديث النسائى من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث أبى هريرة : أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث : فى قوله تعالى ـ يحلون فيها من أساور من ذهب ـ قال إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب الترمذى من حديث أبى سعيد دون ذكر الآية وقال لانعرفه إلامن حديث رشدين سعد (٥) حديث : الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا الحديث عزاه المصنف للبخارى وهو متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى (٦) حديث أبى سعيد فى قوله تعالى ـ وفرش مرفوعة ـ قال مابين الفراشين كما بين السماء والأرض الترمذى بلفظ : ارتفاعها لكما بين السماء والأرض خمسمائة سنة وقال غريب لانعرفه إلامن حديث رشد بن سعد .

وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال فمن أول إجازة يعني على الصراط؟ فقال فقراء المهاجرين ، قال اليهودي فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال زيادة كبد الحوت ، قال فما غذاؤهم على أثرها؟ قال ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل في أطرافها . قال فما شرابهم عليه؟ قال من عين فيها تسمى سلسبيلا . فقال صدقت [1]» وقال زيد بن أرقم «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقر لي بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والجماع ، فقال اليهودي فان الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فاذا البطن قد ضمر [2]» وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا [3]» وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة طيرا أمثال البخاتي . قال أبو بكر رضي الله عنه إنها لناعمة يارسول الله . قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها ياأبابكر [4]» وقال عبدالله بن عمر في قوله تعالى ـ يطاف عليهم بصحاف ـ قال يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله . وقال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه ـ ومزاجه من تسنيم ـ قال يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : في قوله تعالى ـ ختامه مسك ـ قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لوأن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذوروح إلا وجد ريح طيبها .

(صفة الحور العين والولدان)

قد تكرر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه، روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «غدوة في سبيل الله أوروحة خير من الدنيا ومافيها ولقاب قوس أحدكم أوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا ومافيها ولوأن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت مابينهما رائحة ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا ومافيها [5]» يعني الخمار وقال

التميز وليس في هذا الكلام وأمثاله ماينافي ماذكرناه .قيل لمحمد ابن الفضل حاجة العارفين إلى ماذا قال حاجتهم إلى الخصلة التي كملت بها المحاسن كلها ألا وهي الاستقامة وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التمام والعبد في الابتداء مأخوذ في الأعمال محجوب بها

---

(١) حديث ثوبان جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعني على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودي فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره (٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال ياأبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك النسائي في الكبرى باسناد صحيح (٣) حديث ابن مسعود إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا البزار باسناد فيه ضعف (٤) حديث حذيفة إن في الجنة طيرا أمثال البخاتي الحديث غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس باسناد صحيح إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير ناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثا وإني أرجو أن تكون ممن يأكل منها وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر : إن هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن (٥) حديث غدوة في سبيل الله أوروحة خير من الدنيا ومافيها الحديث البخاري من حديث أنس .

أبو سعيد الخدرى «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ـ كأنهن الياقوت والمرجان ـ قال ينظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك (١)» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما أسرى بى دخلت فى الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن السلام عليك يارسول الله فقلت ياجبريل ماهذا النداء قال هؤلاء المقصورات فى الخيام استأذن ربهن فى السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظعن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ـ حور مقصورات فى الخيام ـ (٢)» وقال مجاهد فى قوله تعالى ـ وأزواج مطهرة ـ قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمنى والولد . وقال الأوزاعى ـ فى شغل فاكهون ـ قال شغلهم افتضاض الأبكار . وقال رجل يارسول الله «أيباضع أهل الجنة ؟ قال يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم (٣)» وقال عبدالله بن عمر إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا (٤)» وقال النبى صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة سوقا مافيها بيع ولاشراء إلا الصور من الرجال والنساء فاذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له (٥)» وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن الأحوال وفى التوسط محفوظ بالاحوال فقد يحجب عن الأعمال وفى الانتهاء لاتحجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال وذلك هو الفضل العظيم . سئل الجنيد عن النهاية فقال هى الرجوع إلى البداية وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال معناه أنه كان فى ابتداء أمره فى جهل ثم وصل إلى

(١) حديث أبى سعيد الخدرى فى قوله تعالى ـ كأنهن الياقوت والمرجان ـ قال تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة الحديث أبو يعلى من رواية أبى الهيثم عن أبى سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية أبى الهيثم عن النبى ﷺ مرسلا دون ذكر أبى سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم (٢) حديث أنس لما أسرى بى دخلت فى الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر الحديث وفيه أن جبريل قال هؤلاء المقصورات فى الخيام وفيه فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط لم أجده هكذا بتمامه وللترمذى من حديث على إن فى الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب ولأبى الشيخ فى كتاب العظمة حديث ابن أبى أوفى بسند ضعيف فيجتمعن فى كل سبعة أيام فيقلن بأصوات الحديث (٣) حديث قال رجل يارسول الله أيباضع أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فقيل أو يطيق ذلك قال يعطى قوة مائة (٤) حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحد منهن مقدار عمره فى الدنيا أبو الشيخ فى طبقات المحدثين وفى كتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقه لهن وإسناده ضعيف وتقدم قبله بحديث (٥) حديث إن فى الجنة سوقا مافيها بيع ولاشراء إلا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرقه فى موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

« إنّ الحور فى الجنة يتغنين نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام (١)» وقال يحيى بن كثير فى قوله تعالى ـ فى روضة يحبرون ـ قال السماع فى الجنة وقال أبو أمامة الباهلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجنّ وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه (٢)» .

(بيان جمل مفرّقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار)

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه «ألا هل مشمر للجنة إن الجنة لاخطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة فى حبرة ونعمة فى مقام أبدا ونضرة فى دار عالية بهية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يارسول الله قال قولوا إن شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه (٣)» «وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال هل فى الجنة خيل فانها تعجبنى ؟ قال إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك فى الجنة حيث شئت له وقال رجل : إن الابل تعجبنى فهل فى الجنة من إبل ؟ فقال ياعبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك (٤)» وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى يكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة (٥)» وقال رسول الله ﷺ «إذا استقر أهل الجنة فى الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما فى دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا فى مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا (٦)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا فى عرض سبعة أذرع (٧)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وأدنى أهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم

(١) حديث أنس إن الحور فى الجنة يتغنين فيقلن نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام الطبرانى فى الأوسط وفيه الحسن بن داود المنكدرى قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدى أرجو أنه لا بأس به (٢) حديث أبى أمامة مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه الطبرانى باسناد حسن (٣) حديث أسامة بن زيد ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لاخطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٤) حديث جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له هل فى الجنة خيل فانها تعجبنى الحديث الترمذى من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودى مختلف فيه ورواه ابن المبارك فى الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلا قال الترمذى وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المدينى عبد الرحمن بن سابط فى ذيله على ابن منده فى الصحابة ولا يصح له صحبة (٥) حديث أبى سعيد إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى ويكون حمله وفصاله ونشأته فى ساعة واحدة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم فى هذا فقال بعضهم فى الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولأحمد من حديث لأبى رزين يلذ ويلذ مثل لذاتكم فى الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لا توالد (٦) حديث إذا استقر أهل الجنة فى الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال لا نعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس (٧) حديث أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين الحديث الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله بيض جعاد ودون قوله على خلق آدم إلى آخره

للمعرفة ثم رد إلى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى ـ لكيلا يعلم بعد علم شيئا ـ . وقال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ماذكرناه أنه يبادى الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال وهذا يكون المنتهى

وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب (١)» وقال صلى الله عليه وسلم «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كخلف البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت وإذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن أنت ؟ فقالت لزيد بن حارثة وإذا في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢)» وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت ـ قد أفلح المؤمنون ـ فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا ، وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرءوس وإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وإن لهم فيها خيلا وإبلا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت لا يتمخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما إنه ليس ليل يكر الغدو على الرواح والرواح على الغدو وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد له في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوله وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب . وقال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرفعهم الذي ينظر إلى ربه بالغداة والعشي . وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة ، وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فيا عجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى .

(صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى)

قال الله تعالى ـ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ـ وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى وهي اللذة

المراد المأخوذ في طريق المحبوبين تجذب روحه إلى الحضرة الإلهية وتستتبع القلب والقلب يستتبع النفس والنفس تستتبع القالب فيكون بكليته قائما بالله ساجدا بين يدي الله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سجد لك سوادي وخيالي » وقال الله تعالى ـ ولله يسجد من في

ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كحل وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا (١) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعا من أوله إلى قوله وإن عليهم التيجان ومن هنا بإسناده أيضا وقال لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد (٢) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت الحديث رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هرون العبدي عن أبي سعيد وأبو هرون اسمه عمارة بن جوين ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يقول الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف مايعتقده أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون في رؤيته فان استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ ـ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ـ [1] » وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ـ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ـ قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد ياأهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ماهذا الوعد ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه [2] » وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لانسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء ، وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلاينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى .

السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ـ والظلال القوالب تسجد بسجود الأرواح وعند ذلك تسرى روح المحبة في جميع أجزائهم وأبعاضهم فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودا فيحبهم الله تعالى

(نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك)

قد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل [3] » وليس لنا من الأعمال مانرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله ﷺ في التفاؤل ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى ـ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ـ وقال تعالى ـ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ـ وقال تعالى ـ ومن يعمل سوءا أويظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ـ ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم أوطغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ونستغفره من أقوالنا التي لاتوافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أوكلام نظمناه أوعلم أفدناه أواستفدناه ، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أوكتبه أوسمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا

---

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم الحديث هو في الصحيحين كما ذكر المصنف (٢) حديث صهيب في قوله تعالى ـ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ـ رواه مسلم كما ذكره المصنف .

(باب في سعة الرحمة)

(٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث : ويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة ولهما من حديث أبي هريرة : وخيرها الفأل قالوا وماالفأل ؟ قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم .

فان

فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله ﷺ «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (١)» وروى أنه «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة (٢)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٣)» وقال النبي ﷺ «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٤)» وقال ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي (٥)» وقال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام (٦)» وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٧)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٨)» وقال جابر بن عبد الله

ويحببهم إلى خلقه نعمة منه عليهم وفضلا على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله قال أنا أبو طالب الزيني قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهني قال أنا عبد الله الفربري قال أنا أبو عبد الله البخاري

---

(١) حديث إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان (٢) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي لفظ البخاري وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي (٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار ولأبي داود أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة الحديث وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه علي بن زيد ابن جدعان (٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف الطبراني من حديث أنس بإسناد ضعيف (٥) حديث إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم الحديث أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب (٧) حديث إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار الحديث في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ ـ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ـ النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح (٨) حديث لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألصقته ببطنها فأرضعته .

من زادت حسناته على سيآته يوم القيامة فذلك الذى يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيآته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام ياموسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ويأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذى عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية ويقول الذى تلكأ حسن ظنى بك كان يشعرنى أن لاتردنى إليها بعد ماأخرجتنى منها فيأمر بهما إلى الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد أماما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى (١)» ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ - وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها - فقال الأعرابى والله ماأنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه وقال الصنابحى دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت فبكيت فقال مهلا لم تبكى؟ فوالله مامن حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلاحدثتكموه إلاحديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار (٢)» وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ «إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لايارب فيقول أفلك عذر فيقول لايارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لاظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لاتظلم قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شئ (٣)» وقال رسول الله ﷺ فى آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط إن الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم - إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما -

قال حدثنى إسحق قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله

---

(١) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد أما ماكان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى رويناه فى سباعيات أبى الأسعد القشيرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة (٢) حديث الصنابحى عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحى بلفظ آخر (٣) حديث عبد الله بن عمرو إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب .

قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا (١) » رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يارسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة (٢) » وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال «تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم وإني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا قال قلت يارب وتبلغ أمتي هذا ؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب (٣) » وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت يا جبريل

تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في

---

(١) حديث إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث في إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة: فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد (٢) حديث ابن عباس عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد الحديث إلى قوله سبقك بها عكاشة رواه البخاري (٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البيهقي في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فهلا استزدته فقال قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحثى عليه وفيه موسى بن عبيدة الربذي ضعيف .

وإن سرق وإن زنى قال نعم وإن سرق وإن زنى قلت وإن سرق وإن زنى قال وإن سرق وإن زنى قلت وإن سرق وإن زنى قال وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر [١] » وقال أبو الدرداء «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله فقال ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ فقلت وإن سرق وإن زنى فقال ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله قال وإن رغم أنف أبي الدرداء [٢]» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار [٣]» وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة أنه حدث عمر بن عبدالعزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي ﷺ قال «لايموت رجل مسلم إلاأدخل الله تعالى مكانه النار يهوديا أو نصرانيا فاستحلفه عمر بن عبدالعزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف له [٤]» وروى «أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر وقالت ابني ابني فبكى الناس وتركوا ماهم فيه فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال أعجبتم من رحمة هذه لابنها قالوا نعم قال صلى الله عليه وسلم فان الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها [٥]» فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة فهذه الأحاديث وماأوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى فنرجو من الله تعالى أن لايعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته .

الأرض» وبالله العون والعصمة والتوفيق ، ثم بحمد الله للعبد للبدي كتاب عوارف المعارف للإمام السهروردي والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) حديث أبي ذر عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك بأنه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة الحديث متفق عليه بلفظ أتاني جبريل فبشرني وفي رواية لهما أتاني آت من ربي (٢) حديث أبي الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ فقلت وإن زنى وإن سرق الحديث رواه أحمد باسناد صحيح (٣) حديث إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تقدم (٤) حديث أبي بردة أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لايموت رجل مسلم إلاأدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك (٥) حديث وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة الحديث وفيه الله أرحم بكم جميعا من هذه بابنها متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فاذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا لا والله وهي تقدر على أن لاتطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أرحم بعباده من هذه بولدها لفظ مسلم وقال البخاري فاذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذ وجدت صبيا الحديث .

والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهدء .

يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي إنني أكملت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٦١ وأكملت تبييض هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى .

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

فهـــرس

بقية عوارف المعارف للسهروردي الذي بالهامش

صفحة

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب [إحياء علوم الدين] لحجة الإسلام الإمام الغزالى ، ومعه كتاب [المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار] لحافظ الإسلام زين الدين العراقى .

وبهامشه ثلاثة كتب :

الأول : تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر العيدروس باعلوى .

الثانى : الإملاء عن إشكالات الإحياء تصنيف الإمام الغزالى .

الثالث : عوارف المعارف للإمام السهروردي .